منهاج العابدين

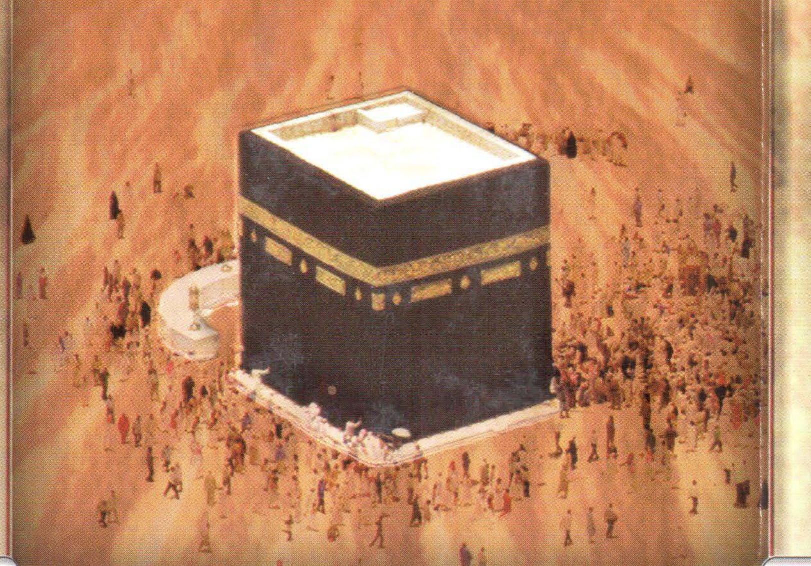
إلى جنة رب العالمين

تأليف

العالم العلامة حجة الإسلام وبركة الأنام

الإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي

رحمه الله تعالى



دار المنهاج

بسم الله الرحمن الرحيم

عُنِيَ بِهِ

بوجمعة عبد القادر مكري

منهاج العابدين

إلى جنة رب العالمين

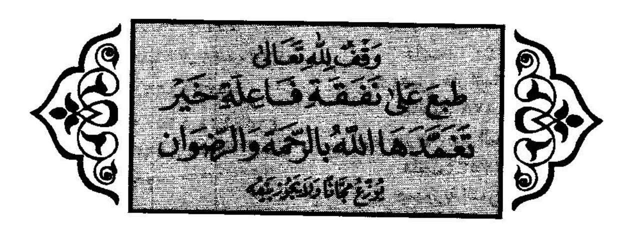
تأليف

العالم العلامة حجة الإسلام وبركة الأنام

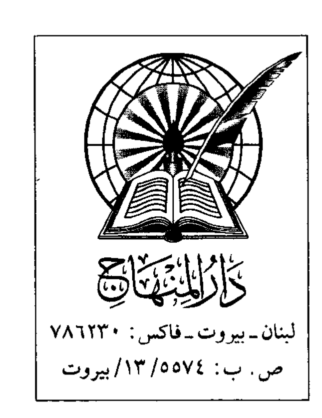
الإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي

رحمه الله تعالى

(٤٥٠ - ٥٠٥هـ)







لبنان ـ بيروت ـ فاكس: ٧٨٦٢٣٠
ص. ب: ٥٥٧٤/١٣/ بيروت

الطبعة الأولىٰ

١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م

دار المنهاج للنشر والتوزيع

لصاحبها عمر سالم باجخيف
وفقه الله تعالىٰ

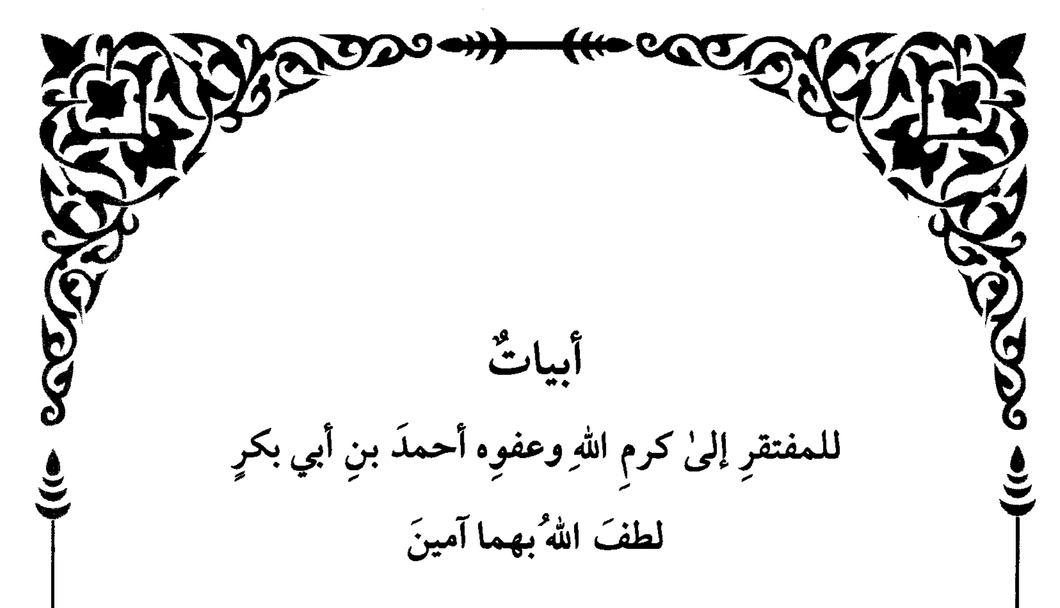
جدة ـ هاتف رئيسي ٦٣٢٦٦٦٦ ـ فاكس ٦٣٢٠٣٩٢

الإدارة ٦٣١١٧١٠ ـ المكتبة ٦٣٢٢٤٧١

الموزعون المعتمدون

- السعودية: دار المنهاج للنشر والتوزيع ـ جدة
  هاتف: ٦٣١١٧١٠ ـ فاكس: ٦٣٢٠٣٩٢
  مكتبة دار كنوز المعرفة ـ جدة
  هاتف: ٦٥١٠٤٢١ ـ فاكس: ٦٥١٦٥٩٣
  مكتبة الشنقيطي ـ جدة ـ هاتف: ٦٨٩٣٦٣٨
  مكتبة المأمون ـ جدة ـ هاتف: ٦٤٤٦٦١٤
  مكتبة الأسدي ـ مكة المكرمة ـ هاتف: ٥٥٧٠٥٠٦
  مكتبة نزار الباز ـ مكة المكرمة ـ هاتف: ٥٧٤٩٠٢٢
  مكتبة المصيف ـ الطائف ـ هاتف: ٧٣٦٨٨٤٠ ـ ٧٣٣٠٢٤٨
  مكتبة الزمان ـ المدينة المنورة ـ هاتف: ٨٣٦٦٦٦٦
  مكتبة العبيكان ـ الرياض ـ هاتف: ٤٦٥٠٠٧١ ـ ٤٦٥٤٤٢٤
  مكتبة الرشد ـ الرياض ـ هاتف: ٤٥٩٣٤٥١
  مكتبة جرير ـ الرياض ـ هاتف ٤٦٢٦٠٠٠
  وجميع فروعها داخل المملكة وخارجها
  دار التدمرية ـ الرياض ـ هاتف: ٤٩٢٤٧٠٦
  دار أطلس ـ الرياض ـ هاتف: ٤٢٦٦١٠٤
  مكتبة المتنبي ـ الدمام ـ هاتف: ٨٤١٣٠٠٠
- الإمارات العربية المتحدة: مكتبة دبي للتوزيع ـ دبي
  هاتف: ٢٢١١٩٤٩ ـ ٢٢٢٤٠٠٥ ـ فاكس: ٢٢٢٥١٣٧
  دار الفقيه ـ أبو ظبي ـ هاتف ٦٦٧٨٩٢٠ ـ فاكس ٦٦٧٨٩٢١
  مكتبة الجامعة ـ أبو ظبي ـ هاتف: ٦٢٧٢٧٩٥ ـ ٦٢٧٢٧٢٦
- الكويت: دار البيان ـ الكويت
  هاتف: ٢٦١٦٤٩٠ ـ فاكس: ٢٦١٦٤٩٠
  دار الضياء للنشر والتوزيع ـ الكويت ـ تلفاكس ٢٦٥٨١٨٠
- قطر: مكتبة الأقصى ـ الدوحة
  هاتف: ٤٤٣٧٤٠ ـ ٤٣١٦٨٩٥
- مصر: دار السلام ـ القاهرة
  هاتف: ٢٧٤١٥٧٨ ـ فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
- سوريا: دار السنابل ـ دمشق
  هاتف: ٢٢٤٢٧٥٣ ـ فاكس: ٢٢٣٧٩٦٠
- جمهورية اليمن: مكتبة تريم الحديثة ـ تريم (اليمن)
  هاتف: ٤١٧١٣٠ ـ فاكس: ٤١٨١٣٠
  مكتبة الإرشاد ـ صنعاء ـ هاتف: ٢٧١٦٧٧
- لبنان: الدار العربية للعلوم ـ بيروت
  هاتف: ٧٨٥١٠٨ ـ ٧٨٥١٠٧ ـ فاكس: ٧٨٦٢٣٠

www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com



أبياتٌ

للمفتقرِ إلىٰ كرمِ اللهِ وعفوِه أحمدَ بنِ أبي بكرٍ

لطفَ اللهُ بهما آمينَ

الحمدُ للهِ وحدَه ، وصلواتُ اللهِ وسلامُه علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ وآلِه : [من الطويل]

أَيَا حُجَّةَ ٱلإِسْلاَمِ أَوْضَحْتَ دِينَنَا ... وَعَرَّفْتَنَا عِلْماً يَدِقُّ عَنِ ٱلْفَهْمِ

وَبَيَّنْتَ إِشْكَالاً لِمُلْتَمِسِ ٱلْهُدَىٰ ... وَأَشْفَيْتَ بِـ«ٱلْمِنْهَاجِ» سُقْماً عَلَىٰ سُقْمِ

وَمَهَّدْتَ بِـ«ٱلإِحْيَاءِ» مَا عَزَّ نَقْلُهُ ... وَخُضْتَ بِحَاراً زَاخِرَاتٍ مِنَ ٱلْعِلْمِ

وَأَيَّدْتَ دِينَ ٱللهِ شَرْقاً وَمَغْرِباً ... وَأَفْحَمْتَ أَهْلَ ٱلزَّيْغِ فِي ٱلْعُرْبِ وَٱلْعُجْمِ

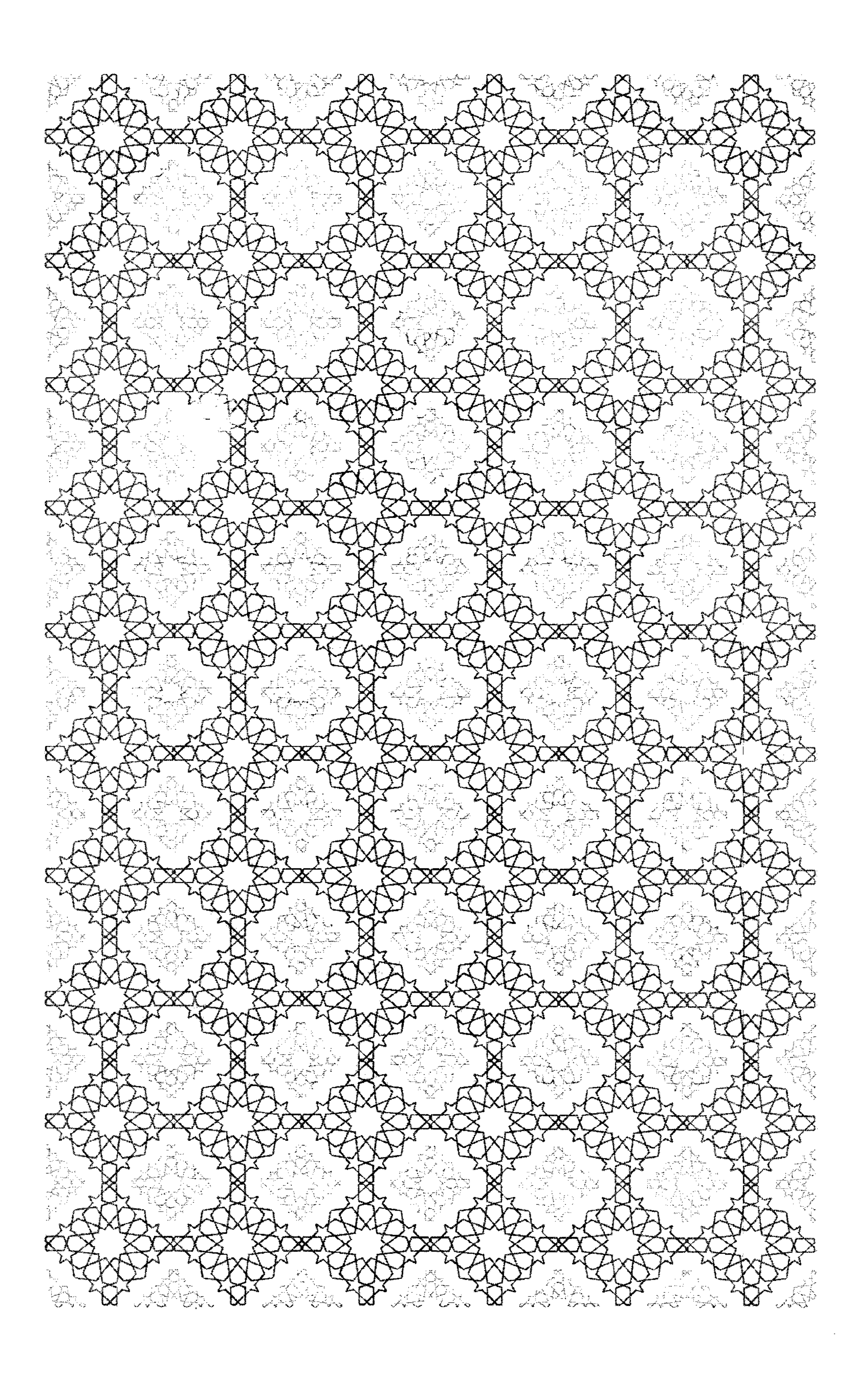
سَبَكْتَ فُنُونَ ٱلْعِلْمِ فَٱنْقَادَ صَعْبُهَا ... لِطَالِبِهَا فِي ٱلْحَصْرِ وَٱلسِّرِّ وَٱلْحُكْمِ

وَلاَ سِيَّمَا مَا فِي أُصُولٍ وَبَاطِنٍ ... تَرَقَّىٰ إِلَىٰ أَعْلَىٰ مَقَامٍ مِنَ ٱلنَّجْمِ

وَفِي حِلْيَةِ ٱلأَقْطَابِ أَجْرَيْتَ هَيْكَلاً ... فَتُفْصِحُ بِٱلأَسْرَارِ فِي ٱلنَّثْرِ وَٱلنَّظْمِ

جَزَاكَ إِلَـٰهُ ٱلْخَلْقِ مَا هُوَ أَهْلُهُ ... مُرَافِقَ خَيْرِ ٱلرُّسْلِ بِٱلسَّبْقِ وَٱلْخَتْمِ

وَبَعْدُ صَلاَةُ ٱللهِ تَتْرَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ... وَسَلَّمَ تَسْلِيماً يَدُومُ بِلاَ حَذْمِ



بين يدي الكتاب

حمدًا لمن أسبغ نعمه الظاهرة والباطنة علىٰ من شاء من أوليائه ، وألهم أولي التقىٰ معارف تتوارد علىٰ خواطرهم تحقيقًا لما جاء في كتابه ؛ فأطلعهم علىٰ سر معالجة النفوس ، وصفَّىٰ سرائرهم ، ونور بصائرهم ، وثبتهم على الصراط السوي ، فنهلوا من المنهل الروي ، فله سبحانه الثناء الحسن الذي لا منتهىٰ لآخره .

وصلاة وسلاماً على المبعوث بالهدىٰ ودين الحق ، صاحب المقام المحمود ، والحوض المورود ، النبي الأواه ، الرحمة المهداة ، خليل الرحمـٰن ومصطفاه ، فصلوات الله وسلامه عليه ما تعاقب الجديدان ، أو همى المزن على الوديان ، وعلىٰ آله الطهر الميامين ، وصحابته الأمجاد أجمعين والتابعين .

(أ)

أما بعد :

فإن الإمام الغزالي علَم من أعلام الزاهدين ، وأحد الأقطاب العاملين ، فهو حجة الإسلام بلا ريب ، وإمام الأئمة بلا منازع ، الخبير بأدواء القلوب وعللها ، البصير بنزعات النفوس وجموحها ، مربي السالكين ، ومرشد الحيارَىٰ والمستفتين ، سأل الله تعالىٰ أن يطلعه علىٰ سر معالجة النفس فأجابه ، وعلىٰ ما كتب فيه نصحاً للأمة أثابه ، وهـٰذا الإمام إنما كتب ما كتب في هـٰذا الميدان بعد أن تقلّب في الأحوال ، ونظر فيها بعين البصيرة نظرة فحول الرجال ، ووزن تلك الأطوار بميزان الشرع ، وميز بين الأصل والفرع ، وأحاط علماً بالنوازع النفسية ، والميولات البشرية ، والمكدرات لصفاء الروح ، وحذَر من الأعداء

الحقيقيين للمسلم السالك ؛ فلذلك اتسمت مؤلفاته بالأصالة والعمق ، والإصابة والرشد ؛ لأنه ينزع من منهل المصدَرين النيرين ؛ كتاب الله تعالى الفرقان ، وسنة المأمور بالبيان ، صلى الله عليه وسلم .

ولم تر عبقرياً يفري فريه ويوشح ذلك بمأثورات السلف الأبرار ، وما هداه إليه فهمه وتجاربه التي لم يضن بها علىٰ أهل الإيمان ، تسدده فيوضات إلهية تتوارد علىٰ فكره ، فتمجها يراعته على القرطاس ، ويلجم بها الوسواس الخناس من الجنة والناس ، وتوفيق يهديه إلى الرشد ، ومعونة إلهية تجعل الحزن سهلاً .

إذا كان عون الله للعبد مسعفاً ... تهيَّا له في كل شيء مراده
وإن لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجني عليه اجتهاده

(ب)

ومن بركات هٰذا الإمام المشهورة ، ومناقبه المحسوسة المشهودة : أن القارىء في أحد مؤلفاته بوعي وتفهم يجد تلقائياً تأثير ما يقرؤه عليه قبل إتمام البحث ، ويتهيأ في التوِّ للسلوك الأقوم ، واقتفاء أثر القوم ، وتتحرك نفسه المطمئنة إلى التروي من المنهل العذب ، وينتظم في سلك الأبرار الموفقين ما لم تصرفه جمحات الشهوات العاتية ، أو تتلوث مرآة الفطرة بعوارض دنيا ، وهٰذا ما فقهناه عن سلفنا الميامين ، وفهمناه من إشارات المرشدين ، ولمسناه من قراءتنا لكتب هٰذا الإمام ، ولعلَّ هٰذه النفحة العلوية هي التي توجت مؤلفات حجة الإسلام ببرد القبول ، وكان فيها بلوغ المأمول ، هٰذا مع ما احتفت بمؤلفاته من رؤىٰ منامية ، ومبشرات سماوية ، وتحلية من علماء الأمة لشخصه ونتاجه وسلوكه ومجاهدته ، وهم الذين حملوا هٰذا العلم ، وارتفعت رايات عدالتهم وإتقانهم ، و« من شهد له خزيمة . . فحسبه » .

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلىٰ دليل

ولا أود التخطي في هٰذه الأحرف إلىٰ تبيان ما أفاض الله علىٰ حجة الإسلام

من النعم الجسام في شتى الفنون ، وما هيأه له من مقارعة الفلاسفة والملحدين ، ودحض شبه المبطلين ، وتحرير المذهب الشافعي بما أتحف المذهب به من مؤلفات قيمة ، كانت موضع تقدير وإجلال حتىٰ قال قائلهم :

حــــرر المـــذهـــبَ حبـــرٌ أحســـن الله خَـــلاصـــه
ببسيـــــط ووسيــــــط ووجيـــز وخُـــلاصـــه

فمن أراد أن يشنف سمعه بمناقبه . . فعليه أن يقرأ مقدمة « إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين » ؛ فقد ساق فيها السيد محمد مرتضى الزبيدي ما يبهج الأنفس ويثلج الصدور ، ويكشف اللثام عن مكانة هٰذا الإمام .

(جـ)

وبين يديّ الآن هٰذا الكتاب المبارك ، وهو آخر سفر صنفه ، ونهاية عقد نظمه هٰذا الإمام ، حين التمس منه خواص أصحابه أن يضع لهم منهاجاً للعابدين ، وسراجاً وهاجاً للسالكين ، يبين فيه طرق تذليل العقبات للنهوض بأعباء العبادات ، ويرشدهم إلىٰ مواقع الآفات ، ويهديهم إلىٰ كيفية اجتناب العوائق والموانع ، والبعد عن المهالك والمقاطع ، وبيان ما ينبغي للسائر في هٰذا المهيع أن يُعِدَّه من الأهبة والعدة ، وسلوك المنهج الأسمى ، لبلوغ المنزل الأسنى ، وقد أجابهم الإمام إلىٰ ما التمسوا ، وحقق لهم ما طلبوا ؛ لأن هٰذا الفن لا يحسنه إلا أمثاله ، وفوق كل ذي علم عليم .

وقد قال رضي الله عنه في مقدمة هٰذا « المنهاج » ما نصه : (فابتهلت إلىٰ من بيده الخلق والأمر أن يوفقني لتصنيف كتاب يقع عليه الإجماع ، ويحصل بقراءته الانتفاع ، فأجابني إلىٰ ذلك الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، وأطلعني بفضله علىٰ أسرار ذلك ، وألهمني فيه ترتيباً عجيباً لم أذكره في المصنفات التي تقدمت في أسرار معاملات الدين) اهـ[١]

---

(١) انظر (ص٣٧) .

ثم فصَّل رضي الله عنه المقصود من تأليف هـٰذا الكتاب في موضع آخر فقال : (ومقصود هـٰذا الكتاب : أني سألت الله تعالىٰ أن يطلعني علىٰ سر معالجة النفس ، وأن يصلحني ويصلح بي ، فاقتصرت في هـٰذا الكتاب علىٰ نكت وجيزة اللفظ ، غزيرة المعنى ، تقنع من تأملها ، وتدعه علىٰ واضحة من الطريق إن شاء الله تعالىٰ) اهـ[1]

وكأنما كان المحب البرعي ينزع من هـٰذا المنهل في قوله من مطلع قصيدة :

متىٰ يستقيم الظلُّ والعود أعوجُ ... وهل ذهبٌ صرف يساويه بَهْرَجُ
ومن رام إخراج الزكاة ولم يجد ... نصاباً يزكيه فمن أين يخرج
هي النفس والدنيا وإبليس والهوى ... بطاعتهم عن طاعة الله أُزْعَج

(د)

وخلاصة الأمر : أن هـٰذا كتاب قيم في موضوعه ، نفيس في بابه ، بطين بمعاني التوجيه والسلوك ، خاوٍ من القشور ، تميز بسمو المقصد ، وأهمية الهدف ، والبيان الشافي ، وفي هـٰذا الكتاب الذي يعدُّ آخر مؤلفات الإمام من الفوائد والمهمات ما لا يوجد في مؤلفاته الأخرى ، فلهـٰذا كان جديراً بالعناية ثم النشر ؛ ليعم نفعه ، وينتفع به الخاص والعام ، ولذا اضطلعت دار المنهاج الفتية بالقيام بنشر « منهاج العابدين » ، وإبرازه في حلل التحقيق ، فسعينا إلى الحصول علىٰ مخطوطات هـٰذا الكتاب ، فعثرنا علىٰ عدة نسخ ؛ منها ما يعد أصلاً في قوانين التحقيق ، ومنها ما يصلح الاعتماد عليه ؛ للاستظهار به عند تداخل النصوص ، أو حصول الإبهام ، ثم جاءت المرحلة التالية مرحلة التحقيق ، فكان عمل اللجنة وفقها الله تعالىٰ متمثلاً في النقاط التالية :

أ ـ مقابلة النسخ بعضها ببعض ، مما تمخض عنه نسخ الكتاب على النحو الذي أراده المصنف ، إضافة إلىٰ تبيان الفوارق المهمة في الحاشية عند وجود المقتضيات لإثباتها ، هـٰذا بالاضافة إلى الرجوع إلى الأصول لتأكيد التحقيق .

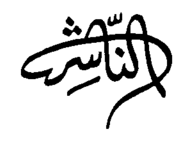
---

(١) انظر (ص١٤١) .

ب ـ تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها الحديثية المتنوعة ، وهي في الوقت نفسه تحقيق للنص ، وربما اقتضى المقام أن نورد بقية الحديث أو الأثر تتميماً للفائدة ، أو تنبيهاً إلىٰ مهمة ، وربما أشار المصنف إلى الحديث أو الأثر مجرد إشارة ، فتقوم اللجنة بذكر النص كاملاً ؛ لدفع الإبهام عن القارىء العادي .

ج ـ كذلك يوجد في بعض المواطن إشكال في النص بحاجة إلىٰ حل ، أو إبهام في العبارة بحاجة إلىٰ إيضاح ، فقامت اللجنة مشكورة بالتعليق المفيد حلاً للإشكال ، أو دفعاً للإبهام ، أو إضافة لمعنىٰ جديد وفائدة من المهمات .

وها هو كتاب « منهاج العابدين » يتبدّىٰ في أجمل مظهر ، وأحسن الحلل ، بريئاً من التصحيفات والعلل ، والله سبحانه يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه ، ومن أراد النجاح في الدارين . . فليطر إليه بجناحي العلم والعمل .



ترجمة الإمام
حجة الإسلام الغزالي

بقلم
السيد حسين بن محمد بن هادي السقاف

اسمه

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي ، يكنىٰ بأبي حامد ، ويلقب بحجة الإسلام .

ميلاده ونشأته

ولد الإمام الغزالي سنة (٤٥٠هـ) في مدينة طوس من بلاد خراسان ، وهي يومها تزخر بالعلم والعلماء والصلحاء .

فنشأ في ذلك المحيط العلمي الصالح نشأةً صالحةً ، وكانت أسرته أسرةً محافظةً متمسكةً بتعاليم الدين الحنيف ، فقد كان أبوه رجلاً صالحاً محبّاً للعلم والعلماء ، ولا يأكل إلا من عمل يده ، يعمل في صناعة غزل الصوف ، ويمون نفسه وأسرته ، ملازماً لمجالس العلماء ودروس الفقه والوعظ ، وكان إذا حضر دروس الفقه . . سأل الله تعالىٰ أن يرزقه ابناً فقيهاً ، وإذا حضر دروس الوعظ . . سأل الله تعالىٰ أن يرزقه ابناً واعظاً ، فاستجاب الله دعاءه ، فكان ابنه محمد أفقه أهل زمانه ، وفارس ميدانه ، وكان ابنه الآخر أحمد واعظاً بليغاً مؤثراً ، اهتدىٰ بوعظه الجم الغفير .

وقد قضىٰ والدهما نحبه وهما صغيران ، ولما حضرته الوفاة . . أوصىٰ بهما صديقاً له من أهل الخير والصلاح ، وقال له : (أريد استدراك ما فاتني من التعلم في ولديَّ هٰذين ، فعلِّمْهما ولا عليك أن تنفق في سبيل ذلك جميع ما أخلفه

لهما) ، وقد وفىٰ ذلك الوصي الصالح بالوصية؛ فقام بتعليمهما إلىٰ أن فني المال الذي تركه لهما والدهما ، فقال لهما : اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما من والدكما ، وأنا رجل فقير متجرد لا مال لي فأواسيكما به ، وأصلَحُ ما أرىٰ لكما أن تلتحقا بمدرسة ؛ فإنكما من طلبة العلم ، فتحصلا علىٰ مؤنتكما منها ، فأدخلهما المدرسة ، واندرجا في سلك طلبة العلم بتلك المدرسة ، فكان ذلك هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما .

وكان الإمام الغزالي يحكي ذلك ويقول : (طلبنا العلم لغير الله . . فأبى العلم إلا أن يكون لله) .

وكان نظام المدارس آنذاك يقضي بأن يكفل للطالب حاجته من المأكل والملبس والمسكن تشجيعاً للعلم وأهله .

طلبه للعلم

كانت بداية تعلمه علىٰ يد صديق والده الذي أوصاه به وبأخيه أن يعلمهما ، ثم التحق بالمدرسة مع أخيه أحمد ، فأخذ فيها بنصيب طيب من التعليم الأَوَّلي في بلده طوس على الشيخ أحمد بن محمد الرازكاني ، ثم ارتحل إلىٰ مدينة جرجان إلى الإمام أبي نصر الإسماعيلي لمواصلة الطلب والاستزادة من العلم والمعرفة .

وكان يدون ما يتلقاه من فوائد ونفائس في كراريس تسمىٰ (التعليقة) ، شأنه في ذلك شأن الطالب الحريص الذي يدون العلم ويقيده .

وقد حكىٰ صاحب الترجمة : أنه أثناء عودته من جرجان إلىٰ طوس أخذ اللصوص جميع ما معه ، وانتزعوا منه المخلاة التي فيها (التعليقة) والمذكرات ، قال : فتبعتهم ، وقلت : أسألكم أن تردوا علي تعليقتي فقط ؛ فما هي شيء تنتفعون به ، فقالوا : وما هي تعليقتك؟ فقلت : كتب وأوراق في تلك المخلاة ، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فقالوا : كيف تدعي معرفتها وقد غاب عنك علمها لما أخذناها منك؟! ثم سلموها لي ، قال : فعددت ذلك موعظةً لي ، فلما وصلت إلىٰ بلدي طوس . . أقبلت علىٰ حفظ جميع

ما دونته وعلقته ، وصرت بحيث لو أخذ القطاع تعليقتي . . لم أتجرد من علمي .

فهٰكذا كانت همة الإمام الغزالي منذ نشأته ، وأثناء طلبه للعلم ، وفي جميع مراحل حياته .

سفره إلىٰ نيسابور وأخذه عن إمام الحرمين

ثم ارتحل مرةً أخرىٰ في صحبة جماعة من طلبة العلم قاصدين مدينة نيسابور ، كبرىٰ مدن خراسان وأعظمها غزارةً وعمارةً بالعلم والعلماء والثقافات الواسعة ، وهناك بنيسابور لازم إمام الحرمين ، وأخذ عنه ، وحفظ القرآن ، وجد واجتهد في طلب العلم والمعارف حتىٰ برع في الفقه وغيره ، وتوسع في ذلك حتىٰ برع في المذهب والخلاف والجدل ، والأصلين والمنطق ، والحكمة والفلسفة ، وأحكمَ كلَّ ذلك .

وكان عمره آنذاك ناهز الثامنة والعشرين ، وقد أحاط بكلام أرباب تلك العلوم ، وتصدىٰ للرد علىٰ مبطليهم ، وإبطال دعاويهم .

تفوقه وبراعته

ولما رأىٰ شيخه إمام الحرمين ما أبداه الغزالي من التفوق الذي بَذَّ به أقرانه . . اختاره ليكون مساعداً له ، يلقي الدروس علىٰ زملائه ، ويعلمهم في غيبة أستاذه وفي حضوره أيضاً ، وقد وصفه بقوله : (الغزالي بحر مغدق) .

ولكنه لم يصل إلىٰ تلك الدرجة العالية بالهوينا ، بل بعظيم الجد والاجتهاد ، وتهذيب النفس ورياضتها .

وها هو يقول عن نفسه في كتابه «المنقذ من الضلال» : (وقد كان التعطش إلىٰ درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري غريزةً وفطرةً من الله وُضِعتْ في جِبِلَّتي لا باختياري وحيلتي .

وبعد وفاة أستاذه وشيخه الأكبر إمام الحرمين . . ذهب قاصداً الوزير نظام الملك السلجوقي ، فقد كان مجلسه بالمعسكر بنيسابور مجمعَ أهل العلم ومقصدَهم ، وملاذَهم ومحطَّ رحالهم ، فناظر الغزالي كبار العلماء في مجلس

نظام الملك ، وغلب الخصوم وظهر كلامه عليهم ، واعترفوا بفضله وتلقاه نظام الملك بالقبول والإجلال والتعظيم كما هو معروف عنه من تعظيم العلم والعلماء ، وولاه التدريس والإدارة بمدرسته النظامية التي أنشأها في بغداد عاصمة الخلافة ، وطلب منه التوجه إلىٰ بغداد ليباشر مهام منصبه هناك .

قيامه بالتدريس والتعليم في المدرسة النظامية في بغداد

تلبيةً لطلب الوزير نظام الملك قدم الإمام الغزالي إلىٰ مدينة بغداد في شهر جمادى الأولىٰ سنة (٤٨٤هـ) ، وباشر مهام عمله ، وقام بالتدريس في تلك المدرسة العظيمة ، وأعجب الناسَ غزارةُ علمه ، وجميلُ أسلوبه ، وكمالُ فضله ، وفصاحةُ لسانه ، وبلاغةُ منطقه ، وأقبلوا على الأخذ عنه والتعلم منه ، وانتفعوا بعلومه ، وحسن أدائه ، وبديع أسلوبه ، وصار بعد إمامة خراسان إمام العراق ، وكان له في قلوب الناس المكانة العالية ، والمنزلة الرفيعة؛ فأحبوه وأجلُّوه ، وكان مسموع الكلمة ، ذائع الصيت ، تضرب به الأمثال ، فقد نشر العلوم وقام بالفتيا والتصنيف مدةً طويلةً ، وانتشرت تصانيفه المفيدة ، وعمَّ بها النفع ، واشتهر بمناظراته القوية ، وما يقوم به من دحض لآراء الفلاسفة والمعتزلة والرافضة والباطنية وغيرهم من الفرق الضالة ، فأصبح ـ بحقٍّ ـ المشارَ إليه بالبنان ، والشخصيةَ العالميةَ الفذَّةَ ، لا في عاصمة الخلافة بغداد والمناطق التابعة لها فحسب ، بل تجاوزها صيته إلىٰ أبعد من ذلك ، فقد كان يستفتيه يوسف بن تاشفين صاحب مراكش بالمغرب ، ويطلب حضوره إلىٰ مراكش لحضور المراسيم فيحضر .

وقد بلغ الإمام الغزالي إلى القمة في المكانة والشهرة العالمية والجاه العريض ؛ ينشر العلوم ، ويقوم بالتدريس في المدرسة النظامية ، كما يقوم بالفتيا لكل الاستفتاءات التي ترِدُ إليه من شتى البلاد والأصقاع .

ويؤلف المؤلفات القيمة العظيمة ، ويناظر الفرق الضالة ، ويدحض حججهم ، ويفند مزاعمهم ويهزمهم ، ويدافع عن الإسلام ، ويقارع بالحجج الدامغة أعداءه حتىٰ عام (٤٨٨هـ) .

التحول المفاجىء من الشهرة إلى العزلة

بينما كان الإمام الغزالي في أوج الشهرة والمظهر العظيم وذيوع الصيت. . إذا بالحال يتحول فجأةً ؛ ففي منتصف عام (٤٨٨هـ) حصل ذلك التحول المفاجىء في حياة الإمام الغزالي ، وانقلب الأمر إلىٰ حال آخر ، فقد اختار الإمام الغزالي العزلة ، وترك التدريس في المدرسة النظامية ، وسلك طريق الزهد والانقطاع عن مخالطة الناس ، فكان يبدو عليه أنه مريض عليل بعلة مجهولة قد اعتقل منطقه ، وضعفت شاهيته؛ فلا يستطيع الأكل ، ويئس أطباؤه من شفائه .

وفي أواخر سنة (٤٨٨هـ) خرج من بغداد مظهراً العزم على السفر إلىٰ مكة المكرمة للحج وهو يُسِرُّ في نفسه السفر إلى الشام .

وها هو الإمام الغزالي يتحدث عن نفسه ويقول : (فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر ، أولها رجب سنة «٤٨٨هـ» ، وفي هـٰذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ؛ إذ قفل الله علىٰ لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب الناس الذين يترددون إلي ، فلا ينطق لساني بكلمة واحدة ، ولا أستطيعها ألبتة ، حتىٰ أورثت عقلة اللسان هـٰذه حزناً في القلب ، وقطع الأطباء طمعهم في علاجي ، ثم لما أحسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري. . التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل علىٰ قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب ، وأظهرت العزم على الخروج إلىٰ مكة وأنا أدبر في نفسي السفر إلى الشام ، حذراً من أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب علىٰ عزمي على المقام بالشام ، فتلطفت في الخروج من بغداد علىٰ عزم ألا أعود إليها ، ففارقت بغداد ، وفرقت ما كان معي من المال ، ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال) .

وقد استناب أخاه أحمد في التدريس بنظامية بغداد ، ودخل دمشق في بداية سنة (٤٨٩هـ) ، فلبث فيها مدةً في مسجد دمشق معتكفاً في منارته الغربية ،

مغلقاً بابها علىٰ نفسه ، وفي نفس السنة المذكورة (٤٨٩هـ) ذهب للحج والعمرة وزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم عاد إلىٰ دمشق ، واعتكف بالمنارة الغربية من الجامع الأموي ، واتخذها محلاً لإقامته وعبادته وتأليفه ، واختار أن يعيش عيش التقشف ، ويحيا حياة الزهد والورع ، يلبس الثياب الخشنة ، ويقلل مطعمه ومشربه ، ويروض نفسه ويحملها على المجاهدات في العبادات والأعمال الصالحات إلىٰ أن لان له صعبها ، وفي تلك الأيام بدأ في تأليف كتابه العظيم «إحياء علوم الدين» ، الذي قال فيه الإمام الحداد رحمه الله : [من الكامل]

وبوضعه الإحياءَ فاق فيا له ... من جامعٍ وكمثله لم يوضعِ

وكان يكثر الجلوس في زاوية الشيخ نصر المقدسي بالجامع الأموي ، وأخذ يصنف المصنفات القيمة النافعة التي أعظمها «الإحياء» ، ومنها «المنقذ من الضلال» ، وغير ذلك من الكتب المختصرة ، مثل «كتاب الأربعين» وغيرها من الرسائل .

وبقي علىٰ هـٰذه الحالة مقدار عشر سنين ، كما ذكر ذلك في كتابه «المنقذ من الضلال» ، وقد قضىٰ تلك المدة في دمشق ، وكانت عزلة الإمام الغزالي مفاجأةً كبرىٰ لعلماء عصره الذين شاهدوا وعرفوا منزلته العظيمة ، حيث بلغ القمة في المكانة والشهرة والجاه والزعامة ، فصاروا يؤوِّلون السبب ، ويقولون : إنه شيء سماوي ، وليس له سبب إلا عين أصابت المسلمين فيه .

ويبين الإمام الغزالي ذلك في كتابه «المنقذ من الضلال» فيقول : (تفكرت في نيتي في التدريس ؛ فإذا هي غير خالصة لوجه الله ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه ، وانتشار الصيت ، فتيقنت أني علىٰ شفا جرف هار ، فلم أزل أتفكر ؛ أصمم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأؤجل العزم يوماً ، أقدم رجلاً ، وأؤخر أخرى ، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرةً إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملةً فيفرقها عشيةً ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام ، ومنادي الإيمان ينادي : الرحيلَ الرحيلَ ، فلم يبق من

العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر ، أولها رجب سنة «٤٨٨هـ») .

وهٰكذا جرب الإمام الغزالي قبل عزلته الدنيا بما فيها من زينة الحياة وبهرجها ، والمال والجاه والمناصب العليا والتباهي والتفاخر ، فأدرك حقيقتها وآلامها ومشاكلها وشهواتها ، حلوها ومرها ، وتبين له أن كل ذلك لا يسعد الإنسان ، ولا يوفر له الاطمئنان والاستقرار إلى الله ومعرفته على الوجه الصحيح ، ولذلك قطع كل علائق الدنيا عن القلب ؛ ليستطيع تقبل الأنوار الإلهية ، فقرر الانعزال والانزواء ، وترك الدنيا بما فيها وراء ظهره ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالىٰ إيثاراً للباقي على الفاني ، واختار ما هو الأفضل ، وهو العيش في رحاب الله ، لا يشغله عنه شيء لا مال ولا جاه .

عودة الإمام الغزالي إلىٰ بلده طوس مارّاً ببغداد

بقي الإمام الغزالي علىٰ تلك الحالة من العزلة ومجاهدة النفس ، وتكليفها المشاق في سبيل العبادة والأعمال الصالحة ، وتأليف الكتب النافعة ، متخذاً من دمشق مقرّاً له حتىٰ أواخر سنة (٤٩٩هـ) ، وفي أواخر هٰذه السنة توجه عائداً إلىٰ موطنه خراسان ، فمر أولاً بمدينة بغداد ، ولم يقم بها كثيراً ، وإنما مكث فترةً وجيزةً ، وعقد بها مجلساً للوعظ ، وحدث بكتابه «الإحياء» ، ثم غادر بغداد عائداً إلىٰ وطنه ومسقط رأسه مدينة طوس ، وبها حط الرحال وألقىٰ عصا التَّسيار ملازماً منزله ، مشتغلاً كعادته بالعبادة والتأليف ، محافظاً على الوقت إلىٰ أن كلفه فخر الملك بالتدريس في نظامية نيسابور ، وذلك في شهر ذي القعدة سنة (٤٩٩هـ) ، فتكون المدة منذ مغادرته نظامية بغداد إلىٰ معاودته التدريس بنظامية نيسابور إحدىٰ عشرة سنةً .

معاودته للتدريس في نظامية نيسابور

بعد التجارب التي مر بها الإمام الغزالي من جاه الدنيا وزينتها إلى العزلة والتقشف ، ورياضة النفس ومجاهدتها ، حتىٰ بلغ المرتبة التي اطمأن إليها من

الصفاء والسعادة ، ومعرفة مكائد الشيطان وعيوب النفس؛ حيث حققت العزلة أهدافها . . قرر العودة إلى الوطن والقيام بتعليم الناس وإفادة العلم ، ولا سيما وقد شعر بحاجة الناس الماسة إلىٰ ذلك ، فقد جاءه الوزير فخر الملك ابن نظام الملك ، وألح عليه غاية الإلحاح أن يقبل تعيينه له للقيام بالتدريس في نظامية نيسابور إلىٰ أن استجاب ، فانتقل إلىٰ نيسابور في شهر ذي القعدة سنة (٤٩٩هـ) ، وهناك قام بالتدريس في المدرسة النظامية .

وها هو يروي قصة عودته إلى التدريس في كتابه «المنقذ من الضلال» فيقول : (اتفق في شهور سنة «٤٩٩هـ» أن كُلِّفتُ ـ بعد أن انعزلت ولازمت الزاوية اثنتي عشرة سنةً ـ بالذهاب إلىٰ نيسابور للتعليم ونشر الشريعة ؛ لِمَا حصل من الركود والفتور في مجال العلم ونشره ، وقام بتأييد ذلك الأعزاء المخلصون ، وألحوا علي في ذلك ، وحصلت لي الإشارة الربانية في اليقظة والمنام بأن ذلك بداية خير وسبب لإحياء العلم والشريعة) .

وأدرك الغزالي بُعدَ كثير من الناس عن الدين ، وأن الحاجة ماسة إلىٰ عودته إلى القيام بالتعليم ، فقرر العودة .

ويقول أيضاً : (فلما رأيت أصنافاً من الخلق بلغ بهم الضعف في الإيمان إلىٰ هـٰذا الحد . . انقدح في نفسي أن ذلك متعين علي في هـٰذا الوقت ومحتم ، وقلت في نفسي : ماذا تغنيك الخلوة والعزلة وقد عم الداء ، ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك ؟!) .

العودة إلىٰ طوس

وقد استمر الغزالي على التدريس في نظامية نيسابور قرابة سنةٍ ـ وهي سنة (٥٠٠هـ) ـ ثم ترك التدريس بنيسابور وعاد إلىٰ بلده طوس ، وألقىٰ بها عصا التَّسيار ، واتخذ بجوار منزله مدرسةً لطلبة العلم ، وأقبل الناس على الأخذ عنه كما كانوا من قبل ، ووزع أوقاته على الحاضرين عنده من تدريس في شتى الفنون العلمية ، إلىٰ تلاوة للقرآن ، إلىٰ غير ذلك من الأعمال الجليلة ، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ـ هو ومن حوله ـ عن التحصيل والفائدة والازدياد من العلم والمعرفة .

ومع ما كان الإمام الغزالي يقوم به من نشر العلم . . كان أيضاً يقوم بأعباء الدعوة ، ويواجه ولاة الأمر والحكام بالموعظة والنصيحة ، وينكر عليهم ، ويكتب إليهم بذلك ، ويردعهم عن الظلم ومخالفة الشرع الشريف .

وقد عاش الإمام الغزالي أثناء حكم السلاجقة الأتراك الذين حكموا أكثر مناطق العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري ، وكانوا سُنِّيين ، ويعظمون العلم والعلماء ، ويتقبلون نصيحتهم وتوجيههم ، ومن عنايتهم بالعلم وإجلالهم للإمام الغزالي أنهم حاولوا بعد عودته إلىٰ طوس أن يقنعوه بالعودة إلى التدريس في نظامية بغداد فاعتذر .

والمدرسة النظامية ببغداد تعدُّ بمثابة جامعة بناها الوزير نظام الملك السلجوقي ؛ لتكون في دار الخلافة مصدر إشعاع للعلم والمعارف ، ومنبعاً للفضل ، ومأوىً للأئمة والعلماء ، ومقصداً لطلاب العلم .

تعرض الإمام الغزالي لأذى الحساد والأعداء

لقد عانى الإمام الغزالي الكثير من أذى الحساد والأعداء وكيدهم ، فقد وشوا به عند السلطان سنجر حتىٰ أجبره على الحضور من طوس إلى المعسكر بنيسابور ، ولما فشل كيدهم ، وخابت حيلتهم . . عمدوا إلىٰ كتبه فدسوا فيها زيادات تخالف معتقد أهل السنة والجماعة .

وها هو حجة الإسلام يحدث عن ذلك ويقول : (ولما استجيبت الدعوة ، واستمر عمل التدريس ناشطاً ، وأخذ طلاب العلم يفدون من نواحي العالم . . هاج حسد الحساد ، ولم يجدوا أيَّ طعن مقبول غير أنهم لبسوا الحق بالباطل ، وغيروا كل ما في كتابي «المنقذ من الضلال» ، وكتابي «مشكاة الأنوار» ، وأدخلوا فيهما كلمات كفر ، وأرسلوا الكتابين إلي لأكتب عليهما الإجازة ، فألهمني الله فتصفحتهما ، فاطلعت علىٰ تلبيسهم ، وأطَّلع علىٰ ذلك أيضاً حاكم خراسان ، فأمر بحبس المزور ، ثم نفاه من نيسابور ـ قال ـ : كما دسوا أيضاً في كتابي «المنخول» كلمات تطعن في الإمام أبي حنيفة) ، وحاشا للغزالي أن يطعن في الإمام أبي حنيفة .

شيوخ الإمام الغزالي

قرأ الإمام الغزالي بمدينة طوس أولاً علىٰ أستاذه الشيخ أحمد الرازكاني ، ثم علىٰ أستاذه في جرجان إسماعيل بن مسعدة ، ثم علىٰ أستاذه الأكبر بنيسابور إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجويني ، الذي لازمه وجد عنده واجتهد ، فأعجب الأستاذ بتلميذه ، وأحبه واحترمه ، واستمر معه يأخذ عنه كل العلوم ولا سيما الفقه وأصوله إلىٰ أن توفي إمام الحرمين سنة (٤٧٨هـ) ، وهو أعظم شيوخ الغزالي ، وله الدور الأكبر في تعليم الغزالي وتدريبه في مختلف العلوم والمناظرة فيها ، فقد أذن له في حياته أن يجلس علىٰ كرسيه ليدرس الطلبة أو يعيد درس الإمام عليهم .

وأخذ الحديث عن محمد الحفصي المروزي ، وعن الحاكم نصر الحاكمي ، وعن عبد الله الخواري ، وعن محمد بن يحيى الزوزني ، وعن الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي .

تلاميذ الغزالي

ليس من السهل حصر وتعريف تلاميذ الإمام الغزالي والآخذين عنه لكثرتهم ، والغزالي نفسه يقول : (وقد مر علي أكثر من ألف طالب) .

ويقول تلميذه القاضي أبو بكر ابن العربي : (رأيته ـ أي : الغزالي ـ ببغداد يحضر درسه نحو أربع مئة عمامة من أكابر الناس وفضلائهم يأخذون عنه العلم) .

فمن تلاميذه : إبراهيم بن مظهر الجرجاني السباك ، والقاضي أبو نصر البهوني ، وأبو الفتح أحمد بن علي برهان ، والحسين بن نصر الجهني ، وخلف بن أحمد ، ودغش النعيمي ، وأبو الوفاء رستم بن سعد الخواري ، والرضي بن مهدي الزيدي ، وسعد الخير البلنسي ، وسعيد بن محمد الرزاز ، وشافع بن عبد الرشيد الجيلي ، وعامر بن دغش الأنصاري ، وعبد الكريم بن علي الرازي ، وعلي بن محمد بن حمويه الجويني ، وعلي بن مسلم السلمي ،

ومحمد بن عبد الله المعروف بالقاضي أبي بكر ابن العربي المالكي ، وأبو حامد محمد بن عبد الملك الجوسقاني الإسفراييني .

مؤلفاته

يُعَدُّ الإمام الغزالي من العلماء المكثرين في مجال التأليف ، فقد بارك الله في عمره ووقته وعلمه ، فألف كتباً كثيرةً في مختلف العلوم والفنون باللغة العربية وباللغة الفارسية ، وذكروا أنهم أحصوا الكتب التي ألفها ووزعت علىٰ عمره فخص كل يوم أربعة كراريس ، وذلك من بركة العمر التي يمنحها الله لمن شاء من عباده ، وقد ترجم كثير من كتبه إلى اللغات الأجنبية ، ونكتفي هنا بذكر بعض **مؤلفاته** :

«الوسيط» ، و«البسيط» ، و«الوجيز» ، و«الخلاصة» ، وهٰذه كلها في الفقه .

و«المنخول» ، و«شفاء الغليل» ، و«تهذيب الأصول» ، و «المستصفىٰ من علم الأصول» ، و «إحياء علوم الدين» ، و «منهاج العابدين» ، و «المنقذ من الضلال» ، و «تهافت الفلاسفة» ، و «بداية الهداية» ، و «المقصد الأسنىٰ» ، و «الرد على الباطنية» ، وغيرها .

تواضعه

ومع ما بلغه الإمام الغزالي من سعة العلم وكثرة المصنفات ، ومع ما حصل به وبكتبه من عظيم النفع . . فقد كان عظيم التواضع ، شأنه في ذلك شأن العلماء الذين هم كالأشجار المثمرة ، كلما زادت ثمارها . . زاد انحناؤها .

فقد قال ابن السمعاني : (قرأت في كتابٍ كتبه الغزالي إلىٰ أبي حامد أحمد بن سلامة بالموصل ، فقال في خلال فصوله : «أما الوعظ : فلا أرىٰ نفسي أهلاً له ؛ لأن الوعظ زكاة نصابه الاتعاظ ، فمن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة ؟! وفاقد الثوب كيف يستر غيره ؟! ومتىٰ يستقيم الظل والعود أعوج ؟!») .

خاتمة

ولقد اتفق جمهور المترجمين للغزالي علىٰ إمامته ، وانطلقت الألسن بالثناء عليه ، وشهد له المخالف والموافق بالتقدم والكمال ، كما شهد العلماء من معاصريه بفضله وتمكنه ، لم تر العيون مثله بياناً ومنطقاً وذكاءً وطبعاً ، فهو أنظر أهل زمانه ، وأوحد أقرانه ، لقد ذاع صيته في الآفاق ، وأعجب الجميع بتدريسه ومناظرته ، وصار بعد إمامة خراسان إمام العراق .

وهو مجدد القرن الخامس الهجري ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : «إن الله يبعث لهـٰذه الأمة علىٰ رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها» .

فكان في المئة الأولىٰ : عمر بن عبد العزيز ، وفي المئة الثانية : الإمام الشافعي ، وفي الثالثة : الأشعري أو ابن سريج ، وفي الرابعة : الإسفراييني ، وفي الخامسة : حجة الإسلام الغزالي .

قال السيوطي : (وليس في كونه مجدداً تردد) .

وما زال الإمام الغزالي طيلة عمره المبارك علَماً يهتدىٰ به ؛ ينشر العلوم ، ويفتي ويؤلف ويرشد ، ويقارع المبتدعة من الفرق الضالة إلىٰ أن توفاه الله بمسقط رأسه مدينة طوس يوم الإثنين رابع عشر شهر جمادى الآخرة سنة (٥٠٥هـ) .

رحمه الله ورضي عنه وأرضاه

وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين

* * *

وَصفُ النُّسَخ الخَطِّيَّةِ

اعتمدنا في إخراج هـٰذا الكتاب المبارك علىٰ نسختين خطيتين :

الأولى : نسخة مكتبة الأحقاف بحضرموت .

عدد أوراقها (١٣١) ورقة ، ومتوسط عدد أسطرها (١٧) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (٩) كلمات ، خطها نسخي جيد ، كان الفراغ من نسخها في (١٦) من المحرم سنة (٩٠٣هـ) ، علىٰ يد عبد الله بن أبي بكر المكي الدوعني ، عليها تملك للسيد عبد الودود بن سدة بن محمد النعيري .

ورمزنا لها بـ (أ) .

الثانية : نسخة مكتبة الأحقاف أيضاً ، رقم (١٩٠٦) .

عدد أوراقها (١٧٢) ورقة ، ومتوسط عدد أسطرها (١٤) سطراً ، ومتوسط عدد كلمات السطر الواحد (٨) كلمات ، خطها نسخي ، كان الفراغ من نسخها يوم الثلاثاء ، من شهر صفر ، سنة (١٢٤٧ هـ) ، علىٰ يد أحمد بن عبد الرحمـٰن بن أحمد بن الحسين بن عبد الله بن علوي الحداد ، عليها تملك للسيد حسني بن عبد الرحمـٰن بن محمد بن سهل ، وقد أوقفها علىٰ تريم ونواحيها إلىٰ مسيلة آل شيخ سنة (١٣٧٥) .

ورمزنا لها بـ (ب) .

ملاحظة : أفدنا كذلك من المطبوع مع شرحه المسمىٰ « سراج الطالبين علىٰ منهاج العابدين إلىٰ جنة رب العالمين » للشيخ إحسان بن محمد دحلان ، الجمفسي ثم الكديري ، وقد انتهىٰ من تأليفه في يوم الثلاثاء (٢٩) من شهر شعبان ، سنة (١٣١٥ هـ) في محلة جمفس ، ببلد كديرىٰ من بلاد جاوه . والكتاب في جزأين ، من مصورات دار الفكر بيروت .

مَنْهَجُ العَمَلِ فِي الكِتَابِ

ـ سرنا بعونه تعالى في إخراج هٰذا الكتاب المبارك على الخطوات التالية :

ـ نسخنا المخطوط ، وقابلناه مع النسختين ، وأثبتنا الفروق المهمة ، وهي قليلة جدّاً .

ـ أفدنا من المطبوع ـ أحياناً ـ مع شرحه المسمىٰ « سراج الطالبين » للشيخ إحسان دحلان الكديري .

ـ حصرنا الآيات القرآنية الكريمة بين قوسين مزهرين ﴿ ﴾ ، وأثبتناها برسم المصحف الشريف .

ـ خرّجنا معظم الأحاديث الشريفة ، والآثار المروية ، وذلك بحسب الوسع والطاقة .

ـ ضبطنا أواخر الكلمات في النص ، وشكلنا الحروف المشددة محافظة علىٰ جمالية النص ، إضافة إلىٰ ضبط بعض الكلمات التي تُشكِل .

ـ أثبتنا علامات الترقيم المناسبة علىٰ حسب المنهج المتبع في الدار .

ـ خرّجنا معظم الأبيات الشعرية من دواوين قائليها إن وجدت ، وإلا . . فمن الكتب المعتمدة ، مع ذكر البحر العروضي .

ـ شرحنا بعض الكلمات الغامضة ، سواء كانت في الأحاديث والآثار ، أو في نص الكتاب ، معتمدين علىٰ كتب شروح السنة والمعاجم .

ـ علقنا علىٰ بعض المواضع في الكتاب إذا مست الحاجة إلىٰ ذلك .

ـ أضفنا إلى النص ما كان مناسباً لتقويم المعنى ، وجعلناه بين معقوفين [ ] .

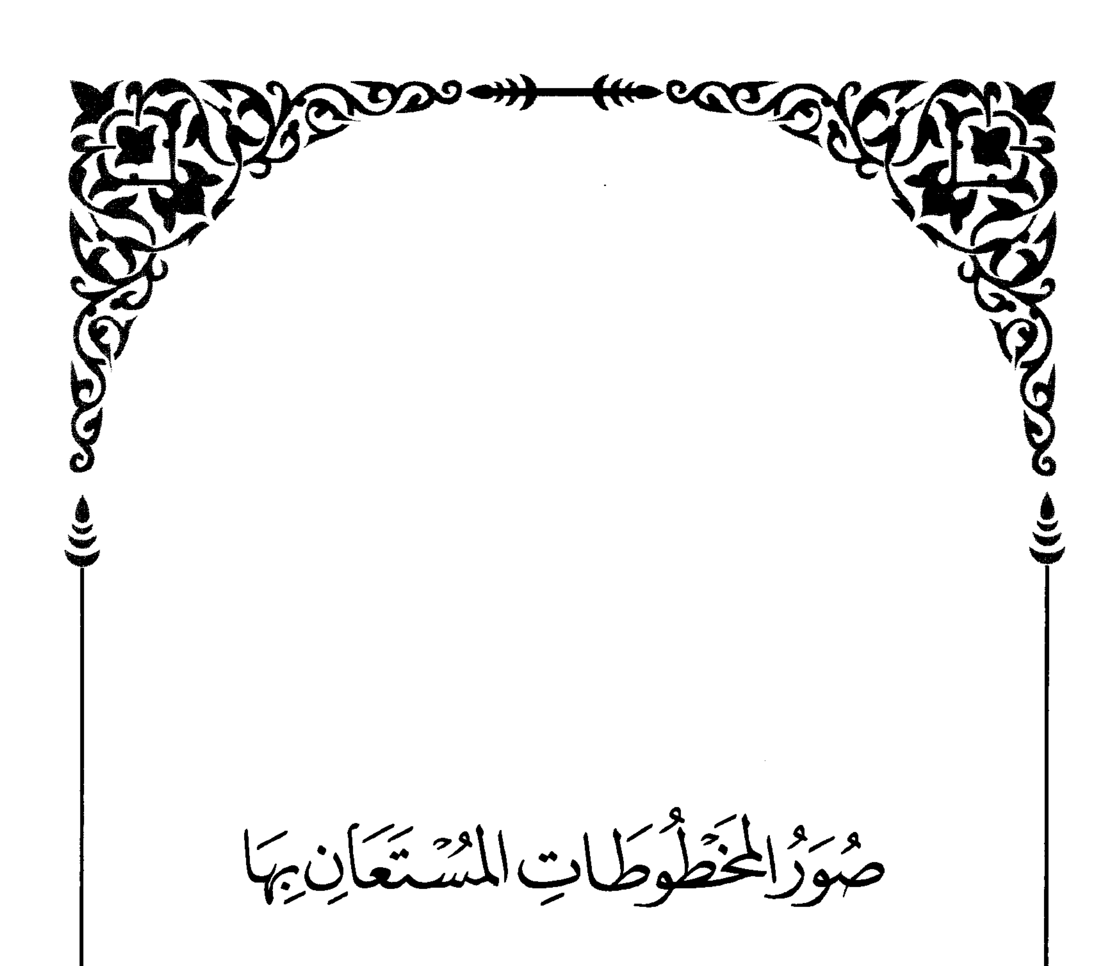
ـ عنونا الفصول التي ذكرها الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ، وجعلناها بين معقوفين [ ] .

ـ وضعنا في أول الكتاب ترجمة موجزة للإمام الغزالي رحمه الله تعالى .

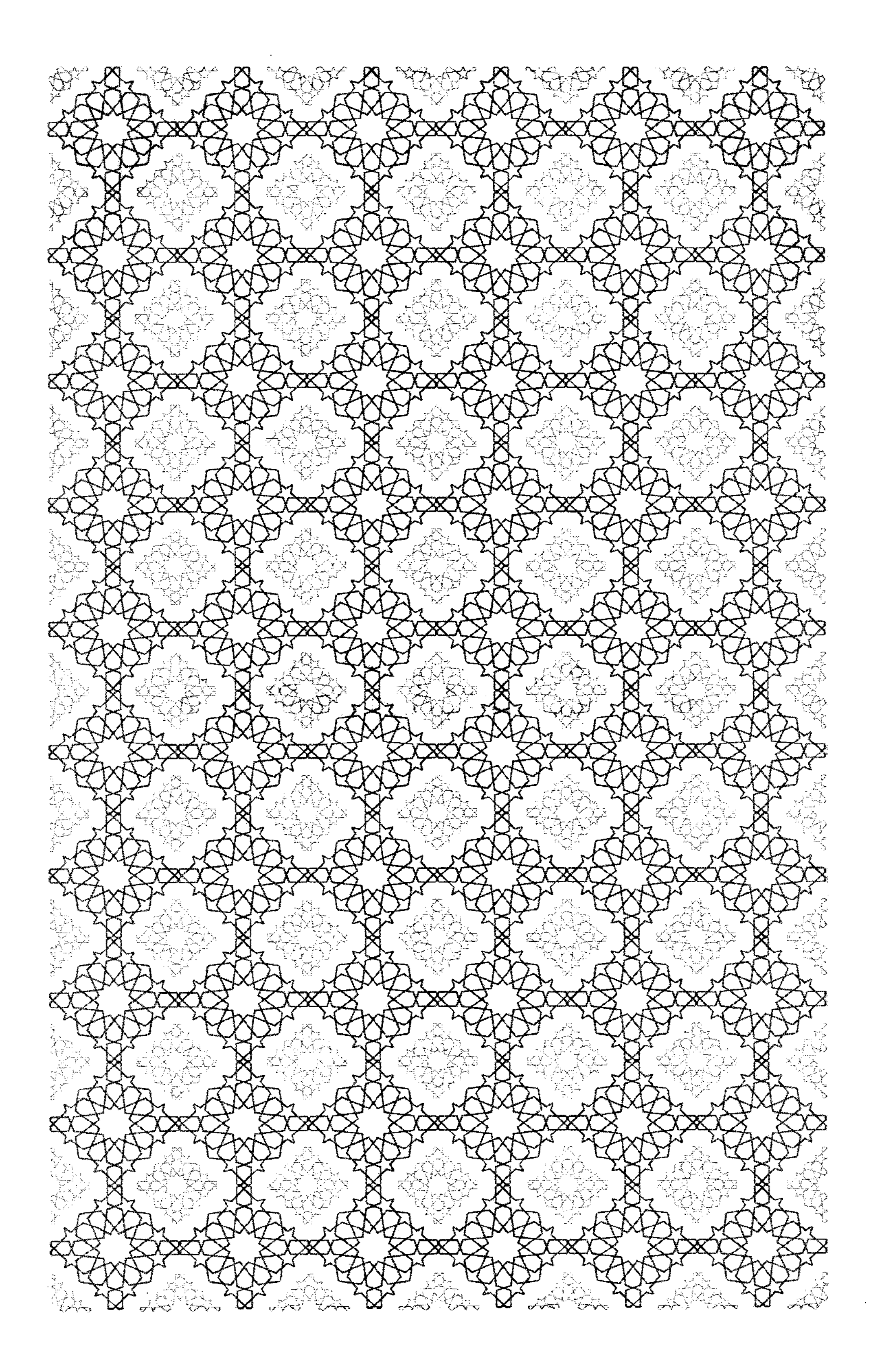
وختاماً : نسأل الله سبحانه وتعالىٰ أن يمن علينا بقبول العمل ، كما منَّ بإخراج هٰذا الكتاب ، وأن يجعله في ميزان حسنات الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ، وأن ينفع به القارىء الكريم ، والمساهمين جميعاً ، إنه علىٰ ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

وكتبهُ

بوجمعة عبد القادر مكري



صُوَرُ المَخْطُوطَاتِ المُسْتَعَانِ بِهَا



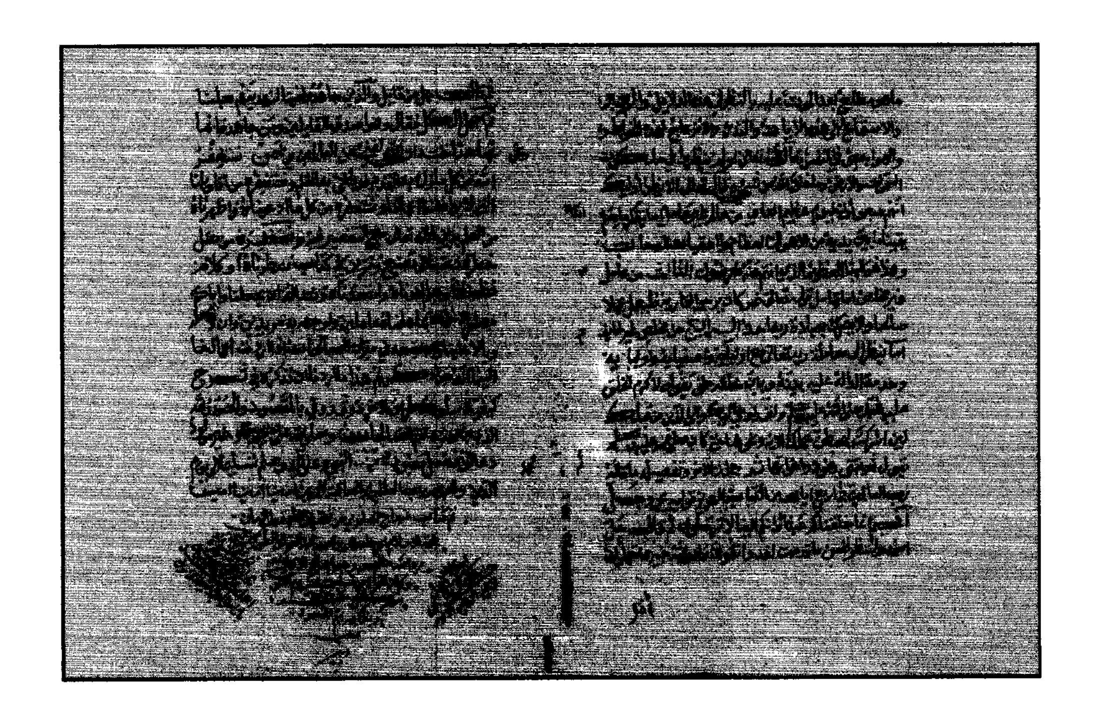
راموز ورقة العنوان للنسخة (أ)

راموز الورقة الأولى للنسخة (أ)

راموز الورقة الأخيرة للنسخة (أ)

راموز ورقة العنوان للنسخة (ب)

راموز الورقة الأولى للنسخة (ب)



راموز الورقة الأخيرة للنسخة (ب)



منهاج العابدين

إلى جنة رب العالمين

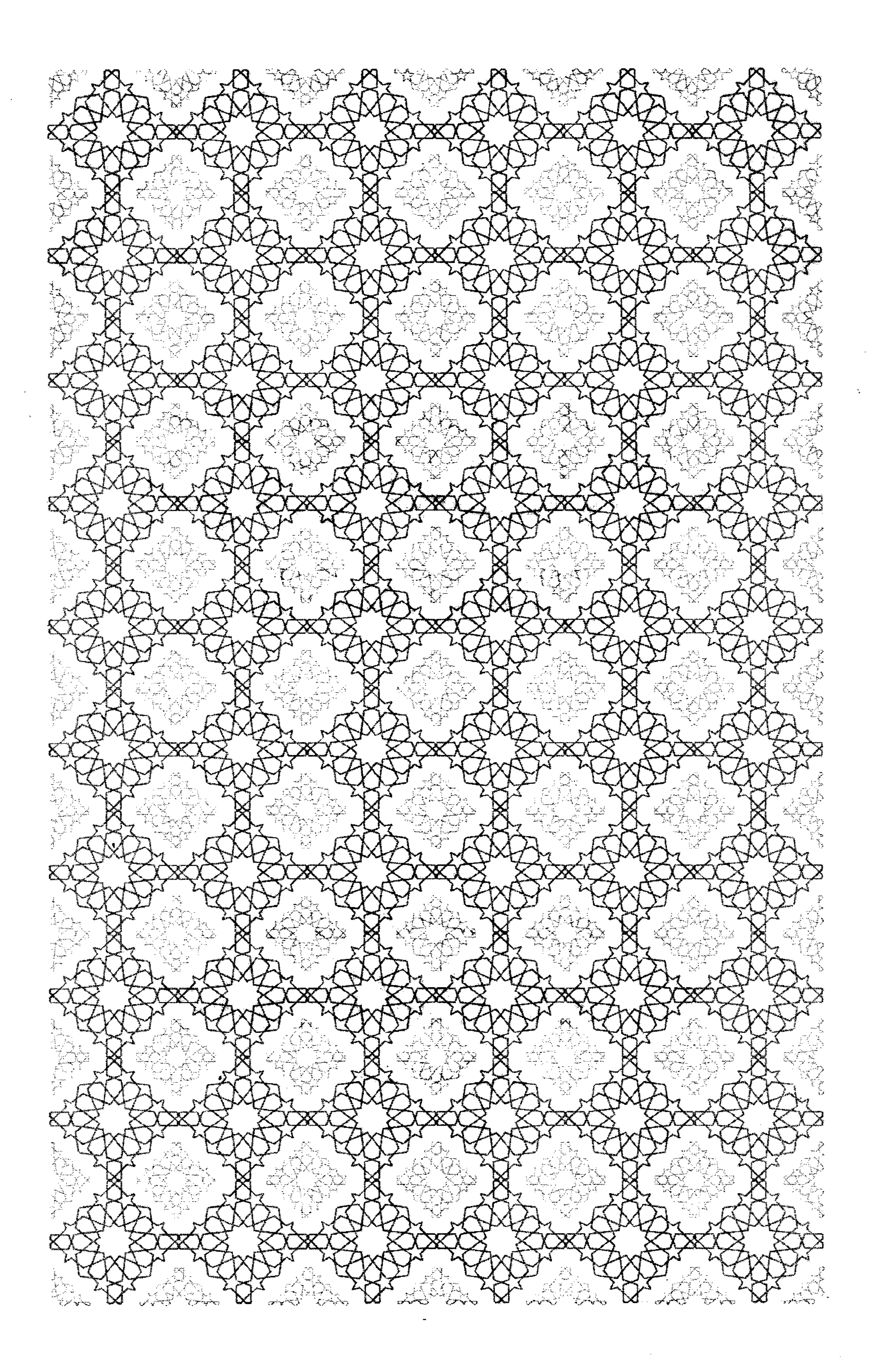
تأليف

العالم العلامة حجة الإسلام وبركة الأنام

الإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي

رحمه الله تعالى

(٤٥٠-٥٠٥هـ)



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَبِهِ نَسْتَعِينُ

[خُطْبَةُ الكِتَابِ]

قالَ الشَّيخُ الفقيهُ الصَّالحُ الزَّاهدُ عبدُ الملكِ بنُ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنه : أملىٰ عليَّ الإمامُ الأجلُّ ، الزَّاهدُ الموفَّقُ ، حجَّةُ الإسلامِ ، زينُ الدِّينِ ، شرفُ الأئمَّةِ ، محيي الأمَّةِ ، أبو حامدٍ محمَّدُ بنُ محمَّدِ بنِ محمَّدٍ الغزاليُّ رضيَ اللهُ عنه هـٰذا الكتابَ ، وهو آخرُ كتابٍ صنَّفَه ، ولم يلتمسْه منه إلاَّ الخواصُّ من أصحابِه ، وهو :

الحمدُ للهِ الملكِ الحكيمِ ، الجوادِ الكريمِ ، العزيزِ الرَّحيمِ ، الَّذي فطرَ السَّماوَاتِ والأرضَ بقدرتِه ، ودبَّرَ الأمرَ في الدَّارينِ بحكمتِه ، وما خلقَ الجنَّ والإنسَ إلاَّ لعبادتِه ، فالطَّريقُ إليه واضحٌ للقاصدينَ ، والدَّليلُ عليه لائحٌ للنَّاظرينَ ، ولـٰكنَّ اللهَ يضلُّ من يشاءُ ، ويهدي من يشاءُ ، وهو أعلمُ بالمهتدينَ .

والصَّلاةُ علىٰ سيِّدِنا محمَّدٍ سيِّدِ المرسلينَ ، وعلىٰ آلِه الأبرارِ الطَّيِّبينَ الطَّاهرينَ ، وصحبِه أجمعينَ ، وسلِّمْ وعظِّمْ إلىٰ يومِ الدِّينِ .

اعلموا إخواني ـ أسعدَكم اللهُ وإيَّانا بمرضاتِه ـ أنَّ العبادةَ ثمرةُ العلمِ ، وفائدةُ العمُرِ ، وحاصلُ العبدِ ، وبضاعةُ الأولياءِ ، وطريقُ الأقوياءِ ، وقسمةُ الأعزَّةِ ، ومقصدُ ذوي الهمَّةِ ، وشعارُ الكرامِ ، وحرفةُ الرِّجالِ ، وٱختيارُ أولي الأبصارِ ، وهي سبيلُ السَّعادةِ ، ومنهاجُ الجنَّةِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ .

ثمَّ إنَّا نظرْنا فيها ، وتأمَّلْنا طريقَها من مبادئِها إلىٰ مقاصدِها الَّتي هي أمانيُّ سالكيها . . فإذا هي طريقٌ وعْرٌ ، وسبيلٌ صعبٌ ، كثيرةُ العقباتِ ، شديدةُ

المشقَّاتِ ، بعيدةُ المسافاتِ ، عظيمةُ الآفاتِ ، كثيرةُ العوائقِ والموانعِ ، خفيَّةُ المهالكِ والمقاطعِ ، غزيرةُ الأعداءِ والقطَّاعِ ، عزيزةُ الأشياعِ والأتباعِ ، وهـٰكذا يجبُ أن تكونَ ؛ لأنَّها طريقُ الجنَّةِ ، فيصيرُ هـٰذا تصديقاً لما قالَه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « إنَّ الجنَّةَ حُفَّتْ بالمكارهِ ، وإنَّ النَّارَ حُفَّتْ بالشَّهواتِ »[1] .

وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « ألا وإنَّ الجنَّةَ حزْنٌ بربوةٍ ، ألا وإنَّ النَّارَ سهلٌ بسهوةٍ »[2] .

ثمَّ معَ ذلكَ كلِّه فإنَّ العبدَ ضعيفٌ ، والزَّمانُ صعبٌ ، وأمرُ الدِّينِ متراجعٌ ، والفراغُ قليلٌ ، والشُّغلُ كثيرٌ ، والعمرُ قصيرٌ ، وفي العملِ تقصيرٌ ، والنَّاقدُ بصيرٌ ، وإلى اللهِ المصيرُ ، والأجلُ قريبٌ ، والسَّفرُ بعيدٌ ، والطَّاعةُ هي الزَّادُ فلا بدَّ منها ، وهي فائتةٌ فلا مردَّ لها ، فمن ظفرَ بها . . فقد فازَ وسعدَ أبدَ الآبدينَ ، ومن فاتَه ذلكَ . . فقد خسرَ معَ الخاسرينَ ، وهلكَ معَ الهالكينَ .

فصارَ هـٰذا الخطبُ إذنْ واللهِ معضلاً ، والخطرُ عظيماً ، ولذلكَ عزَّ من يقصدُ هـٰذا الطَّريقَ وقلَّ ، ثمَّ عَزَّ من القاصدينَ مَن يسلكُه ، ثمَّ عزَّ من السَّالكينَ مَن يصلُ إلى المقصودِ ، ويظفرُ بالمطلوبِ ، وهمُ الأعزَّةُ الَّذينَ ٱصطفاهمُ اللهُ عَزَّ وجلَّ لمعرفتِه ومحبَّتِه ، وسدَّدَهم بتوفيقِه وعصمتِه ، ثمَّ أوصلَهم بفضلِه إلىٰ رضوانِه وجنَّتِه ، فنسألُهُ جلَّ ذكرُهُ أن يجعلَكُم وإيَّانا من أولئكَ الفائزينَ برحمتِه .

نعمْ ؛ ولمَّا وجدْنا هـٰذه الطَّريقَ بهـٰذهِ الصِّفةِ . . نظرْنا فأمعنَّا النَّظرَ في كيفيَّةِ قطعِها ، وما يحتاجُ إليه العبدُ من الأُهبةِ والعُدَّةِ والآلةِ والحيلةِ من علمٍ وعملٍ ، عسىٰ أن يقطعَها بحسنِ توفيقِ اللهِ تعالىٰ في سلامةٍ ، ولا ينقطعَ في عقباتِها المهلكةِ ، فيهلكَ معَ الهالكينَ ، والعياذُ باللهِ .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم (٢٨٢٢) ، والترمذي (٢٥٥٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد (١/٣٢٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والبيهقي في الشعب (١٣٨٨) عن أبي البحير رضي الله عنه ، **والسهوة** : الأرض الليّنة التربة ، شبه المعاصي في سهولتها علىٰ مرتكبها بالأرض السهلة التي لا حزونة فيها .

فصنَّفْنا في قطعِ هٰذهِ الطريقِ وسلوكِها كتباً ، كـ « إحياءِ علومِ الدِّينِ » ، و« القربةِ إلى اللهِ تعالى » ، وغيرِ ذلكَ ، فاحتوتْ علىٰ دقائقَ من العلومِ اعتاصتْ علىٰ أفهامِ العامَّةِ[1] ، فقدحوا فيها ، وخاضوا فيما لم يحسنوه منها ، فأيُّ كلامٍ أفصحُ من كلامِ ربِّ العالمينَ وقد قالوا فيه : إنَّه أساطيرُ ٱلأوَّلينَ ؟!

ألم تسمعْ إلىٰ قولِ زينِ العابدينَ عليِّ بنِ الحسينِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهم أجمعينَ حيثُ يقولُ : [من البسيط]

إنِّي لأكتمُ من علمي جواهرَه ... كي لا يرى الحقَّ ذو جهلٍ فيفتتنا
وقد تقدَّمَ في هٰذا أبو حسنٍ ... إلى الحسينِ وأوصىٰ قبلَه الحسنا
يا رُبَّ جوهرِ علمٍ لو أبوحُ به ... لقيلَ لي أنت ممَّن يعبدُ الوثنا
ولَٱستحلَّ رجالٌ مسلمونَ دمي ... يرونَ أقبحَ ما يأتونَهُ حسنا

وٱقتضتِ الحالُ عندَ ذوي الألبابِ الَّذينَ هم أشرفُ خلقِ اللهِ النَّظرَ إلىٰ كافَّةِ خلقِ اللهِ تعالىٰ بعينِ الرَّحمةِ وتركِ المماراةِ ، فابتهلتُ إلىٰ من بيدِه الخلقُ والأمرُ أن يوفِّقني لتصنيفِ كتابٍ يقعُ عليه الإجماعُ ، ويحصلُ بقراءتِه الانتفاعُ ، فأجابني إلىٰ ذلكَ الَّذي يجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ ، وأطلعني بفضلِه علىٰ أسرارِ ذلكَ ، وألهمني فيه ترتيباً عجيباً لم أذكرْهُ في المصنَّفاتِ الَّتي تقدَّمتْ في أسرارِ معاملاتِ الدِّينِ ، وهو الَّذي أنا له واصفٌ ، فأقولُ وباللهِ التَّوفيقُ :

إنَّ أوَّلَ ما يتنبَّهُ العبدُ للعبادةِ ، ويتحرَّكُ لسلوكِ طريقِها . . يكونُ بخطرةٍ سماويَّةٍ من اللهِ تعالى ، وتوفيقٍ خاصٍّ إلٰهيٍّ ، وهو المعنيُّ بقولِه سبحانَه وتعالىٰ : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ، وإليه أشارَ صاحبُ الشَّرعِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقالَ : « إنَّ النُّورَ إذا دخلَ القلبَ . . انفسحَ وانشرحَ » فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هل لذٰلكَ من علامةٍ يُعرفُ بها ؟ فقالَ : « نعمْ ، التَّجافي عن دارِ الغرورِ ، والإنابةُ إلىٰ دارِ الخلودِ ، والاستعدادُ للموتِ قبلَ نزولِ الموتِ »[2] .

---

(١) **اعتاصت علىٰ أفهام العامة** : عسر كشفها ، فلم يُهتدَ إلىٰ جهة الصواب فيها .

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٣١١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٦٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه .

فإذا خطرَ بقلبِ العبدِ أوَّلَ كلِّ شيءٍ : أنّي أجدُني منعَّماً بضروبٍ من النِّعمِ ، كالحياةِ والقدرةِ ، والعقلِ والنُّطقِ ، وسائرِ المعاني الشَّريفةِ واللَّذّاتِ ، وما ينصرفُ عنّي من ضروبِ المضارِّ والآفاتِ ، وأنَّ لهٰذه النِّعمةِ مُنعِماً يطالبُني بشكرِه وخدمتِه ، إن غفلتُ عن ذلكَ . فيزيلُ عنّي نعمتَه ، ويذيقُني بأسَه ونقمتَه ، وقد بعثَ إليَّ رسولاً نذيراً ، أيَّدَه بالمعجزاتِ الخارقةِ للعاداتِ ، الخارجةِ عن مقدورِ البشرِ ، وأخبرَني أنَّ لي ربّاً ـ جلَّ ذكرُه ـ قادراً عالماً ، حيّاً متكلِّماً ، يأمرُ وينهى ، قادراً علىٰ أن يعاقبَ إن عصيتُه ، ويثيبَ إن أطعتُه ، عالماً بأسراري وما يختلجُ في أفكاري ، وقد وعدَ وأوعدَ ، وأمرَ بالتزامِ قوانينِ الشَّرعِ . . فيقعُ[1] في قلبِه أنَّه ممكنٌ ـ إذ لا استحالةَ لذٰلكَ في العقلِ ـ بأوَّلِ البديهةِ ، فيخافُ علىٰ نفسِه عندَ ذٰلكَ ويفزعُ .

فهٰذا خاطرُ الفزعِ الَّذي ينبِّهُ العبدَ ويلزمُه الحجَّةَ ، ويقطعُ عنه المعذرةَ ، ويزعجُه إلى النَّظرِ والاستدلالِ ، فيهتاجُ العبدُ عندَ ذٰلكَ ، ويقلقُ وينظرُ في طريقِ الخلاصِ وحصولِ الأمانِ له ممّا وقعَ بقلبِه ، أو سمعَ بأذنِه ، فلم يجدْ فيه سبيلاً سوى النَّظرِ بعقلِه في الدَّلائلِ ، والاستدلالِ بالصَّنعةِ على الصَّانعِ ، ليحصلَ له العلمُ اليقينُ بما هو الغيبُ ، ويعلمَ أنَّ له ربّاً كلَّفَه وأمرَه ونهاه .

فهٰذه أوَّلُ عقبةٍ استقبلتْه في طريقِ العبادةِ ، وهي عقبةُ العلمِ والمعرفةِ ، ليكونَ من الأمرِ علىٰ بصيرةٍ ، فيأخذَ في قطعِها من غيرِ بُدٍّ بحسنِ النَّظرِ في الدَّلائلِ ، ووفورِ التَّأمُّلِ والتَّعلُّمِ ، والسُّؤالِ من علماءِ الآخرةِ الَّذينَ هم أدلاَّءُ الطَّريقِ ، سُرُجُ الأمَّةِ ، وقادةُ الأئمَّةِ ، والاستفادةِ منهم ، واستمدادِ الدُّعاءِ الصَّالحِ منهم ، للتَّوفيقِ والإعانةِ إلىٰ أن يقطعَها بتوفيقِ اللهِ سبحانَه وتعالى ، فيحصلَ له العلمُ واليقينُ بالغيبِ ، وهو أنَّ له إلهاً واحداً لا شريكَ له ، هو الَّذي خلقَه وأنعمَ عليه بكلِّ هٰذه النِّعمِ ، وأنَّه كلَّفَه بشكرِه ، وأمرَه بخدمتِه وطاعتِه بظاهرِه وباطنِه ، وحذَّرَه الكفرَ وضروبَ المعاصي ، وحكمَ له بالثَّوابِ الخالدِ إن

---

(١) جواب الشرط لقوله : (فإذا خطر بقلب . . .) .

أطاعَه ، وبالعقابِ الخالدِ إن عصاه وتولَّىٰ عنه ، فعندَ ذٰلكَ تبعثُه هٰذه المعرفةُ واليقينُ بالغيبِ على التَّشميرِ للخدمةِ ، والإقبالِ على العبادةِ لهٰذا السَّيِّدِ المنعمِ الَّذي طلبَه فوجدَه ، وعرفَه بعدَ ما جهلَه ، ولٰكنَّه لا يدري كيف يعبدُه ، وماذا يلزمُه من خدمتِه بظاهرِه وباطنِه .

فبعدَ حصولِ هٰذه المعرفةِ باللهِ سبحانَه وتعالى ، واستكمالِ العلمِ والمعرفةِ . . جهدَ حتَّىٰ يتعلَّمَ ما يلزمُه من الفرائضِ الشَّرعيَّةِ ظاهراً وباطناً .

فلمَّا استكملَ العلمَ والمعرفةَ بالفرائضِ . . انبعثَ ليأخذَ في العبادةِ ويشتغلَ بها ، فنظرَ فإذا هو صاحبُ جناياتٍ وذنوبٍ ـ هٰذا حالُ الأكثرِ من النَّاسِ ـ فيقولُ : كيف أقبلُ على العبادةِ وأنا مصرٌّ على المعصيةِ متلطِّخٌ بها ؟! فيجبُ عليَّ أوَّلاً أن أتوبَ إليه ؛ ليغفرَ لي ذنوبي ، ويخلِّصَني من أسرِها ، ويطهِّرَني من أقذارِها ، فأصلحَ للخدمةِ وبساطِ القربةِ ، فتستقبلُه هٰهنا عقبةُ التَّوبةِ ، فيحتاجُ لا محالةَ إلىٰ قطعِها ، ليصلَ إلىٰ ما هو المقصودُ منها ، فأخذَ في ذٰلكَ بإقامةِ التَّوبةِ في حقوقِها وشرائطِها إلىٰ أن قطعَها .

فلمَّا حصلتْ له التَّوبةُ الصَّادقةُ ، وفرغَ من قطعِ هٰذه العقبةِ . . حنَّ إلى العبادةِ ليأخذَ فيها ، فنظرَ فإذا حولَه عوائقُ محدقةٌ به ، كلٌّ واحدةٍ منها تعوقُه عمَّا قصدَ من العبادةِ بضربٍ من التَّعويقِ ، فتأمَّلَ فإذا هي أربعٌ : الدُّنيا ، والخلقُ ، والشَّيطانُ ، والنَّفسُ ، فاحتاجَ لا محالةَ إلىٰ دفعِ هٰذه العوائقِ وإزاحتِها عنه ، وإلاَّ . . فلا يتأتَّىٰ له أمرُه من العبادةِ ، فاستقبلَتْه هٰهنا عقبةُ العوائقِ ، فيحتاجُ إلىٰ قطعِها بأربعةِ أمورٍ : التَّجرُّدِ عن الدُّنيا ، والتَّفرُّدِ عن الخلقِ ، والمحاربةِ معَ الشَّيطانِ ، والمخالفةِ للنَّفسِ .

فأمَّا النَّفسُ فأشدُّها ؛ إذ لا يمكنُه التَّجرُّدُ عنها ، ولا أن يقهرَها بمرَّةٍ ويقمعَها كالشَّيطانِ ؛ إذ هي المطيَّةُ والآلةُ ، ولا مطمعَ أيضاً في موافقتِها علىٰ ما يقصدُه العبدُ من العبادةِ والإقبالِ عليها ؛ إذ هي مجبولةٌ علىٰ ضدِّ الخيرِ كالهوىٰ واتِّباعِها له ، فاحتاجَ إذن إلىٰ أن يلجمَها بلجامِ التَّقوى ؛ لتبقىٰ له فلا تنقطعَ ، وتنقادَ له

فلا تطغى ، فيستعملُها في المصالحِ والمراشدِ ، ويمنعُها عن المهالكِ والمفاسدِ ، فيأخذُ إذن في قطعِ هـٰذه العقبةِ ، ويستعينُ باللهِ جلَّ ذكرُه علىٰ ذٰلكَ .

فلمَّا فرغَ من قطعِها . . رجعَ إلىٰ قصدِ العبادةِ ، فإذا عوارضُ تعترضُه ، فتشغلُه عن الإقبالِ علىٰ مقصودِه من العبادةِ ، وتصدُّه عن التَّفرُّغِ لذٰلكَ كما ينبغي ، فتأمَّلَ فإذا هي أربعةٌ :

الأوَّلُ : الرِّزقُ ، تطالبُه النَّفسُ به وتقولُ : لا بدَّ لي من رزقٍ وقِوامٍ ، وقد تجرَّدتُ عن الدُّنيا ، وتفرَّدتُ أيضاً عن الخلقِ ، فمن أين يكونُ قِوامي ورزقي ؟!

والثَّاني : الأخطارُ من كلِّ شيءٍ يخافُه أو يرجوه ، أو يريدُه أو يكرهُه ، ولا يدري صلاحَه في ذلكَ أو فسادَه ؛ فإنَّ عواقبَ الأمورِ مبهمةٌ ، فيشتغلُ قلبُه بها ، فإنَّه ربَّما يقعُ في فسادٍ أو مهلكةٍ .

والثَّالثُ : الشَّدائدُ والمصائبُ تنصبُّ عليه من كلِّ جانبٍ ، لا سيَّما وقد انتصبَ لمخالفةِ الخلقِ ، ومحاربةِ الشَّيطانِ ، ومضادَّةِ النَّفسِ ، فكم من غُصَّةٍ يتجرَّعُها ، وكم من شدَّةٍ تستقبلُه ، وكم من همٍّ وحَزَنٍ يعترضُه ، وكم من مصيبةٍ تتلقَّاه .

والرَّابعُ : أنواعُ القضاءِ من اللهِ سبحانَه وتعالىٰ بالحلوِ والمرِّ ، تردُ عليه حالاً فحالاً ، والنَّفسُ تسارعُ إلى السُّخطِ ، وتبادرُ إلى الفتنةِ ، فاستقبلَتْه هـٰهنا عقبةُ العوارضِ الأربعةِ ، فاحتاجَ إلىٰ قطعِها بأربعةِ أشياءَ : التَّوكُّلِ على اللهِ سبحانَه في مواضعِ الرِّزقِ ، والتَّفويضِ إليه في مواضعِ الخطرِ ، والصَّبرِ عندَ نزولِ الشَّدائدِ ، والرِّضا عندَ نزولِ القضاءِ ، فأخذَ في قطعِ هـٰذه العقبةِ بإذنِ اللهِ تعالىٰ وتسديدِه وحسْنِ تأييدِه .

فلمَّا فرغَ من قطعِها وعادَ إلىٰ قصدِ العبادةِ . . نظرَ فإذا النَّفسُ فاترةٌ كسلى ، لا تنشَطُ ولا تنبعثُ لخيرٍ كما يحقُّ وينبغي ، وإنَّما ميلُها أبداً إلىٰ غفلةٍ ودعةٍ ، وراحةٍ وبَطالةٍ ، بل إلىٰ شرٍّ وفضولٍ ، وبليَّةٍ وجهالةٍ ، فاحتاجَ معَها هـٰهنا إلىٰ سائقٍ يسوقُها إلى الخيرِ والطَّاعةِ وينشطُها له ، وزاجرٍ يزجرُها عن الشَّرِّ والمعصيةِ

ويَفتُرُها عنه ، وهما : الرَّجاءُ والخوفُ ، فالرَّجاءُ في عظيمِ ثوابِ اللهِ سبحانَه وحسنِ ما وعدَ من أنواعِ الكرامةِ وتذكُّرِ ذلكَ سائقٌ يسوقُها فيبعثُها على الطَّاعةِ ، ويحرِّكُها لذلكَ وينشطُها ، والخوفُ من أليمِ عقابِ اللهِ عزَّ وجلَّ وصعوبةِ ما أوعدَ من أنواعِ العقوبةِ والإهانةِ زاجرٌ يزجرُها عن المعصيةِ ، ويجنِّبُها ويُفتِّرُها عن ذلكَ .

فهـٰذه عقبةُ البواعثِ استقبلَتْه هـٰهنا ، فاحتاجَ إلىٰ قطعِها بهـٰذينِ الذِّكرينِ[1] ، فأخذَ فيها بحسنِ توفيقِ اللهِ عزَّ وجلَّ فقطعَها .

فلمَّا فرغَ منها . . رجعَ إلى الإقبالِ على العبادةِ ، فلم يرَ عائقاً ولا شاغلاً ، ووجدَ باعثاً وداعياً ، فنشطَ في العبادةِ فأقامَها ، وعانقَها بتمامِ الشَّوقِ والرَّغبةِ فأدامَها ، فنظرَ فإذا تبدو لهـٰذه العبادةِ الَّتي احتملَ فيها كلَّ ذلكَ آفتانِ عظيمتانِ ، وهما : الرِّياءُ والعجبُ ، تارةً يرائي بطاعتِه النَّاسَ فيفسدُها ، وأخرىٰ يمتنعُ عن ذلكَ ويلومُ نفسَه فيها ، فيعجبُ بنفسِه فيحبطُ العبادةَ عليه ويتلفُها ويفسدُها ، فاستقبلَتْه هـٰهنا عقبةُ القوادحِ ، فاحتاجَ إلىٰ قطعِها بالإخلاصِ وذكرِ المنَّةِ ونحوِها ، ليسلمَ له ما يعملُ من خيرٍ ، فأخذَ في قطعِ هـٰذه العقبةِ بإذنِ اللهِ سبحانَه وتعالىٰ بجدٍّ واحتياطٍ ، وتيقُّظٍ بحسنِ عصمةِ الجبَّارِ تعالىٰ وتأييدِه .

فلمَّا فرغَ من هـٰذه كلِّها . . حصلتْ له العبادةُ كما يحقُّ وينبغي ، وسَلِمَتْ من كلِّ آفةٍ ، ولـٰكنَّه نظرَ فإذا هو غريقٌ في بحورِ مننِ اللهِ تعالىٰ وأياديه من كثرةِ ما أنعمَ اللهُ عليه من إمدادِ التَّوفيقِ والعصمةِ ، وأنواعِ التَّأييدِ والحراسةِ ، وخافَ أن يكونَ منه إغفالٌ للشُّكرِ ، فيقعُ في الكفرانِ ، فينحطُّ عن تلكَ المرتبةِ الرَّفيعةِ الَّتي هي مرتبةُ الخدمِ المخلصينَ للهِ عزَّ وجلَّ ، وتزولُ عنه تلكَ النِّعمُ الكريمةُ من ضروبِ ألطافِ اللهِ تعالىٰ وحسنِ تأييدِه ونظرِه إليه ، فاستقبلَتْه هـٰهنا عقبةُ الحمدِ والشُّكرِ ، فأخذَ في قطعِها بما أمكنَه من كثرةِ الحمدِ والشُّكرِ علىٰ كثيرِ نعمِه .

فلمَّا فرغَ من قطعِ هـٰذه العقبةِ ونزلَ . . نظرَ فإذا هو بمقصودِه ومبتغاه بينَ

---

(١) يعني : السائق والزاجر ، وهما : الرجاء والخوف .

يديه ، فلم يسِرْ إلاَّ قليلاً حتَّىٰ وقعَ في سهلِ الفضلِ ، وصحراءِ الشَّوقِ ، وعرَصاتِ المحبَّةِ .

ثمَّ يقعُ في رياضِ العرفانِ والرِّضوانِ ، وبساتينِ الأنسِ إلىٰ بساطِ الانبساطِ ، ومرتبةِ التَّقريبِ ، ومجلسِ المناجاةِ ، ونيلِ الخِلَعِ والكراماتِ[1] ، فهو يتنعَّمُ في هـٰذه الحالاتِ ، ويتقلَّبُ في طيبِها أيَّامَ بقائِه ، وبقيَّةَ عمرِه ، بشخصٍ في الدُّنيا ، وقلبٍ في العقبى ، ينتظرُ البريدَ يوماً فيوماً ، وساعةً فساعةً ، حتَّىٰ يملَّ الخلقَ كلَّهم ، ويستقذرَ الدُّنيا ويحنَّ إلى الموتِ .

واستكملَ الشَّوقَ إلى الملأِ الأعلى ، فإذا هو برسلِ ربِّ العالمينَ إليه ، يرِدُونَ عليه بالرَّوحِ والرَّيحانِ ، والبشرىٰ والرِّضوانِ ، من عندِ ربٍّ راضٍ غيرِ غضبانَ ، فينقلونَه في طيبةِ نفسٍ ، وتمامِ البِشرِ والأنسِ ، من هـٰذه الدَّارِ الفانيةِ المفتنةِ إلى الحضرةِ الإلهيَّةِ ، ومستقرِّ رياضِ الجنَّةِ ، فيرىٰ لنفسِه الضَّعيفةِ الفقيرةِ نعيماً مقيماً ، ومُلْكاً عظيماً ، ويلقىٰ هناك من سيِّدِه الرَّحيمِ المُفضِلِ الكريمِ جلَّ ذكرُه من اللُّطفِ به والعطفِ ، والتَّرحيبِ والتَّقريبِ ، والإنعامِ والإكرامِ ، ما لا يحيطُ به وصفُ الواصفينَ ، ونعتُ النَّاعتينَ ، فهو في كلِّ يومٍ في زيادةٍ إلىٰ أبدِ الآبدينَ ، فيا لها من سعادةٍ عظيمةٍ ! ويا لها من دولةٍ عاليةٍ ! ويا له من عبدٍ مسعودٍ ، وامرئٍ مغبوطٍ ، وشأنٍ محمودٍ ، فطوبَىٰ له وحسنُ مآبٍ !

نسألُ اللهَ البرَّ الرَّحيمَ سبحانَه أن يمنَّ علينا وعليكم بهـٰذه النِّعمةِ العظيمةِ ، والمنَّةِ الجسيمةِ ، وما ذلكَ على اللهِ بعزيزٍ ، وألاَّ يجعلَنا من الَّذينَ لا نصيبَ لهم من هـٰذا الأمرِ إلاَّ وصفٌ وسماعٌ ، وعلمٌ وتمنٍّ بلا انتفاعٍ ، وألاَّ يجعلَ ما تعلَّمناه من العلمِ حجَّةً علينا يومَ القيامةِ ، وأن يوفِّقَنا جميعاً للعملِ بذلكَ ، والقيامِ به كما يحبُّ ويرضى ، إنَّه أرحمُ الرَّاحمينَ ، وأكرمُ الأكرمينَ .

فهـٰذا هو التَّرتيبُ الَّذي ألهمني مولايَ في طريقِ العبادةِ .

---

(١) الخِلَع ـ بكسر ففتح ـ : العطايا ، وهي في الأصل ما يعطيه الملوك والكبراء غيرَهم من الثياب .

فاعلمِ الآنَ : أنَّ الحاصلَ من الجملةِ سبعُ عقباتٍ :

الأولى : عقبةُ العلمِ .

الثَّانيةُ : عقبةُ التَّوبةِ .

الثَّالثةُ :عقبةُ العوائقِ .

الرَّابعةُ : عقبةُ العوارضِ .

الخامسةُ : عقبةُ البواعثِ .

السَّادسةُ : عقبةُ القوادحِ .

السَّابعةُ : عقبةُ الحمدِ والشُّكرِ ، وبتمامِها يتمُّ كتابُ « **منهاجِ العابدينَ إلى الجنَّةِ** » .

ونحنُ الآنَ نتتبَّعُ هـٰذه العقباتِ بشرحٍ موجزِ اللَّفظِ ، مشتملٍ على النُّكتِ المقصودةِ من هـٰذا الشَّأنِ ، كلٌّ منها في بابٍ مفردٍ إن شاءَ اللهُ تعالى .

واللهُ سبحانَه وليُّ التَّوفيقِ والتَّسديدِ بمنِّهِ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيمِ .

* * *

العقبةُ الأولى
وهي عقبةُ العلمِ

فأقولُ وباللهِ التَّوفيقُ : يا طالبَ الخلاصِ والعبادةِ ؛ عليكَ أوَّلاً ـ وفَّقكَ اللهُ ـ بالعلمِ ؛ فإنَّه القطبُ وعليه المدارُ .

واعلمْ : أنَّ العلمَ والعبادةَ جوهرانِ ، لأجلِهما كانَ كلُّ ما ترىٰ وتسمعُ من تصنيفِ المصنِّفينَ ، وتعليمِ المعلِّمينَ ، ووعظِ الواعظينَ ، ونظرِ النَّاظرينَ ، بل لأجلِهما أُنزلتِ الكتبُ ، وأُرسلتِ الرُّسلُ ، بل لأجلِهما خُلقتِ السَّماواتُ والأرضُ وما فيهما من الخلقِ ؛ فتأمَّلْ آيتينِ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ :

إحداهما : قولُه تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ ، وكفىٰ بهـٰذه الآيةِ دليلاً علىٰ شرفِ العلمِ ، لا سيَّما علمِ التَّوحيدِ .

والثَّانيةُ : قولُه جلَّ من قائلٍ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، وكفىٰ بهـٰذه الآيةِ دليلاً علىٰ شرفِ العبادةِ ولزومِ الإقبالِ عليها ، فأعظِمْ بأمرينِ هما المقصودُ من خلقِ الدَّارينِ ! فحَقَّ للعبدِ ألاّ يشتغلَ إلاَّ بهما ، ولا يتعبَ إلاّ لهما ، ولا ينظرَ إلاَّ فيهما ، فاعلمْ أنَّ ما سواهما من الأمورِ باطلٌ لا خيرَ فيه ، ولغوٌ لا حاصلَ له .

فإذا علمتَ ذلكَ . . فاعلمْ أنَّ العلمَ أشرفُ الجوهرينِ وأفضلُهما ، ولذلكَ قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « إنَّ فضلَ العالمِ على العابدِ كفضلي علىٰ أدنىٰ رجلٍ من أمَّتي »[1] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥) ، والطبراني في « الكبير » (٨/ ٢٣٣) عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « نظرةٌ إلى العالمِ أحبُّ إليَّ من عبادةِ سنةٍ صيامِها وقيامِها »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « ألا أدلُّكم علىٰ أشرفِ أهلِ الجنَّةِ ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « هم علماءُ أمَّتي »[2] .

فبانَ لك أنَّ العلمَ أشرفُ جوهراً من العبادةِ ، ولـٰكنْ لا بدَّ للعبدِ من العبادةِ مع العلمِ ، وإلاَّ . . كانَ علمُه هباءً منثوراً ؛ فإنَّ العلمَ بمنزلةِ الشَّجرةِ ، والعبادةَ بمنزلةِ ثمرةٍ من ثمراتِها ، فالشَّرفُ للشَّجرةِ ؛ إذ هي الأصلُ ، لـٰكنَّ الانتفاعَ بثمرتِها ، فإذن لا بدَّ للعبدِ من العبادةِ ؛ ليسلمَ له شرفُ العلمِ ، ولا بدَّ أن يكونَ له من كلا الأمرينِ حظٌّ ونصيبٌ ، ولهـٰذا قالَ الحسنُ البصريُّ رحمَه اللهُ : (اطلبوا هـٰذا العلمَ طلباً لا يضرُّ بالعبادةِ ، واطلبوا هـٰذه العبادةَ طلباً لا يضرُّ بالعلمِ)[3] .

ولمَّا استقرَّ أنَّه لا بدَّ للعبدِ منهما جميعاً . . فالعلمُ أولىٰ بالتَّقديمِ لا محالةَ ؛ لأنَّه الأصلُ والدَّليلُ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « العلمُ إمامُ العملِ ، والعملُ تابعُه »[4] .

وإنَّما صارَ العلمُ أصلاً متبوعاً ، يلزمُك تقديمُه على العبادةِ لأمرينِ :

أحدُهما : لتحصلَ لك العبادةُ وتسلمَ ؛ فإنَّك أوَّلاً يجبُ عليكَ أن تعرفَ المعبودَ ثمَّ تعبدَه ، وكيفَ تعبدُ من لا تعرفُه بأسمائِه وصفاتِ ذاتِه ، وما يجبُ له وما يستحيلُ في نعتِه ؟! فربَّما تعتقدُ فيه وفي صفاتِه شيئاً ـ والعياذُ باللهِ ـ ممَّا يخالفُ الحقَّ ، فتكونُ عبادتُك هباءً منثوراً ، وقد شرحنا ما في ذلكَ من

---

(١) قال الإمام السخاوي رحمه الله تعالىٰ في « المقاصد الحسنة » (ص٤٤٦) : (في نسخة سمعان بن المهدي عن أنس مرفوعاً ، وكذا أورده الديلمي بلا سند عن أنس مرفوعاً بلفظ : « النظر إلىٰ وجه العالم عبادة » وكذا الجلوس معه والكلام والأكل ، ولا يصح) .

(٢) أخرجه الجرجاني في « تاريخ جرجان » (٢١٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٨/ ٢٥٥) .

(٤) أخرجه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢٦٨) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وأخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٣٨) وغيرُه موقوفاً علىٰ معاذ بن جبل رضي الله عنه .

الخطرِ العظيمِ في بيانِ معنىٰ سوءِ الخاتمةِ من (كتابِ الخوفِ) من جملةِ كتبِ « إحياءِ علومِ الدِّينِ » .

ثمَّ يجبُ أن تعلمَ ما يلزمُكَ فعلُه من الواجباتِ الشَّرعيَّةِ علىٰ ما أُمرتَ به لتفعلَ ذلكَ ، وما يلزمُكَ تركُه من المناهي لتتركَ ذلكَ ، وإلاَّ . . فكيف تقومُ بطاعاتٍ لا تعرفُها ما هي ، وكيف هي ، وكيف يجبُ أن تُفعلَ ؟ ! وكيف تجتنبُ معاصيَ لا تعلمُ أنَّها معاصٍ ، حتَّىٰ لا توقعَ نفسَك فيها ؟ !

فالعباداتُ الشَّرعيَّةُ ؛ كالطَّهارةِ والصَّلاةِ ، والصَّومِ وغيرِها ، يجبُ أن تعلمَها بأحكامِها وشرائطِها حتَّىٰ تقيمَها ، فربَّما أنت مقيمٌ علىٰ شيءٍ سنينَ وأزماناً ممَّا يفسدُ عليكَ طهارتَك وصلواتِك ، أو يخرجُهما عن كونِهما واقعتينِ علىٰ وفاقِ السُّنَّةِ وأنتَ لا تشعرُ بذلكَ ، وربَّما يعترضُ لك مشكلٌ ولا تجدُ من تسألُه عن ذلكَ ، وأنت ما تعلَّمتَه .

ثمَّ مدارُ هـٰذا الشَّأنِ أيضاً على العباداتِ الباطنةِ الَّتي هي مساعي القلبِ ، يجبُ أن تعلمَها ؛ من التَّوكُّلِ والتَّفويضِ ، والرِّضا والصَّبرِ ، والتَّوبةِ والإخلاصِ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا سيأتي ذكرُه إن شاءَ اللهُ تعالى .

ويجبُ أن تعلمَ مناهيَها الَّتي هي أضدادُ هـٰذه الأمورِ ؛ كالسُّخطِ والأملِ ، والرِّياءِ والكبرِ والعجبِ ؛ لتجتنبَ ذلكَ ؛ فإنَّ هـٰذه فرائضُ نصَّ اللهُ تعالىٰ على الأمرِ بها ، والنَّهيِ عن أضدادِها في كتابِه العزيزِ ، وعلىٰ لسانِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ـ كما قالَ تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ ، ﴿ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ ، ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ ، وقولِه تعالى : ﴿ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴾ أي : أخلِصْ إليه إخلاصاً ، ونحوِ ذلكَ من الآياتِ ـ كما نصَّ على الأمرِ بالصَّلاةِ والصَّومِ ، فما لك أقبلتَ على الصَّلاةِ والصَّومِ ، وتركتَ هـٰذه الفرائضَ والأمرُ بهما من ربٍّ واحدٍ ، في كتابٍ واحدٍ ؟! بل غفلتَ عنهما ، فلا تعرفُ شيئاً منهما ، فصرتَ ممَّن أصبحَ بعاجلِ حظِّه مشغوفاً ، حتَّىٰ صيَّرَ المعروفَ منكراً ، والمنكرَ معروفاً ، ومن أهملَ العلومَ الَّتي سمَّاها اللهُ تعالىٰ في كتابِه نوراً وحكمةً وهدىً ، وأقبلَ علىٰ ما به يكتسبُ الحرامَ ، ويكونُ مصيدةً

للحطامِ ، أما تخافُ أيُّها المسترشدُ أن تكونَ مضيِّعاً لشيءٍ من هـٰذهِ الواجباتِ بل لأكثرِها ، وتشتغلُ بصلاةِ التَّطوُّعِ وصومِ النَّفلِ ، فتكونُ في لا شيءٍ ؟

وربَّما أنت مصرٌّ علىٰ معصيةٍ من هـٰذه المعاصي الَّتي تستوجبُ بها النَّارَ ، وتتركُ مباحاً من طعامٍ أو شرابٍ أو نومٍ ، تبتغي به قربةً إلى اللهِ تعالى ، فتكونُ في لا شيءٍ .

وأشدُّ من ذلكَ كلِّه أنَّك تكونُ في أمرِ الأملِ ، والأملُ معصيةٌ محضةٌ ، فتظنُّه نيَّةَ خيرٍ ؛ لجهلِك بالفرقِ بينَهما وتقاربِهما في بعضِ الوجوهِ .

وكذلكَ تكونُ في جزعٍ وسخطٍ ، فتظنُّه تضرُّعاً وابتهالاً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، وتكونُ في رياءٍ محضٍ ، وتحسبُه حمداً للهِ سبحانَه ، أو دعوةً للنَّاسِ إلى الخيرِ ، فتأخذُ تعدُّ على اللهِ سبحانَه المعاصيَ بالطَّاعاتِ ، وتحتسبُ الثَّوابَ العظيمَ في موضعِ العقوباتِ ، فتكونُ في غرورٍ عظيمٍ ، وغفلةٍ قبيحةٍ ، وهـٰذه واللهِ مصيبةٌ فظيعةٌ للعاملينَ من غيرِ علمٍ .

ثمَّ مع ذلكَ إنَّ للأعمالِ الظَّاهرةِ علائقَ من المساعي الباطنةِ تصلحُها وتفسدُها ؛ كالإخلاصِ والرِّياءِ والعجبِ ، وذكرِ المنَّةِ وغيرِه ، فمن لم يعلمْ هـٰذه المساعيَ الباطنةَ ، ووجْهَ تأثيرِها في العباداتِ الظَّاهرةِ ، وكيفيَّةَ الاحتراسِ منها ، وحفظِ العملِ عنها . . فقلَّما يسلمُ له عملُ الظَّاهرِ أيضاً ، فتفوتُه طاعاتُ الظَّاهرِ والباطنِ ، فلا يبقىٰ بيدِه غيرُ الشَّقاءِ والكَدِّ ، وهـٰذا هو الخسرانُ المبينُ ، ولهـٰذا قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « إنَّ نوماً علىٰ علمٍ خيرٌ من صلاةٍ علىٰ جهلٍ »[1] ؛ فإنَّ العاملَ بغيرِ علمٍ يفسدُ أكثرَ ممَّا يصلحُ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في صفةِ العلمِ : « إنَّه يُلهَمُه السُّعداءُ ، ويُحرَمُه الأشقياءُ »[2] فالمعنىٰ ـ والعلمُ عندَ اللهِ ـ : أنَّ إحدىٰ شقوتيه ألاَّ يتعلَّمَ العلمَ ، ثمَّ يشقىٰ ويتعبُ في العبادةِ علىٰ خبطِ عشواءَ ، فما يكونُ له من ذلكَ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٣٨٥) عن سلمان الفارسي رضي الله عنه .

(٢) هـٰذا جزء من حديث طويل تقدم بعضه وتخريجه (ص٤٥) ، وهو حديث : « العلم إمام العمل ، والعمل تابعه » .

إلاَّ العناءُ ، نعوذُ باللهِ من علمٍ لا ينفعُ ، وعملٍ لا يُقبلُ ، ولهٰذا عظُمتْ عنايةُ العلماءِ الزُّهَّادِ العاملينَ رضيَ اللهُ عنهم بالعلمِ خاصَّةً من بينِ أفنانِ النَّاسِ ؛ فإنَّ مدارَ أمرِ العبوديَّةِ ، وملاكَ العبادةِ والخدمةِ للهِ ربِّ العالمينَ على العلمِ ، وهكذا يكونُ نظرُ أولي الأبصارِ ، وأهلِ التَّأييدِ والتَّوفيقِ .

فإذا تبيَّنَ لك بهٰذهِ الجملةِ أنَّ الطَّاعةَ لا تحصلُ للعبدِ ، ولا تسلمُ له إلاَّ بالعلمِ . . فيلزمُ إذن تقديمُه في شأنِ العبادةِ .

وأمَّا الخصلةُ الثَّانيةُ الَّتي توجبُ تقديمَ العلم : أنَّ العلمَ النَّافعَ يثمرُ خشيةَ اللهِ تعالىٰ ومهابتَه ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ ، وذلكَ أنَّ من لم يعرفْه حقَّ معرفتِه . . لم يهبْه حقَّ مهابتِه ، ولم يعظِّمْه حقَّ تعظيمِه وحرمتِه ، فبالعلمِ يعرفُه ويعظِّمُه ويهابُه ، فصارَ العلمُ يثمرُ الطَّاعةَ كلَّها ، ويحجزُ عن المعصيةِ كلِّها بتوفيقِ اللهِ تعالىٰ .

وليسَ وراءَ هٰذينِ مقصدٌ للعبدِ في عبادةِ اللهِ سبحانَه وتعالىٰ ، فعليكَ بالعلمِ ـ أرشدَكَ اللهُ يا سالكَ طريقِ الآخرةِ ـ أوَّلَ كلِّ شيءٍ ، واللهُ وليُّ التَّوفيقِ بفضلِه ورحمتِه .

ولعلَّكَ أن تقولَ : قد وردَ الخبرُ عن صاحبِ الشَّرعِ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه أنَّه قالَ : « طلبُ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ »[1] ، فما العلمُ الَّذي طلبُه فرضٌ لازمٌ ؟ وما الحدُّ الَّذي لا بدَّ للعبدِ من تحصيلِه في أمرِ العبادةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ العلومَ الَّتي طلبُها فرضٌ في الجملةِ ثلاثةٌ : علمُ التَّوحيدِ ، وعلمُ السِّرِّ ـ أعني به : ما يتعلَّقُ بالقلبِ ومساعيه ـ وعلمُ الشَّريعةِ .

وأمَّا حدُّ ما يجبُ من كلِّ واحدٍ منها : فالَّذي يتعيَّنُ فرضُه من علمِ التَّوحيدِ مقدارُ ما تعرفُ به أصولَ الدِّينِ ، وهو أنَّ لك إلهاً عالماً ، قادراً حيّاً ، مريداً متكلِّماً ، سميعاً بصيراً ، واحداً لا شريكَ له ، متَّصفاً بصفاتِ الكمالِ ، متنزِّهاً

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٢٨٣٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، والطبراني في « الكبير » (١٠/ ١٩٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه .

عن دلالاتِ الحدثِ ، منفرداً بالقِدمِ عن كلِّ محدَثٍ ، وأنَّ محمَّداً صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عبدُه ورسولُه ، الصَّادقُ فيما جاءَ به عن اللهِ سبحانَه وتعالى ، وفيما وردَ علىٰ لسانِه من أمورِ الآخرةِ .

ثمَّ مسائلُ في شعائرِ السُّنَّةِ تجبُ معرفتُها ، وإيَّاك أن تبتدعَ في دينِ اللهِ تعالىٰ ما لم يأتِ به كتابٌ ولا أثرٌ ، فتكونَ مع اللهِ سبحانَه علىٰ أعظمِ خطرٍ .

وجميعُ أدلَّةِ التَّوحيدِ موجودٌ أصلُها في كتابِ اللهِ تعالى ، وقد ذكرَها شيوخُنا رضيَ اللهُ عنهم في كتبِهم الَّتي صنَّفوها في أصولِ الدِّياناتِ .

وعلى الجملةِ : كلُّ ما لا تأمنُ الهلاكَ مع جهلِه فطلبُ علمِه فرضٌ لا يسوغُ لك تركُه ، فهـٰذه هـٰذه ، وباللهِ التَّوفيقُ .

وأمَّا الَّذي يتعيَّنُ فرضُه من علمِ السِّرِّ : فمعرفةُ مواجبِه ومناهيه ، حتَّىٰ يحصلَ لك تعظيمُ اللهِ تعالى ، والإخلاصُ ، والنِّيَّةُ ، وسلامةُ العملِ ، وعامَّةُ ذلكَ يأتي في كتابِنا هـٰذا إن شاءَ اللهُ تعالى .

وأمَّا ما يتعيَّنُ من علمِ الشَّريعةِ : فكلُّ ما تعيَّنَ عليكَ فرضُ فعلِه وجبَ عليكَ معرفتُه لتؤدِّيَه ، كالطَّهارةِ والصَّلاةِ والصِّيامِ ، وأمَّا الحجُّ والجهادُ والزَّكاةُ : إن تعيَّنَ عليكَ . . وجبَ عليكَ علمُه لتؤدِّيَه ، وإلاَّ . . فلا .

فهـٰذا حدُّ ما يلزمُ العبدَ تحصيلُه من العلمِ لا محالةَ ، ويتعيَّنُ فرضُه بحيثُ لا بدَّ لك من ذٰلكَ .

فإن قلتَ : فهل يُفترضُ عليَّ أن أتعلَّمَ من علمِ التَّوحيدِ ما أنقضُ به جميعَ مللِ الكفرِ وألزمُهم حجَّةَ الإسلامِ ، وأنقضُ به جميعَ البدعِ وألزمُهم حجَّةَ السُّنَّةِ ؟

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا فرضٌ على الكفايةِ ، وإنَّما يتعيَّنُ عليكَ ما تصحِّحُ به اعتقادَكَ في أصولِ الدِّينِ لا غيرُ .

وكذلكَ لا يتعيَّنُ عليكَ معرفةُ فروعِ علمِ التَّوحيدِ ودقائقِه ، والإتيانُ علىٰ جميعِ مسائلِه .

نعمْ ؛ إن وردتْ عليكَ شبهةٌ في أصولِ الدِّينِ ، تخافُ أن تقدحَ في

اعتقادِك . . فيتعيَّنُ عليكَ حلُّ تلكَ الشُّبهةِ بما أمكنَ من الكلامِ المُقنعِ ، وإيَّاكَ والمماراةَ والمجادلةَ ؛ فإنَّها داءٌ محضٌ لا دواءَ له ، فاحترزْ منه جهدَك ؛ فإنَّ من ارتداه . . لم يفلحْ إلاَّ أن يتغمَّدَه اللهُ تعالىٰ برحمتِه ولطفِه .

ثمَّ اعلمْ : أنَّه إذا كانَ في كلِّ قطرٍ داعٍ من دعاةِ أهلِ السُّنَّةِ ، يحُلُّ الشُّبهةَ ، ويردُّ علىٰ أهلِ البدعِ ، ويشتغلُ بهٰذا العلمِ ، ويصفِّي قلوبَ أهلِ الحقِّ عن وساوسِ المبتدعةِ . . فقد سقطَ الفرضُ عمَّن سواه .

وكذلكَ لا يلزمُك من معرفةِ دقائقِ علمِ السِّرِّ ، وجميعِ شرحِ عجائبِ القلبِ إلاَّ ما يفسدُ عليكَ عبادتَك ، فتجبُ عليكَ معرفتُهُ لتجتنبَه .

وما يلزمُك فعلُه ؛ كالإخلاصِ والحمدِ ، والشُّكرِ والتَّوكُّلِ ، ونحوِ ذلك . . فيلزمُك معرفتُه لتؤدِّيَه ، وأمَّا ما سواه فلا .

وكذلكَ لا يلزمُك معرفةُ سائرِ أبوابِ الفقهِ ؛ من البيوعِ والإجاراتِ ، والنِّكاحِ والطَّلاقِ والجناياتِ ، إنَّما كلُّ ذلك فرضٌ على الكفايةِ .

فإن قلتَ : هٰذا القدْرُ من علمِ التَّوحيدِ هل يحصلُ بنظرِ الإنسانِ من غيرِ معلِّمٍ ؟

فاعلمْ : أنَّ الأستاذَ فاتحٌ ومعلِّمٌ ومسهِّلٌ ، والتَّحصيلُ معه أسهلُ وأروحُ ، واللهُ تعالىٰ بفضلِه يمنُّ علىٰ من يشاءُ من عبادِه ، فيكونُ هو معلِّمَهم سبحانَه وتعالى .

ثمَّ اعلمْ : أنَّ هٰذه العقبةَ الَّتي هي عقبةُ العلمِ عقبةٌ كؤودٌ ، ولٰكنْ بها يُنالُ المطلوبُ والمقصودُ ، نفعُها كثيرٌ ، وقطعُها شديدٌ ، وخطرُها عظيمٌ ، كم مَن عدلَ عنها فضلَّ ، وكم مَن سلكَها فزلَّ ، وكم مِن تائهٍ فيها متحيِّرٌ ، وكم مِن حسيرٍ فيها منقطعٌ[1] ، وكم مِن سالكٍ قطعَها في مدَّةٍ يسيرةٍ ، وآخرُ متردِّدٌ فيها سبعينَ سنةً ، والأمرُ كلُّه بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

---

(١) حسير : ضعيف متلهِّف .

أمَّا نفعُه : فعلىٰ ما ذكرناه من شدَّةِ الحاجةِ للعبدِ إليه ، وبناءِ أمرِ العبادةِ كلِّه عليه ، لا سيَّما علمِ التَّوحيدِ وعلمِ السِّرِّ ، فلقد رويَ : أنَّ اللهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داوودَ عليه السَّلامُ فقالَ : يا داوودُ ؛ تعلَّمِ العلمَ النَّافعَ ، فقالَ : إلهي ؛ وما العلمُ النَّافعُ ؟ قالَ : أن تعرفَ جلالي وعظمتي وكبريائي ، وكمالَ قدرتي علىٰ كلِّ شيءٍ ؛ فإنَّ هـٰذا الَّذي يقرِّبُك إليَّ .

وعن عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَه أنَّه قالَ : (ما يسرُّني أن لو متُّ طفلاً وأُدخلْتُ الجنَّةَ ولم أكبَرْ فأعرفَ ربِّي)[1] ؛ فإنَّ أعلمَ النَّاسِ باللهِ أشدُّهم له خشيةً ، وأكثرُهم عبادةً ، وأحسنُهم في اللهِ سبحانَه وتعالىٰ نصيحةً .

وأمَّا شدَّتُها[2] : فابذلْ نفسَك في الإخلاصِ في طلبِ العلمِ ، وليكنِ الطَّلبُ طلبَ درايةٍ لا طلبَ روايةٍ .

واعلمْ : أنَّ الخطرَ عظيمٌ ، فمن طلبَ العلمَ ليصرفَ به وجوهَ النَّاسِ إليه ، ويجالسَ به الأمراءَ ، ويباهيَ به النُّظراءَ ، ويتصيَّدَ به الحطامَ . . فتجارتُه بائرةٌ ، وصفقتُه خاسرةٌ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « من طلبَ العلمَ ليفاخرَ به العلماءَ ، أو ليماريَ به السُّفهاءَ ، أو ليصرفَ به وجوهَ النَّاسِ إليه . . أدخلَه اللهُ النَّارَ »[3] .

قالَ أبو يزيدَ البَسطاميُّ رحمَه اللهُ : (عملتُ في المجاهدةِ ثلاثينَ سنةً ، فما وجدتُ شيئاً أشدَّ عليَّ من العلمِ وخطرِه)[4] .

وإيَّاكَ أن يزيِّنَ لك الشَّيطانُ فيقولَ لك : إذا كانَ قد وردَ هـٰذا الخطرُ العظيمُ في العلمِ . . فتركُه أولى ، فلا تظنَّنَّ ذلكَ ، فلقد رويَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قالَ : « أُطلِعتُ ليلةَ المعراجِ على النَّارِ ، فرأيتُ أكثرَ أهلِها

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٧٤) .
(٢) أي : عقبة العلم .
(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٥٤) عن كعب بن مالك رضي الله عنه ، وابن ماجه (٢٥٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما .
(٤) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣٦) .

الفقراءَ » قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ من المالِ ؟ قالَ : « لا ، بل من العلمِ » .

فمن لم يتعلَّمِ العلمَ . . لا تتأتَّىٰ له أحكامُ العبادةِ والقيامُ بحقوقِها ، ولو أنَّ رجلاً عبدَ اللهَ سبحانَه عبادةَ ملائكةِ السَّماواتِ بغيرِ علمٍ . . كانَ من الخاسرينَ ، فشمِّرْ في طلبِ العلمِ بالبحثِ والتَّلقينِ والتَّدريسِ ، واجتنبِ الكسلَ والمَلالَ ، وإلاَّ . . فأنت في خطرِ الضَّلالِ والعياذُ باللهِ عزَّ وجلَّ .

ثمَّ جملةُ الأمرِ : أنَّك إذا نظرتَ في دلائلِ صنعِ اللهِ تعالى ، وأمعنْتَ النَّظرَ ، فعلمتَ أنَّ لك إلهاً قادراً ، عالماً حيّاً ، مريداً سميعاً ، بصيراً متكلِّماً ، منزَّهاً عن حدوثِ الكلامِ والعلمِ والإرادةِ ، مقدَّساً عن كلِّ نقصٍ وآفةٍ ، لا يوصفُ بصفاتِ المحدَثينَ ، ولا يجوزُ عليه ما يجوزُ على المخلوقينَ ، ولا يشبهُ شيئاً من خلقِه ، ولا يشبهُه شيءٌ ، ولا تتضمَّنُه الأماكنُ والجهاتُ ، ولا تحلُّه الحوادثُ والآفاتُ .

ونظرتَ في معجزاتِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، وأعلامِ نبوَّتِه ، فعلمتَ أنَّه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، وأمينُه علىٰ وحيِه .

وما كانَ السَّلفُ الصَّالحُ يعتقدونَه ؛ من أنَّ اللهَ تعالىٰ يُرىٰ في الآخرةِ ؛ لأنَّه موجودٌ ، وليسَ في جهةٍ محدودةٍ ، وهو غيرُ محدودٍ ، وأنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ تعالىٰ غيرُ مخلوقٍ ، ليسَ بحروفٍ مقطَّعةٍ ، ولا أصواتٍ مختلَقةٍ ؛ إذ لو كانَ كذلكَ . . لكانَ من جملةِ المخلوقاتِ ، وأنَّه لا يكونُ في الملكِ والملكوتِ فلتةُ خاطرٍ[1] ، ولا لفتةُ ناظرٍ ، إلاَّ بقضاءِ اللهِ تعالىٰ وقدرِه ، وإرادتِه ومشيئتِه سبحانَه ، فمنه الخيرُ والشَّرُّ ، والنَّفعُ والضُّرُّ ، والإيمانُ والكفرُ ، وأنَّه لا واجبَ على اللهِ تعالىٰ لأحدٍ من خلقِه ، فمن أثابَه . . فبفضلِه ، ومن عاقبَه . . فبعدلِه .

وما وردَ علىٰ لسانِ صاحبِ الشَّرعِ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه من أمورِ الآخرةِ ؛ كالحشرِ والنَّشرِ ، وعذابِ القبرِ ، وسؤالِ منكرٍ ونكيرٍ ، والميزانِ والصِّراطِ .

---

(١) **الملك والملكوت** : العالم السفلي والعلوي .

فهٰذه أصولُ درجَ السَّلفُ رضوانُ اللهِ عليهم على اعتقادِها والتَّمسُّكِ بها ، ووقعَ عليها الإجماعُ قبلَ تنوُّعِ البدعِ وظهورِ الأهواءِ ، نعوذُ باللهِ من الابتداعِ في الدِّينِ ، واتِّباعِ الهوىٰ بغيرِ دليلٍ .

ثمَّ نظرتَ في أعمالِ القلبِ والمواجبِ الباطنةِ ، والمناهي الَّتي تأتي في هٰذا الكتابِ ليحصلَ لك علمُه .

ثمَّ تعرفُ جملةَ ما تحتاجُ إلى استعمالِه ؛ كالطَّهارةِ والصَّلاةِ ، والصَّومِ ونحوِه .

فإن فعلتَ ذلك[1] . . فقد أدَّيتَ فرضَ اللهِ تعالىٰ عليكَ الَّذي تعبَّدَكَ به في بابِ العلمِ ، ولقد صرتَ من علماءِ أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، الرَّاسخينَ في العلمِ ، إن عملتَ بعلمِك ، وأقبلتَ علىٰ عمارةِ معادِك ، وكنتَ عبداً عالماً عاملاً للهِ تعالىٰ علىٰ بصيرةٍ غيرَ جاهلٍ ولا مقلِّدٍ ولا غافلٍ ، ولك الشَّرفُ العظيمُ ، ولعلمِك القيمةُ الكثيرةُ والثَّوابُ الجزيلُ ، وكنتَ قد قطعتَ هٰذه العقبةَ وخلَّفتَها وراءَك ، وقضيتَ حقَّها بإذنِ اللهِ تعالى ، واللهُ سبحانَه المسؤولُ أن يمدَّك وإيَّانا بحسنِ توفيقِه وتيسيرِه ، إنَّه أرحمُ الرَّاحمينَ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيمِ .

* * *

---

(١) قوله : (فإن فعلت ذلك. . .) جواب الشرط لقوله : (إذا نظرت في دلائل صنع الله تعالىٰ. . .) ، والمعنى : أنك إذا نظرت في دلائل صنع الله تعالى ، ومعجزات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما كان السلف الصالح يعتقدونه ، وما ورد علىٰ لسان صاحب الشرع ، ثم نظرت في أعمال القلب ، ثم عرفت جملة ما يحتاج إليه العبد. . فقد أديت فرض الله عليك في باب العلم ، والله أعلم .

العقبةُ الثَّانيةُ
وهي عقبةُ التَّوبةِ

ثمَّ عليكَ يا طالبَ العبادةِ ـ وفَّقَك اللهُ ـ بالتَّوبةِ ، وذلكَ لأمرينِ :

أحدُهما : ليحصلَ لك توفيقُ الطَّاعةِ ؛ فإنَّ شؤمَ الذُّنوبِ يورثُ الحرمانَ ، ويعقبُ الخذلانَ ، وإنَّ قيدَ الذُّنوبِ يمنعُ من المشيِ إلىٰ طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ والمسارعةِ إلىٰ خدمتِه ؛ لأنَّ ثقلَ الذُّنوبِ يمنعُ من الخفَّةِ للخيراتِ ، والنَّشاطِ في الطَّاعاتِ ، وإنَّ الإصرارَ على الذُّنوبِ يسوِّدُ القلوبَ ، فتجدُها في ظلمةٍ وقساوةٍ ، ولا خلوصَ فيها ولا صفاوةَ ، ولا لذَّةَ ولا حلاوةَ ، وإن لم يرحمِ اللهُ تعالى . . فستجرُّ صاحبَها إلى الكفرِ والشَّقاوةِ .

فيا عجباً كيف يُوفَّقُ للطَّاعةِ من هو في شؤمٍ وقسوةٍ ؟! وكيف يُدعىٰ إلى الخدمةِ من هو مصرٌّ على المعصيةِ والجفوةِ ؟! وكيف يُقرَّبُ للمناجاةِ من هو متلطِّخٌ بالأقذارِ والنَّجاساتِ ؟! ففي الخبرِ عن الصَّادقِ المصدوقِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قالَ : « إذا كذبَ العبدُ . . تنحَّى الملكانِ عن نتَنِ ما يخرجُ من فيه »[1] ، فكيف يصلحُ هـٰذا اللِّسانُ لذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ؟!

فلا جرمَ لا يكادُ يجدُ المصرُّ على العصيانِ توفيقاً ، ولا تَخِفُّ أركانُه لعبادةِ اللهِ تعالى ، وإن ٱتَّفقَ . . فبكدٍّ لا حلاوةَ معه ولا صفوةَ ، وكلُّ ذلكَ لشؤمِ الذُّنوبِ وتركِ التَّوبةِ ، ولقد صدقَ من قالَ : (إذا لم تقوَ علىٰ قيامِ اللَّيلِ وصيامِ

---

(1) أخرجه الترمذي (١٩٧٢) ، والطبراني في « الأوسط » (٧٣٩٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٩٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما .

النَّهارِ . فاعلمْ أنَّك مكبولٌ ، وقد كبَّلتْك خطيئتُك)[1] ، فهٰذه هٰذه .

والثَّاني من الأمرينِ : إنَّما تلزمُك التَّوبةُ لتُقبَلَ منك عبادتُك ؛ فإنَّ ربَّ الدِّينِ لا يقبلُ الهديَّةَ ، وذلك أنَّ التَّوبةَ عن المعاصي وإرضاءَ الخصومِ فرضٌ لازمٌ ، وعامَّةُ العبادةِ الَّتي تقصدُها نفلٌ ، فكيف يُقبلُ منك تبرُّعُك والدَّينُ عليكَ حالٌّ لم تقضِه ؟! وكيف تتركُ لأجلِه الحلالَ والمباحَ وأنت مصرٌّ علىٰ فعلِ المحظورِ والحرامِ ؟! وكيف تناجيه وتدعوه وتثني عليه وهو ـ والعياذُ باللهِ ـ عليكَ غضبانُ ؟!

فهٰذا ظاهرُ حالِ العصاةِ المصرِّينَ على المعصيةِ ، واللهُ المستعانُ .

فإن قلتَ : فما معنى التَّوبةِ النَّصوحِ وحدُّها ؟ وما ينبغي للعبدِ أن يفعلَه حتَّىٰ يخرجَ من ٱلذُّنوبِ كلِّها ؟

فأقولُ : أمَّا التَّوبةُ : فإنَّها سعيٌ من مساعي القلبِ ، وهي عندَ التَّحصيلِ في قولِ العلماءِ رضيَ اللهُ عنهم : تنزيهُ القلبِ عن الذَّنبِ .

قالَ شيخُنا رحمَه اللهُ في حدِّ التَّوبةِ : إنَّه تركُ ٱختيارِ ذنبٍ سبقَ مثلُه عنه ، منزلةً لا صورةً ، تعظيماً للهِ تعالى ، وحذراً من سخطِه .

فلها إذن أربعُ شرائطَ :

إحداها : تركُ ٱختيارِ الذَّنبِ ، وهو أن يوطِّنَ قلبَه ، ويجرِّدَ عزمَه علىٰ أنَّه لا يعودُ إلى ٱلذَّنبِ ألبتَّةَ ، فأمَّا إن تركَ الذَّنبَ وفي نفسِه أنَّه ربَّما يعودُ إليه ، أو لا يَعزِمُ علىٰ ذلكَ ، بل يتردَّدُ ، فإنَّه ربَّما يقعُ له العودُ . فإنَّه ممتنعٌ عن الذَّنبِ غيرُ تائبٍ عنه .

والثَّانيةُ : أن يتوبَ من ذنبٍ قد سبقَ عنه مثلُه ؛ إذ لو لم يسبقْ عنه مثلُه . . لكانَ متَّقياً غيرَ تائبٍ ، ألا ترىٰ أنَّه يصحُّ القولُ بأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ متَّقياً عن الكفرِ ، ولا يصحُّ القولُ بأنَّه كانَ تائباً عن الكفرِ ؟ إذ لم يسبقْ عنه كفرٌ

---

(1) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٨٣٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/٩٦) من قول الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى .

بحالٍ ، وأنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنه كانَ تائباً عن الكفرِ ؛ لِمَا سبقَ عنه ذلكَ .

والثَّالثةُ : أنَّ الَّذي سبقَ يكونُ مثلَ ما يتركُ اختيارَه في المنزلةِ والدَّرجةِ لا في الصُّورةِ ، ألا ترىٰ أنَّ الشَّيخَ الهرِمَ الفانيَ الَّذي قد سبقَ منه الزِّنا وقطعُ الطَّريقِ إذا أرادَ أن يتوبَ عن ذلكَ . . تمكنُه التَّوبةُ لا محالةَ ؟ إذ لم يُغلَقْ عنه بابُها ، ولا يمكنُه تركُ اختيارِ الزِّنا وقطعِ الطَّريقِ ؛ إذ هو لا يقدرُ السَّاعةَ علىٰ فعلِ ذلكَ ، فلا يقدرُ علىٰ تركِه ، فلا يصحُّ وصفُه بأنَّه تاركٌ له ممتنعٌ عنه وهو عاجزٌ عنه غيرُ متمكِّنٍ منه ، لـٰكنَّه يقدرُ علىٰ ما هو مثلُ الزِّنا وقطعِ الطَّريقِ في المنزلةِ والدَّرجةِ ؛ كالقذفِ والغيبةِ والنَّميمةِ ؛ إذ جميعُ ذلكَ معاصٍ وإن كانَ الإثمُ يتفاوتُ في كلِّ واحدةٍ بقدرِها .

لـٰكنْ جميعُ هـٰذه المعاصي الفرعيَّةِ كلِّهَا بمنزلةٍ واحدةٍ ، وهي دونَ منزلةِ البدعةِ ، ومنزلةُ البدعةِ دونَ منزلةِ الكفرِ ، فلذلكَ صحَّ منه التَّوبةُ عن الزِّنا وقطعِ الطَّريقِ وسائرِ ما مضىٰ من الذُّنوبِ الَّتي هو عاجزٌ عن أمثالِها اليومَ في الصُّورةِ .

والرَّابعةُ : أن يكونَ تركُ اختيارِه لذلكَ تعظيماً للهِ سبحانَه وتعالى ، وحذراً من سخطِه وأليمِ عقابِه ، مجرَّداً لا لرغبةٍ دنيويَّةٍ ، أو رهبةٍ من النَّاسِ ، أو طلبِ ثناءٍ وصِيتٍ ، أو ضعفٍ في النَّفسِ ، أو فقرٍ ، أو غيرِ ذلكَ .

فهـٰذه شرائطُ التَّوبةِ وأركانُها ، فإذا حُصِّلتْ واستُكمِلتْ . . فهي توبةٌ حقيقةٌ صادقةٌ .

وأمَّا مقدِّماتُ التَّوبةِ فثلاثٌ :

إحداها : ذكرُ غايةِ قبحِ الذُّنوبِ .

والثَّانيةُ : ذكرُ شدَّةِ عقوبةِ اللهِ تعالى ، وأليمِ سخطِه وغضبِه الَّذي لا طاقةَ لك به .

والثَّالثةُ : ذكرُ ضعفِك وقلَّةِ حيلتِك في ذلكَ ؛ فإنَّ من لا يحتملُ حرَّ شمسٍ ، ولطمةَ شُرَطيٍّ ، وقرصَ نملةٍ . . كيف يحتملُ حرَّ نارِ جهنَّمَ ، وضربَ مقامعِ

الزَّبانيةِ ، ولسعَ حيَّاتٍ كأعناقِ البُختِ ، وعقاربَ كالبغالِ ، خُلقتْ من النَّارِ في دارِ الغضبِ والبوارِ ؟! نعوذُ باللهِ من سخطِه وعذابِه .

فإذا واظبتَ علىٰ هٰذه الأذكارِ ، وعاودتَها آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ . . فإنَّها ستحملُك على التَّوبةِ النَّصوحِ من الذُّنوبِ ، واللهُ الموفِّقُ بفضلِه .

فإن قيلَ : أليسَ قد قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « النَّدمُ توبةٌ »[1] ، ولم يذكرْ ممَّا ذكرتُم من شرائطِها وشدَّدتُم شيئاً ؟

يقالُ له : اعلمْ أوَّلاً : أنَّ النَّدمَ غيرُ مقدورٍ للعبدِ ، ألا ترىٰ أنَّه تقعُ النَّدامةُ عن أمورٍ في قلبِه وهو يريدُ ألاَّ يكونَ ذلكَ ، والتَّوبةُ مقدورةٌ للعبدِ مأمورٌ بها ؟

ثمَّ إنَّا قد علمنا أنَّه لو ندمَ على الذُّنوبِ لَمَّا ذهبَ بذلكَ جاهُه بينَ النَّاسِ ، أو مالُه في النَّفقةِ فيها[2] . . فإنَّ ذلكَ لا يكونُ توبةً بلا ريبٍ ، فعلمتَ بذلكَ أنَّ في الخبرِ معنىً لم تفهمْه من ظاهرِه ، وهو أنَّ النَّدمَ لتعظيمِ اللهِ سبحانَه وتعالىٰ وخوفِ عقابِه ممَّا يبعثُ على التَّوبةِ النَّصوحِ ، فإنَّ ذلكَ من صفاتِ التَّائبينَ وحالِهم ، فإنَّه إذا ذكرَ الأذكارَ الثَّلاثةَ الَّتي هي مقدِّماتُ التَّوبةِ . . يندمُ ، وحملتْه النَّدامةُ علىٰ تركِ اختيارِ الذَّنبِ ، وتبقىٰ ندامتُه في قلبِه في المستقبلِ ، فتحملُه على الابتهالِ والتَّضرُّعِ ، فلمَّا كانَ ذلكَ من أسبابِ التَّوبةِ وصفاتِ التَّائبِ . . سمَّاه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ باسمِ التَّوبةِ ، فافهمْ ذلكَ موفَّقاً إن شاءَ اللهُ تعالى .

فإن قلتَ : كيف يمكنُ الإنسانَ أن يصيرَ بحيثُ لا يقعُ منه ذنبٌ ألبتَّةَ من صغيرٍ أو كبيرٍ ؟ كيف وأنبياءُ اللهِ صلواتُ اللهِ عليهم الَّذينَ هم أشرفُ خلقِ اللهِ سبحانَه وتعالىٰ قد اختَلفَ فيهم أهلُ العلمِ : هل نالوا هٰذه الدَّرجةَ أم لا ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰذا أمرٌ ممكنٌ غيرُ مستحيلٍ ، ثمَّ هو هيِّنٌ ، واللهُ تعالىٰ يختصُّ برحمتِه من يشاءُ .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦١٢) ، والحاكم (٤/ ٢٤٣) ، وابن ماجه (٤٢٥٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) الضمير عائد على الذنوب .

ثمَّ من شرطِ التَّوبةِ : ألاَّ يتعمَّدَ ذنباً ، فأمَّا إن وقعَ منه بسهوٍ أو خطأٍ . . فهو معفوٌّ عنه بفضلِ اللهِ تعالى ، وهـٰذا هيِّنٌ علىٰ من وفَّقه اللهُ تعالى .

فإن قلتَ : إنَّما يمنعني من التَّوبةِ أنِّي أعلمُ من نفسي أنِّي أعودُ إلى الذَّنبِ ولا أثبتُ على التَّوبةِ ؛ فلا فائدةَ في ذلكَ .

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا من غرورِ الشَّيطانِ ، ومن أينَ لك هـٰذا العلمُ ؟ فعسىٰ أن تموتَ تائباً قبلَ أن تعودَ إلى الذَّنبِ .

وأمَّا الخوفُ من العودِ : فعليكَ العزمُ والصِّدقُ في ذلكَ وعليه الإتمامُ ، فإن أتمَّ . . فذاكَ من فضلِه ، وإن لم يتمَّ . . فقد غُفرَتْ ذنوبُك السَّالفةُ كلُّها ، وتخلَّصتَ منها وتطهَّرتَ ، وليسَ عليكَ إلاَّ هـٰذا الذَّنبُ الَّذي أحدثتَه الآنَ ، وهـٰذا هو الرِّبحُ العظيمُ ، والفائدةُ العظيمةُ الكبيرةُ ، ولا يمنعُك خوفُ العودِ عن التَّوبةِ ؛ فإنَّك من التَّوبةِ أبداً بينَ إحدى الحسنَيَيْنِ[1] ، واللهُ تعالىٰ وليُّ التَّوفيقِ والهدايةِ ، فهـٰذه هـٰذه .

وأمَّا الخروجُ عن الذُّنوبِ والتَّخلُّصُ منها : فاعلمْ أنَّ الذُّنوبَ في الجملةِ ثلاثةُ أقسامٍ :

أحدُها : تركُ واجباتِ اللهِ سبحانَه وتعالىٰ عليكَ ؛ من صلاةٍ ، أو صومٍ ، أو زكاةٍ ، أو كفَّارةٍ ، أو غيرِها ، فتقضي ما أمكنَك منها .

والثَّاني : ذنوبٌ بينَك وبينَ اللهِ سبحانَه وتعالى ؛ كشربِ الخمرِ ، وضربِ المزاميرِ ، وأكلِ الرِّبا ، ونحوِ ذلكَ ، فتندَمُ علىٰ ذلكَ ، وتوطِّنُ قلبَك علىٰ تركِ العودِ إلىٰ مثلِها أبداً .

والثَّالثُ : ذنوبٌ بينَك وبينَ العبادِ ، وهـٰذا أشكلُ وأصعبُ ، وهي أقسامٌ : قد تكونُ في المالِ ، وفي النَّفسِ ، وفي العِرضِ ، وفي الحُرمةِ ، وفي الدِّينِ .

فما كانَ في المالِ : فيجبُ أن تردَّه عليه إن أمكنَك ، فإن عجزتَ عن ذلكَ

---

(١) أي : المتقدمتين ، وهما : الاستمرار على التوبة وهو المقصود ، أو غفران الذنوب من ذي الإحسان والجود .

لعَدَمٍ أو فقرٍ . . فتستحلُّ منه ، وإن عجزتَ عن ذلكَ لغَيبةِ الرَّجلِ أو موتِه وأمكنَ التَّصدُّقُ عنه . . فافعلْ ، وإن لم يمكنْ . . فعليكَ بتكثيرِ حسناتِك[1] ، والرُّجوعِ إلى اللهِ سبحانَه وتعالىٰ بالتَّضرُّعِ والابتهالِ إليه أن يرضيَه عنك يومَ القيامةِ .

وأمَّا ما كانَ في النَّفسِ : فتمكِّنُه من القصاصِ أو أولياءَه حتَّىٰ يقتصَّ منك ، أو يجعلَك في حِلٍّ ، فإن عجزتَ . . فالرُّجوعُ إلى اللهِ سبحانَه والابتهالُ إليه أن يرضيَه عنك يومَ القيامةِ .

وأمَّا العرضُ : فإنِ اغتبتَه أو بهتَّه أو شتمتَه . . فحقُّك أن تكذِّبَ نفسَك بينَ يديْ من فعلتَ ذلكَ عندَه ، وأن تستحلَّ من صاحبِه إن أمكنَك ، هٰذا إن لم تخشَ زيادةَ غيظٍ أو هيجَ فتنةٍ في إظهارِ ذلكَ أو تجديدِه ، فإن خشيتَ ذلكَ . . فالرُّجوعُ إلى اللهِ سبحانَه وتعالىٰ ليرضيَه عنك ، ويجعلَ له خيراً كثيراً في مقابلتِه ، والاستغفارُ الكثيرُ لصاحبِه .

وأمَّا الحرمةُ ؛ بأن خُنتَه في أهلِه وولدِه أو نحوِه : فلا وجهَ للاستحلالِ والإظهارِ ؛ لأنَّه يولِّدُ فتنةً وغيظاً ، بل تتضرَّعُ إلى اللهِ سبحانَه ليرضيَه عنك ، ويجعلَ له خيراً كثيراً في مقابلتِه ، فإن أمنتَ الفتنةَ والهيجَ ـ وهو نادرٌ ـ فتستحلُّ منه .

وأمَّا في الدِّينِ ؛ بأن كفَّرتَه أو بدَّعتَه أو ضلَّلتَه : فهو أصعبُ الأمورِ ، فتحتاجُ إلىٰ تكذيبِ نفسِك بينَ يديْ من قلتَ له ذلكَ ، وأن تستحلَّ من صاحبِك إن أمكنَك ، وإلاَّ . . فالابتهالُ إلى اللهِ سبحانَه وتعالىٰ جدّاً ، والتَّندُّمُ علىٰ ذلك ليرضيَه عنك .

وجملةُ الأمرِ : فما أمكنَك من إرضاءِ الخصومِ . . عملتَ ، وما لم يمكنْك . . رجعتَ إلى اللهِ سبحانَه وتعالىٰ بالتَّضرُّعِ والصِّدقِ ليرضيَه عنك ، فيكونُ ذلكَ في مشيئةِ اللهِ سبحانَه يومَ القيامةِ ، والرَّجاءُ منه بفضلِه العظيمِ ،

---

(١) حتىٰ يُؤخذ منها ويوضع في موازين أرباب المظالم ، كما في الخبر المشهور في « مسلم » (٢٥٨١) ، و« ابن حبان » (٤٤١١) .

وإحسانِه العميمِ : أنَّه إذا علمَ الصِّدقَ من قلبِ العبدِ . . فإنَّه يرضي خصماءَه عنه من خِزانةِ فضلِه ، ولا حكمَ[1] ، فاعلمْ هٰذه حقَّها راشداً ، فهٰذه هٰذه .

فإذا أنت عملتَ ما وصفناه ، وبرَّأتَ القلبَ عن اختيارِ مثلِها في المستقبلِ . . فقد خرجتَ من الذُّنوبِ كلِّها ، وإن حصلَتْ منك تبرئةُ القلبِ ، ولم يحصلْ منك قضاءُ الفوائتِ ، وإرضاءُ الخصومِ . . فالتَّبعاتُ لازمةٌ[2] ، وسائرُ الذُّنوبِ مغفورةٌ .

ولهٰذا البابِ شرحٌ يطولُ ؛ فلا يحتملُه هٰذا المختصرُ ، وانظرْ (كتابَ التَّوبةِ) من كتبِ « إحياءِ علومِ الدِّينِ » أوَّلاً ، وكتابَ « القربةِ إلى اللهِ تعالى » ثانياً ، وكتابَ « الغايةِ القصوى » ثالثاً . . تجدْ فوائدَ كثيرةً ، وشرحاً جمّاً ، والَّذي ذكرناه هٰهنا هو الأصلُ الَّذي لا بدَّ منه ، وباللهِ التَّوفيقُ .

فصل

[في بيان حقيقة التوبة وما جاء في ذلك من أقوال السلف]

ثمَّ اعلمْ يقيناً أنَّ هٰذه العقبةَ عقبةٌ صعبةٌ ، أمرُها مهمٌّ ، وضررُها عظيمٌ ، فلقد بلغَنا عن الأستاذِ أبي إسحاقَ الإسفَراييني رحمَه اللهُ تعالىٰ ـ وكانَ من الرَّاسخينَ في العلمِ ، العاملينَ به ـ : أنَّه قالَ : دعوتُ اللهَ سبحانَه ثلاثينَ سنةً أن يرزقَني توبةً نصوحاً ، ثمَّ تعجَّبتُ في نفسي وقلتُ : سبحانَ اللهِ ! حاجةٌ دعوتُ اللهَ سبحانَه فيها ثلاثينَ سنةً فما قُضيَتْ إلى الآنَ ، فرأيتُ فيما يرى النَّائمُ كأنَّ قائلاً يقولُ لي : أتتعجَّبُ من ذلكَ ؟ أتدري ماذا تسألُ اللهَ سبحانَه ؟ إنَّما تسألُ اللهَ سبحانَه أن يحبَّك ، أمَا سمعْتَ قولَه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ؟ أهٰذه حاجةٌ هيِّنةٌ ؟

فانظرْ إلىٰ هؤلاءِ الأئمَّةِ واهتمامِهم ، ومواظبتِهم علىٰ صلاحِ قلوبِهم ، والتَّزوُّدِ لمعادِهم .

---

(١) أي : إرضاءُ الخصوم بفضل الله تعالىٰ لا بحكمٍ لازمٍ لذلك .

(٢) التبعات : حقوق الآدميين .

وأمَّا الضَّررُ المخوفُ في تأخيرِ التَّوبةِ : فإنَّ أوَّلَ الذَّنبِ قسوةٌ ، وآخرَه ـ والعياذُ باللهِ ـ شؤمٌ وشقوةٌ ، فإيَّاك أن تنسىٰ أمرَ إبليسَ وبلعمَ بنِ باعوراءَ[1] ، كانَ مبتدأُ أمرِهما ذنباً ، وآخرُه كفراً ، فهلكا معَ الهالكينَ أبدَ الآبدينَ .

فعليكَ ـ رحمَك اللهُ ـ بالتَّيقُّظِ والجهدِ ، عسىٰ أن تقلعَ من قلبك عِرقَ هٰذا الإصرارِ ، وتخلِّصَ رقبتَك من هٰذه الأوزارِ ، ولا تأمنْ قساوةَ القلبِ من الذُّنوبِ ، وتأمَّلْ حالَك ، فلقد قالَ بعضُ الصَّالحينَ : إنَّ سوادَ القلبِ من الذُّنوبِ .

وعلامةُ سوادِ القلبِ : ألاَّ تجدَ للقلوبِ من الذُّنوبِ مفزعاً ، ولا للطَّاعةِ موقعاً ، ولا للموعظةِ مَنجعاً[2] ، ولا تستحقرَنَّ الذُّنوبَ ، فتحسبَ نفسَك تائباً وأنت مصرٌّ على الكبائرِ ، كما قالَ الشَّاعرُ : [من الكامل]

لا تحقرَنَّ من الذُّنوبِ أقلَّها ... إنَّ القليلَ معَ الدَّوامِ كثيرُ

لقد بلغَنا عن كَهْمَسِ بنِ الحسنِ أنَّه قالَ : (أذنبتُ ذنباً فأنا أبكي عليه منذُ أربعينَ سنةً ، قيلَ : ما هو يا أبا عبدِ اللهِ ؟ قالَ : زارني أخٌ لي في اللهِ ، فاشتريتُ له سمكاً ، فأكلَ ، ثمَّ قمتُ إلىٰ حائطِ جارٍ لي ، فأخذتُ منه قطعةَ طينٍ ، فغسلَ بها يدَه)[3] .

فناقشْ نفسَك وحاسبْها ، وسارعْ إلى التَّوبةِ وبادرْ ؛ فإنَّ الأجلَ مكتومٌ ، والدُّنيا غرورٌ ، والنَّفسَ والشَّيطانَ عدوَّانِ ، وتضرَّعْ إلى اللهِ سبحانَه وتعالىٰ وابتهلْ ، واذكرْ حالَ أبينا آدمَ عليه السَّلامُ الَّذي خلقَه اللهُ سبحانَه وتعالىٰ بيدِه ، ونفخَ فيه من روحِه ، وحملَه إلىٰ جنَّتِه علىٰ أعناقِ الملائكةِ ، لم يذنبْ إلاَّ ذنباً واحداً ، فنزلَ به ما نزلَ ، حتَّىٰ رُويَ : (أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ له : يا آدمُ ؛ أيَّ جارٍ كنتُ لك ؟ قالَ : نِعمَ الجارُ يا ربِّ ، قالَ : يا آدمُ ؛ اخرجْ من جواري ، وضعْ

---

(1) من علماء بني إسرائيل في زمن موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، وهو المراد بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف ١٧٥] .

(2) منجعاً : مدخلاً وتأثيراً ظاهراً .

(3) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢١١) .

عن رأسِك تاجَ كرامتي ؛ فإنَّه لا يجاورُني من عصاني)[١] .

حتَّىٰ إنَّه فيما رُوِيَ : بكىٰ علىٰ ذنبه مئتيْ سنةٍ حتَّىٰ قبلَ توبتَه ، وغفرَ ذنبَه الواحدَ.

هـٰذا حالُه معَ نبيِّه وصفيِّه في ذنبٍ واحدٍ ، فكيف حالُ الغيرِ في ذنوبٍ لا تُحصى ؟! وهـٰذا تضرُّعُ التَّائبِ وابتهالُه ، فكيف بالمصرِّ المتعسِّفِ ؟!

ولقد أحسنَ من قالَ : [من المتقارب]

يخافُ علىٰ نفسِه من يتوبْ فكيف ترىٰ حالَ من لا يتوبْ؟![٢]

فإن تبتَ ، ثمَّ نقضتَ التَّوبةَ ، وعدتَ إلى الذَّنبِ ثانياً . . فعدْ إلى التَّوبةِ مبادراً ، وقلْ لنفسِك : لعلِّي أموتُ قبلَ أن أعودَ إلى الذَّنبِ هـٰذه المرَّةَ ، وكذلك ثالثاً ورابعاً ، وكما اتَّخذتَ الذَّنبَ والعودَ إليه حرفةً . . فاتَّخذِ التَّوبةَ والعودَ إليها حرفةً ، ولا تكنْ في التَّوبةِ أعجزَ منك في الذَّنبِ ، ولا تيأسْ ، ولا يمنعْك الشَّيطانُ من التَّوبةِ بسببِ ذلكَ ؛ فإنَّه دلالةُ الخيرِ ، أمَا تسمعُ قولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « خيارُكم كلُّ مُفتَّنٍ توَّابٍ »[٣] أي : كثيرِ الابتلاءِ بالذَّنبِ ، كثيرِ التَّوبةِ منه والرُّجوعِ إلى اللهِ جلَّ جلالُه بالنَّدامةِ والاستغفارِ ، وتذكَّرْ قولَه سبحانَه : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ، فهـٰذه هـٰذه ، وباللهِ التَّوفيقُ .

فصل

[في بيان حقيقة التوبة الصادقة]

وجملةُ الأمرِ : أنَّك إذا ابتدأتَ ، فبرَّأتَ قلبَك عن الذُّنوبِ كلِّها ؛ بأن توطِّنَه علىٰ ألاَّ تعودَ إلى الذَّنبِ أبداً ألبتَّةَ . . ليكنْ ما كانَ منك علىٰ وجهٍ علمَ اللهُ سبحانَه وتعالىٰ صدقَ عزمِك فيه من قلبٍ صادقٍ تقيٍّ ، وترضي الخصومَ بما أمكنَك ،

---

(١) أخرج بعضه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٧/ ٤١٩) عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) نسبه ابن قتيبة الدينوري في « عيون الأخبار » لأبي العتاهية (٢/ ٣٢٧) .

(٣) أخرجه البزار في « مسنده » (٧٠٠) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٢٧١) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وتقضي الفوائتَ بما تقدرُ عليه ، وترجعُ في الباقي إلى اللهِ سبحانَه وتعالىٰ بالابتهالِ والتَّضرُّعِ ليكفيَك ذٰلك .

ثمَّ تذهبُ فتغتسلُ ، وتغسلُ ثيابَك ، وتصلِّي أربعَ ركعاتٍ كما يجبُ ، وتضعُ وجهَك على الأرضِ في مكانٍ خالٍ لا يراك إلاَّ اللهُ سبحانَه ، ثمَّ تجعلُ التُّرابَ علىٰ رأسِك ، وتمرِّغُ وجهَك الَّذي هو أعزُّ أعضائِك في التُّرابِ بدمعٍ جارٍ ، وقلبٍ حزينٍ ، وصوتٍ عالٍ ، وتذكرُ ذنوبَك واحداً واحداً ما أمكنَك ، وتلومُ نفسَك العاصيةَ عليها ، وتوبِّخُها وتقولُ : أمَا تستحي يا نفسُ ؟ أمَا آنَ لكِ أن تتوبي ؟ ألكِ طاقةٌ بعذابِ اللهِ سبحانَه ؟ ألكِ حاجةٌ بسخطِ اللهِ سبحانَه ؟ وتذكرُ من هٰذا كثيراً وتبكي .

ثمَّ ترفعُ يديك إلى الرَّبِّ الرَّحيمِ سبحانَه وتقولُ : إلهي ؛ عبدُك الآبقُ رجعَ إلىٰ بابِك ، عبدُك العاصي رجعَ إلى الصُّلحِ ، عبدُك المذنبُ أتاك بالعذرِ ، فاعفُ عنِّي بجودِك ، وتقبَّلني بفضلِك ، وانظرْ إليَّ برحمتِك ، اللَّهمَّ ؛ اغفرْ لي ما سلفَ من الذُّنوبِ ، واعصمْني فيما بقيَ من الأجلِ ، فإنَّ الخيرَ كلَّه بيدِك ، وأنتَ بنا رؤوفٌ رحيمٌ .

ثمَّ تدعو دعاءَ الشِّدَّةِ ، وهو : يا مجلِّي عظائمَ الأمورِ ، يا مُنتهىٰ همَّةِ المهمومينَ ، يا من إذا أرادَ أمراً . . فإنَّما يقولُ له كنْ فيكونُ ، أحاطتْ بي ذنوبٌ أنت المذخورُ لها[1] ، يا مذخوراً لكلِّ شدَّةٍ ؛ كنتُ أدَّخرُك لهٰذه السَّاعةِ ، فتبْ عليَّ ، إنَّك أنت التَّوَّابُ الرَّحيمُ .

ثمَّ أكثرْ من البكاءِ والتَّذلُّلِ ، وقلْ : يا من لا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ ، ولا سمعٌ عن سمعٍ ، يا من لا تغلِّطُه المسائلُ ، يا من لا يُبرِمُه إلحاحُ الملحِّينَ[2] ؛ أذقْني بردَ عفوِك ، وحلاوةَ مغفرتِك ، برحمتِك يا أرحمَ الرَّاحمينَ ، إنَّك علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ .

---

(١) **أنت المذخور بها** : أنت المختار لغفران تلك الذنوب .

(٢) **لا يبرمه** : لا يضجره ولا يمله .

ثمَّ تصلِّي على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، وتستغفرُ لجميعِ المؤمنينَ والمؤمناتِ ، وترجعُ إلىٰ طاعةِ اللهِ جلَّ جلالُه ، فتكونُ قد تبتَ توبةً نصوحاً ، وقد خرجتَ من الذُّنوبِ طاهراً كيومَ ولدتْك أمُّك ، وأحبَّكَ اللهُ تعالىٰ ولك من الأجرِ والثَّوابِ ، وعليكَ من البركةِ والرَّحمةِ ما لا يحيطُ به وصفُ واصفٍ ، وحصلَ لك الأمنُ والخلاصُ ، ونجوتَ من غصَّةِ المعاصي وبليَّتِها في الدُّنيا والآخرةِ ، وكنتَ قد قطعتَ هٰذه العقبةَ بإذنِ اللهِ سبحانَه ، واللهُ تعالىٰ وليُّ الهدايةِ والتَّوفيقِ بمنِّهِ وفضلِه .

* * *

العقبةُ الثَّالثةُ
وهي عقبةُ العوائقِ

ثمَّ عليكَ يا طالبَ العبادةِ ـ وفَّقَك ٱللهُ تعالى ـ بدفعِ العوائقِ حتَّىٰ تستقيمَ عبادتُك ، وقد ذكرْنا أنَّ العوائقَ أربعةٌ :

أحدُها : **الدُّنيا** ، ودفعُها إنَّما هو بالتَّجرُّدِ عنها ، والزُّهدِ فيها ، وإنَّما لزمَك هـٰذا التَّجرُّدُ والزُّهدُ لأمرينِ :

أحدُهما : لتستقيمَ لك العبادةُ وتكثرَ ؛ فإنَّ الرَّغبةَ في الدُّنيا تشغلُك[1] ؛ أمَّا ظاهرُك : فبالطَّلبِ ، وأمَّا باطنُك : فبالإرادةِ وحديثِ النَّفسِ ، وكلاهما يمنعُ عن العبادةِ ؛ فإنَّ النَّفسَ واحدةٌ ، والقلبَ واحدٌ ؛ فإذا اشتغلَ بشيءٍ . . انقطعَ عن ضدِّه .

وإنَّ مثلَ الدُّنيا والآخرةِ كمثلِ الضُّرَّتينِ ؛ إن أرضيتَ إحداهما . . أسخطتَ الأخرى ، وإنَّهما كالمشرقِ والمغربِ ، بقدرِ ما تميلُ إلىٰ أحدِهما . . أعرضتَ عن الآخرِ .

أمَّا شَغلُها في الظَّاهرِ : فقد روينا عن أبي الدَّرداءِ رضيَ اللهُ عنه أنَّه قالَ : (زاولتُ أن أجمعَ بينَ العبادةِ والتِّجارةِ فلم يجتمعا ، فأقبلتُ على العبادةِ ، وتركتُ التِّجارةَ)[2] .

وعن عمرَ رضيَ اللهُ عنه أنَّه قالَ : (لو كانتا مجتمُعتينِ لأحدٍ غيري . . لاجتمعتا لي ؛ لِمَا أعطاني اللهُ تعالىٰ من القوَّةِ واللِّينِ) .

---

(١) أي : تشغلك ظاهراً وباطناً كما سيتضح .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٨/ ١٧٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٠٩) .

فإذا كانَ الأمرُ كذلكَ . . فأضِرَّ بالفانيةِ ، والسَّلامُ .

وأمَّا شَغلُها بالقلبِ ـ وهو الباطنُ لمكانِ الإرادةِ ـ : فما رُويَ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قالَ : « من أحبَّ دنياه . . أضرَّ بآخرتِه ، ومن أحبَّ آخرتَه . . أضرَّ بدنياه ؛ فآثروا ما يبقىٰ علىٰ ما يفنى »[1] .

فبانَ لك : أنَّه إذا ٱشتغلَ ظاهرُك بالدُّنيا ، وباطنُك بإرادتِها . . فلا تتيسَّرُ لك العبادةُ حقَّها ، وأمَّا إذا زهدتَ فيها ، فتفرَّغتَ بظاهرِك وباطنِك . . تتمشَّىٰ لك العبادةُ ، بل تعاونُك أعضاؤُك عليها ، ولقد رُويَ عن سلمانَ الفارسيِّ رضيَ اللهُ عنه أنَّه قالَ : (إنَّ العبدَ إذا زهدَ في الدُّنيا . . ٱستنارَ قلبُه بالحكمةِ ، وتعاونتْ أعضاؤُه في العبادةِ) ، فهٰذه هٰذه .

والثَّاني من الأمرينِ : أنَّه يكثرُ قيمةَ عملِك ، ويعظِّمُ قدرَه وشرفَه ، فلقد قالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « ركعتانِ من رجلٍ زاهدٍ قلبُه خيرٌ وأحبُّ إلى اللهِ جلَّ جلالُه من عبادةِ المتعبِّدينَ إلىٰ آخرِ الدَّهرِ أبداً سرمداً » .

فإذا كانتِ العبادةُ تشرفُ وتكثرُ بذٰلكَ . . فحُقَّ لمن طلبَ العبادةَ أن يزهدَ في الدُّنيا ويتجرَّدَ عنها .

فإن قلتَ : فما معنى الزُّهدِ في الدُّنيا ؟ وما حقيقةُ ذلك ؟

فاعلمْ : أنَّ الزُّهدَ عندَ علمائِنا رحمَهم اللهُ تعالىٰ زهدانِ : زهدٌ مقدورٌ للعبدِ ، وزهدٌ غيرُ مقدورٍ ، فالَّذي هو مقدورٌ ثلاثةُ أشياءَ :

ـ تركُ طلبِ المفقودِ من ٱلدُّنيا .

ـ وتفريقُ المجموعِ منها .

ـ وتركُ إرادتِها وٱختيارِها .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧٠٩) ، والحاكم (٤/ ٣٠٨) ، والبيهقي (٣/ ٣٧٠) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

وأمَّا الزُّهدُ الَّذي هو غيرُ مقدورٍ للعبدِ : فهو برودةُ الشَّيءِ علىٰ قلبِ الزَّاهدِ[1] .

ثمَّ الزُّهدُ الَّذي هو مقدورٌ مقدِّماتٌ للزُّهدِ الَّذي هو غيرُ مقدورٍ ، فإذا أتىٰ به العبدُ ؛ بألاَّ يطلبَ ما ليسَ عندَه من ٱلدُّنيا ، و[أن] يفرِّقَ ما عندَه منها ، ويتركَ بالقلبِ إرادتَها وٱختيارَها لأجلِ اللهِ وعظيمِ ثوابِه بتذكُّرِه لآفاتِها . . أورثتْه تلك برودةَ الدُّنيا علىٰ قلبِه ، وهـٰذا عندي هو الزُّهدُ الحقيقيُّ .

ثمَّ ٱعلمْ : أنَّ أصعبَ الأمورِ الثَّلاثةِ إنَّما هو تركُ الإرادةِ بالقلبِ ؛ إذ كم من تاركٍ لها بظاهرِه ، محبٌّ مريدٌ لها بباطنِه ، فهو في مكافحةٍ ومقاساةٍ من نفسِه شديدةٍ ، والشَّأنُ كلُّه في هـٰذا ، ألم تسمعْ إلىٰ قولِه سبحانَه وتعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ ؟ علَّقَ الحكمَ بنفيِ الإرادةِ ، دونَ الطَّلبِ والفعلِ للمرادِ .

وقولِه تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ .

وقولِه تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ الآيةَ .

وقولِه : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الآيةَ .

أما ترى الإشارةَ كلَّها إلى الإرادةِ ؟! فأمرُها هو المهمُّ إذنْ ، لـٰكنَّ العبدَ إذا واظبَ واستقامَ على الأمرينِ الأوَّلينِ ـ أعني : التَّركَ والتَّفريقَ ـ فمأمولٌ من فضلِ اللهِ سبحانَه أن يوفِّقَه لدفعِ هـٰذه الإرادةِ والاختيارِ عن قلبِه ؛ فإنَّه المتفضِّلُ الكريمُ عزَّ وجلَّ .

ثمَّ الَّذي يبعثُ على التَّركِ والتَّفريقِ ، ويهوِّنُ عليكَ ذلك : ذكرُ آفاتِ الدُّنيا وعيوبِها ، وقد أكثرَ النَّاسُ القولَ في ذلك ، فمنه قولُ بعضِهم : تركتُ الدُّنيا لقلَّةِ غَنائِها ، وكثرةِ عنائِها ، وسرعةِ فنائِها ، وخسَّةِ شركائِها .

---

(1) أي : عدم محبته له وتعلُّق قلبه به .

قالَ شيخي الإمامُ رحمَه اللهُ : لٰكنْ يجيءُ من هٰذا رائحةُ الرَّغبةِ ؛ لأنَّ من شكا فراقَ أحدٍ . . أحبَّ وصالَه ، ومن تركَ شيئاً لمكانِ الشُّركاءِ فيه . . أخذه لوِ ٱنفردَ به .

فالقولُ البالغُ فيه : ما قالَه شيخُنا رحمَه اللهُ : إنَّ الدُّنيا عدوَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأنت محبُّه ، ومن أحبَّ أحداً . . أبغضَ عدوَّه . قالَ : ولأنَّها في أصلِها وسِخةٌ جيفةٌ ، ألا ترىٰ أنَّ آخرَها إلى القذرِ والفسادِ ، والتَّلاشي والاضمحلالِ والنَّفادِ ؟ لٰكنَّها جيفةٌ ضُمِّختْ بطيبٍ[1] ، وطُرِّزتْ بزينةٍ ، فاغترَّ بظاهرِها الغافلونَ ، وزهدَ فيها العاقلونَ .

فإن قيلَ : فما حكمُ الزُّهدِ في الدُّنيا ؛ أهو فرضٌ أم نفلٌ ؟

فاعلمْ : أنَّ الزُّهدَ يقعُ عندَنا في الحلالِ والحرامِ ، فهو في الحرامِ فرضٌ ، وفي الحلالِ نفلٌ .

ثمَّ منزلةُ هٰذا الحرامِ لمستقيمي الطَّاعةِ بمنزلةِ الميتةِ المستقذَرةِ ، لا يُقدمُ عليها إلاَّ عندَ الضَّرورةِ بمقدارِ دفعِ الضَّررِ .

وأمَّا الزُّهدُ في الحلالِ : فإنَّما يكونُ في منزلةِ الأبدالِ ، يكونُ عندَهم الحلالُ بمنزلةِ الميتةِ ، لا يتناولونَ منها إلاَّ قدراً لا بدَّ منه ، والحرامُ عندَهم بمنزلةِ النَّارِ ، لا يخطرُ ببالِهم قصدُ تناولِها بحالٍ ، وهٰذا معنى البرودةِ على القلبِ ؛ بأن تنقطعَ همَّتُه عنها ، ويستقذرَها ويستنكرَها جدّاً ، فلا يبقىٰ لها في قلبِه اختيارٌ ولا إرادةٌ .

فإن قلتَ : كيف يمكنُ أن تصيرَ ٱلدُّنيا في شهواتِها ولذَّاتِها العجيبةِ المطلوبةِ عندَ الإنسانِ بمنزلةِ النَّارِ ، أو بمنزلةِ الجيفةِ المستحيلةِ ، والبنيةُ بنيتُنا ، والطَّبعُ طبعُنا ؟[2]

فاعلمْ : أنَّ من وُفِّقَ التَّوفيقَ الخاصَّ ، وعلمَ آفاتِها وقذرَها في أصلِها . .

---

(١) ضمخت بطيب : لُطِّخت به .

(٢) المراد : خلقتنا ضعيفة ، وطبعنا : هو الحرص الشديد على الدنيا .

فتصيرُ عندَه كذلكَ ، وإنَّما يَتعجَّبُ من هـٰذا الرَّاغبونَ العميانُ عن عيبِ الدُّنيا وآفاتِها ، المغترُّونَ بظاهرِها وزينتِها ، وسأضربُ لك مثلاً لذلكَ :

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا يُمثَّلُ بإنسانٍ صنعَ خبيصاً بشرائطِه من السُّكَّرِ وغيرِه[1] ، ثمَّ طرحَ فيه قطعةَ سمٍّ قاتلٍ ، فأبصرَ ذلك رجلٌ ولم يبصرْه آخرُ ، ووضعَ الخبيصَ بينَ أيديهما مزيَّناً مزخرفاً ؛ فالرَّجلُ الَّذي أبصرَ ما جُعلَ فيه من السُّمِّ يكونُ زاهداً في ذلك الخبيصِ ، لا يخطرُ ببالِه أن يتناولَ منه بحالٍ ألبتَّةَ ، ويكونُ ذلك عندَه بمنزلةِ النَّارِ ، بل أصعبَ ؛ لمكانِ ما يعلمُ من آفتِه ، ولا يغترُّ بظاهرِه وزينتِه ، وأمَّا الرَّجلُ الآخرُ الَّذي لم يبصرْ ما جُعلَ فيه . . ٱغترَّ بظاهرِه المزخرفِ ، وحرصَ عليه ، ولم يصبرْ عنه ، وأخذَ يتعجَّبُ من صاحبِه الزَّاهدِ فيه ، وربَّما يسفِّهُه في ذلك .

فهـٰذا مثلُ حرامِ ٱلدُّنيا معَ البصراءِ المستقيمينَ ، والجهَّالِ الرَّاغبينَ .

فإن لم يطرحْ فيه السُّمَّ ، لـٰكنْ بزقَ فيه أو ٱمتخطَ ، ثمَّ ضمَّخَه وزيَّنَه ؛ فالرَّجلُ الَّذي شاهدَ منه ذلكَ الفعلَ يكونُ مستقذِراً لذلكَ الخبيصِ ، نافراً عنه ، لا يكادُ يقدمُ عليه إلاَّ عندَ الضَّرورةِ وشدَّةِ الحاجةِ إليه ، والَّذي لم يشاهدْ ذلك فهو جاهلٌ بآفتِه ، مغترٌّ بظاهرِه ، حريصٌ عليه ، مكبٌّ معجبٌ محبٌّ .

فهـٰذا مثلُ حلالِ الدُّنيا معَ الفريقينِ ؛ أهلِ البصيرةِ والاستقامةِ ، وأهلِ الرَّغبةِ والغفلةِ .

وإنَّما ٱختلفَ حالُ الرَّجلينِ معَ تساويهما في الطَّبعِ والبنيةِ لبصيرةٍ وعلمٍ كانَ لأحدِهما ، وجهلٍ وغفلةٍ وجفاءٍ كانَ للآخرِ ، فلو علمَ الرَّاغبُ ، وأبصرَ ما علمَه الزَّاهدُ . . لكانَ زاهداً مثلَه ، ولو جهلَ الزَّاهدُ ، وعميَ عمَّا عميَ عنه الرَّاغبُ . . لكانَ راغباً مثلَه .

فعلمتَ بذلكَ أنَّ هـٰذا التَّمييزَ لمكانِ البصائرِ دونَ الطَّبائعِ ، وهـٰذا أصلٌ

---

(١) **الخبيص** : الحلواء المخلوطة من التمر والسمن .

مفيدٌ ، وكلامٌ بيِّنٌ سديدٌ ، اعترفَ به من عقلَ وأنصفَ ، واللهُ تعالىٰ وليُّ الهدايةِ والتَّوفيقِ بفضلِه .

فإن قيلَ : فلا بدَّ لنا من قذرٍ من الدُّنيا ليكونَ قِواماً لنا ، فكيف نزهدُ فيها ؟!

فاعلمْ : أنَّ الزُّهدَ في الفضولِ ممَّا لا يُحتاجُ إليه في قِوامِ البنيةِ ، فالمقصودُ : القِوامُ والقوَّةُ حتَّىٰ تعبدَ اللهَ سبحانَه لا الأكلُ والشُّربُ والتَّلذُّذُ ، واللهُ تعالىٰ إن شاءَ . . أقامَها بشيءٍ وسببٍ ، وإن شاءَ . . أقامَها بغيرِ سببٍ كالملائكةِ .

ثمَّ إن كانَ بشيءٍ ؛ إن شاءَ . . فبشيءٍ حاصلٍ عندَك ، أو بطلبِك وكسبِك ، وإن شاءَ . . فبشيءٍ غيرِه يسبِّبُه لك من حيثُ لا تحتسبُ ، من غيرِ طلبٍ منك وكسبٍ ، كما قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ ﴾ .

فإذنْ لا تحتاجُ بحالٍ إلىٰ طلبٍ وإرادةٍ ، فإن لم تقوَ علىٰ ذلك ، وطلبتَ وأردتَ . . فانوِ بذلكَ العُدَّةَ والقوَّةَ علىٰ عبادةِ اللهِ تعالى ، دونَ الشَّهوةِ واللَّذَّةِ ؛ فإنَّك إذا نويتَ ذلك . . كانَ الطَّلبُ والإرادةُ منك خيراً وطلباً للآخرةِ بالحقيقةِ لا للدُّنيا ، ولا يقدحُ في زهدِك وتجرُّدِك ، فاعلمْ هـٰذه الجملةَ راشداً إن شاءَ اللهُ تعالى ، وباللهِ التَّوفيقُ .

العائقُ الثَّاني : **الخَلقُ** ، ثمَّ عليكَ ـ وفَّقَك اللهُ وإيَّانا لطاعتِه ـ بالتَّفرُّدِ عن الخلقِ ، وذلك لأمرينِ :

أحدُهما : أنَّهم يشغلونَك عن عبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، علىٰ ما حُكيَ عن بعضِهم أنَّه قالَ : مررتُ بجماعةٍ يترامَوْنَ وواحدٌ جالسٌ بعيداً منهم ، فأردتُ أن أكلِّمَه فقالَ لي : ذكرُ اللهِ أشهىٰ إليَّ من كلامِك ، فقلتُ : أنت وحدَك ؟ فقالَ : معي ربِّي وملكايَ ، فقلتُ : من سبقَ من هؤلاءِ ؟ فقالَ : من غفرَ اللهُ له ، فقلتُ : أين الطَّريقُ ؟ فأشارَ بيدِه إلى السَّماءِ ، وقامَ وتركَني ، وقالَ : أكثرُ خلقِك عنك شاغلٌ .

فالخلقُ إذنْ يشغلونَك عن العبادةِ ، بل يمنعونَك منها ، بل يوقعونَك في الشَّرِّ والهلاكِ ، علىٰ ما قالَ حاتمٌ الأصمُّ رحمَه اللهُ تعالى : طلبتُ من هـٰذا الخلقِ

خمسةَ أشياءَ فلم أجدْها : طلبتُ منهم الطَّاعةَ والزَّهادةَ فلم يفعلوا ، فقلتُ : أعينوني عليهما إن لم تفعلوا ، فلم يفعلوا ، فقلتُ : ارضوا عنِّي إن فعلتُ ، فلم يفعلوا ، فقلتُ : لا تمنعوني عنهما إذنْ ، فمنعوني ، فقلتُ : لا تدْعوني إلىٰ ما لا يُرضي اللهَ العظيمَ ولا تعادوني عليها إن لم أتابعْكم ، ففعلوا[١] ، فتركتُهم واشتغلتُ بخاصَّةِ نفسي .

واعلمْ أيُّها الأخُ في الدِّينِ : أنَّ نبيَّك محمَّداً صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وصفَ زمانَ العزلةِ ، وبيَّنَ نعْتَه ونعْتَ أهلِه ، وأمرَ فيه بالتَّفرُّدِ ، وكانَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا محالةَ أعلمَ بالمصالحِ ، وأنصحَ لنا منَّا لأنفسِنا .

فإن وجدتَ زمانَك علىٰ ما وصفَ وبيَّنَ . . فامتثلْ أمرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، واقبلْ نصيحتَه ، ولا تشكَّ في أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ أعرفَ بما يصلحُ لك في زمانِك ، ولا تتعلَّلْ بالعللِ الكاذبةِ ، ولا تخادعْ نفسَك ، وإلاَّ . . فأنت هالكٌ ولا عذرَ لك .

والوصفُ الَّذي ذكرناه منها هو في الخبرِ المشهورِ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصي رضيَ اللهُ عنهما أنَّه قالَ : بينَما نحنُ حولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذ ذكرَ الفتنةَ فقالَ : « إذا رأيتم النَّاسَ مَرِجتْ عهودُهم ، وخفَّتْ أماناتُهم ، وكانوا هٰكذا » وشبَّك بينَ أصابعِه ، قلتُ : ما أصنعُ عندَ ذلك جعلني اللهُ فداءَك ؟ قالَ : « الزمْ بيتَك ، واملِكْ عليكَ لسانَك ، وخذْ ما تعرفُ ، ودعْ ما تنكرُ ، وعليكَ بأمرِ الخاصَّةِ ، ودعْ عنك أمرَ العامَّةِ »[٢] .

وذُكرَ في خبرٍ آخرَ أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قالَ : « ذلك أيَّامَ الهرْجِ » قيلَ : وما أيَّامُ الهرْجِ ؟ قالَ : « حينَ لا يأمنُ الرَّجلُ جليسَه »[٣] .

وذكرَ ٱبنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه في خبرٍ آخرَ للحارثِ بنِ عَميرةَ أنَّه قالَ :

---

(١) أي : فدعوه وعادَوْه .

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٨٢) ، وأبو داوود (٤٣٤٣) ، وابن ماجه (٣٩٥٧) ، ومرجت عهودهم : اختلطت .

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٢٠) ، وأحمد (١/ ٤٤٨) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

« إن يُدفعْ عن عمرِك . . فسيأتي عليكَ زمانٌ كثيرٌ خطباؤُه ، قليلٌ علماؤُه ، كثيرٌ سؤالُه ، قليلٌ معطوه ، الهوىٰ فيه قائدُ العلمِ » قالَ : ومتىٰ ذلك ؟ قالَ : « إذا أُميتتِ الصَّلاةُ ، وقُبلتِ الرُّشا ، ويباعُ الدِّينُ بعرَضٍ يسيرٍ من الدُّنيا ، فالنَّجاءَ ويحكَ ثمَّ النَّجاءَ »[1] .

قلتُ : وجميعُ ما ذُكرَ في هـٰذه الأخبارِ تراه بعينِك في زمانِك وأهلِه ، فانظرْ لنفسِك .

ثمَّ إنَّ السَّلفَ الصَّالحَ رضوانُ اللهِ عليهم أجمعوا على التَّحذيرِ من زمانِهم وأهلِه ، وآثروا العزلةَ ، وأمروا بذلكَ ، وتواصَوا به ، ولا شكَّ أنَّهم كانوا أبصرَ وأنصحَ ، وأنَّ الزَّمانَ لم يصرْ بعدَهم خيراً ممَّا كانَ ، بل أشرَّ وأمرَّ ، وهو ما ذُكرَ عن يوسفَ بنِ أسباطٍ أنَّه قالَ : سمعتُ الثَّوريَّ يقولُ : (واللهِ الَّذي لا إلهَ إلاَّ هو ؛ لقد حلَّتِ العزلةُ في هـٰذا الزَّمانِ)[2] .

قلتُ أنا : ولئنْ حلَّتْ في زمانِه . . ففي زمانِنا هـٰذا وجبتْ وافتُرِضتْ[3] .

وعن سفيانَ أيضاً أنَّه كتبَ إلىٰ عبَّادٍ الخوَّاصِ رحمَهما اللهُ تعالى : (أمَّا بعدُ : فإنَّك في زمانٍ كانَ أصحابُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ورضيَ اللهُ عنهم يتعوَّذونَ باللهِ من أن يُدركوه ـ فيما بلغَنا ـ ولهم من العلمِ ما ليسَ لنا ، فكيف بنا حينَ أدركناه علىٰ قلَّةِ علمٍ ، وقلَّةِ صبرٍ ، وقلَّةِ أعوانٍ على الخيرِ ، وكدرٍ من الدُّنيا ، وفسادٍ من النَّاسِ ؟! فعليكَ بالأمرِ الأوَّلِ ، وعليكَ بالعزلةِ وتركِ

(١) أخرجه البخاري في « الأدب المفرد » (٧٨٩) من طريق الحارث بن حصيرة ، عن زيد بن وهب ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، دون قوله : (قال : ومتىٰ ذلك . . .) إلخ ، وأخرجه مرفوعاً كذلك الطبراني في « الكبير » (٣/١٩٧) عن حزام بن حكيم بن حزام عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخرجه في « مسند الشاميين » (١٢٢٥) عن حرام ـ بالراء ـ ابن حكيم ، عن عمه عبد الله بن سعد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٨٨) .

(٣) هـٰذا في زمن المصنف رحمه الله تعالى ، فكيف الحال في هـٰذا الزمان ؟! فلا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم .

الجدلِ وتركِ مخالطةِ النَّاسِ)[١] ؛ فإنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنه قالَ : (في العزلةِ راحةٌ من خلطاءِ السُّوءِ)[٢] .

وفي مثلِ هـٰذا قيلَ : [من البسيط]

هـٰذا الزَّمانُ الَّذي كنَّا نحاذرُه ... في قولِ كعبٍ وفي قولِ ٱبنِ مسعودِ
دهرٌ به الحقُّ مردودٌ بأجمعِه ... والظُّلمُ والبغيُ فيه غيرُ مردودِ
إن دامَ هـٰذا ولم تحدثْ له غِيَرٌ ... لم يُبكَ ميْتٌ ولم يُفرحْ بمولودِ

ولقد وجدتُ عن سفيانَ بنِ عيينةَ أنَّه قالَ : (قلتُ للثَّوريِّ : أوصني ، فقالَ : أقلِلْ من معرفةِ النَّاسِ ، قلتُ : يرحمُك اللهُ ! أليسَ قد جاءَ في الخبرِ : « أكثروا من معرفةِ النَّاسِ ؛ فإنَّ لكلِّ مؤمنٍ شفاعةً ؟ »[٣] قالَ : لا أحسبُك رأيتَ قطُّ ما تكرهُ إلاَّ ممَّن تعرفُ ، قلتُ : أجلْ ، ثمَّ ماتَ ، فرأيتُه بعدَ موتِه في المنامِ بحِججٍ ، فقلتُ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ أوصني ، فقالَ : أقللْ من معرفةِ النَّاسِ ما استطعتَ ؛ فإنَّ التَّخلُّصَ منهم شديدٌ)[٤] .

وقد قيلَ في معنىٰ هـٰذا الخبرِ نظماً : [من الطويل]

وما زلتُ مذْ لاحَ المشيبُ بمفرَقي ... أفتِّشُ عن هـٰذا الورىٰ وأكشِّفُ
فما إن عرفتُ النَّاسَ إلاَّ ذممتُهم ... جزى ٱللهُ خيراً كلَّ من لستُ أعرفُ
وما ليَ ذنبٌ أستحقُّ به الجفا ... سوىٰ أنَّني أحببتُ من ليسَ يُنصفُ[٥]

وقالَ الفضيلُ رحمَه ٱللهُ تعالى : هـٰذا زمانٌ ٱحفظْ فيه لسانَك ، وأخفِ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٧٦) .
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٨/ ١٥٢) ، وأحمد في « الزهد » (٦٢٧) .
(٣) عزاه الإمام العجلوني رحمه الله تعالىٰ في « كشف الخفاء » (١/ ١٢٥) إلى ابن النجار في « تاريخه » عن أنس بن مالك رضي الله عنه .
(٤) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٨٣) .
(٥) في هامش (ب) : (وقيل : كتب رجل علىٰ باب جاره : جزى ٱلله من لا يعرفنا خيراً ، ولا جزىٰ بذلك أصدقاءنا ، فما أوذينا قط إلا منهم ، وأنشدوا فيه : [من الطويل]
جزى الله عنا الخيرَ من ليس بيننا ... ولا بينَه ودٌّ ولا نتعارفُ
فما صابَنا هَمٌّ ولا نالنا أذىً ... من الناس إلا من نود ونعرفُ)

مكانَك ، وعالجْ قلبَك ، وخذْ ما تعرفُ ، ودعْ ما تنكرُ .

وقالَ الثَّوريُّ رحمَه اللهُ تعالى : هٰذا زمانُ السُّكوتِ ، ولزومِ البيوتِ ، والرِّضا بالقوتِ إلىٰ أن تموتَ .

وعن داوودَ الطَّائيِّ رحمَه ٱللهُ تعالى : (صمْ عن الدُّنيا ، واجعلْ فطرَكَ الآخرةَ ، وفرَّ من النَّاسِ فرارَكَ من الأسدِ)[١] .

وعن أبي عبيدٍ أنَّه قالَ : ما رأيتُ حكيماً قطُّ إلاَّ قالَ لي في عقبِ كلامِه : إن أحببتَ ألاَّ تُعرفَ . . فأنت من اللهِ تعالىٰ علىٰ بالٍ .

والأخبارُ في هٰذا البابِ أكثرُ من أن تحصى ؛ فلا يحتملُه هٰذا الكتابُ ، وقد صنَّفنا فيه كتاباً مفرداً ، وسمَّيناه : « كتابَ أخلاقِ الأبرارِ والنَّجاةِ من الأشرارِ » ، فقفْ عليه ترَ العجبَ العجابَ ، والعاقلُ تكفيه إشارةٌ ، وٱللهُ وليُّ التَّوفيقِ والهدايةِ بفضلِه .

وأمَّا الخصلةُ الثَّانيةُ الَّتي تقتضي التَّفرُّدَ عن النَّاسِ في هٰذا الشَّأنِ : أنَّ النَّاسَ يفسدونَ عليكَ ما يحصلُ لك من العبادةِ إن لم يعصمِ اللهُ سبحانَه ، بسببِ ما يَعرِضُ من قِبَلِهم من دواعي الرِّياءِ والتَّزيُّنِ ، ولقد صدقَ يحيى بنُ معاذٍ الرَّازيُّ رحمَه اللهُ حيثُ قالَ : رؤيةُ النَّاسِ بساطُ الرِّياءِ .

وهؤلاءِ الزُّهَّادُ قد خافوا علىٰ أنفسِهم من هٰذا المعنىٰ حتَّىٰ تركوا الملاقاةَ والتَّزاورَ .

ولقد ذُكرَ أنَّ هَرِمَ بنَ حيَّانٍ قالَ لأويسٍ القَرَنيِّ رحمَهما اللهُ : يا أويسُ ؛ صِلْنا بالزِّيارةِ واللِّقاءِ ، فقالَ أويسٌ : قد وصلتُك بما هو أنفعُ لك منهما ، وهو الدُّعاءُ علىٰ ظهرِ الغيبِ ؛ لأنَّ الزِّيارةَ واللِّقاءَ يعرضُ فيهما التَّزيُّنُ والرِّياءُ .

وقيلَ لسليمانَ الخوَّاصِ : قدمَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ ، أفلا تأتيه ؟ فقالَ : لأَنْ ألقىٰ شيطاناً مارداً أحبُّ إليَّ من لقائِه ، فاستنكروا ذلكَ من قولِه ، فقالَ : إنِّي

---

(١) أخرجه القشيري في « رسالته » (ص٢١) .

أخافُ إذا لقيتُه أن أتزيَّنَ له ، وإذا لقيتُ شيطاناً أمتنعُ منه .

ولقد لقيَ شيخي الإمامُ بعضَ العارفينَ ، فتذاكرا مليّاً ، ثمَّ دعَوَا في آخرِ حديثِهما ، فقالَ شيخي الإمامُ للعارفِ : ما أظنُّني جلستُ مجلساً أنا له أرجىٰ من مجلسي هـٰذا ، فقالَ له العارفُ : لـٰكنِّي ما جلستُ مجلساً أنا له أخوفُ من مجلسي هـٰذا ، ألستَ تعمِدُ إلىٰ أحسنِ حديثِك وعلومِك فتحدِّثَني بها ، وتظهرَها بين يديَّ ، وأنا كذلكَ ؟ فقد وقعَ الرِّياءُ ، فبكىٰ شيخي الإمامُ مليّاً ، ثمَّ غُشيَ عليه ، فكانَ بعدَ ذلك يتمثَّلُ بهـٰذه الأبياتِ : [من السريع]

يـا ويلتـا مـن مـوقـفٍ مـا بـه ... أخـوفُ مـن أن يعـدلَ الحـاكـمُ
أبـــارزُ اللهَ بعصيـــانِـــه ... وليـسَ لـي مـن دونِـه راحـمُ
يـا ربِّ عفـواً منـك عـن مـذنـبٍ ... أســـرفَ إلاَّ أنَّـــه نـــادمُ
يقـولُ فـي اللَّيـلِ إذا مـا دجـا ... آهـاً لـذنـبٍ ستـرَ العـالـمُ[1]

فهـٰذا حالُ أهلِ الزُّهدِ والرِّياضةِ في ملاقاتِهم ، فكيف حالُ أهلِ الرَّغبةِ والبَطالةِ ، بل حالُ أهلِ الشَّرِّ والجهالةِ ؟!

وٱعلمْ : أنَّ الزَّمانَ قد أصبحَ في فسادٍ عظيمٍ ، وأصبحَ النَّاسُ في ضرٍّ كثيرٍ ؛ فإنَّهم يشغلونَك عن عبادةِ اللهِ تعالىٰ حتَّىٰ لا يكادُ يحصلُ لك منها شيءٌ ، ثمَّ يفسدونَ عليكَ ما حصلَ لك حتَّىٰ لا يكادُ يسلمُ لك منها شيءٌ ، فلزمتْك ٱلعزلةُ والتفرُّدُ عن النَّاسِ ، والاستعاذةُ باللهِ تعالىٰ من شرِّ هـٰذا الزَّمانِ وأهلِه ، واللهُ تعالى الحافظُ بفضلِه ورحمتِه .

فإن قيلَ : فما حكمُ العزلةِ والتَّفرُّدِ عن النَّاسِ ؟ فبيِّنْ لنا ـ يرحمُك اللهُ ـ حالَ طبقاتِ الخلقِ فيها ، والحدَّ الَّذي يجبُ منها .

فاعلمْ ـ رحمَك اللهُ وإيَّانا ـ : أنَّ النَّاسَ في هـٰذا البابِ رجلانِ :

رجلٌ لا حاجةَ بالخلقِ إليه في علمٍ وبيانِ حكمٍ ، فالأَولىٰ بهـٰذا الرَّجلِ التَّفرُّدُ

---

(١) سيذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ مثل هـٰذه الحادثة عن سفيان الثوري والفضيل بن عياض رحمهما الله تعالىٰ (ص٨٣) ، وأما الأبيات . . فهي لابن عبد ربه . انظر « العقد الفريد » (٣/ ١٢٣) .

عن النَّاسِ ، فلا يخالطُهم إلاَّ في جمعةٍ أو جماعةٍ ، أو عيدٍ أو حجٍّ ، أو مجلسِ علمٍ بالسُّنَّةِ ، أو حاجةٍ في معيشةٍ لا بدَّ له من ذلك ، وإلاَّ . . فيواري شخصَه ، ويلزمُ كِنَّه ، لا يَعرِفُ ولا يُعرَفُ .

فأمَّا إن أحبَّ هـٰذا الرَّجلُ أن ينقطعَ عن النَّاسِ فلا يخالطَهم في أمرٍ من الأمورِ ألبتَّةَ ؛ من دينٍ ودنيا ، وجماعةٍ وجمعةٍ وغيرِها ؛ لِمَا يرىٰ له في ذلك من مصلحتِه وفراغِه . . فإنَّه لا يسعُه ذلك إلاَّ بأحدِ أمرينِ :

إمَّا أن يصيرَ إلىٰ موضعٍ لا يلزمُه هنالكَ هـٰذه الفرائضُ ، كرؤوسِ الجبالِ ، وبطونِ الأوديةِ ونحوِها ، ولعلَّ هـٰذا أحدُ الوجوهِ الَّتي دعتِ العُبَّادَ إلىٰ تلك المواضعِ البعيدةِ عن النَّاسِ .

وإمَّا أن يتيقَّنَ بالحقيقةِ أنَّ الضَّررَ الَّذي يلحقُه في مخالطةِ النَّاسِ بسببِ هـٰذه الفروضِ أعظمُ من تركِها ، فحينئذٍ يكونُ له عذرٌ في ذلك .

ولقد رأيتُ أنا بمكَّةَ ـ حرسَها اللهُ ـ بعضَ المشايخِ المتفرِّدينَ من أهلِ العلمِ ، وهو لا يحضرُ المسجدَ الحرامَ في الجماعةِ ، معَ قربِه منه ، وسلامةِ حالِه ، فحاورتُه في ذلك يوماً في حالِ تردُّدي إليه ، فذكرَ من عذرِه ما أشرنا إليه ، وهو أنَّ ما يحصلُ من الثَّوابِ لا يفي بما يلحقُه من الآثامِ والتَّبعاتِ في الخروجِ إلى المسجدِ ولقاءِ النَّاسِ .

قلتُ أنا : وجملةُ الأمرِ : فلا عتبَ على المعذورِ ، وٱللهُ تعالىٰ أولىٰ بالعذرِ ، وهو عليمٌ بذاتِ الصُّدورِ ، ولـٰكنَّ الطَّريقَ العدلَ فيه هو الأوَّلُ ؛ بأن يشاركَ النَّاسَ في الجمعةِ والجماعاتِ ، وضروبِ الخيراتِ ، ويباينَهم فيما سوىٰ ذلك .

فإن أحبَّ الطَّريقَ الثَّانيَ ؛ بأن ينقطعَ عن النَّاسِ بمرَّةٍ . فسبيلُه الخروجُ إلىٰ مواضعَ لا تتوجَّهُ عليه هـٰذه الفروضُ ثَمَّ .

الطَّريقُ الثَّالثُ : أن يكونَ مع النَّاسِ في مصرٍ واحدٍ ، لا يحضرُ جمعةً ولا جماعةً ، لعذرٍ يراه في ذلك ؛ من وزرٍ أو تبعةٍ عليه ، فإنَّه يحتاجُ إلىٰ نظرٍ

دقيقٍ ، وعوارضَ عظيمةٍ ، حتَّىٰ يسقطَ ذلك عنه ، وفيه خطرٌ من الغلطِ ، فالأوَّلانِ أسلمُ وأحفظُ له ، واللهُ وليُّ الهدايةِ بفضلِه .

وأمَّا الرَّجلُ الثَّاني : فرجلٌ يكونُ قدوةً في العلمِ ، بحيثُ يحتاجُ النَّاسُ إليه في أمرِ دينِهم لبيانِ حقٍّ ، أو ردٍّ علىٰ مبتدعٍ ، أو دعوةٍ إلىٰ خيرٍ بفعلٍ أو بقولٍ ، أو نحوِ ذلك ، فلا يسعُ هـٰذا الرَّجلَ الاعتزالُ عن النَّاسِ ، بل ينصِبُ نفسَه بينَهم ناصحاً لخلقِ اللهِ تعالى ، ذابّاً عن دينِ اللهِ تعالى ، مبيِّناً لأحكامِ اللهِ تعالى ، فلقد روينا عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قالَ : « إذا ظهرتِ البدعُ وسكتَ العالمُ . . فعليه لعنةُ اللهِ »[1] .

هـٰذا إذا كانَ بينَهم ، وإذا خرجَ من بينِهم . . فلا يجوزُ له أيضاً الاعتزالُ ، ولقد حُكيَ : أنَّ الأستاذَ أبا بكرِ ابنَ فُورَكٍ رحمَه اللهُ قصدَ أن ينفردَ لعبادةِ اللهِ تعالىٰ عن الخلقِ ، فبينَما هو في بعضِ الجبالِ . . إذ سمعَ صوتاً ينادي : يا أبا بكرٍ ؛ إذ صرتَ من حُججِ اللهِ علىٰ خلقِه . . تركتَ عبادَ اللهِ تعالى ! فرجعَ ، وكانَ هـٰذا سببَ صحبتِه للخلقِ .

وذكرَ لي مأمونُ بنُ أحمدَ رحمَهُ اللهُ : أنَّ الأستاذَ أبا إسحاقَ الإسفَراييني رحمَه اللهُ قالَ لعُبَّادِ جبلِ لبنانَ : يا أكلةَ الحشيشِ ؛ تركتُم أمَّةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أيدي المبتدعةِ واشتغلتم هـٰهنا بأكلِ الحشيشِ ! قالوا له : إنَّا لا نقوىٰ علىٰ صحبةِ النَّاسِ ، وإنَّما أعطاك اللهُ قوَّةً فلزمَك ذلك ، فصنَّفَ بعدَ ذلك كتابَه « الجامعَ للجليِّ والخفيِّ » .

وكانَ لهم رضيَ اللهُ عنهم مع غزارةِ علمِهم العملُ الجمُّ ، والنَّظرُ الدَّقيقُ في سلوكِ طريقِ الآخرةِ .

واعلمْ : أنَّ مثلَ هـٰذا الرَّجلِ المحتاجِ إليه النَّاسُ في طُرُقِ بابِ الدِّينِ يحتاجُ في صحبةِ الخلقِ إلىٰ أمرينِ شديدينِ :

---

(١) أخرجه الخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي » (١٣٩٣) ، والخلاَّل في « السنة » (٧٨٧) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وانظر « ميزان الاعتدال » (٣/ ٦٣٠) .

أحدُهما : صبرٌ طويلٌ ، وحِلمٌ عظيمٌ ، ونظرٌ لطيفٌ ، واستعانةٌ باللهِ تعالىٰ دائمةٌ .

والثَّاني : أن يكونَ في هـٰذا المعنىٰ منفرداً عنهم وإن كانَ بالشَّخصِ معهم ، فإن كلَّموه . . كلَّمَهم ، وإن زاروه . . عظَّمَهم علىٰ قدرِهم وشكرَهم ، وإن سكتوا عنه وأعرضوا عنه . . استغنمَ ذلك منهم ، وإن كانوا في حقٍّ وخيرٍ . . ساعدَهم ، وإن صاروا إلىٰ لغوٍ وشرٍّ . . خالفَهم وهجرَهم ، بل ردَّ عليهم وزجرَهم إن رجا قبولَهم .

ثمَّ يقومُ بجميعِ حقوقِهم من الزِّياراتِ والعياداتِ ، وقضاءِ الحاجاتِ الَّتي تُرفعُ إليه ما أمكنَه ، ولا يطالبُهم بالمكافآتِ ، ولا يرجو ذلك منهم ، ولا يريهم من نفسِه استيحاشاً لذلكَ ، ويباسطُهم بالبذلِ إذا قدرَ ، وينقبضُ عنهم في الأخذِ إن أُعطِيَ ، ويتحمَّلُ منهم الأذى ، ويُظهِرُ لهم البِشرَ ، ويتجمَّلُ بظاهرِه لهم ، ويكتمُ حاجاتِه عنهم ، فيقاسيها بنفسِه ، ويعالجُها في سرِّه وباطنِه .

ثمَّ يحتاجُ معَ ذلك إلىٰ أن ينظرَ لنفسِه خاصَّةً ، فيجعلَ لها حظّاً من العبادةِ الخالصةِ ، كما قالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنه : (إن نِمتُ ٱللَّيلَ . . لأضيِّعَنَّ نفسي ، وإن نمتُ النَّهارَ . . لأضيِّعَنَّ الرَّعيَّةَ ، فكيفَ لي بالنَّومِ بينَ هاتينِ ؟!)[1] .

وفي هـٰذا المعنىٰ عُرِضَ لي أبياتٌ من الشِّعرِ ، وهي : [من الطويل]

فإن كنتَ في هديِ الأئمَّةِ راغباً	فوطِّنْ علىٰ أن ترتكبْكَ الوقائعُ
بنفسٍ وقورٍ عندَ كلِّ كريهةٍ	وقلبٍ صبورٍ وهْو في الصَّدرِ مانعُ
لسانُك مخزونٌ وطرفُك ملجَمٌ	وسرُّك مكتومٌ لدى الرَّبِّ ذائعُ
وذكرُك مغمورٌ وبابُك مغلَقٌ	وثغرُك بسَّامٌ وبطنُك جائعُ
وقلبُك مجروحٌ وسُوقُك كاسدٌ	وفضلُك مدفونٌ وطعنُك شائعُ
وفي كلِّ يومٍ أنت جارعُ غصَّةٍ	من ٱلدَّهرِ والإخوانِ والقلبُ طائعُ

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في « الزهد » (ص ١٢٢) .

نهارُكَ شغلُ النَّاسِ من غيرِ منَّةٍ   وليلُك شَوقٌ غابَ عنه الطَّلائعُ
فدونَكَ هـٰذا اللَّيلَ خذْه ذريعةً   ليومٍ عبوسٍ عزَّ فيه الذَّرائعُ

نعمْ ؛ يكونُ بالنَّفسِ معهم والقلبُ ما أبعدَه عنهم ! وذلك لعمري أمرٌ شديدٌ ، وعيشٌ نكدٌ ، وفيه يقولُ شيخُنا رحمَه اللهُ في وصيَّتِه : يا بُنيَّ ، عشْ مع أهلِ زمانِك ولا تقتدِ بهم ، ثمَّ قالَ : ما أشدَّ هـٰذا العيشَ معَ الأحياءِ والاقتداءَ بالأمواتِ .

وعنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه أنَّه قالَ : (خالطِ النَّاسَ وزايلْهم ، ودينُك لا تَكْلِمَنَّه)[1] ، فهـٰذه نكتةٌ مقنعةٌ .

ثمَّ أقولُ : إذا ماجَ الفتنُ بعضُها في بعضٍ ، وتراجعَ الأمرُ ، وولَّى النَّاسُ عن أمرِ الدِّينِ مدبرينَ ، لا يرقبونَ في مؤمنٍ إلاًّ ولا ذمَّةً ، ولا يطلبونَ عالماً ، ولا يرمقونَ مفيداً ، ولا يَعنيهم أمرُ دينِهم ألبتَّةَ ، وترى الفتنةَ تعمُّ العامَّةَ ، وتدبُّ بينَ الخاصَّةِ . . فللعالمِ العذرُ في العزلةِ والتَّفرُّدِ ودفنِ العلمِ ، وأخافُ أنَّ ما ذكرناه هو هـٰذا الزَّمانُ النَّكدُ الصَّعبُ ، واللهُ المستعانُ ، وعليه التُّكلانُ .

فهـٰذا حكمُ العزلةِ والتَّفرُّدِ عن النَّاسِ ، فافهمْه ؛ فإنَّ الغلطَ فيه عظيمٌ ، وضررَه كثيرٌ ، وباللهِ التَّوفيقُ .

فإن قيلَ : أليسَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ : « عليكم بالجماعةِ ؛ فإنَّ يدَ اللهِ تعالىٰ على الجماعةِ »[2] ، و« إنَّ الشَّيطانَ ذئبُ الإنسانِ ، يأخذُ الشَّاذَّةَ والنَّاحيةَ والقاصيةَ »[3] ، وقالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : « إنَّ الشَّيطانَ معَ الفذِّ ، وهو من الاثنينِ أبعدُ »[4] .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب ، باب : الانبساط إلى الناس والدعابة مع الأهل ، تعليقاً .

(٢) أخرجه ابن حبان (٤٥٧٧) عن عرفجة بن شريح الأشجعي رضي الله عنه ، والحاكم (١/ ١١٥) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، والترمذي (٢١٦٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٢) ، وعبد بن حميد في « مسنده » (١١٤) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ١٦٤) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٤) أخرجه ابن حبان (٦٧٢٨) ، والحاكم (١/ ١١٣) ، والترمذي (٢١٦٥) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فاعلمْ : أنَّ هٰذه وردَتْ ، ووردَ أيضاً : « الزمْ بيتَك ، وعليكَ بالخاصَّةِ ، ودعْ أمرَ العامَّةِ »[1] ، وأمرَ بالعزلةِ والتَّفرُّدِ في الزَّمانِ السُّوءِ ، ولا تناقضَ في قولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، ولا بدَّ من الجمعِ بينَ الحديثينِ بحولِ ٱللهِ وتوفيقِه .

فأقولُ : قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « عليكم بالجماعةِ » يحتملُ ثلاثةَ أوجهٍ :

أحدُها : أنَّه يعني به في الدِّينِ والحكمِ ؛ إذ لا تجتمعُ هٰذه الأمَّةُ علىٰ ضلالةٍ ، فخَرْقُ الإجماعِ ، والحكمُ بخلافِ ما عليه جمهورُ الأمَّةِ ، والشُّذوذُ عنهم . . باطلٌ وضلالٌ ، وأمَّا أن يعتزلَ عنهم لصلاحٍ في دينِه . . فليسَ هٰذا من ذلك في شيءٍ .

والثَّاني : (عليكم بالجماعةِ) ؛ بألاَّ تنقطعوا عنهم في جُمَعِهم وجماعاتِهم ونحوِها ؛ فإنَّ فيها قوَّةَ الدِّينِ ، وجمالَ الإسلامِ ، وغيظَ الكفَّارِ والملحدينَ ، ولا يخلو ذلك من بركاتٍ ونظرٍ من ٱللهِ عزَّ وجلَّ بالرَّحمةِ ، وكذلكَ نقولُ : إنَّ حقَّ المنفردِ أن يشاركَ النَّاسَ في الجموعِ العامَّةِ في الخيرِ ، وأن يجانبَهم في الصُّحبةِ والمزاحمةِ في سائرِ الأمورِ ؛ لما فيها من ضروبِ الآفاتِ .

والثَّالثُ : أنَّ ذلك في غيرِ زمانِ الفتنةِ للرَّجلِ الضَّعيفِ في أمرِ الدِّينِ ، وأمَّا الرَّجلُ البصيرُ القويُّ في أمرِ اللهِ تعالىٰ إذا رأىٰ زمانَ الفتنةِ الَّذي حذَّرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الأمَّةَ منه ، وأمرَهم بالعزلةِ فيه . . فالعزلةُ أولى ؛ لما في الخلطةِ من الفسادِ والآفةِ ، ولا ينقطعُ من جموعِ الإسلامِ والخيراتِ العامَّةِ ، وإن أرادَ أن ينفردَ عن النَّاسِ بمرَّةٍ . . فليسكنْ شاهقَ جبلٍ ، أو بطنَ فلاةٍ ، لصلاحٍ يراه في دينِه .

ثمَّ قلتُ : ولا أرىٰ مثلَ هٰذا الرَّجلِ أينَما كانَ إلاَّ ويمكِّنُه اللهُ عزَّ وجلَّ من حضورِ الجَماعاتِ والجُمعاتِ وسائرِ جموعِ الإسلامِ ، فيحضرُ لئلاَّ يفوتَه الحظُّ

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٨٢) ، وأبو داوود (٤٣٤٣) ، والنسائي في « الكبرى » (٩٩٦٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما .

منها أيضاً ؛ فإنَّ جموعَ الإسلامِ من اللهِ عزَّ وجلَّ بمكانٍ وإن تغيَّرَ النَّاسُ وفسدوا ، كذا سمعْنا من حالِ الأبدالِ أنَّهم يحضرونَ جموعَ الإسلامِ أينَما كانتْ ، ويسيرونَ من الأرضِ حيثُ شاؤوا ، وأنَّ الأرضَ لهم قدمٌ واحدٌ .

وفي الأخبار : أنَّ الأرضَ تُطوىٰ لهم ، ويُنادَونَ بالتَّحيَّاتِ ، ويُتحفونَ بأنواعِ البرِّ والكراماتِ ، فهنيئاً لهم بما ظفروا به ، وأحسنَ اللهُ عزاءَ من غفلَ عن النَّظرِ في خلاصِ نفسِه ، وأعانَ الطَّالبَ الَّذي لم يصلْ إلى المقصودِ كأمثالِنا ، ولقد عُرضَ لي في صفةِ حالي أبياتٌ من الشِّعرِ ، وهي : [من الخفيف]

ظفِرَ الطَّالبونَ واتَّصلَ الوصـ	ـلُ وفازَ الأحبابُ بالأحبابِ
وبقينا مذبذَبينَ حيارى	بينَ حدِّ الوصالِ والإجتنابِ
نرتجي القربَ بالبعادِ وهٰذا	نفسُ حالِ المحالِ للألبابِ
فاسقِنا منك شَربةً تُذهبُ الغمـ	ـمَ وتهدي إلىٰ طريقِ الصَّوابِ
يا طبيبَ السَّقامِ يا مَرهَمَ الجر	حِ ويا منقذي من الأوصابِ
لستُ أدري بما أداوي سقامي	أو بماذا أفوزُ يومَ الحسابِ

ولنقبضِ الآنَ عِنانَ الجَنانِ ، ونرجعْ إلى المقصودِ من شأنِ العزلةِ ؛ فقد خرجْنا عن شرطِ البابِ .

فإن قيلَ : أليسَ قد قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « رهبانيَّةُ أمَّتي الجلوسُ في المساجدِ » ، وفيه زجرٌ عن التَّفرُّدِ ؟

فاعلمْ : أنَّ ذلك في غيرِ زمانِ الفتنةِ كما ذكرْناه ، وأيضاً فإنَّه يجلسُ في المسجدِ ولا يخالطُ النَّاسَ ولا يداخلُهم ، فيكونُ بالشَّخصِ معَهم ، وفي المعنىٰ منفرداً عنهم ، وهٰذا هو المعنيُّ في العزلةِ والتَّفرُّدِ الَّذي نحنُ في شرحِه ، لا التَّفرُّدُ بالشَّخصِ والمكانِ ، فافهمْ ذلك رحمَك ٱللهُ ، وفيه يقولُ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمَه اللهُ : كنْ واحداً جامعيّاً ، ومن ربِّك ذا أنسٍ ، ومن النَّاسِ وحشيّاً .

فإن قيلَ : فما تقولُ في مدارسِ علماءِ الآخرةِ ، ورباطاتِ الصُّوفيَّةِ سالكي طريقِ الآخرةِ ، والكونِ فيها ؟[1]

فاعلمْ : أنَّ تلكَ الطَّريقةَ المثلىٰ في هـٰذا الشَّأنِ لعامَّةِ أهلِ العلمِ والاجتهادِ ، وذلك أنَّها جمعَتِ المعنيينِ والفائدتينِ اللَّتينِ إحداهما : العزلةُ عن النَّاسِ ، والتَّفرُّدُ عنهم بالصُّحبةِ والمخالطةِ والمزاحمةِ في أمورِهم ، والثَّانيةُ : المشاركةُ معهم في جُمعِهم وجماعاتِهم ، وتكثيرُ شعائرِ الإسلامِ ، فتحصلُ السَّلامةُ الَّتي هي للمنفردينَ ، والخيرُ ٱلكثيرُ الَّذي هو لعامَّةِ المسلمينَ ، معَ ما للنَّاسِ فيهم من العدَّةِ والبركةِ والنَّصيحةِ ، فصارَ الكونُ فيها أعدلَ طريقٍ ، وأحسنَ حالٍ ، وأسلمَ سبيلٍ ، ولهـٰذا الشَّأنِ أقامَ أكثرُ العارفينَ بينَ النَّاسِ ؛ لنفعِهم لعبادِ اللهِ تعالىٰ في بابِ ٱلدِّينِ ، وقلَّةِ أذاهم ، ومشاهدةِ الخلقِ لآدابِهم وحسنِ رسومِهم ليقتدُوا بهم ؛ فإنَّ لسانَ الحالِ أفصحُ من لسانِ المقالِ ، فصارَ ذلك أحسنَ تدبيرٍ في أمرِ الدِّينِ للعلمِ والعبادةِ ، وأحكمَ رأيٍ .

فإن قيلَ : فما حالُ المريدِ مع المجتهدينَ والمرتاضينَ ، أيصحبُهم أم يعتزلُهم؟

فاعلمْ : أنَّهم إذا كانوا ثابتينَ علىٰ رسومِهم الأولى ، وسيرتِهم الموروثةِ عن سلفِهم . . فهم أجلُّ إخوانٍ في اللهِ عزَّ وجلَّ ، وأصحابٍ وأعوانٍ علىٰ عبادةِ ٱللهِ تعالى ؛ فلا تسعُك عنهم عزلةٌ وتفرُّدٌ ، وإنَّما مثلُهم مثلُ ما تسمعُ من زهَّادِ لبنانَ وغيرِهم أنَّ منهم جماعاتٍ يتعاونونَ على البرِّ والتَّقوى ، ويتواصَونَ بالحقِّ والصَّبرِ .

وأمَّا إذا تغيَّروا وتركوا رسومَهم ، وأخلُّوا بطريقتِهم الموروثةِ عن أسلافِهم الصَّالحينَ . . فحكمُ هـٰذا المجتهدِ المرتاضِ معهم كحكمِه مع سائرِ النَّاسِ ، يلزمُ زاويتَه ويكفُّ لسانَه ، ويشاركُهم في خيراتِهم ، ويجانبُهم في سائرِ أحوالِهم وآفاتِهم ، فيكونُ هو في عزلةٍ من أهلِ العزلةِ ، منفرداً عن المنفردينَ .

فإن قلتَ : فإنِ ٱختارَ هـٰذا المجتهدُ المرتاضُ أن يخرجَ من بينِهم إلىٰ مكانٍ آخرَ ؛ لصلاحٍ يراه في نفسِه ، وتجنُّبِ آفةٍ تدخلُ عليه في صحبتِهم ؟

---

(١) الكون فيها : اللبث والسكون في هـٰذه الأماكن .

فاعلمْ : أنَّ هٰذه المدارسَ والرِّباطاتِ بمنزلةِ حصنٍ حصينٍ يتحصَّنُ بها المجتهدونَ عن القطَّاعِ والسُّرَّاقِ ، وأنَّ الخارجَ بمنزلةِ الصَّحراءِ ، تدورُ فيه فرسانُ الشَّياطينِ عسكراً عسكراً ، فتسلبُه أو تستأسرُه ، فكيفَ حالُه إذا خرجَ إلى الصَّحراءِ ، وتمكَّنَ العدوُّ منه من كلِّ جانبٍ ، يعملُ فيه ما يشاءُ ؟! فإذن ليسَ لهٰذا الضَّعيفِ إلا لزومُ الحصنِ .

وأمَّا الرَّجلُ القويُّ البصيرُ الَّذي لا تغلبُه الأعداءُ ، واْستوىٰ عندَه الحصنُ والصَّحراءُ . . فلا خوفَ عليه إذا خرجَ غيرَ أنَّ الكونَ في الحصنِ أحوطُ علىٰ كلِّ حالٍ ؛ إذ لا يؤمنُ من الفلتاتِ والاتِّفاقاتِ مع قرناءِ السُّوءِ ، وإذا كانَ الأمرُ بهٰذه الجملةِ . . فالكونُ مع رجالِ اللهِ ، والصَّبرُ علىٰ مشقَّةِ الصُّحبةِ أولىٰ للمرتاضِ وطالبِ الخيرِ بكلِّ حالٍ ، وأن لا مانعَ للقويِّ البالغِ مبلغَ الاستقامةِ عن التَّفرُّدِ منهم ، فاعلمْ هٰذه الجملةَ وتأمَّلْها تغنمْ وتسلمْ إنْ شاءَ اللهُ تعالى .

فإن قيلَ : فما تقولُ في زيارةِ الإخوانِ في اللهِ عزَّ وجلَّ ، ومواصلةِ الأحبابِ بالتَّلاقي والتَّذاكرِ ؟

فاعلمْ : أنَّ زيارةَ الإخوانِ في اللهِ تعالىٰ من جواهرِ عبادةِ ٱللهِ تعالى ، وفيها الزُّلفةُ الكريمةُ إلى ٱللهِ عزَّ وجلَّ ، مع ما فيها من ضروبِ الفوائدِ وصلاحِ القلبِ ، ولٰكنْ بشرطينِ :

أحدُهما : ألاَّ يخرجَ في ذلك إلى الإكثارِ والإفراطِ ، قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه : « زرْ غِبّاً تزددْ حبّاً »[1] .

والثَّاني : أن تحفظَ حقَّ ذلك ؛ بالتَّجنُّبِ عن الرِّياءِ والتَّزيُّنِ ، وقولِ اللَّغوِ والغِيبةِ ، ونحوِ ذلك ، فيعودُ عليكَ وعلىٰ أخيك الوبالُ ، فلقد حُكيَ : أنَّ الفضيلَ وسفيانَ رحمَهما اللهُ تعالىٰ تذاكرا شيئاً فبكيا ، فقالَ سفيانُ : يا أبا عليٍّ ؛ أرجو أنَّا ما جلسنا مجلساً أرجىٰ لنا من هٰذا المجلسِ ، فقالَ الفضيلُ :

---

(١) أخرجه الطيالسي في « مسنده » (٢٥٣٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٦٣٧) ، وأخرجه الحاكم (٣/ ٣٤٧) عن حبيب بن مسلمة رضي الله عنهما ، وغبّاً ـ بكسر الغين ـ: فترة بعد فترة .

ما جلستُ مجلساً أخوفُ عليَّ من هٰذا ، قالَ : وكيف يا أبا عليٍّ ؟ قالَ : ألستَ تعمِدُ إلىٰ أحسنِ حديثِك فتحدِّثَني به ، وأنا عَمدتُ إلىٰ أحسنِ ما عندي فحدثتُك به ، فتزيَّنتَ لي ، وتزيَّنتُ لك ؟ فبكىٰ سفيانُ[1] .

فيجبُ أن تكونَ مجالستُك للإخوانِ وملاقاتُهم علىٰ مقدارِ قصدٍ في ٱحتياطٍ ونظرٍ لطيفٍ ، فلا يقدحُ ذلك حينئذٍ في عزلتِك وتفرُّدِك عن النَّاسِ ، ولا يعودُ عليكَ وعلىٰ أخيك بضررٍ وآفةٍ ، بل بخيرٍ كثيرٍ ، ونفعٍ عظيمٍ ، وٱللهُ الموفِّقُ .

فإن قلتَ : فما يبعثُني على العزلةِ عن النَّاسِ والتَّفرُّدِ ، ويهوِّنُ عليَّ ذلك ؟

فاعلمْ : أنَّ ٱلَّذي يهوِّنُ عليكَ ذلك ثلاثةُ أمورٍ :

أحدُها : ٱستغراقُ أوقاتِك في العبادةِ ؛ فإنَّ في العبادةِ شغلاً ، وإنَّ الاستئناسَ بالنَّاسِ من علاماتِ الإفلاسِ .

فإذا رأيتَ نفسَك تتطلَّعُ إلىٰ ملاقاةِ النَّاسِ وكلامِهم من غيرِ حاجةٍ وضرورةٍ . . فاعلمْ أنَّ ذلك فضولٌ ساقَه إليك الفراغُ والبطرُ ، ولقد أحسنَ من قالَ في هٰذا المعنى : [من الكامل]

إنَّ الفراغَ إلىٰ سلامِك قادني ... ولربَّما عملَ الفضولَ الفارغُ

فإذنْ إذا أعطيتَ العبادةَ حقَّها . . وجدتَ حلاوةَ المناجاةِ ، واستأنستَ بكتابِ اللهِ سبحانَه ، واشتغلتَ عن الخلقِ ، واستوحشتَ من صحبتِهم وكلامِهم ، وفي الخبرِ : أنَّ موسىٰ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كانَ إذا رجعَ من المناجاةِ . . يستوحشُ من النَّاسِ ، وكانَ يجعلُ إصبعيه في أذنيه ؛ لئلاَّ يسمعَ كلامَهم ، وكانَ كلامُهم عندَه في النُّفورِ والوحشةِ في ذلك الوقتِ كأصواتِ الحميرِ ، فعليكَ بما قالَه شيخُنا رحمَه اللهُ : [من مجزوء الخفيف]

إرضَ باللهِ صاحباً ... وذرِ النَّاسَ جانبا
صادقَ الودِّ شاهداً ... كنتَ فيهم وغائبا
قلِّبِ النَّاسَ كيف شئْـ ... ـتَ تجدْهم عقاربا

---

(1) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٨/ ٤٠٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١١٤) .

والثَّاني : قطعُ الطَّمعِ عنهم بمرَّةٍ ، فيهونُ عليكَ أمرُهم ؛ لأنَّ من لا ترجو نفعَه ، ولا تخافُ ضرَّه . . فوجودُه وعدمُه سواءٌ .

والثَّالثُ : تبصرُ آفاتِهم ، وتتذكَّرُ ذلك ، وتكرِّرُه علىٰ قلبِك ؛ فإنَّ هـٰذه الأذكارَ الثَّلاثةَ إذا لزمتَها . . طردتْك عن صحبةِ الخلقِ إلىٰ بابِ اللهِ تعالى ، والتفرُّدِ لعبادتِه ، وحبَّبتْه إليك ، وألزمتْك بابَه ، وباللهِ التَّوفيقُ والعصمةُ .

العائقُ الثَّالثُ : **الشَّيطانُ** ، ثمَّ عليكَ ـ يا أخي ـ بمحاربةِ الشَّيطانِ وقهرِه ، وذلك لخصلتينِ :

إحداهما : أنَّه عدوٌّ مضلٌّ مبينٌ ، ولا مطمعَ فيه بمصالحةٍ وإبقاءٍ عليكَ ، بل لا يقنعُه إلاَّ هلاكُك أصلاً ، فلا وجهَ إذن للأمنِ من مثلِ هـٰذا العدوِّ والغفلةِ عنه ، وتأمَّلْ آيتينِ من كتابِ اللهِ سبحانَه :

إحداهما : قولُه تعالى : ﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ .

والثَّانيةُ : قولُه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ ، وهـٰذا أقصى التَّحذيرِ وغايتُه .

والخصلةُ الثَّانيةُ : أنَّه مجبولٌ علىٰ عداوتِك ، ومنتصبٌ أبداً لمحاربتِك ، فهو آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ يرميك بسهامِه وأنت غافلٌ عنه ، فكيف يكونُ الحالُ؟!

ثمَّ وقعتْ معك نكتةٌ أخرى ، وهي أنَّك في عبادةِ اللهِ تعالى ، ودعوةِ الخلقِ إلىٰ بابِ اللهِ سبحانَه بفعلِك وقولِك ، وهـٰذا ضدُّ صنيعِ الشَّيطانِ وهمَّتِه ، ومرادِه وحرفتِه ، فصرتَ كأنَّك قمتَ وشددتَ وسطَك لتغايظَ الشَّيطانَ وتكايدَه وتناقضَه ، فهو أيضاً يشدُّ وسطَه ليعاديَك ويقاتلَك ويماكرَك حتىٰ يفسدَ عليكَ شأنَك ، بل حتَّىٰ يهلكَك رأساً ؛ إذ لا يأمنُ من جانبك بعدُ ؛ فإنَّه الَّذي يسيءُ ويقصدُ بالهلاكِ إلىٰ من لا يغايظُه ولا يناقضُه ، بل يصادقُه ويوافقُه ، كالكفَّارِ وأهلِ الضَّلالةِ ، وأهلِ الرَّغبةِ في بعضِ الأحوالِ ، فكيف قصدُه لمن قامَ لمغايظتِه ، وتجرَّدَ لمناقضتِه ؟!

فله إذنْ مع سائرِ النَّاسِ عداوةٌ عامَّةٌ ، ومعك أيُّها المجتهدُ في العبادةِ والعلمِ عداوةٌ خاصَّةٌ ، وإنَّ أمرَكَ له لمهمٌّ ، ومعه عليكَ أعوانٌ ، أشدُّها عليكَ نفسُك وهواك ، وله أسبابٌ ومداخلُ وأبوابٌ أنت عنها غافلٌ ، ولقد صدقَ يحيى بنُ معاذٍ الرَّازيُّ رحمَه اللهُ حيثُ قالَ : الشَّيطانُ فارغٌ وأنت مشغولٌ ، والشَّيطانُ يراك وأنت لا تراه ، وأنت تنساه وهو لا ينساك ، ومن نفسِك للشَّيطانِ عليكَ عونٌ .

فإذنْ لا بدَّ من محاربتِه وقهرِه ، وإلاَّ . . فلا تأمنِ الفسادَ والهلاكَ .

فإن قلتَ : فبأيِّ شيءٍ أحاربُ الشَّيطانَ ؟ وبأيِّ شيءٍ أقهرُه وأدفعُه ؟

فاعلمْ : أنَّ لأهلِ هٰذه الصِّناعةِ[1] في هٰذه المسألةِ طريقينِ :

أحدُهما : ما قالَه بعضُهم : إنَّ التَّدبيرَ في دفعِ الشَّيطانِ الاستعاذةُ باللهِ سبحانَه لا غيرُ ؛ فإنَّ الشَّيطانَ كلبٌ سلَّطَه اللهُ تعالىٰ عليكَ ؛ فإنِ اشتغلتَ بمحاربتِه ومعالجتِه . . تعبتَ ، وضاعَ عليكَ وقتُك ، وربَّما يظفرُ بك فيعقرُك ويجرحُك ؛ فإنَّ الرُّجوعَ إلىٰ ربِّ الكلبِ ليصرفَه عنك أولى .

والثَّاني : ما قالَ آخرونَ : إنَّ الطَّريقَ المجاهدةُ ، والقيامُ عليه بالدَّفعِ والرَّدِّ والمخالفةِ .

قلتُ : والَّذي عندي أنَّ الطَّريقَ العدلَ الجامعَ في أمرِه أن تجمعَ بينَ الطَّريقينِ ؛ فتستعيذَ باللهِ تعالىٰ أوَّلاً من شرِّهِ كما أمرَنا ، وهو الكافي شرَّه ، ثمَّ إن رأيناه يتغلَّبُ علينا . . علِمنا أنَّه ٱبتلاءٌ من اللهِ تعالىٰ ليرىٰ صدقَ مجاهدتِنا وقوَّتِنا في أمرِه سبحانَه وتعالىٰ ويرىٰ صبرَنا ، كما أنَّه يسلِّطُ علينا الكفَّارَ مع قدرتِه علىٰ كفايةِ أمرِهم وشرِّهم ليكونَ لنا حظٌّ من الجهادِ والصَّبرِ والتَّمحيصِ والشَّهادةِ ، كما قالَ تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ، فكذلكَ هو .

---

(١) أي : أهل التصوف .

ثمَّ إنَّ محاربتَه وقهرَه ـ فيما قالَه علماؤُنا رضيَ اللهُ عنهم ـ في ثلاثةِ أشياءَ :

أحدُها : أن تتعرَّفَ وتتعلَّمَ مكايدَه وحيلَه ، فلا يتجاسرُ حينئذٍ عليكَ ، كاللِّصِّ إذا علمَ أنَّ صاحبَ الدَّارِ قد أحسَّ به . . فرَّ .

والثَّاني : أن تستخفَّ بدعوتِه ، فلا تعلِّقْ قلبَك بذلكَ وتتَّبعُه ؛ فإنَّه بمنزلةِ الكلبِ النَّابحِ ؛ إن أقبلتَ عليه . . أولِعَ بك ولجَّ ، وإن أعرضتَ عنه . . سكتَ .

والثَّالثُ : أن تديمَ ذكرَ اللهِ تعالىٰ بلسانِك وقلبِك ، فلقد قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « إنَّ ذكرَ ٱللهِ تعالىٰ في جنبِ الشَّيطانِ كالأَكِلةِ في جنبِ ٱبنِ آدمَ »[1] .

فإن قلتَ : كيف تعلمُ مكايدَه ؟ وكيف الطَّريقُ إلىٰ معرفةِ ذلكَ ؟

فاعلمْ [أوَّلاً] : أنَّ له وساوسَ هي بمنزلةِ السِّهامِ الَّتي يرميها ، وذلك إنَّما يتبيَّنُ لك بمعرفةِ الخواطرِ وأقسامِها .

والثَّاني : أنَّ له حيلاً بمنزلةِ الشَّبكاتِ الَّتي تنصِبُها ، وذلك يتبيَّنُ لك بمعرفةِ المكايدِ وأوصافِها ومجاريها .

ولقد ذَكرَ علماؤُنا رضيَ اللهُ عنهم أبواباً في الخواطرِ ، وقد صنَّفْنا كتاباً سمَّيناه : « تلبيسَ إبليسَ » ، وكتابُنا هـٰذا لا يحتملُ الإكثارَ ، لـٰكنَّا نذكرُ لك إن شاءَ اللهُ تعالىٰ من كلِّ واحدٍ منها أصلاً كافياً إذا ٱعتصمتَ به .

فأمَّا أصلُ الخواطرِ : فاعلمْ أنَّ اللهَ تعالىٰ وكَّلَ بقلبِ ٱبنِ آدمَ ملَكاً يدعوه إلى الخيرِ ، يقالُ له : (الملهِمُ) ، ولدعوتِه : (إلهامٌ) ، وسلَّطَ في مقابلتِه شيطاناً يدعو العبدَ إلى الشَّرِّ يقالُ له : (وسواسٌ) ، ولدعوتِه : (وسوسةٌ) ، فالملهمُ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١٠٠٩) من قول كعب الأحبار رحمه الله تعالى ، وأخرجه بمعناه أبو يعلىٰ في « مسنده » (١٣٦) ، وابن أبي عاصم في « السنة » (٧) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال : « عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار فأكثروا منهما ؛ فإن إبليس قال : أهلكت الناس بالذنوب فأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك منهم . . أهلكتهم بالأهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتدون فلا يستغفرون » ، **والأكلة** ـ كفرِحة ـ : داء يأتكل من العضو .

لا يدعو إلاَّ إلى الخيرِ ، والوسواسُ لا يدعو إلاَّ إلى الشَّرِّ في قولِ أكثرِ علمائِنا .

وقد حُكيَ عن شيخِنا رحمَهُ اللهُ : أنَّ الشَّيطانَ ربَّما يدعو إلى الخيرِ وقصدُه في ذلك الشَّرُّ ؛ بأن يدعوَه إلى المفضولِ ليمنعَه عن الفاضلِ ، أو يدعوَه إلىٰ خيرٍ ليجرَّه إلىٰ ذنبٍ عظيمٍ لا يفي خيرُه بذلكَ الشَّرِّ من عُجبٍ أو غيرِه .

فهٰذانِ داعيانِ قائمانِ علىٰ قلبه ، يدعوانِه وهو يسمعُ قلبَه يحسُّ بذلكَ ، علىٰ ما رُويَ في الأخبارِ : أنَّه إذا وُلدَ لابنِ آدمَ مولودٌ . . قرنَ اللهُ سبحانَه به ملَكاً ، وقرنَ الشَّيطانُ به شيطاناً ؛ فالشَّيطانُ جاثمٌ علىٰ أذنِ قلبِ ٱبنِ آدمَ الأيسرِ ، والملَكُ جاثمٌ علىٰ أذنِ قلبِه الأيمنِ ، فهما يدعوانِه .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « للشَّيطانِ لَمَّةٌ بابنِ آدمَ ، وللملَكِ لمَّةٌ »[1] يعني : نزلةً بالدَّعوةِ ، من قولِهم : لمَّ بالمكانِ وألَمَّ به إذا نزلَ به .

ثمَّ ركَّبَ اللهُ تعالىٰ في بنيةِ الإنسانِ طبيعةً مائلةً إلى الشَّهواتِ ونيلِ اللَّذَّاتِ كيف كانتْ ، من حسنٍ أو قبحٍ ، فذلكَ هوى النَّفسِ الصَّارفةِ إلى الآفاتِ ، فهٰذه ثلاثُ دعاةٍ[2] .

ثمَّ ٱعلمْ بعدَ هٰذه المقدِّمةِ : أنَّ الخواطرَ هي آثارٌ تحدثُ في قلبِ العبدِ ، تبعثُه على الأفعالِ والتُّروكِ ، وتدعوه إليها ، وسُمِّيتْ خواطرَ لاضطرابِها ، من خطراتِ الرِّيحِ ونحوِها ، وحدوثُها جميعاً في قلبِ العبدِ بالحقيقةِ من اللهِ سبحانَه وتعالى ، لٰكنَّها أربعةُ أقسامٍ :

- منها ما يُحدِثُه اللهُ تعالىٰ في القلبِ ابتداءً ، فيقالُ له : الخاطرُ فقطْ .

- وقسمٌ يُحدِثُه موافقاً لطبعِ الإنسانِ ، فيقالُ له : هوى النَّفسِ ، ويُنسَبُ إليها .

- وقسمٌ يُحدِثُه عقيبَ دعوةِ الملهِمِ ، فيُنسبُ إليه ويقالُ له : الإلهامُ .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٩٩٧) ، والترمذي (٢٩٨٨) ، والنسائي في « الكبرى » (١٠٩٨٥) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أي : الملك ، والشيطان ، والنفس .

ـ وقسمٌ يُحدِثُه عقيبَ دعوةِ الشَّيطانِ ، فيُنسَبُ إليه ويقالُ له : الوسوسةُ ، وتُنسَبُ إليه بأنَّها خواطرُ من الشَّيطانِ ، وإنَّما هي في الحقيقةِ حادثةٌ عندَ دعوتِه ، فهو كالسَّببِ في ذلك ، ولـٰكنَّه تُنسَبُ إليه ، فهـٰذه أربعةُ أقسامٍ من الخواطرِ .

ثمَّ ٱعلمْ بعدَ هـٰذا التَّقسيمِ : أنَّ الخاطرَ الَّذي من قِبَلِ اللهِ تعالى ٱبتداءً قد يكونُ بخيرٍ ؛ إكراماً وإلزاماً للحجَّةِ ، وقد يكونُ بشرٍّ ؛ ٱمتحاناً وتغليظاً للمحنةِ .

والخاطرُ الَّذي يكونُ من قِبَلِ الملهِمِ لا يكونُ إلاَّ بخيرٍ ؛ إذ هو ناصحٌ مرشدٌ لم يُرسَلْ إلاَّ لذلكَ .

والخاطرُ الَّذي يكونُ من قِبَلِ الشَّيطانِ لا يكونُ إلاَّ بشرٍّ إغواءً واستزلالاً[1] ، وربَّما يكونُ بالخيرِ مكراً واستدراجاً .

والَّذي يكونُ من قِبَلِ هوى النَّفسِ يكونُ بالشَّرِّ وبما لا خيرَ فيه تمنُّعاً وتعسُّفاً .

ولقد وجدتُ عن بعضِ السَّلفِ أنَّ هوى النَّفسِ أيضاً قد يدعو إلى الخيرِ والمقصودُ منه شرٌّ كالشَّيطانِ ، فهـٰذه أنواعُها .

ثمَّ اعلمْ بعدَ هـٰذا : أنَّك محتاجٌ إلىٰ معرفةِ ثلاثةِ فصولٍ لا بدَّ لك منها ألبتَّةَ ، وفيها المقصودُ :

أحدُها : الفرقُ بينَ خاطرِ الخيرِ وخاطرِ الشَّرِّ في الجملةِ .

والثَّاني : الفرقُ بينَ خاطرِ شرٍّ ٱبتدائيٍّ أو شيطانيٍّ أو هوائيٍّ ، وبماذا تفرِّقُ بينَها ؟ فإنَّ لكلِّ واحدٍ منها دفعاً من نوعٍ آخرَ .

والثَّالثُ : الفرقُ بينَ خاطرِ خيرٍ ابتدائيٍّ وإلهاميٍّ ، أو شيطانيٍّ أو هوائيٍّ ؛ لتتَّبعَ ما يكونُ من اللهِ تعالىٰ أو من الملهِمِ ، وتجتنبَ ما يكونُ من الشَّيطانِ ، وكذلكَ الهوىٰ علىٰ قولِ من يقولُ به .

فأمَّا الفصلُ الأوَّلُ : فقد قالَ علماؤُنا رضيَ اللهُ عنهم : إذا أردتَ أن تعرفَ خاطرَ الخيرِ من خاطرِ الشَّرِّ وتفرِّقَ بينَهما . . فزنْه بأحدِ الموازينِ الثَّلاثةِ يتبيَّنْ لك حالُه :

---

(١) استزلالاً : طلباً للزَّلَّة .

فالأوَّلُ : أن تعرضَ الأمرَ الَّذي خطرَ ببالِك على الشَّرعِ ، فإن وافقَ جنسَه . . فهو خيرٌ ، وإن كانَ بالضِّدِّ برخصةٍ أو شبهةٍ . . فهو شرٌّ .

فإن لم يستبنْ لك بهٰذا الميزانِ . . فاعرضْه على الاقتداءِ ، فإن كانَ في فعلِه اقتداءٌ بالصَّالحينَ . . فهو خيرٌ ، وإن كانَ بالضِّدِّ اتِّباعاً للطَّالحينَ . . فهو شرٌّ .

فإن لم يستبنْ لك بهٰذا الميزانِ . . فاعرضْه على النَّفسِ والهوى ، وانظرْ ؛ فإن كانَ ممَّا تنفرُ عنه النَّفسُ نفرةَ طبعٍ لا نفرةَ خشيةٍ وترهيبٍ . . فاعلمْ أنَّه خيرٌ ، وإن كانَ ممَّا تميلُ إليه النَّفسُ ميلَ طبعٍ وجبلَّةٍ لا ميلَ رجاءٍ إلى اللهِ تعالىٰ وترغيبٍ . . فهو شرٌّ ؛ إذ النَّفسُ أمَّارةٌ بالسُّوءِ لا تميلُ بأصلِها إلىٰ خيرٍ .

فبأحدِ هٰذه الموازينِ ـ إذا نظرتَ وأمعنتَ النَّظرَ ـ يستبينُ لك خاطرُ الخيرِ من خاطرِ الشَّرِّ ، واللهُ تعالىٰ وليُّ الهدايةِ بفضلِه ، إنَّه جوادٌ كريمٌ .

وأمَّا الفصلُ الثَّاني : فقالَ علماؤُنا : إذا أردتَ أن تفرِّقَ بينَ خاطرِ شرٍّ يكونُ من قِبَلِ الشَّيطانِ ، وبينَ خاطرِ شرٍّ يكونُ من قِبَلِ هوى النَّفسِ أو من اللهِ تعالى ابتداءً . . فانظرْ فيه من ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها : إن وجدتَه مصمِّماً راتباً علىٰ حالةٍ واحدةٍ . . فهو من اللهِ تعالىٰ أو من هوى النَّفسِ ، وإن وجدتَه متردِّداً مضطرباً . . فاعلمْ أنَّه من الشَّيطانِ .

وكانَ بعضُ العارفينَ رحمَه اللهُ يقولُ : مثلُ هوى النَّفسِ مثلُ النَّمرِ إذا حاربَ . . لا ينصرفُ إلاَّ بقمعٍ بالغٍ ، وقهرٍ ظاهرٍ ، أو مثلُ الخارجيِّ الَّذي يقاتلُ تديُّناً ، لا يكادُ يرجعُ حتَّىٰ يُقتَلَ ، ومثلُ الشَّيطانِ مثلُ الذِّئبِ ، إذا طردتَه من جانبٍ . . دخلَ من جانبٍ آخرَ .

وثانيها : إن وجدتَه عقيبَ ذنبٍ أحدثتَه . . فهو من اللهِ تعالى ؛ إهانةً وعقوبةً بشؤمِ ذلك الذَّنبِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

قالَ شيخي الإمامُ رحمَه اللهُ : هٰكذا تؤدِّي الذُّنوبُ إلىٰ قسوةِ القلبِ ؛ أوَّلُها خاطرٌ ، ثمَّ تؤدِّي إلى القسوةِ والرَّينِ .

وإن كانَ هٰذا الخاطرُ مبتدأً لا عقيبَ ذنبٍ كانَ منك . . فاعلمْ أنَّه من قِبَلِ

الشَّيطانِ ، هٰذا في الأكثرِ ؛ لأنَّه يبتدىءُ بدعوةِ الشَّرِّ ، ويطلبُ الإغواءَ بكلِّ حالٍ .

وثالثُها : إن وجدتَه لا يضعفُ ، ولا يقلُّ بذكرِ اللهِ تعالى ، ولا يزولُ . . فهو من الهوى ، وإن وجدتَه يضعفُ ويقلُّ بذكرِ اللهِ تعالى . . فهو من الشَّيطانِ ، كما ذُكرَ في تفسيرِ قولِه تعالى : ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ : (أنَّ الشَّيطانَ جاثمٌ علىٰ قلبِ ٱبنِ آدمَ ، إذا ذكرَ اللهَ تعالى . . خنَسَ ، وإذا غفلَ . . وسوسَ)[1] .

وأمَّا الفصلُ الثَّالثُ : إذا أردتَ أن تفرِّقَ بينَ خاطرِ خيرٍ يكونُ من اللهِ تعالىٰ أو من الملَكِ . . فانظرْ في ذلك من ثلاثةِ أوجهٍ :

أحدُها : أن تنظرَ ؛ فإن كانَ قويّاً مصمِّماً . . فهو من اللهِ تعالى ، وإن كانَ متردِّداً . . فهو من الملَكِ ؛ إذ هو بمنزلةِ ناصحٍ يدخلُ معك من كلِّ جانبٍ ووجهٍ ، ويعرضُ عليكَ كلَّ نصحٍ ؛ رجاءَ إجابتِك ورغبتِك في الخيرِ .

والثَّاني : إن كانَ عقيبَ ٱجتهادٍ منك وطاعةٍ . . فهو من اللهِ تعالى ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ .

وإن كانَ مبتدَأً . . فهو من الملَكِ في الأغلبِ .

والثَّالثُ : إن كانَ في الأصولِ والأعمالِ الباطنةِ . . فهو من اللهِ سبحانَه وتعالى ، وإن كانَ في الفروعِ والأعمالِ الظَّاهرةِ . . فهو من الملَكِ في الأكثرِ ؛ إذ الملَكُ لا سبيلَ له إلىٰ معرفةِ باطنِ العبدِ في قولِ أكثرِهم .

وأمَّا خاطرُ الخيرِ الَّذي يكونُ من قِبَلِ الشَّيطانِ ٱستدراجاً إلىٰ شرٍّ يربو عليه : فلقد قالَ شيخُنا رحمَه اللهُ : انظرْ ؛ إن وجدتَ نفسَك في ذلك الفعلِ الَّذي خطرَ بقلبِك مع نشاطٍ لا مع خشيةٍ ، ومع عجلةٍ لا مع تأنٍّ ، ومع أمنٍ لا مع خوفٍ ، ومع عمىً عن العاقبةِ لا مع بصيرةٍ . . فاعلم أنَّه من الشَّيطانِ فاجتنبْه ، وإن وجدتَ نفسَك علىٰ ضدِّ ذلك مع خشيةٍ لا مع نشاطٍ ، ومع تأنٍّ لا مع عجلةٍ ، ومع خوفٍ لا مع

---

(١) هو تفسير ابن عباسٍ رضي الله عنهما . أخرجه الضياء في « المختارة » (١٠/ ٣٦٧) ، والحاكم (٢/ ٥٤١) .

أمنٍ ، ومع بصيرةٍ للعاقبةِ لا مع عمىً . . فاعلمْ أنَّه من اللهِ تعالىٰ أو من الملَكِ .

قلتُ أنا : وكأنَّ النَّشاطَ خفَّةٌ في الإنسانِ للفعلِ من غيرِ بصيرةٍ وذكرِ ثوابٍ يُنشِّطُه في ذلك .

وأمَّا التَّأنِّي : فمحمودٌ إلاَّ في مواضعَ معدودةٍ ، وذُكرَ في الخبرِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ : « العجلةُ من الشَّيطانِ إلاَّ في خمسةِ مواضعَ : تزويجِ البكرِ إذا أدركَتْ ، وقضاءِ الدَّينِ إذا وجبَ ، وتجهيزِ الميِّتِ إذا ماتَ ، وقِرى الضَّيفِ إذا نزلَ ، والتَّوبةِ من الذَّنبِ إذا أذنبْتَ »[1] .

وأمَّا الخوفُ : فيحتملُ أن يكونَ في إتمامِه وأدائِه علىٰ وجهِه وحقِّه ، وقَبولِ اللهِ تعالىٰ إيَّاه .

وأمَّا بصارةُ العاقبةِ : فبأن يتبصَّرَ ويتيقَّنَ أنَّه رشدٌ وخيرٌ ، ويحتملُ أن يكونَ لرؤيةِ الثَّوابِ في العقبىٰ ورجائِه ، فاعلمْ ذلك موفَّقاً .

فهٰذه جملةُ الفصولِ الثَّلاثةِ الَّتي لزمتْك معرفتُها في فصلِ الخواطرِ ، فارعَها حقَّها ، وأمعنِ النَّظرَ فيها ما استطعتَ ؛ فإنَّها من العلومِ اللَّطيفةِ والأسرارِ الشَّريفةِ في هٰذا البابِ ، واللهُ الموفِّقُ بفضلِه .

وأمَّا فصلُ الحِيَلِ والمخادعاتِ من الشَّيطانِ : فمجرىٰ ذلك ومثالُه أنَّ مكايدَ الشَّيطانِ مع ابنِ آدمَ في الطَّاعةِ من سبعةِ أوجهٍ :

أحدُها : أن ينهاه عنها ، فإن عصمَه اللهُ تعالى . . ردَّه ؛ بأن قالَ : إنِّي محتاجٌ إلىٰ ذلك جدّاً ؛ إذ لا بدَّ لي من التَّزوُّدِ من هٰذه ٱلدُّنيا الفانيةِ للآخرةِ الَّتي لا ٱنقضاءَ لها .

ثمَّ يأمرُه بالتَّسويفِ ، فإن عصمَه اللهُ تعالى . . ردَّه ؛ بأن قالَ : ليسَ أجلي

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٢) ، والطبراني في « الكبير » (٦/ ١٢٢) عن سهل بن سعد رضي الله عنهما ، وأخرجه البيهقي (١٠/ ١٠٤) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٤٢٥٦) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، من غير أن يذكر واحد منهم تلك المواضع الخمسة ، وأخرجه بهذا اللفظ أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٧٨) من قول حاتم الأصم رحمه الله تعالى ، وكذلك ذكره المصنف رحمه الله تعالىٰ في « الإحياء » (٢/ ١٦) .

بيدي ، علىٰ أنِّي إن سوَّفتُ عملَ اليومِ إلىٰ غدٍ . . فعملُ غدٍ متىٰ أعملُه ؟ فإنَّ لكلِّ يومٍ عملاً .

ثمَّ يأمرُه بالعجلةِ فيقولُ له : عجِّلْ عجِّلْ لتفرغَ لكذا وكذا ، فإن عصمَه ٱللهُ تعالى . . ردَّه[1] ؛ بأن قالَ : قليلُ العملِ مع التَّمامِ خيرٌ من كثيرِه مع النُّقصانِ .

ثمَّ يأمرُه بإتمامِ العملِ مراءاةً للنَّاسِ ، فإن عصمَه اللهُ تعالى . . ردَّه ؛ بأن قالَ : ما الَّذي أعملُ بمراءاةِ النَّاسِ ؟ أفلا تكفيني رؤيةُ اللهِ تعالى ؟

ثمَّ يريدُ أن يوقعَه في العُجبِ فيقولُ : ما أعقلَك وأيقظَك ! فإن عصمَه اللهُ تعالى . . ردَّه ؛ بأن قالَ : المِنَّةُ للهِ تعالىٰ في ذلكَ دوني ، وهو الَّذي خصَّني بتوفيقِه ، وجعلَ لعملي قيمةً عظيمةً بفضلِه ، ولولا فضلُه . . فماذا كانَ قيمةُ هـٰذا العملِ في جَنبِ نعمةِ اللهِ تعالىٰ عليَّ وجَنبِ معصيتي له ؟

ثمَّ يأتيه من وجهٍ سادسٍ ، وهو أعظمُها ، ولا يقفُ عليه إلاَّ كلُّ متيقِّظٍ ، وهو أن يقولَ : ٱجتهدْ أنت في السِّرِّ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ سيُظهرُه عليكَ ، ويلبسُ كلَّ عاملٍ عملَه ، وأرادَ بذلكَ ضرباً من الرِّياءِ ، فإن عصمَه اللهُ تعالى . . ردَّه ؛ بأن قالَ : يا ملعونُ ؛ إلى الآنَ كنتَ تأتيني من وجهِ إفسادِ عملي ، والآنَ تأتيني من وجهِ إخلاصِه لتفسدَه ، إنَّما أنا عبدُ ٱللهِ تعالى ، وهو سيِّدي ، إن شاءَ . . أظهرَ ، وإن شاءَ . . أخفى ، وإن شاءَ . . جعلني خطيراً ، وإن شاءَ . . جعلني حقيراً ، وذلك إليه ، وما أبالي إن أظهرَ ذلك للنَّاسِ أو لم يُظهرْه ؛ فليسَ بأيديهم شيءٌ .

ثمَّ يأتيه من وجهٍ سابعٍ ويقولُ : لا حاجةَ لك إلىٰ هـٰذا العملِ ؛ لأنَّك إن خُلقتَ سعيداً . . لم يضرَّكَ تركُ العملِ ، وإن خُلقتَ شقيّاً . . لم ينفعْك فعلُه ، فإن عصمَه اللهُ تعالى . . ردَّه ؛ بأن قالَ : إنَّما أنا عبدٌ ، وعلى العبدِ ٱمتثالُ الأمرِ لعبوديَّتِه ، والرَّبُّ أعلمُ بربوبيَّتِه ، يحكمُ ما يشاءُ ، ويفعلُ ما يريدُ ، ولأنَّه ينفعُني العملُ كيفما كنتُ ؛ لأنِّي إن كنتُ سعيداً . . ٱحتجتُ إليه لزيادةِ الثَّوابِ ، وإن

---

(١) في جميع النسخ في هـٰذا الموضع والذي قبله : (ورده) ، ولعل الصواب ما أثبت كما في المواضع الآتية ، والله تعالىٰ أعلم .

كنتُ شقيّاً . . فأنا محتاجٌ إليه كي لا ألومَ نفسي ، علىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ لا يعاقبُني على الطَّاعةِ بكلِّ حالٍ ، ولا تضرُّني ، علىٰ أنِّي إن أُدخلتُ النَّارَ وأنا مطيعٌ . . أحبُّ إليَّ من أن أدخلَها وأنا عاصٍ ، فكيف ووعدُه حقٌّ ، وقولُه صدقٌ ، وقد وعدَ على الطَّاعاتِ بالثَّوابِ ؟! فمن لقيَ اللهَ تعالىٰ على الإيمانِ والطَّاعةِ . . لم يدخلِ النَّارَ ألبتَّةَ ، ودخلَ الجنَّةَ ؛ لا لاستحقاقِه بعملِه الجنَّةَ ، ولـٰكنْ لوعدِه الصَّادقِ تعالى ، ولهـٰذا المعنىٰ أخبرَ اللهُ تعالىٰ عن السُّعداءِ إذ قالوا : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ .

فتيقَّظْ رحمَك اللهُ ، فإنَّ الأمرَ كما ترىٰ وتسمعُ ، وقسْ عليه سائرَ الأفعالِ والأحوالِ ، واستعنْ باللهِ تعالىٰ واستعذْ به ؛ فإنَّ الأمرَ بيدِه ، ومنه التَّوفيقُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيمِ .

العائقُ الرَّابعُ : النَّفسُ ، ثمَّ عليكَ ـ عصمَك اللهُ وإيَّانا ـ بالحذرِ من هـٰذه النَّفسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ ؛ فإنَّها أضرُّ الأعداءِ ، وبلاؤُها أصعبُ البلاءِ ، وعلاجُها أعسرُ الأشياءِ ، وداؤُها أعضلُ الدَّاءِ ، ودواؤُها أشكلُ الدَّواءِ ، وإنَّما ذلك لأمرينِ :

أحدُهما : أنَّه[1] عدوٌّ من داخلٍ ، واللَّصُّ إذا كانَ من داخلِ البيتِ . . عزَّتِ الحيلةُ فيه وعظُمَ الضَّررُ ، ولقد صدقَ القائلُ : [من السريع]

نفسي إلىٰ ما ضرَّني داعي ... تُكثرُ أسقامي وأوجاعي
كيف ٱحتيالي من عدوِّي إذا ... كانَ عدوِّي بينَ أضلاعي[2]

والثَّاني : أنَّه عدوٌّ محبوبٌ ، والإنسانُ عمٍ عن عيبِ محبوبِه ، لا يكادُ يبصرُ عيبَه ، كما قالَ القائلُ : [من الطويل]

ولستَ ترىٰ عيباً لذي الودِّ والإخا ... ولا بعضَ ما فيه إذا كنتَ راضيا
وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ... ولـٰكنَّ عينَ السُّخطِ تُبدي المساويا[3]

---

(١) الضمير هنا وفي الموضع الثاني عائد على المفهوم من أمر النفس .
(٢) البيتان للعباس بن الأحنف . انظر « ديوانه » (١٥٩) .
(٣) البيتان لعبد الله بن معاوية . انظر « عيون الأخبار » (٣/١١) .

فإذنْ يَستحسِنُ الإنسانُ من نفسِه كلَّ قبيحٍ ، ولا يكادُ يطَّلعُ علىٰ عيبٍ لها وهي في عداوتِها وأضرارِها ، فما أوشكَ ما توقعُه في كلِّ هلاكٍ وفضيحةٍ وهو لا يشعرُ إلاَّ أن يحفظَه اللهُ تعالىٰ بفضلِه ، ويعينَه عليها برحمتِه !

ثمَّ أقولُ : تأمَّلْ أيُّها الرَّجلُ نكتةً واحدةً مقنعةً ، وهي أنَّك إذا نظرتَ . . وجدتَ أصلَ كلِّ فتنةٍ وفضيحةٍ ، وخزيٍ وهلاكٍ ، وذنبٍ وآفةٍ وقعَ في خلقِ اللهِ تعالىٰ من أوَّلِ الخلقِ إلىٰ يومِ القيامةِ من قِبَلِ هـٰذه النَّفسِ ؛ إمَّا بها وحدَها ، أو بمعونتِها ومشاركتِها ومساعدتِها .

فأوَّلُ معصيةٍ للهِ تعالىٰ كانتْ من إبليسَ ، وكانَ سببُه بعدَ القضاءِ السَّابقِ هوى النَّفسِ بكبْرِها وحسدِها ، ألقتْه بعدَ عبادةِ ثمانينَ ألفَ سنةٍ ـ فيما قيلَ ـ في بحرِ الضَّلالِ ، فغرقَ إلىٰ أبدِ الآبدينَ ؛ إذ لم يكنْ هنالكَ دنيا ولا خلقٌ ولا شيطانٌ ، بل كانتِ النَّفسُ بكبْرِها وحسدِها ، فعملَتْ به ما عملَتْ .

ثمَّ ذنبُ آدمَ وحوَّاءَ عليهما السَّلامُ ، طرحَتْهما شهوةُ النَّفسِ في ذلك ، وحرصُهما على البقاءِ والحياةِ ، حتَّى ٱغترَّا بقولِ إبليسَ ، فكانَ ذلك إذن بعونِ النَّفسِ وشركتِها ، حتَّىٰ سقطا بذلكَ من جوارِ اللهِ تعالىٰ وقرارِ الفردوسِ إلىٰ هـٰذه الدُّنيا الحقيرةِ النَّكدةِ ، الفانيةِ المهلكةِ ، ولقيَ أولادُهما ما لَقُوا من ذلك اليومِ إلىٰ أبدِ الآبدينَ .

ثمَّ حديثُ قابيلَ وهابيلَ ، كانَ السَّببَ في أمرِهما الحسدُ والشُّحُّ .

ثمَّ حديثُ هاروتَ وماروتَ ، كانَ السَّببَ في شأنِهما الشَّهوةُ[1] ، ثمَّ هلمَّ جرّاً إلىٰ يومِ القيامةِ .

---

(١) يشير المصنف رحمه الله تعالىٰ هنا إلىٰ حديث هاروت وماروت الذي أخرجه ابن حبان (٦١٨٦) ، وأحمد (٢/ ١٣٤) ، وغيرهما مرفوعاً ، بأنهما ملكان ركبت فيهما شهوة ، وأنزلا إلى الأرض حاكمين فافتتنا . . . الحديثَ . وهـٰذا الحديث كثر كلام الأئمة عليه ، ولعل الصواب ما جزم به الحافظ ابن كثير في « تفسيره » (١/ ١٣٨) وغيرُه بأنه موقوف علىٰ كعب الأحبار ، كما أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في « تفسيره » (١/ ٥٤) ، والطبري في « تفسيره » (١/ ٥٩٩) ، والله تعالىٰ أعلم ، وانظر « الإسرائيليات والموضوعات » لأبي شهبة (ص ١٥٩) .

فلا تجدُ في الخلقِ فتنةً ولا فضيحةً ، ولا ضلالاً ولا معصيةً ، إلاَّ وأصلُها النَّفسُ وهواها ، وإلاَّ . . كانَ الخلقُ في سلامةٍ وخيرٍ .

وإذا كانَ عدوٌّ بهٰذا الضَّررِ كلِّه . . فحقٌّ للعاقلِ أن يهتمَّ بأمرِه ، واللهُ تعالىٰ وليُّ التَّوفيقِ والهدايةِ بفضلِه .

فإن قلتَ : فما الحيلةُ إذن لنا في هٰذا العدوِّ ؟ وما التَّدبيرُ في أمرِه ؟ فبيِّنْ لنا ذلك .

فاعلمْ : أنَّا ذكرْنا فيما تقدَّمَ أنَّ أمرَها عسِرٌ صعبٌ ؛ إذ لا يمكنُ قهرُها بمرَّةٍ كسائرِ الأعداءِ ؛ إذ هي المطيَّةُ والآلةُ ، قيلَ : إنَّ أعرابيّاً دعا لإنسانٍ بخيرٍ فقالَ : كبتَ اللهُ كلَّ عدوٍّ لك إلاَّ نفسَك[١] .

ولا يمكنُ إهمالُها بمرَّةٍ ؛ لمكانِ ضررِها ، فتحتاجُ إلىٰ طريقٍ بينَ الطَّريقينِ : تربِّيها وتقوِّيها بقدْرِ ما تحتملُ فعلَ الخيرِ ، وتُضعفُها وتحبسُها علىٰ حدٍّ لا تتمادى ، فأنت من أمرِها في علاجٍ شديدٍ ، ونظرٍ لطيفٍ .

ثمَّ إنَّا قد ذكرْنا في أمرِها أن تلجمَها بلجامِ التَّقوىٰ والورعِ ؛ لتُحصِّلَ الفائدتينِ جميعاً .

فإن قيلَ : إنَّ هٰذه دابَّةٌ جموحٌ ، وبهيمةٌ صعبةٌ شَكِسَةٌ لا تنقادُ للِّجامِ ، فما الحيلةُ فيها حتَّىٰ تمكِّنَنا منها ؟

فاعلمْ : أنَّك لصادقٌ ، والحيلةُ : تذليلُها حتَّىٰ تنقادَ للِّجامِ .

قالَ علماؤُنا رضيَ اللهُ عنهم : إنَّما تُذلَّلُ النَّفسُ ويُكسَرُ هواها بثلاثةِ أشياءَ :

أحدُها : منعُ الشَّهواتِ ؛ فإنَّ الدَّابَّةَ الحرونَ تلينُ إذا نُقِصَ من علفِها .

والثَّاني : حملُ أثقالِ العباداتِ عليها ؛ فإنَّ الحمارَ إذا زيدَ في حملِه مع النُّقصانِ من علفِه . . تذلَّلَ وانقادَ .

---

(١) لعل وجه الخيرية في الدعاء : أن النفس لما كانت وسيلة للعمل ، ولا يستغني صاحبها عنها . . كان استثناؤها من بين الأعداء في عدم ذلها وإهلاكها خيراً ، ومن ثم يتفرغ بعد كبت الأعداء لمجاهدة نفسه وتربيتها وترقيها .

والثَّالثُ : الاستعانةُ باللهِ تعالىٰ والتَّضرُّعُ إليه بأن يعينَك ، وإلاَّ . . فلا مخلصَ ، أما تسمعُ قولَ يوسفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ ؟

فإذا واظبتَ علىٰ هـٰذه الأمورِ الثَّلاثةِ . . ٱنقادتْ لك النَّفسُ الجموحُ بإذنِ اللهِ تعالى ، فحينئذٍ تبادرُ إلىٰ أن تملكَها وتُلجمَها وتأمنَ من شرِّها .

فإن قلتَ : فبيِّنْ لنا الآنَ ما هو التَّقوىٰ حتَّىٰ نعلمَه ؟

فاعلمْ أوّلاً : أنَّ التَّقوىٰ كنزٌ عزيزٌ ، فلئِنْ ظفرتَ به . . فكم تجدُ فيه من جوهرٍ شريفٍ ، وعِلْقٍ نفيسٍ[1] ، وخيرٍ كثيرٍ ، ورزقٍ كريمٍ ، وفوزٍ كبيرٍ ، وغُنمٍ جسيمٍ ، ومُلكٍ عظيمٍ ، فكأنَّ خيراتِ الدُّنيا والآخرةِ جُمعتْ فجُعلتْ تحتَ هـٰذه الخصلةِ الواحدةِ الَّتي هي التَّقوى ، وتأمَّلْ ما في القرآنِ من ذكرِها ، كم علَّقَ بها من خيرٍ ، وكم وعدَ عليها من ثوابٍ وأجرٍ ، وكم أضافَ إليها من سعادةٍ ، وأنا أعدُّ لك من جملتِها ٱثنتيْ عشْرةَ خصلةً :

أوَّلُها : المِدحةُ والثَّناءُ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ .

والثَّاني : الحفظُ والحراسةُ من الأعداءِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ .

والثَّالثُ : التَّأييدُ والنُّصرةُ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ ، وقالَ تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

والرَّابعُ : النَّجاةُ من الشَّدائدِ ، والرِّزقُ من الحلالِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ .

والخامسُ : إصلاحُ العملِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ .

---

(١) **العلق** ـ بكسر العين ـ : النفيس من كل شيء ، **وعليه** : فوصفه بالنفيس في كلام المصنف رحمه الله تعالىٰ للتأكيد .

والسَّادسُ : غفرانُ الذُّنوبِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[1] .

والسَّابعُ : محبَّةُ اللهِ تعالى ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

والثَّامنُ : القَبولُ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

والتَّاسعُ : الإكرامُ والإعزازُ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ .

والعاشرُ : البشارةُ عندَ الموتِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ .

والحادي عشَرَ : النَّجاةُ من النَّارِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ﴾ ، وقالَ تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ .

والثَّاني عشَرَ : الخلودُ في الجنَّةِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2] .

فهٰذا بيانُ كلِّ خيرٍ وسعادةٍ في الدَّارينِ تحتَ هٰذه التَّقوى ، فلا تنسَ نصيبَكَ أيُّها الرَّجلُ منها .

ثمَّ الَّذي يَختصُّ به هٰذا الشَّأنُ من أمرِ العبادةِ ثلاثةُ أصولٍ :

أحدُها : التَّوفيقُ والتَّأييدُ أوَّلاً ، وهو للمتَّقينَ ، كما قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

والثَّاني : إصلاحُ العملِ وإتمامُ التَّقصيرِ ، وهو للمتَّقينَ ، كما قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ .

والثَّالثُ : قَبولُ العملِ ، وهو للمتَّقينَ ، كما قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

ومدارُ العبادةِ علىٰ هٰذه الأمورِ الثَّلاثةِ ؛ التَّوفيقُ أوَّلاً حتَّىٰ يعملَ ، ثمَّ الإصلاحُ للتَّقصيرِ حتَّىٰ يتمَّ ، ثمَّ القَبولُ إذا تمَّ ، وهٰذه الثَّلاثةُ هي الَّتي يتضرَّعُ

---

(١) تابعة للآية التي قبلها ؛ فغفران الذنوب مرتب على التقوى .

(٢) ويمكن الاستشهاد بإحدى الآيات التي ورد فيها التصريح بالخلود في الجنة للمتقين ، كقوله تعالى : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ .

فيها العابدونَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، ويسألونَ فيقولونَ : ربَّنا ؛ وفِّقْنا لطاعتِك ، وأتمِمْ تقصيرَنا ، وتقبَّلْ منَّا ، وقد وعدَ اللهُ تعالىٰ ذلك كلَّه على التَّقوى ، وأكرمَ بها المتَّقيَ ، سألَ أو لم يسألْ .

فعليكَ بهٰذه التَّقوىٰ إن أردتَ عبادةَ اللهِ سبحانَه ، بل إن أردتَ سعادةَ الدُّنيا والعقبى ، ولقد صدقَ القائلُ : [من السريع]

مَنِ ٱتَّقى اللهَ فذاك الَّذي ... سيقَ إليه المَتجرُ الرَّابحُ[1]

والقائلُ : [من السريع]

مَن عرفَ اللهَ ولم تغنِه ... معرفةُ ٱللهِ فذاك الشَّقيّْ

ما ضرَّ ذا الطَّاعةِ ما نالَه ... في طاعةِ ٱللهِ وماذا لقي

ما يصنعُ العبدُ بعزِّ الغنى ... والعزُّ كلُّ العزِّ للمتَّقي ؟!

وكُتبَ علىٰ بعضِ القبورِ : [من مجزوء الخفيف]

ليسَ زادٌ سوى التُّقى ... فخذي منه أو دَعي[2]

ثمَّ تامَّلْ أصلاً واحداً ، وهو : هبْ أنَّك قد تعبتَ جميعَ عمرِك في العبادةِ ، وجاهدتَ وكابدتَ ، حتىٰ حصلَ لك ما تمنَّيتَ ، أليسَ الشَّأنُ كلُّه في القَبولِ وقد علمتَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ؟!

فرجعَ الأمرُ كلُّه إلى التَّقوى ، ولذلكَ رُويَ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّها قالَتْ : (ما أُعجبَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بشيءٍ من الدُّنيا ولا أعجبَه أحدٌ إلاَّ ذو تُقىً)[3] .

وعن قتادةَ أنَّه قالَ : (مكتوبٌ في التَّوراةِ : يا بنَ آدمَ ؛ اتَّقِ اللهَ ، ونَمْ حيثُ شئتَ)[4] .

---

(١) البيت لأبي نواس . انظر « ديوانه » (٦١٨) .
(٢) البيت لأبي العتاهية ، أوصىٰ بأن يكتب علىٰ قبره مع أبيات أخرى . انظر « الأغاني » (٤/١١٧) .
(٣) أخرجه أحمد (٦/٦٩) .
(٤) أخرجه تمام الرازي في « الفوائد » (١٢٥٤) .

وبلغني عن عامرِ ابنِ عبدِ قيسٍ : (أنَّه بكىٰ عندَ موتِه ، وكانَ يصلِّي كلَّ يومٍ وليلةٍ ألفَ ركعةٍ ، ثمَّ يأتي فراشَه فيقولُ [لنفسه][1] : يا مأوىٰ كلِّ شرٍّ ؛ واللهِ ما رضيتُكِ للهِ طرفةَ عينٍ)[2] .

وبكىٰ يوماً ، فقيلَ له : ما يبكيكَ ؟ قالَ : قولُه تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[3] .

ثمَّ تأمَّلْ نكتةً أخرى ، وهي أصلُ الأصولِ ، وهي ما ذُكِرَ أنَّ بعضَ الصَّالحينَ قالَ لبعضِ أشياخِه : أوصني بوصيَّةٍ ، قالَ : أوصيك بوصيَّةِ اللهِ ربِّ العالمينَ للأوَّلينَ والآخرينَ ؛ قولِه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ .

قلتُ أنا : أليسَ اللهُ تعالىٰ أعلمَ بصلاحِ العبدِ من كلِّ أحدٍ ؟ أوليسَ هو أنصحَ له وأرحمَ وأرأفَ من كلِّ أحدٍ ؟ ولو كانتْ في العالَمِ خصلةٌ هي أصلحُ للعبدِ ، وأجمعُ للخيرِ ، وأعظمُ للأجرِ ، وأجلُّ في العبوديَّةِ ، وأعظمُ في القدْرِ ، وأولىٰ بالحالِ ، وأنجحُ في المآلِ من هٰذه الخصلةِ الَّتي هي التَّقوى . . لكانَ اللهُ تعالىٰ أمرَ بها عبادَه ، وأوصىٰ بها خواصَّه ؛ لكمالِ حكمتِه ، وسَعةِ رحمتِه ، فلمَّا أوصىٰ بهٰذه الخصلةِ الواحدةِ ، وجمعَ الأوَّلينَ والآخرينَ من عبادِه في ذلك ، واقتصرَ عليها . . علمتَ أنَّها الغايةُ الَّتي لا مُتجاوَزَ عنها ، ولا مقتصَرَ دونَها ، وأنَّه عزَّ وجلَّ قد جمعَ كلَّ نصحٍ ودلالةٍ ، وإرشادٍ وتنبيهٍ وتأديبٍ ، وتعليمٍ وتهذيبٍ في هٰذه الوصيَّةِ الواحدةِ كما يليقُ بحكمتِه ورحمتِه ، وعلمتَ أنَّ هٰذه الخصلةَ الَّتي هي التَّقوىٰ هي الجامعةُ لخيرِ الدُّنيا والآخرةِ ، الكافيةُ لجميعِ المهمَّاتِ ، المبلِّغةُ إلىٰ أعلى الدَّرجاتِ في العبوديَّةِ .

وقد أحسنَ من قالَ : [من الطويل]

ألاَ إنَّما التَّقوىٰ هي العزُّ والكرمْ وحبُّك للدُّنيا هو الذُّلُّ والعَدَمْ

---

(١) زيادة من المصادر لا بد منها ؛ ليتعين المنادى .
(٢) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٦/١٨)، وابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٤٢٠).
(٣) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٦/٣٣) .

وليـسَ علـىٰ عبـدٍ تقـيٍّ نقيصـةٌ   إذا صحَّـحَ التَّقـوىٰ وإن حـاكَ أو حجمْ[1]

وهٰذا أصلٌ لا مزيدَ عليه ، وفيه كفايةٌ لمن أبصرَ النُّورَ وٱهتدى ، وعملَ بذلكَ واستغنى ، واللهُ وليُّ الهدايةِ والتَّوفيقِ بفضلِه .

فإن قلتَ : لقد عظُمَ قدرُ هٰذه الخصلةِ ، وجلَّ موقعُها ، وٱشتدَّتِ الحاجةُ إلىٰ معرفتِها ، فلا بدَّ الآنَ من تفصيلِها .

فاعلمْ : أنَّ الأمرَ كذلكَ ، فحقَّ لها أن يجلَّ قدرُها ، ويلزمَ طلبُها ، وتمسَّ الحاجةُ إلىٰ علمِها ، ولٰكنَّك تعلمُ أنَّ كلَّ خطيرٍ وكبيرٍ يُحتاجُ في ٱجتلابِه إلىٰ طلبٍ كثيرٍ ، وتعبٍ كبيرٍ ، وهمَّةٍ عاليةٍ ، وجهدٍ شديدٍ ، فإذن كما أنَّ هٰذه الخصلةَ خصلةٌ عظيمةٌ كبيرةٌ فالمجاهدةُ في طلبِها ، والقيامُ بحقِّها ، والعنايةُ في تحصيلِها أيضاً . لَفعلٌ كبيرٌ ، وشأنٌ عظيمٌ ؛ فإنَّ المكارمَ علىٰ حسبِ المكارهِ ، وإنَّ اللَّذَّاتِ علىٰ حسَبِ المؤناتِ ، وٱللهُ تعالىٰ يقولُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ .

وإنَّ اللهَ تعالىٰ هو الرَّؤوفُ الرَّحيمُ الَّذي بيدِه تيسيرُ كلِّ عسيرٍ ، فاستمعْ وتنبَّهْ ، وتفهَّمْ حدَّ بيانِ هٰذه الخصلةِ حتَّىٰ تعلمَها ، ثمَّ تَشمَّرْ للقيامِ بها ، واستعنْ بٱللهِ عزَّ وجلَّ حتَّىٰ تعملَ بما تعلمُ ؛ فإنَّ الشَّأنَ كلَّه في ذٰلك ، واللهُ تعالىٰ وليُّ الهدايةِ والتَّوفيقِ بفضلِه .

فنقولُ : ٱعلمْ أوَّلاً : أنَّ التَّقوىٰ في قولِ شيوخِنا رحمَهم اللهُ تعالىٰ هو : تنزيهُ القلبِ عن ذنبٍ لم يسبقْ عنك مثلُه ، حتَّىٰ يجعلَ العبدُ من قوَّةِ العزمِ علىٰ تركِها وقايةً بينَه وبينَ المعاصي ، هٰكذا قالَ شيخُنا رحمَه اللهُ تعالى ، وذلك أنَّ أصلَ لفظةِ التَّقوىٰ في اللُّغةِ هو الوقوىٰ بالواوِ ، وهو مصدرُ الوقايةِ ، يقالُ : وقىٰ يقي وقايةً ووقوى ، فأُبدلَتْ عن الواوِ تاءٌ ، كما هو في الوُكلانِ والتُّكلانِ ونحوِهما ، فقيلَ تقوى .

فإذنْ لمَّا حصلتْ وقايةٌ بينَ العبدِ وبينَ المعاصي ؛ من قوَّةِ عزمِه علىٰ

---

(١) البيتان لأبي العتاهية . انظر « ديوانه » (٢٣٢) .

تركِها ، وتوطينِ قلبه علىٰ ذلك . . فيوصَفُ حينئذٍ بأنَّه متَّقٍ ، ويقالُ لذلكَ التَّنزيهِ والعزمِ والتَّوطينِ تقوى .

والتَّقوىٰ في القرآنِ تنطلقُ علىٰ ثلاثةِ أشياءَ :

أحدُها : بمعنى الخشيةِ والهيبةِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ ، وقالَ تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ .

والثَّاني : بمعنى الطَّاعةِ والعبادةِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ .

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (أطيعوا اللهَ حقَّ طاعتِه) .

وقالَ مجاهدٌ : (هو أن يُطاعَ فلا يُعصى ، وأن يُذكرَ فلا يُنسى ، وأن يُشكرَ فلا يُكفرَ)[1] .

والثَّالثُ : بمعنىٰ تنزيهِ القلبِ عن الذُّنوبِ ، وهـٰذه هي الحقيقةُ في التَّقوىٰ دونَ الأوَّليْنِ ، ألا ترىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ ؟ ذكرَ الطَّاعةَ والخشيةَ ، ثمَّ ذكرَ التَّقوى ، فعلمتَ أنَّ حقيقةَ التَّقوىٰ معنىً سوى الطَّاعةِ والخشيةِ ، وهي تنزيهُ القلبِ عمَّا ذكرناه .

ثمَّ قالوا رحمَهم اللهُ : منازلُ التَّقوىٰ ثلاثةٌ : تقوىٰ عن الشِّركِ ، وتقوىٰ عن البدعةِ ، وتقوىٰ عن المعاصي الفرعيَّةِ ، ولقد ذكرَها اللهُ سبحانَه وتعالىٰ في آيةٍ واحدةٍ ، وهي قولُه تعالى : ﴿ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ ﴾ .

فالتَّقوى الأولىٰ تقوىٰ عن الشِّركِ ، والإيمانُ الَّذي ذُكرَ معها في مقابلةِ التَّوحيدِ ، والتَّقوى الثَّانيةُ عن البدعةِ ، والإيمانُ الَّذي ذُكرَ معها إقرارٌ بالسُّنَّةِ والجماعةِ ، والتَّقوى الثَّالثةُ عن المعاصي الفرعيَّةِ ، ولا إقرارَ في هـٰذه المنزلةِ ،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٣٨) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٨٧٨) مرفوعاً ، وأخرجه الحاكم (٢/ ٢٩٤) ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٨/ ١٦٣) موقوفاً على ابن مسعود رضي الله عنه .

فقابلَها بالإحسانِ ، وهو الطَّاعةُ والاستقامةُ عليها ، فتكونُ منزلةَ مستقيمي الطَّاعةِ .

فالآيةُ جمعتْ ذكرَ المنازلِ الثَّلاثِ ؛ منزلةِ الإيمانِ ، ومنزلةِ السُّنَّةِ ، ومنزلةِ استقامةِ الطَّاعةِ ، فهـٰذا ما قالَه العلماءُ رحمَهم اللهُ في بيانِ معنى التَّقوى .

قلتُ أنا : وجدتُ التَّقوىٰ بمعنى ٱجتنابِ فضولِ الحلالِ ، وهو ما رُويَ في الخبرِ المشهورِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قالَ : « إنَّما سُمِّيَ المتَّقونَ متَّقينَ لتركِهم ما لا بأسَ به حذراً ممَّا به بأسٌ »[1] .

فأحببتُ أن أجمعَ بينَ ما قالَه علماؤُنا رحمَهم اللهُ وبينَ ما جاءَ في الخبرِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، فيكونُ حدّاً جامعاً ، ومعنىً بالغاً .

فأقولُ : التَّقوىٰ هو ٱجتنابُ كلِّ ما تخافُ منه ضرراً في دينِك ، ألا ترىٰ أنَّه يُقالُ للمريضِ المحتمي : إنَّه متَّقٍ إذا ٱجتنبَ كلَّ شيءٍ يضرُّه في بدنِه ؛ من طعامٍ أو شرابٍ ، أو فاكهةٍ أو غيرِها .

ثمَّ الَّذي يُخافُ منه الضَّررُ في أمرِ الدِّينِ قسمانِ : محضُ الحرامِ والمعصيةِ ، وفضولُ الحلالِ ؛ لأنَّ الاشتغالَ بفضولِ الحلالِ والانهماكَ فيه يستجرُّ صاحبَه إلى الحرامِ ومحضِ العصيانِ ، وذلك لشَرهِ النَّفسِ وطغيانِها[2] ، وتمرُّدِ الهوىٰ وعصيانِه ، فمن أرادَ أن يأمنَ الضَّررَ في أمرِ دينِه . . ٱجتنبَ الخطرَ ، فامتنعَ عن فضولِ الحلالِ ؛ حذراً أن يجرَّه إلىٰ محضِ الحرامِ ، علىٰ ما قالَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « لتركِهم ما لا بأسَ به حذراً ممَّا به بأسٌ » يعني : لتركِهم فضولَ الحلالِ حذراً عن الوقوعِ في الحرامِ .

فالتَّقوى البالغةُ الجامعةُ : ٱجتنابُ كلِّ ما فيه ضررٌ لأمرِ الدِّينِ ، وهو المعصيةُ والفضولُ ، هـٰذا تفصيلُها .

---

(١) أخرجه الحاكم (٣١٩/٤) ، والترمذي (٢٤٥١) ، وابن ماجه (٤٢١٥) عن عطية السعدي رضي الله عنه بلفظ : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتىٰ يدع . . . » .

(٢) **الشره** : غلبة الحرص .

وأمَّا إذا أردْنا تحديدَها علىٰ موضوعِ علمِ الشَّرعِ . . فنقولُ : حدُّ التَّقوى الجامعُ : تنزيهُ القلبِ عن شرٍّ لم يسبِقْ عنك مثلُه ، بقوَّةِ العزمِ علىٰ تركِه ، حتَّىٰ يصيرَ ذلك وقايةً بينَك وبينَ كلِّ شرٍّ .

ثمَّ الشُّرورُ ضربانِ : شرٌّ أصليٌّ ، وهو ما نُهيَ عنه كالمعاصي المحضةِ ، وشرٌّ غيرُ أصليٍّ ، وهو ما نُهيَ عنه تأديباً ، وهو فضولُ الحلالِ ، كالمباحاتِ المأخوذةِ بالشَّهواتِ .

فالأُولىٰ تقوىٰ فرضٍ ، يلزمُ بتركِها عذابُ النَّارِ ، والثَّانيةُ تقوىٰ خيرٍ وأدبٍ ، يلزمُ بتركِها الحبسُ والحسابُ ، والتَّعييرُ واللَّومُ ؛ فمن أتىٰ بالأُولى . . فهو في الدَّرجةِ الدُّنيا من التَّقوى ، وهي منزلةُ مستقيمي الطَّاعةِ ، ومن أتىٰ بالأخرى . . فهو في الدَّرجةِ العليا من التَّقوى ، وذلك منزلةُ مستقيمي تركِ المباحِ .

فإذا جمعَ العبدُ بينَهما ـ أعني : اجتنابَ كلِّ معصيةٍ وفضولٍ ـ فقدِ ٱستكملَ معنى التَّقوى ، وقامَ بحقِّها ، وجمعَ كلَّ خيرٍ فيها ، وهـٰذا هو الورعُ الكاملُ الَّذي هو مِلاكُ أمرِ الدِّينِ ، وذلك منزلةُ الأدبِ علىٰ بابِ ٱللهِ تعالى ، فهـٰذا معنى التَّقوىٰ وبيانُها في الجملةِ ، فافهمْه موفَّقاً إن شاءَ ٱللهُ تعالى .

فإن قلتَ : ففصِّلْ لنا الآنَ هـٰذا المعنىٰ في النَّفسِ وٱستعمالَه فيها ؛ فإنَّ الحاجةَ جاءتْ من هنالكَ ؛ لنعلمَ كيف نلجمُ هـٰذه النَّفسَ بهـٰذا المعنى الَّذي فصَّلتَ من حقيقةِ التَّقوى .

فأقولُ : أجلْ ، إنَّما تفصيلُه في أمرِ هـٰذه النَّفسِ أن تقومَ عليها بقوَّةِ العزمِ ، فتمنعَها عن كلِّ معصيةٍ ، وتصونَها عن كلِّ فضولٍ .

فإذا فعلتَ ذلك . . كنتَ قد اتَّقيتَ اللهَ تعالىٰ في عينِك وأذنِك ، ولسانِك وقلبِك ، وبطنِك وفرجِك ، وجميعِ أعضائِك ، وألجمتَها بلجامِ التَّقوى ، ولهـٰذا البابِ شرحٌ يطولُ ، وقد أشرْنا إليه في كتابِ « إحياءِ علومِ الدِّينِ » .

وأمَّا الَّذي لا بدَّ منه هـٰهنا فأن نقولَ : من أرادَ أن يتَّقيَ اللهَ تعالى . . فليراعِ الأعضاءَ الخمسةَ ؛ فإنَّهنَّ الأصولُ ، وهي : العينُ ، والأذنُ ، واللِّسانُ ،

والقلبُ ، والبطنُ ، فيحرصُ عليها بالصِّيانةِ لها عن كلِّ ما يخافُ منه ضرراً في أمرِ الدِّينِ ؛ من معصيةٍ وحرامٍ ، وفضولٍ وإسرافٍ من حلالٍ .

فإذا حصَّلَ صيانةَ هـٰذه الأعضاءِ . . فمرجوٌّ أن يُكفىٰ سائرَ أركانِه ، ويكونَ قد قامَ بالتَّقوى الجامعةِ بجميعِ بدنِه للهِ عزَّ وجلَّ ، فدعتِ الحاجةُ إلىٰ بيانِ خمسةِ فصولٍ لهـٰذه الأعضاءِ ، وتفصيلِ ما يحرمُ في حقِّ كلِّ واحدٍ منها ، علىٰ قدرِ ما يليقُ بهـٰذا الكتابِ .

الفصلُ الأوَّلُ : العينُ .

ثمَّ عليكَ ـ وفَّقَك ٱللهُ وإيَّانا ـ بحفظِ العينِ ؛ فإنَّها سببُ كلِّ فتنةٍ وآفةٍ ، وأذكرُ في أمرِها ثلاثةَ أصولٍ كافيةٍ .

أحدُها : ما قالَ سبحانَه : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

وٱعلمْ : أنِّي تأمَّلتُ هـٰذه الآيةَ فوجدتُ فيها مع قصرِها ثلاثةَ معانٍ عزيزةٍ : تأديبٌ ، وتنبيهٌ ، وتهديدٌ .

فأمَّا التَّأديبُ : فقولُه تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ ، ولا بدَّ للعبدِ من ٱمتثالِ أمرِ السَّيِّدِ ، والتَّأدُّبِ بأدبِه ، وإلاَّ . . فيكونُ سيِّءَ الأدبِ ، فيُحجَبُ فلا يؤذنُ له في حضورِ المجلسِ والمثولِ بالحضرةِ ، فافهمْ هـٰذه النُّكتةَ ، وتأمَّلْ ما تحتَها ؛ فإنَّ فيها ما فيها .

وأمَّا التَّنبيهُ : فقولُه تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ ، وينطلقُ علىٰ معنيينِ واللهُ أعلمُ :

الأوَّلُ : أن ذلك أطهرُ لقلوبِهم ، والزَّكاةُ الطَّهارةُ ، والتَّزكيةُ التَّطهيرُ .

والثَّاني : ذلك أنمىٰ لخيرِهم وأكثرُ ، والزَّكاةُ في الأصلِ النُّموُّ ، فنبَّهَ علىٰ أنَّ في غضِّ البصرِ تطهيرَ القلبِ ، وتكثيرَ الطَّاعةِ والخيرِ ، وذلك أنَّك إن لم تغضَّ بصرَك ، وأرخيتَ عِنانَه تنظرُ إلىٰ ما لا يَعنيك . . فلا يخلو من أن تقعَ عينُك علىٰ

حرامٍ ، فإن تعمَّدتَ . . فذنبٌ وكبيرةٌ ، وربَّما تعلَّقَ قلبُك بذلكَ ، فتَهلكُ إن لم يرحمِ اللهُ تعالى ، فلقد رُوِيَ : (إنَّ العبدَ لينظرُ النَّظرةَ ينغَلُ فيها قلبُه كما يَنغَلُ الأديمُ في الدِّباغِ ، لا ينتفعُ به أبداً)[1] .

وإن كانَ مباحاً . . فربَّما يشتغلُ قلبُك به ، فجاءَكَ الوسواسُ والخواطرُ بسببِه ، ولعلَّك لا تصلُ إليه فتبقىٰ مشغولَ القلبِ ، منقطعاً عن الخيرِ ، وإن كنتَ لم ترَ ذلك . . فقد كنتَ مستريحاً عن ذلك كلِّه ، وفي هـٰذا المعنىٰ ذُكِرَ عن عيسىٰ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه وعلى نبيِّنا أنَّه قالَ : (إيَّاكم والنَّظرةَ ؛ فإنَّها تزرعُ في القلبِ الشَّهوةَ ، وكفىٰ بها لصاحبِها فتنةً)[2] .

وقالَ ذو النُّونِ رحمَه اللهُ تعالى : نعمَ حاجبُ الشَّهواتِ غضُّ الأبصارِ .

ولقد أحسنَ القائلُ : [من الطويل]

وأنتَ إذا أرسلتَ طرْفَك رائداً لقلبِك يوماً أتعبَتْك المناظرُ
رأيتَ الَّذي لا كلُّه أنت قادرٌ عليه ولا عن بعضِه أنت صابرُ[3]

فإذنْ لمَّا كنتَ غاضّاً للبصرِ ، حافظاً للعينِ ، لا تنظرُ إلىٰ ما لا يعنيكَ ولا يهمُّك . . كنتَ نقيَّ الصَّدرِ ، فارغَ القلبِ ، مستريحاً عن كثيرٍ من الوسواسِ ، سالمَ النَّفسِ عن الآفاتِ ، متزايداً في الخيراتِ ، فتنبَّهْ لهـٰذه النُّكتةِ الجامعةِ ، واللهُ عزَّ وجلَّ الموفِّقُ بمنِّه وفضلِه .

وأمَّا التَّهديدُ : فقولُه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ ، وقالَ تعالى : ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ .

وكفىٰ بهـٰذا تحذيراً لمن خافَ مقامَ ربِّه ، فهـٰذا أصلٌ واحدٌ من كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

---

(١) أخرجه أحمد في « الورع » (٦٥) بلاغاً من قول خالد بن أبي عمران ، والنغل ـ بفتح الغين ـ : الفساد ، يقال : نغِلَ الأديم إذا عفِنَ وتهرَّىٰ في الدباغ .

(٢) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤٦٢) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٣٨٤) .

(٣) البيتان ذكرهما ابن قتيبة في « عيون الأخبار » (٤/ ٢٢) من قول جارية في قصة طريفة .

والأصلُ الثَّاني : ما روينا عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قالَ : « النَّظرُ إلىٰ محاسنِ المرأةِ سهمٌ مسمومٌ من سهامِ إبليسَ ، فمن تركَها . . أذاقَه اللهُ تعالىٰ طعمَ عبادةٍ تسرُّه »[1] .

وإنَّ وِجدانَ حلاوةِ العبادةِ ولذَّةِ المناجاةِ من العابدينَ بمكانٍ ، وهٰذا شيءٌ مجرَّبٌ ، علمَه وتحقَّقَه من عملَ به ؛ أنَّه إذا امتنعَ عن النَّظرِ إلىٰ ما لا يعنيه . . يجدُ لذَّةً للعبادةِ ، وحلاوةً للطَّاعةِ ، وللقلبِ صفوةً لم يجدْها قبلَ ذلك .

والأصلُ الثَّالثُ : أن تنظرَ إلىٰ كلِّ عضوٍ من أعضائِك يصلحُ لماذا ؟ ويُنتظَرُ له ماذا ؟ فعلىٰ حسبِ ذلك تصونُه وتحفظُه ؛ فالرِّجلُ للمشيِ في رياضِ الجنَّةِ وقصورِها ، واليدُ لكأسِ الشَّرابِ وتناوُلِ الأثمارِ ، وكذلكَ في سائرِ الأعضاءِ ، فالعينُ إنَّما هي للنَّظرِ إلىٰ ربِّ العالمينَ سبحانَه وتعالى ، وليسَ في الدَّارينِ كرامةٌ أجلُّ وأكبرُ من ذلك ، فحقيقٌ لشيءٍ يُنتظَرُ ويُرجىٰ له مثلُ هٰذه الكرامةِ أن يُصانَ ويُحفَظَ ، ويُعَزَّ ويُكرَمَ .

فهٰذه الأصولُ الثَّلاثةُ إذا أحسنتَ التَّأمُّلَ فيها . . كفتْك المؤنةَ في هٰذا الفصلِ ، واللهُ وليُّ التَّوفيقِ ، وهو حسبي ونعمَ الوكيلُ .

الفصلُ الثَّاني : الأذنُ .

فعليكَ بصيانةِ سمعِك عن الخَنا والفضولِ[2] ، وذلك لأمرينِ :

أحدُهما : لما رُوِيَ أنَّ المستمعَ شريكُ المتكلِّمِ .

وفي ذلكَ يقولُ القائلُ : [من المتقارب]

تحـرَّ مـن الطُّـرْقِ أوسـاطَهـا ... وعـدِّ عـن الجـانـبِ المشتبِـهْ
وسمعَك صنْ عن سماعِ القبيحْ ... كصـونِ اللِّسـانِ عـن النُّطـقِ بـهْ

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٦٤) عن أبي أمامة رضي الله عنه ، وبنحوه الحاكم (٤/٣١٣) عن حذيفة رضي الله عنه ، والطبراني في « الكبير » (١٠/١٧٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه .
(٢) **الخنا** : الكلام الفاحش ، **والفضول** : القول الذي لا حاجة إلىٰ سماعه .

فـإنَّــك عنــدَ استمــاعِ القبيــحْ شــريــكٌ لقــائلِــه فــانتبــهْ[1]

والثَّاني : أنَّ ذلك يهيِّجُ الخواطرَ والوسواسَ في القلبِ ، ثمَّ من ذلك يبدو الاشتغالُ في البدنِ ، فما يبقىٰ في العبادةِ شيءٌ .

ثمَّ اعلمْ : أنَّ الكلامَ الَّذي يقعُ في قلبِ الإنسانِ وسمعِه بمنزلةِ الطَّعامِ الَّذي يقعُ في جوفِه ، فمنه الضَّارُّ ومنه النَّافعُ ، ومنه الغذاءُ ومنه السُّمُّ القاتلُ ، بل إنَّ بقاءَ الكلامِ وتجرُّعَه أكثرُ وأبلغُ من الطَّعامِ ؛ فإنَّ الطَّعامَ يزولُ عن المعدةِ بنومٍ أو غيرِه ، وربَّما يبقىٰ أثرُه زماناً ثمَّ يزولُ ، وله دواءٌ يزيلُ أثرَه من جسمِ الإنسانِ .

وأمَّا الكلامُ الَّذي وقعَ في قلبِ الإنسانِ : فربَّما يبقىٰ معه جميعَ عمرِه ولا ينساه ، فإن كانَ شيئاً رديئاً . . فلا يزالُ يُتعِبُه ويعنِّيه[2] ، وتردُ بسببه خواطرُ في القلبِ ، ووساوسُ يَحتاجُ إلىٰ أن يُعرِضَ عنها ، ويَعدِلَ بقلبه عن تذكُّرِها ، ويستعيذَ باللهِ تعالىٰ من شرِّها ، ولا يأمنُ من أن تحملَه علىٰ بليَّةٍ ، وتحرِّكَه حتَّىٰ يقعَ آخرَ الأمرِ في آفةٍ عظيمةٍ بسببِ ذلك ، ولو كنتَ حفظتَ سمعَك عمَّا لا يعنيك . . كنتَ عن هـٰذه المؤنِ مستريحاً ، فلينظرِ العاقلُ في ذلك ، وباللهِ التَّوفيقُ .

الفصلُ الثَّالثُ : اللِّسانُ .

ثمَّ عليكَ بحفظِ اللِّسانِ وضبطِه وتقييدِه ؛ فإنَّه أشدُّ الأعضاءِ جماحاً وطغياناً ، وأكثرُها فساداً وعدواناً .

ولقد روينا عن سفيانَ بنِ عبدِ اللهِ أنَّه قالَ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما أكثرُ ما تخافُ عليَّ ؟ فأخذَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بلسانِ نفسِه ثمَّ قالَ : « هـٰذا »[3] .

وعن يونسَ بنِ عبيدٍ أنَّه قال : (إنِّي وجدتُ نفسي تحتملُ مؤنةَ الصَّومِ في

---

(١) الأبيات لمحمود الوراق . انظر « ديوانه » (ص٢٦٧) .

(٢) العناء : التعب ، يقال : عنَّاه تعنية ؛ أي : أتعبه ، فيكون عطف تفسير لقوله : (يتعبه) .

(٣) أخرجه ابن حبان (٥٦٩٨) ، والترمذي (٢٤١٠) ، وابن ماجه (٣٩٧٢) .

الحرِّ الشَّديدِ بالبصرةِ ، ولا تحتملُ تركَ كلمةٍ لا تعنيها)[1] .

فعليكَ إذن بالتَّحفُّظِ جدّاً وبذلِ المجهودِ .

ونذكرُ خمسةَ أصولٍ :

أحدُها : ما رَوىٰ أبو سعيدٍ الخدريُّ : « أنَّ ابنَ آدمَ إذا أصبحَ . . كفَرتِ الأعضاءُ كلُّها للِّسانِ ، وقلنَ : ننشدُك باللهِ أن تستقيمَ ؛ فإنَّك إنِ استقمتَ . . استقمنا ، وإنِ اعوججتَ . . اعوججنا »[2] .

قلتُ : والمعنىٰ فيه واللهُ أعلمُ : أنَّ نطقَ اللِّسانِ يؤثِّرُ في أعضاءِ الإنسانِ بالتَّوفيقِ والخذلانِ ، ويؤكِّدُ هـٰذا المعنىٰ ما حُكيَ عن مالكِ بنِ دينارٍ أنَّه قالَ : إذا رأيتَ قساوةً في قلبك ، ووهناً في بدنِك ، وحرماناً في رزقِك . . فاعلمْ أنَّك قد تكلَّمتَ فيما لا يعنيك .

والأصلُ الثَّاني : حفظُ وقتِك ؛ فإنَّ أكثرَ ما يتكلَّمُ به الإنسانُ من غيرِ ذكرِ اللهِ تعالى ، فعلى الأقلِّ يكونُ لغواً يضيعُ الوقتُ به .

وذُكرَ أنَّ حسَّانَ بنَ أبي سنانٍ مرَّ علىٰ غرفةٍ بُنيَتْ فقالَ : (منذُ كم بُنيَتْ هـٰذه ؟ ثمَّ أقبلَ علىٰ نفسِه وقالَ : يا نفسي الغرورةَ ؛ تسألينَ عمَّا لا يَعنيكِ ؟! وعاقبَها بصومِ سنةٍ)[3] .

قلتُ : فيا طوبىٰ للمهتمِّينَ بأنفسِهم ! ويا ويحَ الغافلينَ الَّذينَ خلعوا العِذارَ ، وأرخَوا العِنانَ ! واللهُ المستعانُ .

ولقد صدقَ القائلُ وأحسنَ حيثُ يقولُ : [من الخفيف]

واغتنـمْ ركعتيـنِ فـي ظلمـةِ اللَّيـ ـلِ إذا كنـتَ خـاليـاً مسـتريحـا
وإذا مـا هممـتَ بـاللَّغـوِ فـي البـا طـلِ فـاجعـلْ مكـانَـه تسبيحـا

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٨) .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٠٧) ، وأحمد (٣/ ٩٦) ، **وكفرت الأعضاء للسان** : ذلت وخضعت ، مأخوذ من التكفير ، وهو أن ينحني الإنسان ويطأطئ رأسه قريباً من الركوع ، كما يفعل من يريد تعظيم صاحبه .

(٣) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١١٥) .

فلـزومُ السُّكـوتِ خيـرٌ مـن النُّطـ ـقِ وإن كنتَ في الكـلامِ فصيحا[1]

والأصلُ الثَّالثُ : حفظُ الأعمالِ الصَّالحةِ ، فإنَّ من لم يصنْ لسانَه ، وأكثرَ الكلامَ . . يقعُ لا محالةَ في غِيبةِ النَّاسِ ، كما قيلَ : من كثُرَ لغطُه . . كثُرَ سقطُه[2] .

والغِيبةُ هي الصَّاعقةُ المهلكةُ للطَّاعاتِ ، علىٰ ما قيلَ : إنَّ مثلَ من يغتابُ النَّاسَ مثلُ من نصبَ مَنجنيقاً ، فهو يرمي به حسناتِه شرقاً وغرباً ، يميناً وشمالاً .

وبلغنا عن الحسنِ أنَّه قيلَ له : يا أبا سعيدٍ ؛ إنَّ فلاناً اغتابَك ، فبعثَ إليه بطبقٍ فيه رُطَبٌ ، وقالَ : بلغني أنَّك أهديتَ إليَّ حسناتِك ، فأحببتُ أن أكافئَك .

وذُكرَتِ الغيبةُ عندَ ابنِ المباركِ فقالَ : لو كنتُ مغتاباً . . لاغتبتُ أمِّي ؛ لأنَّها أحقُّ بحسناتي .

وذُكرَ أنَّه فاتَ حاتماً الأصمَّ ليلةً القيامُ ، فعزَّتْه زوجتُه ، فقالَ : إنَّ أقواماً صلَّوا باللَّيلِ البارحةَ ، فلمَّا أصبحوا . . نالوا منِّي ، فتكونُ صلاتُهم يومَ القيامةِ في ميزاني .

والأصلُ الرَّابعُ : السَّلامةُ من آفاتِ الدُّنيا ، علىٰ ما قالَ سفيانُ : لا تتكلَّمْ بلسانِك ما تَكسِرُ به أسنانَك .

وقالَ آخرُ : لا تبسطَنَّ لسانَك ، فيُفسِدَ عليكَ شأنَك ، وأنشدوا : [من الكامل]

إحفـظْ لسـانَـك لا تقـولُ فتُبتلَـى إنَّ البـلاءَ مـوكَّـلٌ بـالمنطـقِ

---

(١) الأبيات لعبد الله بن المبارك ، أخرجها البيهقي في « الشعب » (٤٧٣٢) ، وابن أبي الدنيا في « الصمت » (٦٥٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٢/ ٤٥٩ ـ ٤٦٠) مع اختلاف في بعض الكلمات ، وقيل : هي لحميد النحوي ، وإنما قالها ابن المبارك تمثلاً ، أخرجه البيهقي في « الشعب » (٤٧٣٣) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٢/ ٤٦٠) ، والسبكي في « طبقات الشافعية الكبرى » (١/ ٢٨٥) ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (٨/ ٤١٧) ، وسيذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ هٰذه الأبيات مع اختلاف في بعض الكلمات (ص١٤٧) .

(٢) أخرج القضاعي في « مسند الشهاب » (٣٧٢) ، والطبراني في « الأوسط » (٦٥٣٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « من كثر كلامه . . كثر سقطه . . . » الحديث .

ولابنِ المباركِ : [من المتقارب]

إحفظْ لسانَك إنَّ اللِّسانَ سريعٌ إلى المرءِ في قتلِهِ
وإنَّ اللِّسانَ دليلُ الفؤادِ يدلُّ الرِّجالَ علىٰ عقلِهِ [1]

ولابنِ مطيعٍ : [من الوافر]

لسانُ المرءِ ليثٌ في كمينٍ إذا خلَّىٰ عليه له إغارهْ
فصنْه عن الخَنا بلجامِ صمتٍ يكنْ لك من بليَّاتٍ ستارهْ

وفي المثلِ السَّائرِ : (ربَّ كلمةٍ تقولُ لصاحبِها : دعْني)[2] .

والأصلُ الخامسُ : ذكرُ آفاتِ الآخرةِ وعاقبتِها ، وأذكرُ فيه نكتةً واحدةً ، وهو أنَّه لا يخلو : إمَّا أن تقولَ قولاً محظوراً حراماً ، أو قولاً مباحاً من فضولٍ لا يَعنيكَ .

فإن كانَ محظوراً . . ففيه من عذابِ اللهِ تعالى الَّذي لا طاقةَ لك به ، فقد روينا عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قالَ : « ليلةَ أسريَ بي إلى السَّماءِ نظرتُ في النَّارِ قوماً يأكلونَ الجِيفَ ، قلتُ : يا جبريلُ ؛ من هؤلاءِ ؟ قالَ : هؤلاءِ الَّذينَ يأكلونَ لحومَ النَّاسِ »[3] .

ولقد قالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لمعاذٍ : « اقطعْ لسانَك عن حملةِ القرآنِ وطلاَّبِ العلمِ ، ولا تمزِّقِ النَّاسَ بلسانِك فتمزِّقَك كلابُ النَّارِ »[4] .

وعن أبي قِلابةَ : إنَّ في الغِيبةِ خرابَ القلبِ من الهدى .

فنسألُ اللهَ تعالى العصمةَ من ذلكَ بفضلِه .

هٰذا الكلامُ في المحظورِ ، وأمَّا المباحُ : ففيه أربعةُ أمورٍ :

---

(١) أخرجهما ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٤٢) .

(٢) يُضرَب في النهي عن الإكثار مخافة الإهجار . انظر قصة حكاية المثل في « مجمع الأمثال » للميداني (٢/ ٧٤) .

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) هٰذا جزء من حديث طويل سيذكره المصنف رحمه الله تعالىٰ بتمامه ، فانظره وتخريجه (ص ٢٤٨) .

أحدُها : شغلُ الكرامِ الكاتبينَ بما لا خيرَ فيه ولا فائدةَ ، وحقَّ للمرءِ أن يستحيَ منهما فلا يؤذيَهما ، قالَ اللهُ سبحانَه وتعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ .

والثَّاني : إرسالُ كتابٍ إلى اللهِ تعالىٰ من اللَّغوِ والهذَرِ ، فليحذرِ العبدُ من ذلك ، وليخشَ اللهَ عزَّ وجلَّ .

وذُكِرَ : أنَّ بعضَهم نظرَ إلىٰ رجلٍ يتكلَّمُ بالخَنا ، فقالَ : يا هـٰذا ؛ إنَّما تملي كتاباً إلىٰ ربِّك ، فانظرْ ما تملي !

والثَّالثُ : قراءتُه بينَ يديِ الملكِ الجبَّارِ يومَ القيامةِ علىٰ رؤوسِ الأشهادِ ، بينَ الشَّدائدِ والأهوالِ ، عطشانَ عريانَ جيعانَ ، منقطعاً عن الجنَّةِ ، محبوساً عن النِّعمةِ .

والرَّابعُ : اللَّومُ والتَّعييرُ لماذا قلتَ ، وانقطاعُ الحجَّةِ ، والحياءُ من ربِّ العزَّةِ ، وقد قيلَ : إيَّاكَ والفضولَ ؛ فإنَّ حسابَه يطولُ .

وكفىٰ بهـٰذه الأصولِ واعظاً لمن اتَّعظَ ، وقد بسطنا في كتابِ « أسرارِ معاملاتِ الدِّينِ » ما فيه مَقنعٌ ، فانظرْ فيه تجدِ الشِّفاءَ .

الفصلُ الرَّابعُ : القلبُ .

ثمَّ عليكَ بحفظِ القلبِ وإصلاحِه ، وحسنِ النَّظرِ في ذلك ، وبذلِ المجهودِ ؛ فإنَّه أعظمُ هـٰذه الأعضاءِ خطراً ، وأكثرُها أثراً ، وأدقُّها أمراً ، وأشقُّها إصلاحاً ، وأذكرُ فيه خمسةَ أصولٍ مقنعةٍ :

الأصلُ الأوَّلُ : قولُه تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ ، وقولُه تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ ، وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ، كم ذكرَه وكرَّرَ ذكرَه في القرآنِ ، فكفىٰ باطِّلاعِ العليمِ الخبيرِ تحذيراً وتهديداً للخواصِّ من العبادِ ؛ لأنَّ المعاملةَ مع علاَّمِ الغيوبِ خطرةٌ ، فانظرْ ماذا يعلمُ من قلبِك .

الأصلُ الثَّاني : قولُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ لا ينظرُ

إلىٰ صورِكم وأجسادِكم وأبشارِكم ، وإنَّما ينظرُ إلىٰ قلوبِكم وأعمالِكم »[١] .

فالقلبُ إذن موضعُ نظرِ ربِّ العالمينَ ، فيا عجباً ممَّن يهتمُّ بوجهِه الَّذي هو موضعُ نظرِ الخلقِ ، فيغسلُه وينظِّفُه من الأقذارِ والأدناسِ ، ويزيِّنُه بما أمكنَه ؛ لئلاَّ يطَّلعَ مخلوقٌ فيه علىٰ عيبٍ ، ولا يهتمُّ بقلبه الَّذي هو موضعُ نظرِ ربِّ العالمينَ ، فيطهِّرُه ويزيِّنُه ويطيِّبُه ؛ كي لا يطَّلعَ الرَّبُّ جلَّ ذِكرُه علىٰ دنسٍ فيه وشَينٍ ، وآفةٍ وعيبٍ ، بل يهملُه مملوءاً بفضائحَ وأقذارٍ وقبائحَ لو اطَّلعَ الخلقُ علىٰ واحدٍ منها . . لهجروه وتبرَّؤوا منه وطردوه !! واللهُ المستعانُ .

الأصلُ الثَّالثُ : أنَّ القلبَ مِلكٌ مطاعٌ ، ورئيسٌ متَّبعٌ ، والأعضاءُ كلُّها تبعٌ له ، فإذا صلحَ المتبوعُ . . صلحَ التَّابعُ ، وإذا استقامَ الملِكُ . . استقامَتِ الرَّعيَّةُ ، يبيِّنُ ذلك ما رُويَ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قالَ : « إنَّ في الجسدِ مضغةً ، إذا صلحتْ . . صلحَ الجسدُ كلُّه ، وإذا فسدتْ . . فسدَ الجسدُ كلُّه ، ألا وهي القلبُ »[٢] .

وإذا كانَ صلاحُ الكلِّ في ذلك . . وجبَ صرفُ العنايةِ إليه .

الأصلُ الرَّابعُ : أنَّ القلبَ خِزانةُ كلِّ جوهرٍ نفيسٍ للعبدِ ، وكلِّ معنىً خطيرٍ ، أوَّلُها العقلُ ، وأجلُّها معرفةُ اللهِ تعالى الَّتي هي سببُ سعادةِ الدَّارينِ ، ثمَّ البصائرُ الَّتي بها التَّقدُّمُ والوجاهةُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ثمَّ النِّيَّةُ الخالصةُ في الطَّاعاتِ الَّتي بها يتعلَّقُ ثوابُ الأبدِ ، ثمَّ أنواعُ العلومِ والحكمِ الَّتي هي شرفُ العبدِ ، وسائرُ الأخلاقِ الشَّريفةِ ، والخصالِ الحميدةِ الَّتي بها تفاضلُ الرِّجالِ ، علىٰ ما فصَّلْنا وشرحْنا في كتابِ « أسرارِ معاملاتِ الدِّينِ » .

وحقَّ لمثلِ هٰذه الخِزانةِ أن تُحفَظَ وتُصانَ عن الأدناسِ والآفاتِ ، وتُحرَسَ وتُحرَزَ من السُّرَّاقِ والقطَّاعِ ، وتُكرَمَ وتُجَلَّ بضروبِ الكراماتِ ؛ لئلاَّ يَلحقَ تلك

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤/٣٣ـ ٣٤) ، وابن حبان (٣٩٤) ، وابن ماجه (٤١٤٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما .

الجواهرَ العزيزةَ دنسٌ ، ولا يظفرَ بها ـ والعياذُ باللهِ ـ عدوٌّ .

الأصلُ الخامسُ : أنِّي تأمَّلتُ حالَه فوجدتُ له خمسةَ أحوالٍ ليستْ لغيرِه من أعضاءِ ابنِ آدمَ .

أحدُها : أنَّ العدوَّ قاصدٌ إليه ، مقبلٌ عليه ، ملازمٌ له ؛ فإنَّ الشَّيطانَ جاثمٌ علىٰ قلبِ ابنِ آدمَ الأيسرِ ، فهو مَنزلُ الإلهامِ والوسوسةِ ، يقرعانه أبداً بالدَّعوتينِ كلاهما ؛ الملَكُ والشَّيطانُ[1] .

والثَّاني : أنَّ الشُّغلَ له أكثرُ ؛ فإنَّ الهوىٰ والعقلَ كلاهما فيه ، فهو معترَكُ العسكرينِ : الهوىٰ وجنودِه ، والعقلِ وجنودِه ، فهو أبداً بينَ تحاربِهما وتقاتلِهما وتناقضِهما ، وحقَّ للثَّغرِ أن يُحرَسَ ويُحصَّنَ ولا يُغفَلَ عنه .

والثَّالثُ : أنَّ العوارضَ له أكثرُ ؛ فإنَّ الخواطرَ له كالسِّهامِ ، لا تزالُ تقعُ فيه ، وكالمطرِ ، لا تزالُ تَمطُرُ عليه ليلاً ونهاراً لا تنقطعُ عنه ، ولا أنت تقدرُ علىٰ منعِها فتمتنعَ ، وليسَ هو بمنزلةِ العينِ الَّتي بينَ جفنينِ تُغمَّضُ فتستريحُ ، أو تكونُ في موضعٍ خالٍ أو ليلٍ مظلمٍ فتُكفىٰ رؤيتَها ، أو اللِّسانِ الَّذي هو وراءَ الحجابينِ : الأسنانِ والشَّفتينِ ، وأنت القادرُ علىٰ منعِه وتسكينِه ، بل القلبُ غرضٌ للخواطرِ ، لا تقدرُ علىٰ منعِها والتَّحفُّظِ عنها بحالٍ ، ولا هي تنقطعُ عنك بوقتٍ ، ثمَّ النَّفْسُ مسارعةٌ إلى اتِّباعِها ، والامتناعُ عن ذلك في مجهودِ الطَّاقةِ أمرٌ شديدٌ ، ومحنةٌ عظيمةٌ .

والرَّابعُ : أنَّ علاجَه عليكَ عسيرٌ ؛ إذ هو غيبٌ عنك ، فلا تكادُ تشعرُ حتَّىٰ تدبَّ فيه آفةٌ ، وتحدُثَ له حالةٌ ، فتحتاجُ إلىٰ أن تبحثَ عن ذلك أتمَّ البحثِ ، بطولِ الجَهدِ ، ودقيقِ النَّظرِ ، وكثرةِ الرِّياضةِ .

والخامسُ : أنَّ الآفاتِ إليه أسرعُ ، فهو إلى الانقلابِ أقربُ ، فلقد قيلَ : إنَّ القلبَ أسرعُ انقلاباً من القِدرِ في غلَيانِها ، ولذلكَ قيلَ : [من البسيط]

ما سُمِّيَ القلبُ إلاَّ من تقلُّبِه ... والرَّأيُ يضربُ بالإنسانِ أطوارا

---

(١) قوله : (الملك والشيطان) بدل من الضمير في قوله : (يقرعانه) .

ثمَّ إن زلَّ القلبُ ـ والعياذُ باللهِ ـ فزللُه عظيمٌ ، ووقوعُه أصعبُ وأفظعُ ، أدناه : قسوةٌ وميلٌ إلىٰ غيرِ اللهِ سبحانَه ، ومنتهاه : ختمٌ ونكرةٌ للهِ تعالى ، أما تسمعُ قولَه تعالى : ﴿ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ؟ فكانَ الكبرُ بقلبِه ، فحملَه على الإباءِ والكفرِ بظاهرِه .

أما تسمعُ قولَه تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ ؟ فكانَ الميلُ واتِّباعُ الهوىٰ بقلبِه ، فحملَه ذلك على الذَّنبِ المشؤومِ بنفسِه .

أما تسمعُ قولَه تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ؟

ولهٰذا المعنىٰ ـ أيُّها الرَّجلُ ـ خافَ عبادُ اللهِ تعالى الخواصُّ علىٰ قلوبِهم ، وبكَوا عليها ، وصرفوا عنايتَهم إليها ، قالَ اللهُ تعالىٰ في وصفِهم : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ .

جعلَنا اللهُ وإيَّاكم من المعتبرينَ بالعبرِ ، المهتمِّينَ بمواضعِ الخطرِ ، الموفَّقينَ لإصلاحِ قلوبِهم بحسنِ النَّظرِ ، إنَّه أرحمُ الرَّاحمينَ .

فإن قيلَ : إنَّ أمرَ هٰذا القلبِ لمهمٌّ جدّاً ، فأخبِرْنا عن المعاني الَّتي تصلحُه ، وعن الآفاتِ الَّتي تعترضُه فتفسدُه ، عسىٰ أن نوفَّقَ للاجتهادِ في العملِ بذلكَ .

يقالُ له : اعلمْ : أنَّ تفصيلَ هٰذه المعاني لَطويلٌ ، لا يحتملُه هٰذا الكتابُ ، وإنَّما علماءُ الآخرةِ عُنُوا باستخراجِ ذلك وتصنيفِه في هٰذه النُّكتةِ لا غيرُ ، وقد ذكروا فيما يُحتاجُ إليه من ذلك نحوَ تسعينَ خصلةً محمودةً ، وفي أضدادِها المذمومةِ ، ثمَّ من الأفعالِ والمساعي الواجبةِ والمحظورةِ نحوَ ذلك في سائرِ تفاصيلِها .

ولعمري ؛ إنَّ من أهمَّه أمرُ دينِه ، وانتبهَ من رَقدةِ الغافلينَ ، فنظرَ لنفسِه . . فلا يكونُ تحصيلُ جميعِ ذلك والعملُ به عليه كثيراً إذا وفَّقَه اللهُ تعالى ، وقد ذكرنا نبذةً منها في (شرحِ عجائبِ القلبِ) من كتابِ « إحياءِ علومِ الدِّينِ » ، وأتينا علىٰ

شرحِ جميعِها بتفاصيلِها وكيفيَّةِ علاجِها في كتابِ « أسرارِ معاملاتِ الدِّينِ » ، وهو كتابٌ مستقلٌّ بنفسِه ، عظيمُ الفائدةِ ، ولا ينتفعُ به إلاَّ فحولُ العلماءِ الرَّاسخينَ في علمِ الآخرةِ ، وموضوعُ هـٰذا الكتابِ أن ينتفعَ به المبتدي والمنتهي ، والقويُّ والضَّعيفُ .

فنظرنا في الأصولِ الَّتي لا بدَّ من ذكرِها في علاجِ القلبِ ، والحاجةُ إليها ماسَّةٌ ، ولا غنيةَ عنها ألبتَّةَ في شأنِ العبادةِ ، فوجدناها أربعةَ أمورٍ هي مداحضُ العابدينَ ، وآفاتُ المجتهدينَ ، وهي فتنُ القلوبِ ، وبليَّاتُ النُّفوسِ ، تَعوقُ وتَشينُ ، وتُفسدُ وتُتلفُ ، وأربعةٌ في مقابلتِها فيها قوامُ العبَّادِ ، وانتظامُ العبادةِ ، وإصلاحُ القلوبِ .

فالآفاتُ الأربعُ : الأملُ ، والاستعجالُ ، والحسدُ ، والكبْرُ .

والمناقبُ الأربعُ : قصرُ الأملِ ، والتَّأنِّي في الأمورِ ، والنَّصيحةُ للخلقِ ، والتَّواضعُ والخشوعُ .

فهـٰذه هي الأصولُ في صلاحِ القلوبِ وفسادِها ، والنُّكتةُ الَّتي عليها المدارُ ، فلتبذلِ المجهودَ في التَّحرُّزِ من هـٰذه الآفاتِ ، والتَّحصيلِ لهـٰذه المناقبِ . . تُكفَ المؤنَ ، وتظفرْ بالمقصودِ إن شاءَ اللهُ تعالى ، وسأخبرُك عن هـٰذه الآفاتِ بكلماتٍ وجيزةٍ مقنعةٍ .

أمَّا طولُ الأملِ : فإنَّه العائقُ عن كلِّ خيرٍ وطاعةٍ ، الجالبُ لكلِّ شرٍّ وفتنةٍ ، وإنَّه الدَّاءُ العضالُ الَّذي يوقعُ الخلقَ في أنواعِ البليَّاتِ .

واعلمْ : أنَّك إذا طالَ أملُك . . هاجَ لك منه أربعةُ أشياءَ :

أحدُها : تركُ الطَّاعةِ والكسلُ فيها ، تقولُ : سوفَ أفعلُ ، والأيَّامُ بينَ يديَّ ، ولا يفوتُني ذلك ، ولقد صدقَ داوودُ الطَّائيُّ رحمَه اللهُ حيثُ قالَ : (من خافَ الوعيدَ . . قربَ عليه البعيدُ ، ومن طالَ أملُه . . ساءَ عملُه)(١) .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٥٧) .

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ الرَّازيُّ رحمَه اللهُ : الأملُ قاطعٌ عن كلِّ خيرٍ ، والطَّمعُ مانعٌ من كلِّ حقٍّ ، والصَّبرُ صائرٌ إلىٰ كلِّ ظفرٍ ، والنَّفسُ داعيةٌ إلىٰ كلِّ شرٍّ .

والثَّاني : تركُ التَّوبةِ وتسويفُها ، تقولُ : سوفَ أتوبُ ، وفي الأيَّامِ سَعةٌ ، وأنا شابٌّ ، وسنِّي قليلٌ ، والتَّوبةُ بينَ يديَّ ، وأنا قادرٌ عليها متىٰ رُمتُها ، وربَّما اغتالَه الحِمامُ على الإصرارِ[1] ، فاختطفَه الأجلُ قبلَ إصلاحِ العملِ .

والثَّالثُ : الحرصُ على الجمعِ والاشتغالِ بالدُّنيا عن الآخرةِ ، تقولُ : أخافُ الفقرَ في الكِبَرِ ، وربَّما أضعُفُ عن الاكتسابِ ، ولا بدَّ لي من شيءٍ فاضلٍ أدَّخرُه لمرضٍ أو هرمٍ أو فقرٍ ، هٰذا ونحوُه ممَّا يحرِّكُ إلى الرَّغبةِ في الدُّنيا ، والحرصِ عليها ، والاهتمامِ للرِّزقِ ، تقولُ : أيش آكلُ ، وأيش أشربُ ، وأيش ألبسُ ، وهٰذا الشِّتاءُ وهٰذا الصَّيفُ وما لي شيءٌ ، ولعلَّ العمرَ يطولُ فأحتاجُ ، والحاجةُ مع الشَّيبِ شديدةٌ ، ولا بدَّ من قوتٍ وغُنيةٍ عن النَّاسِ .

فهٰذه وأمثالُها تحرِّكُ إلىٰ طلبِ الدُّنيا والرَّغبةِ فيها ، والجمعِ لها والمنعِ لما عندَك منها ، وأقلُّ ما في البابِ أن تشغلَ قلبَك ، وتُضيِّعَ عليكَ وقتَك ، وتُكثرَ همَّك وغمَّك بلا فائدةٍ ولا طائلٍ ، علىٰ ما رُويَ عن أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنه أنَّه قالَ : (قتلني همٌّ يومٍ لم أدركْه) ، قيلَ : وكيف ذلك يا أبا ذرٍّ ؟ قالَ : (إنَّ أملي جاوزَ أجلي) .

والرَّابعُ : القسوةُ في القلبِ ، والنِّسيانُ للآخرةِ ؛ لأنَّك إذا أمَّلتَ العيشَ الطَّويلَ . . لا تذكرُ الموتَ والقبرَ ، كما قالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه : (إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكم اثنتانِ : طولُ الأملِ ، واتِّباعُ الهوى ، ألا وإنَّ طولَ الأملِ يُنسي الآخرةَ ، واتِّباعَ الهوىٰ يصدُّ عن الحقِّ)[2] .

فإذنْ يصيرُ فكرُك ومعظمُ أمرِك في حديثِ الدُّنيا وأسبابِ العيشِ في صحبةِ

---

(١) **اغتاله الحمام** : أخذه من حيث لم يدر ، **والحمام** ـ بكسر الحاء ـ : قضاء الموت وقدره .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٨/ ١٥٥) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٢٩) وفي « الزهد الكبير » (٤٦٣) .

الخلقِ ونحوِها ، فيقسو القلبُ من ذلك ، وإنَّما رقَّةُ القلبِ وصفوتُه بذكرِ الموتِ والقبرِ ، والثَّوابِ والعقابِ وأحوالِ الآخرةِ ، وإذا لم يكنْ شيءٌ من ذلك . . فمن أين يكونُ لقلبِك رقةٌ وصفوةٌ ؟! قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

فإذنْ إنَّك إذا طوَّلتَ أملَك . . قلَّتْ طاعتُك ، وتأخَّرَتْ توبتُك ، وكثرَتْ معصيتُك ، واشتدَّ حرصُك ، وقسا قلبُك ، وعظُمَتْ غفلتُك عن العاقبةِ ، فذهبَتْ ـ والعياذُ باللهِ إن لم يرحمِ اللهُ ـ آخرتُك ، فأيُّ حالٍ أسوأُ من هـٰذه ؟! وأيُّ آفةٍ أعظمُ من هـٰذه ؟! وكلُّ هـٰذا بسببِ طولِ الأملِ .

وأمَّا إن قصَّرتَ أملَك ، وقرَّبتَ من نفسِك موتَك ، وتذكَّرتَ حالَ أقرانِك وإخوانِك الَّذينَ غافصَهم الموتُ في وقتٍ لم يحتسبوه[1] ، ولعلَّ حالَك مثلُ حالِهم . . قُلتَ لنفسِك : احذري يا نفسي الغرورَ ، واذكري ما قالَ عونُ بنُ عبدِ اللهِ رحمَه اللهُ : (كم من مستقبلٍ يوماً لم يستكملْه ، ومنتظرٍ غداً لم يدركْه ، ولو رأيتم الأجلَ ومسيرَه . . لأبغضتم الأملَ وغرورَه)[2] .

أما سمعتَ قولَ عيسى ابنِ مريمَ عليه السَّلامُ : الدُّنيا ثلاثةُ أيَّامٍ : أمسٍ مضىٰ ما بيدِك منه شيءٌ ، وغدٍ لا تدري أتدركُه أم لا ؟ ويومٍ أنت فيه فاغتنمْه .

ثمَّ قولَ أبي ذرٍّ رضيَ اللهُ عنه : (الدُّنيا ثلاثُ ساعاتٍ : ساعةٍ مضتْ ، وساعةٍ أنت فيها ، وساعةٍ لا تدري أتدركُها أم لا ؟) .

فلستَ تملكُ بالحقيقةِ إلاَّ ساعةً واحدةً ؛ إذ الموتُ من ساعةٍ إلىٰ ساعةٍ .

ثمَّ قولَ شيخِنا رحمَه اللهُ : الدُّنيا ثلاثةُ أنفاسٍ : نفَسٍ مضى ، عملتَ فيه ما عملتَ ، ونفَسٍ أنت فيه ، ونفَسٍ لا تدري أتدركُه أم لا ؟ إذ كم من متنفِّسٍ نفَساً ففاجأه الموتُ قبلَ النَّفَسِ الآخرِ ، فلستَ تملكُ إلاَّ نفَساً واحداً بالحقيقةِ ، لا يوماً ولا ساعةً ، فبادرْ في هـٰذا النَّفَسِ الواحدِ إلى الطَّاعةِ قبلَ أن يفوتَ ، وإلى

---

(١) غافصهم الموت : أخذَهم علىٰ غِرَّة .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٨/ ٢٢٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢٤٣) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٥٩٢) .

التَّوبةِ ؛ فلعلَّك في النَّفَسِ الثَّاني تموتُ ، ولا تهتمِّي يا نفسُ بالرِّزقِ ؛ فلعلَّكِ لا تبقينَ لتحتاجي إليه ، فيكونُ وقتُك ضائعاً ، والهمُّ فاضلاً ، وما عسىٰ أن يهتمَّ الإنسانُ بالرِّزقِ ليوم واحدٍ ، أو ساعةٍ واحدةٍ ، أو نفَسٍ واحدٍ ؟ أمَا تذكرينَ ما قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأصحابِه : « ألا تعجبونَ من أسامةَ المشتري بصَبْرِ شهرٍ ؟! إنَّ أسامةَ لطويلُ الأملِ ، واللهِ ؛ ما وضعتُ قدماً . . فظننتُ أنِّي أرفعُها ، ولا لقمةً . . فظننتُ أنِّي أسيغُها حتَّىٰ يدركَني الموتُ ، والَّذي نفسي بيدِه ؛ إنَّ ما توعدونَ لآتٍ وما أنتم بمعجزينَ »[١] .

فإذا أنت أيُّها الرَّجلُ تذكَّرتَ هـٰذه الأذكارَ ، وواظبتَ علىٰ ذلك بالإعادةِ والتَّكرارِ . . قصُرَ أملُك بإذنِ اللهِ تعالى ، فحينئذٍ ترىٰ نفسَك تبادرُ إلى الطَّاعاتِ ، وتعجِّلُ توبتَك ، وتسقطُ عنك معصيتُك ، وتزهدُ في الدُّنيا وطلبِها ، فيخفُّ حسابُك وتبعتُك ، ويقعُ قلبُك في تذكُّرِ الآخرةِ وأهوالِها ، وما هو إلاَّ من نفَسٍ إلىٰ نفسٍ ، تصيرُ إليها وتعاينُها واحداً فواحداً ، فتزولُ عنك القسوةُ ، وتبدو لك الرِّقَّةُ والصَّفوةُ ، وتستشعرُ عندَ ذلك الخوفَ من اللهِ تعالىٰ والخشيةَ ، فيستقيمُ لك أمرُ عبادتِك ، ويقوى الرَّجاءُ في أن تسعدَ في عاقبتِك ، فتظفرَ بالمرادِ في آخرتِك ، وكلُّ ذلك بعدَ فضلِ اللهِ تعالىٰ بسببِ هـٰذه الخصلةِ الَّتي هي قصرُ الأملِ .

ولقد حُكيَ : أنَّ زُرارةَ بنَ أوفىٰ رحمَه اللهُ تعالىٰ قيلَ له في النَّومِ بعدَ موتِه : أيُّ الأعمالِ أبلغُ فيما عندَكم ؟ قالَ : الرِّضا ، وقصرُ الأملِ .

فانظرْ لنفسِك أيُّها الأخُ ، وابذلِ المجهودَ في هـٰذا الأصلِ الكبيرِ ؛ فإنَّه الأهمُّ والأعظمُ في صلاحِ القلبِ والنَّفْسِ ، واللهُ تعالىٰ وليُّ التَّوفيقِ بفضلِه ورحمتِه .

وأمَّا الحسدُ : فإنَّه المفسدُ للطَّاعاتِ ، الباعثُ على الخطيئاتِ ، وإنَّه الدَّاءُ العضالُ الَّذي يُبتلىٰ به الكثيرُ من القرَّاءِ والعلماءِ ، فضلاً عن العامَّةِ والجهَّالِ ،

---

(١) أخرجه الطبراني في « مسند الشاميين » (١٥٠٥) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٨٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

حتَّىٰ أهلكَهم وأوردَهم النَّارَ ، أما تسمعُ قولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « ستَّةٌ يدخلونَ النَّارَ بستَّةٍ : العربُ بالعصبيَّةِ ، والأمراءُ بالجورِ ، والدَّهاقينُ بالكبرِ ، والتُّجَّارُ بالخيانةِ ، وأهلُ الرَّساتيقِ بالجهلِ ، والعلماءُ بالحسدِ »[1] .

وإنَّ بليَّةً بلغَ شؤمُها أن أوردَتِ العلماءَ النَّارَ لحقيقٌ أن يُحذرَ منها .

واعلمْ : أنَّ الحسدَ يهيِّجُ خمسةَ أشياءَ :

أحدُها : إفسادُ الطَّاعاتِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « الحسدُ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النَّارُ الحطبَ »[2] .

والثَّاني : فعلُ المعاصي والشُّرور ، علىٰ ما قالَ وهبُ بنُ منبِّهٍ رحمَه اللهُ تعالى : (للحاسدِ ثلاثُ علاماتٍ : يتملَّقُ إذا شهدَ ، ويغتابُ إذا غابَ ، ويشمتُ بالمصيبةِ)[3] .

قلتُ : وحسبُكَ أنَّ اللهَ تعالىٰ أمرَنا بالاستعاذةِ من شرِّ الحاسدِ فقالَ : ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ كما أمرَ بالاستعاذةِ من شرِّ الشَّيطانِ الرَّجيمِ والسَّاحرِ[4] .

فانظرْ كم له من الشَّرِّ والفتنةِ ، حتَّىٰ أنزلَه منزلةَ الشَّيطانِ والسَّاحرِ ، حتَّىٰ أنْ لا مُستعانَ عليه ولا مُستعاذَ إلاَّ باللهِ ربِّ العالمينَ .

والثَّالثُ : التَّعبُ والهمُّ من غيرِ فائدةٍ ، بل مع ذلك وزرٌ ومعصيةٌ ، كما قالَ ابنُ السَّمَّاكِ رحمَه اللهُ : (لم أرَ ظالماً أشبهَ بالمظلومِ من الحاسدِ ، نفَسٌ دائمٌ ، وعقلٌ هائمٌ ، وغمٌّ لازمٌ)[5] .

---

(١) أخرجه الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٤٩١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١٥٦٥) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، **والدهاقين** ـ جمع دهقان ، بكسر الدال ـ : رئيس القرية ، **وأهل الرساتيق** : أصحاب القرى .

(٢) أخرجه أبو داوود (٤٩٠٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وابن ماجه (٤١١٠) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٦٥٦) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٣) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٤٧) .

(٤) الاستعاذة من شر الشيطان في قوله تعالى : ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ ، ومن شر الساحر في قوله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ .

(٥) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٢١١) من قول الخليل بن أحمد الفراهيدي رحمه الله تعالى .

والرَّابعُ : عمى القلبِ ، حتَّىٰ لا يكادُ يفهمُ حكماً من أحكامِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلقد قالَ سفيانُ الثَّوريُّ رحمَه اللهُ : (عليكَ بطولِ الصَّمتِ تملكِ الورعَ ، ولا تكنْ حريصاً على الدُّنيا تكنْ حافظاً ، ولا تكنْ طعَّاناً تنجُ من ألسنِ النَّاسِ ، ولا تكنْ حاسداً تكنْ سريعَ الفهمِ)[1] .

والخامسُ : الحرمانُ والخِذلانُ ، فلا يكادُ يَظفرُ بمرادٍ ، ولا يُنصَرُ علىٰ عدوٍّ ، كما قالَ حاتمٌ الأصمُّ رحمَه اللهُ : الضَّغينُ غيرُ ذي دينٍ ، والعائبُ غيرُ عابدٍ ، والنَّمَّامُ غيرُ مأمونٍ ، والحسودُ غيرُ منصورٍ .

قلتُ : الحسودُ كيف يظفرُ بمرادِه ومرادُه زوالُ نعمِ اللهِ تعالىٰ عن عبادِه المسلمينَ ؟! وكيف يُنصَرُ علىٰ أعدائِه وهم عبادُ اللهِ المؤمنونَ ؟!

ولقد أحسنَ أبو يعقوبَ رحمَه اللهُ فيما قالَ : اللَّهمَّ ؛ صبِّرنا علىٰ تمامِ النِّعمِ علىٰ عبادِك وحسِّنْ أحوالَهم .

وإنَّ داءً يُفسدُ عليكَ الطَّاعةَ ، ويُكثرُ شرَّك ومعصيتَك ، ويمنعُك راحةَ النَّفسِ ، وفهمَ القلبِ ، والنُّصرةَ على الأعداءِ ، والظَّفرَ بالمطلوبِ . . فأيُّ داءٍ يكونُ أدوأَ منه ؟! فعليكَ بمعالجةِ نفسِك من ذلك ، واللهُ تعالىٰ وليُّ التَّوفيقِ بمنِّه وكرمِه .

وأمَّا الاستعجالُ والنَّزَقُ[2] : فإنَّه الخصلةُ المفوِّتةُ للمقاصدِ ، الموقعةُ في المعاصي ، وإنْ منها تبدو آفاتٌ أربعٌ :

إحداها : أن يقصدَ العابدُ منزلةً في الخيرِ والاستقامةِ ويجتهدَ ، فربَّما يستعجلُ في نيلِها وليسَ ذلك بوقتِها ؛ فإمَّا أن يَفترَ وييأسَ ، ويتركَ الاجتهادَ فيُحرَمَ تلكَ المنزلةَ ، وإمَّا أن يغلوَ في الجهدِ وإتعابِ النَّفسِ فينقطعَ عن تلك المنزلةِ ، فهو بينَ إفراطٍ وتفريطٍ ، وكلاهما نتيجةُ الاستعجالِ ، ولقد روينا

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٨٢) في وصيّته الطويلة لعلي بن الحسن السلمي رحمهما الله تعالى .

(٢) النزق : الخفة والطيش .

عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قالَ : « إنَّ ديننا هـٰذا متينٌ ، فأوغلْ فيه برفقٍ ؛ فإنَّ المنبتَّ لا أرضاً قطعَ ، ولا ظهراً أبقى »[1] .

وفي المثلِ السَّائرِ : (إن لم تستعجلْ . . تصلْ) .

وقولُ القائلِ في ذلك : [من البسيط]

قـد يـدركُ المتـأنِّي بعـضَ حـاجتِـه وقد يكونُ مع المستعجِلِ الزَّللُ[2]

والثَّانيةُ : أن يكونَ للعابدِ حاجةٌ ، فيدعوَ اللهَ تعالىٰ فيها ، ويُكثرَ الدُّعاءَ ويَجدَّ ، فربَّما يستعجلُ الإجابةَ قبلَ وقتِها فلا يجدُها ، فيفترُ ويسأمُ ، فيتركُ الدُّعاءَ فيحرمُ حاجتَه ومقصودَه .

والثَّالثةُ : أن يظلمَه إنسانٌ فيغيظَه ، فيعجِّلَ في الدُّعاءِ عليه ، فيهلكَ مسلمٌ بسببه ، وربَّما يتجاوزُ عن الحدِّ فيقعُ في معصيةٍ وهلاكٍ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾ .

والرَّابعةُ : أنَّ أصلَ العبادةِ وملاكَها الورعُ ، والورعُ أصلُه النَّظرُ البالغُ في كلِّ شيءٍ ، والبحثُ التَّامُّ عن كلِّ شيءٍ هو بصددِه ؛ من أكلٍ وشربٍ ، ولُبسٍ وكلامٍ وفعلٍ ، فإذا كانَ الرَّجلُ مستعجِلاً في الأمورِ غيرَ متأنٍّ ولا متثبِّتٍ متبيِّنٍ . . لم يقعْ منه توقُّفٌ ونظرٌ في الأمورِ كما يجبُ ، ويتسارعُ إلىٰ كلِّ كلامٍ فيقعُ في الزَّللِ ، وإلىٰ كلِّ طعامٍ فيقعُ في الحرامِ والشُّبهةِ ، وكذلكَ في كلِّ أمرٍ ، فيفوتُه الورعُ ، وأيُّ خيرٍ في عبادةٍ بلا ورعٍ ؟!

وإذا كانَ في خصلةِ الانقطاعُ عن منازلِ الخيرِ ، وحرمانُ الحاجاتِ ، وهلاكُ المسلمينَ وهلاكُه ، ثمَّ خطرُ فوتِ الورعِ الَّذي هو رأسُ المالِ . . فحقَّ للإنسانِ أن يهتمَّ لها بالإزالةِ وإصلاحِ النَّفسِ بعدَها ، واللهُ وليُّ التَّوفيقِ بمنِّه وفضلِه .

وأمَّا الكبْرُ : فإنَّه الخصلةُ المهلكةُ رأساً ، أمَا تسمعُ قولَه تعالى : ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ؟

---

(١) أخرجه البيهقي (٣/ ١٨) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١١٤٧) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، **والمنبتُّ** : الذي يغذُّ السير ، ويتعب بلا فتور ، فينقطع به سفره ، وتعطب دابته .

(٢) نسبه ابن عبد ربه في « العقد الفريد » (٢/ ٣٠٧) إلى القطامي التغلبي .

وليستْ هٰذه الخصلةُ بمنزلةِ سائرِ الخصالِ الَّتي تقدحُ في عملٍ ، وتضرُّ بفرعٍ ، إنَّما تضرُّ بالأصلِ ، وتقدحُ في الدِّينِ والاعتقادِ ، وإذا قويتْ وغلبتْ . . لا تُتَدارَكُ والعياذُ باللهِ سبحانَه .

ثمَّ أقلُّ ما يهيجُ منها علىٰ صاحبِها أربعُ آفاتٍ :

إحداها : حرمانُ الحقِّ ، وعمى القلبِ عن معرفةِ آياتِ اللهِ تعالىٰ وفهمِ أحكامِه ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ ، وقالَ تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ .

الثَّانيةُ : المقتُ والبغضُ من اللهِ تعالى ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .

ورُوِيَ أنَّ موسىٰ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قالَ : يا ربِّ ؛ من أبغضُ خلقِك إليك ؟ قالَ : من تكبَّرَ قلبُه ، وغلُظَ لسانُه ، وصفَقَ عينَه[1] ، وبخلتْ يدُه ، وساءَ خلقُه .

الثَّالثةُ : الخزيُ والنَّكالُ في الدُّنيا والآخرةِ ، قالَ حاتمٌ رحمَه اللهُ : اجتنبتُ الموتَ علىٰ ثلاثةٍ : على الكبْرِ ، والحرصِ ، والخيلاءِ ؛ فإنَّ المتكبِّرَ لا يخرجُه اللهُ تعالىٰ من الدُّنيا حتَّىٰ يريَه الهوانَ من أرذلِ أهلِه وخدَّامِه ، والحريصُ لا يخرجُه اللهُ تعالىٰ من الدُّنيا حتَّىٰ يحوجَه إلىٰ كِسرةٍ أو شَربةٍ ولا يجدُ مساغاً ، والمختالُ لا يخرجُه اللهُ من الدُّنيا حتىٰ يمرِّغَه ببولِه وقذرِه .

وقيلَ : من تكبَّرَ بغيرِ حقٍّ . . أورثَه اللهُ تعالىٰ ذلاً بحقٍّ .

الرَّابعةُ : النَّارُ والعذابُ في العقبى ، علىٰ ما رُويَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : « الكبرياءُ ردائي ، والعظمةُ إزاري ، فمن نازعني في واحدٍ منهما . . أدخلتُه نارَ جهنَّمَ »[2] .

---

(١) صفق عينه : ردها وغمضها عن أنواع الخيرات .

(٢) أخرجه أبو داوود (٤٠٩٠) ، وابن ماجه (٤١٧٤) ، وأحمد (٢/٢٤٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

والمعنى : أنَّ العظمةَ والكبرياءَ من الصِّفاتِ الَّتي تختصُّ بي ، ولا تنبغي لأحدٍ غيري ، كما أنَّ رداءَ الإنسانِ وإزارَه يختصُّ به ، لا يُشارَكُ فيه .

وإنَّ خصلةً تفوِّتُك معرفةَ الحقِّ ، وفهمَ معاني آياتِ اللهِ تعالىٰ وأحكامِه الَّذي هو أصلُ الأمرِ كلِّه ، ثمَّ تثمرُ لك المقتَ من اللهِ سبحانَه وتعالى ، والخزيَ في الدُّنيا ، والنَّارَ في الآخرةِ . . لا يسعُ العاقلَ أن يغفُلَ عن نفسِه فيها ، فلا يصلحُها بإزالتِها ؛ بالحذرِ والتَّحرُّزِ والاستعاذةِ باللهِ تعالىٰ من ذلك ، وهو وليُّ العصمةِ والتَّوفيقِ بمنِّه وكرمِه .

فهٰذا بعضُ ما حضرَنا في هٰذه الخصالِ الأربعِ من الآفاتِ ، وحسبُ العاقلِ واحدةٌ منها فضلاً عن الكلِّ إذا أهمَّه أمرُ قلبِه ، وحامىٰ عن أمرِ دينِه ، واللهُ الموفِّقُ للصَّوابِ .

فإن قلتَ : فإذا كانَ الأمرُ بهٰذه المنزلةِ من آفاتِ هٰذه الخصالِ ، ولزِمَ التَّحفُّظُ منها . . فلا بدَّ من معرفةِ حقيقتِها وحدِّها ، فبيِّنْ لنا ذلك لنعرفَ كيف الطَّريقُ إلى التَّحفُّظِ عنها .

فاعلمْ : أنَّ في كلِّ واحدةٍ منها كلاماً كثيراً ، وقد أشبعْنا القولَ فيه في كتابَي « الإحياءِ » و« الأسرارِ »[1] ، ونحنُ نذكرُ هٰهنا ما لا بدَّ من ذكرِه ، ولا يقعُ الغنىٰ عنه ، فنقولُ وباللهِ التَّوفيقُ :

أمَّا الأملُ : فإنَّ أكثرَ علمائِنا رحمَهم اللهُ تعالىٰ قالوا : إنَّه إرادةُ الحياةِ للوقتِ المتراخي بالحكمِ ، وقِصَرُ الأملِ : تركُ الحكمِ فيه ؛ بأن تقيِّدَه بالاستثناءِ بمشيئةِ اللهِ تعالىٰ وعلمِه في الذِّكرِ ، أو بشرطِ الصَّلاحِ في الإرادةِ ، فإذنْ إن ذكرتَ حياتَك بأنِّي أعيشُ بعدَ نفَسٍ ثانٍ أو ساعةٍ ثانيةٍ أو يومٍ ثانٍ بالحكمِ والقطعِ . . فأنت آملٌ ، وذلك منك معصيةٌ ؛ إذ هو حكمٌ على الغيبِ ، فإن قيَّدتَه بالمشيئةِ والعلمِ من اللهِ فتقولُ : أعيشُ إن شاءَ اللهُ تعالى ، أو إن علمَ اللهُ أنِّي أعيشُ . . فقد خرجتَ عن حكمِ الأملِ ، وكذلكَ إن أردتَ حياتَك للوقتِ الثَّاني

---

(١) أي : كتاب « أسرار معاملات الدين » ، وقد تقدم كلام المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ عليه (ص١١٦) .

قطعاً . . فأنت آملٌ ، وإن قيَّدتَ إرادتَك بشرطِ الصَّلاحِ . . خرجتَ عن حكمِ الأملِ ، ووُصِفتَ بقصرِ الأملِ من حيثُ تركتَ الحكمَ فيه ، فعليكَ بتركِ الحكمِ في ذكرِ البقاءِ وإرادتِه .

والمرادُ بالذِّكرِ : ذكرُ القلبِ ، ثمَّ المرادُ منه : التَّوطينُ علىٰ ذلك ، والتَّثبيتُ للقلبِ عليه ، فافهمْه راشداً إن شاءَ اللهُ تعالى .

ثمَّ الأملُ ضربانِ : أملُ العامَّةِ ، وأملُ الخاصَّةِ .

فأملُ العامَّةِ : أن تريدَ الحياةَ والبقاءَ لجمعِ الدُّنيا والتَّمتُّعِ بها ، وهـٰذه معصيةٌ محضةٌ ، وضدُّها قِصَرُ الأملِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وأملُ الخاصَّةِ : أن تريدَ البقاءَ لإتمامِ عملِ خيرٍ فيه خطرٌ ، وهو ما لا يَستيقِنُ الصَّلاحَ له فيه ؛ فإنَّه ربَّما يكونُ خيرٌ معيَّنٌ لا يكونُ للعبدِ فيه أو في إتمامِه صلاحٌ ؛ بأن يقعَ بسببِه في آفةٍ لا يقومُ بها هـٰذا الخيرُ .

فإذنْ ليسَ للعبدِ إذا ابتدأ في صلاةٍ أو صومٍ أو غيرِه أن يحكمَ بأنَّه يُتمُّه ؛ إذ هو غيبٌ ، ولا أن يقصدَ ذلك قطعاً ؛ لأنَّه ربَّما لا يكونُ له فيه صلاحٌ ، بل يقيِّدُ ذلك بالاستثناءِ أو شرطِ الصَّلاحِ ، فيخلُصُ من عيبِ الأملِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ .

وضدُّ هـٰذا الأملِ ـ فيما قالَه العلماءُ ـ النِّيَّةُ المحمودةُ ، وإنَّما قالوا ذلك علىٰ ضربٍ من الاتِّساعِ ؛ لأنَّ النَّاويَ بالنِّيَّةِ المحمودةِ يكونُ ممتنعاً من الأملِ .

فهـٰذا حكمُ الأملِ والنِّيَّةِ المحمودةِ ؛ إذ قد مسَّتِ الحاجةُ إلىٰ معرفتِها مع أنَّها الأصلُ الأصيلُ ، قالَ علماؤُنا رحمَهم اللهُ تعالىٰ في حدِّها الجامعِ التَّامِّ : إنَّ النِّيَّةَ الصَّحيحةَ المحمودةَ : إرادةُ أخذِ عملٍ مبتدأٍ به قبلَ سائرِ الأعمالِ بالحكمِ ، مع إرادةِ إتمامِه بالتَّفويضِ والاستثناءِ .

فإن قيلَ : فلِمَ جازَ الحكمُ في الابتداءِ ، ووجبَ التَّفويضُ والاستثناءُ في الإتمامِ ؟

يقالُ له : لفقدِ الخطرِ في الابتداءِ ؛ إذ هو في حالِ الابتداءِ ليسَ بشيءٍ متراخٍ عنك ، ولثبوتِ الخطرِ في الإتمامِ ؛ إذ هو يقعُ في وقتٍ متراخٍ ، ففيه الخطرانِ : خطرُ الوصولِ ؛ لا تدري هل تصلُ إلىٰ ذلك أم لا ؟ وخطرُ الفسادِ ؛ لا تدري هل في ذلك صلاحٌ أم لا ؟

فإذنْ وجبَ الاستثناءُ لخطرِ الوصولِ ، والتَّفويضُ لخطرِ الفسادِ ، فإذا حصلتِ الإرادةُ علىٰ هـٰذه الشُّروطِ . . تكونُ حينئذٍ نيَّةٌ محمودةٌ ، مخرجةٌ عن حدِّ الأملِ وآفتِه ، فتأمَّلْ جدّاً ، فهـٰذه هـٰذه .

واعلمْ : أنَّ حصنَ قصرِ الأملِ ذكرُ الموتِ ، وحصنَ حصنِه ذكرُ فجأةِ الموتِ وأخذِه علىٰ غِرَّةٍ وغفلةٍ وهو في غرورٍ وفتورٍ ، فاحتفظْ بهـٰذه الجملةِ ، وحصِّلْها موفَّقاً ؛ فإنَّ الحاجةَ إليها ماسَّةٌ ، ودعْ عنك تضييعَ الوقتِ في القيلِ والقالِ ، ومُلاحاةَ الرِّجالِ[1] ، واللهُ الموفِّقُ بفضلِه .

وأمَّا الحسدُ : فهو إرادةُ زوالِ نعمِ اللهِ تعالىٰ عن أخيك المسلمِ ممَّا له فيه صلاحٌ ، فإن لم تُردْ زوالَها عنه ، ولـٰكنْ تريدُ لنفسِك مثلَها . . فهو غبطةٌ ، وعلىٰ هـٰذا يُحملُ قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « لا حسدَ إلاَّ في اثنتينِ . . . » الخبرَ[2] ؛ أي : لا غبطةَ إلاَّ في ذلك ، فعبَّرَ عن الغبطةِ بالحسدِ اتِّساعاً في ذلك لمقاربتِهما .

فإن لم يكنْ له فيها صلاحٌ ، فأردتَ زوالَها عنه . . فذلكَ غَيرةٌ ، فهـٰذا هو الفرقُ بينَ هـٰذه الخصالِ .

وأمَّا ضدُّ الحسدِ : فالنَّصيحةُ ، وهي : إرادةُ بقاءِ نعمةِ اللهِ تعالىٰ علىٰ أخيك المسلمِ ممَّا له فيها صلاحٌ .

---

(١) **ملاحاة الرجال** : منازعتهم ، يقال : لاحاه ملاحاةً ولحاءً ؛ أي : نازعه ، وفي المثل : (من لاحاك . . فقد عاداك) .

(٢) أخرجه البخاري (٧٣) ، ومسلم (٨١٦) ، وابن حبان (٩٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

فإن قيلَ : كيف نعلمُ أنَّ له فيها صلاحاً أو فساداً لننصحَه أو نحسدَه ؟

فاعلمْ : أنَّه قد يقومُ لنا غالبُ الظَّنِّ بذلكَ ، وغلبةُ الظَّنِّ منَّا تجري مَجرى العلمِ في هٰذه المواضعِ .

ثمَّ إن اشتبهَ عليكَ . . فلا تردْ زوالَ نعمةِ أحدٍ من المسلمينَ أو بقاءَها إلاَّ مقيِّداً بالتَّفويضِ وشرطِ الصَّلاحِ ؛ لتخلُصَ من حكمِ الحسدِ ، ويحصُلَ لك فائدةُ النَّصيحةِ .

وأمَّا حصنُ النَّصيحةِ المانعُ من الحسدِ : فهو ذكرُ ما أوجبَه اللهُ تعالىٰ من موالاةِ المسلمينَ ، وحصنُ هٰذا الحصنِ ذكرُ ما عظَّمَ اللهُ تعالىٰ من حقِّ المؤمنِ ورفعَ من قدْرِه ، وما له عندَ اللهِ تعالىٰ من الكراماتِ العظيمةِ في العقبى ، وما لك فيه من الفوائدِ الجليلةِ في الدُّنيا ؛ من التَّعاونِ والتَّظاهرِ ، والجماعاتِ والجمعاتِ ، ثمَّ ما ترجو من شفاعتِه في الآخرةِ .

فهٰذه ونحوُها ممَّا يبعثُ على النُّصحِ لكلِّ مسلمٍ ، ويجنِّبُك أن تحسدَه في نعمةٍ أعطاه اللهُ تعالىٰ إيَّاها ، واللهُ سبحانَه وتعالىٰ وليُّ التَّوفيقِ بفضلِه .

وأمَّا العجلةُ : فإنَّها المعنى الرَّاتبُ في القلبِ ، الباعثُ على الإقدامِ على الأمرِ بأوَّلِ خاطرٍ ، دونَ التَّوقُّفِ فيه والاستطلاعِ منه ، بل الاستعجالُ في اتِّباعِه والعملِ به ، وضدُّها الأناةُ ، وهو المعنى الرَّاتبُ في القلبِ ، الباعثُ على الاحتياطِ في الأمورِ ، والنَّظرِ فيها ، والتَّأنِّي في اتِّباعِها ، والعملِ بها .

وأمَّا التَّوقُّفُ : فضدُّه التَّعسُّفُ ، قالَ شيخُنا رحمَه اللهُ تعالى : الفرقُ بينَ التَّوقُّفِ والتَّأنِّي : أنَّ التَّوقُّفَ قبلَ الدُّخولِ في الأمرِ حتَّىٰ يستبينَ له رشدُه ، والتَّأنِّي بعدَ الدُّخولِ فيه حتَّىٰ يؤدِّيَ لكلِّ جزءٍ منه حقَّه .

ثمَّ مقدِّماتُ الأناةِ : ذكرُ وجوهِ الخطرِ في الأمورِ الَّتي تعترضُ للإنسانِ ، وضروبِ الآفاتِ المخُوفةِ فيها ، وذكرُ ما في النَّظرِ والتَّثبُّتِ من السَّلامةِ ، وما في التَّعسُّفِ والاستعجالِ من النَّدامةِ والملامةِ .

وهٰذه وأمثالُها ممَّا يبعثُ على التَّأنِّي والتَّوقُّفِ في الأمورِ ، ويمنعُ من

الاستعجالِ والتَّعسُّفِ ، واللهُ تعالىٰ وليُّ العصمةِ برحمتِه .

وأمَّا الكِبرُ : فاعلمْ أنَّه خاطرٌ في رفعِ النَّفسِ واستعظامِها ، والتَّكبُّرُ اتِّباعُه ، والضَّعةُ خاطرٌ في وضعِ النَّفسِ واستحقارِها ، والتَّواضعُ اتِّباعُه ، ولكلٍّ واحدٍ منهما عامِّيٌّ وخاصِّيٌّ .

فالتَّواضعُ العامِّيُّ : هو الاكتفاءُ بالدُّونِ من الملبسِ والمسكنِ والمركبِ ، والتَّكبُّرُ في مقابلتِه التَّرفُّعُ عن ذلك .

والتَّواضعُ الخاصِّيُّ : هو تمرينُ النَّفسِ علىٰ قبولِ الحقِّ ممَّن كانَ وضيعاً أو شريفاً ، والتَّكبُّرُ في مقابلتِه التَّرفُّعُ عن ذلك ، وهو معصيةٌ كبيرَةٌ ، وخطيئةٌ عظيمةٌ .

ثمَّ حصنُ التَّواضعِ العامِّيِّ أن تذكرَ مبدأَك ومنتهاك ، وما أنت عليه في الحالِ من ضروبِ الآفاتِ والأقذارِ ، كما قالَ بعضُهم : (أوَّلُك نطفةٌ مذرةٌ ، وآخرُك جيفةٌ قذرةٌ ، وأنت فيما بينَهما تحملُ العَذِرةَ)[1] .

وحصنُ التَّواضعِ الخاصِّيِّ : هو ذكرُ عقوبةِ العادلِ عن الحقِّ ، المتمادي في الباطلِ ، فهٰذه جملةٌ كافيةٌ لمن استبصرَ ، واللهُ وليُّ التَّوفيقِ .

الفصلُ الخامسُ : البطنُ وحفظُه .

ثمَّ عليكَ ـ وفَّقَك اللهُ ـ بحفظِ البطنِ وإصلاحِه ؛ فإنَّه أشقُّ الأعضاءِ إصلاحاً على المجتهدِ ، وأكثرُها مؤنةً وشغلاً ، وأعظمُها ضرراً وأثراً ؛ لأنَّه المنبعُ والمعدنُ ، ومنه تهيجُ الأمورُ في الأعضاءِ ؛ من قوَّةٍ وضعفٍ ، وعفَّةٍ وجِماحٍ ونحوِه .

فعليكَ إذنْ بصيانتِه عن الحرامِ والشُّبهةِ أوَّلاً ، ثمَّ عن فضولِ الحلالِ ثانياً إن كانتْ لك همَّةٌ في عبادةِ اللهِ تعالى .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٨٤) من قول مالك بن دينار رحمه الله تعالى .

فأمَّا الحرامُ والشُّبهةُ : فإنَّما يلزمُكَ البحثُ عنهما لثلاثةِ أمورٍ :

أوَّلُها : حذراً من نار جهنَّمَ ، قالَ اللهُ سبحانَه وتعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « كلُّ لحمٍ نبتَ من سُحتٍ فالنَّارُ أولىٰ به »(١) .

والثَّاني : أنَّ آكِلَ الحرامِ والشُّبهةِ مطرودٌ لا يُوفَّقُ للعبادةِ ؛ إذ لا يصلحُ لخدمةِ اللهِ تعالىٰ إلاَّ كلُّ طاهرٍ مطهَّرٍ .

قلتُ أنا : أليسَ اللهُ تعالىٰ قد منعَ الجُنُبَ من الدُّخولِ إلىٰ بيتِه ، والمُحدِثَ عن مسِّ كتابِه ؟ قالَ عزَّ من قائلٍ : ﴿ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ﴾ ، وقالَ تعالى : ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ ، مع أنَّ الجنابةَ والحدثَ أمرٌ مباحٌ ، فكيف بمن هو منغمسٌ في قذرِ الحرامِ ، ونجاسةِ السُّحتِ والشُّبهةِ ، متىٰ يُدعىٰ إلىٰ خدمةِ اللهِ العزيزِ وذكرِه الشَّريفِ سبحانَه ؟! كلاَّ فلا يكونُ ذلك أبداً .

وقالَ يحيى بنُ معاذٍ الرَّازيُّ رحمَه اللهُ : الطَّاعةُ مخزونةٌ في خزائنِ اللهِ ، ومفتاحُها الدُّعاءُ ، وأسنانُه الحلالُ ، فإذا لم يكنْ للمفتاحِ أسنانٌ . . فلا ينفتحُ البابُ ، وإذا لم ينفتحْ بابُ الخزانةِ . . كيف يوصَلُ إلىٰ ما فيها من الطَّاعةِ ؟!

والثَّالثُ : أنَّ آكِلَ الحرامِ والشُّبهةِ محرومٌ من فعلِ الخيرِ ، وإنِ اتَّفقَ له فعلُ خيرٍ . . فهو مردودٌ عليه غيرُ مقبولٍ منه ، فإذنْ لا يكونُ له من ذلكَ إلاَّ العَناءُ والكدُّ وشغلُ الوقتِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « كم من قائمٍ ليسَ له من قيامِه إلاَّ السَّهرُ ، وكم من صائمٍ ليسَ له من صيامِه إلاَّ الجوعُ والظَّمأُ »(٢) .

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ١٢٧) ، وابن حبان (١٧٢٣) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، والترمذي (٦١٤) عن كعب بن عجرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه ابن خزيمة (١٩٩٧) ، وابن حبان (٣٤٨١) ، والحاكم (١/ ٤٣١) ، والنسائي في « الكبرى » (٣٢٣٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ ٱللهُ عنهما قالَ : (لا يقبلُ ٱللهُ صلاةَ امرئٍ وفي جوفِه حرامٌ) ، فهٰذه هٰذه .

وأمَّا فضولُ الحلالِ : فإنَّه آفةُ العُبَّادِ ، وبليَّةُ أهلِ الاجتهادِ ، وإنِّي تأمَّلتُ فوجدتُ فيه عشرَ آفاتٍ هنَّ أصولٌ في هٰذا الشَّأنِ :

الأولى : أنَّ في كثرةِ الأكلِ قسوةَ القلبِ وذهابَ نورِه ، رُويَ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قالَ : « لا تُميتوا القلوبَ بكثرةِ الطَّعامِ والشَّرابِ ؛ فإنَّ القلبَ يموتُ كالزَّرعِ إذا كثُرَ عليه الماءُ » .

ولقد شبَّهَ ذلك بعضُ الصَّالحينَ بأنَّ المَعِدَةَ كالقِدْرِ تحتَ القلبِ تغلي ، والبخارُ يرتفعُ إليه ، فكثرةُ البخارِ تكدِّرُه وتسخِّمُه .

والثَّانيةُ : أنَّ في كثرةِ الأكلِ فتنةَ الأعضاءِ وهيجَها وانبعاثَها للفضولِ والفسادِ ؛ فإنَّ الرَّجلَ إذا كانَ شبعانَ بطِراً . . اشتهتْ عينُه النَّظرَ إلىٰ ما لا يَعنيه من حرامٍ أو فضولٍ ، والأذنُ الاستماعَ إليه ، واللِّسانُ التَّكلُّمَ به ، والفرْجُ الشَّهوةَ له ، والرِّجلُ المشيَ إليه ، وإن كانَ جائعاً . . فتكونُ الأعضاءُ كلُّها ساكنةً هادئةً ، لا تطمحُ إلىٰ شيءٍ منها ولا تنشطُ لها ، ولقد قالَ الأستاذُ أبو جعفرٍ رحمَه اللهُ تعالى : إنَّ البطنَ عضوٌ ، إن جاعَ هو . . شبعَ سائرُ الأعضاءِ ـ يعني : تسكنُ فلا تطالبُك بشيءٍ ـ وإن شبعَ هو . . جاعَ سائرُ الأعضاءِ .

وجملةُ الأمرِ : أنَّ أفعالَ الرَّجلِ وأقوالَه علىٰ حسَبِ طعامِه وشرابِه ؛ إن دخلَ الحرامُ . . خرجَ الحرامُ ، وإن دخلَ الفضولُ . . خرجَ الفضولُ ، كأنَّ الطَّعامَ بَذرُ الأفعالِ ، والأفعالَ نبتٌ تبدو منه .

والثَّالثةُ : أنَّ في كثرةِ الأكلِ قلَّةَ الفهمِ والعلمِ ؛ فإنَّ البِطْنةَ تذهبُ الفِطنةَ ، ولقد صدقَ الدَّارانيُّ رحمَه اللهُ حيثُ قالَ : (إذا أردتَ حاجةً من حوائجِ الدُّنيا والآخرةِ . . فلا تأكلْ حتَّىٰ تقضيَها ؛ فإنَّ الأكلَ يغيِّرُ العقلَ)[1] .

وهٰذا أمرٌ ظاهرٌ ، علِمَه من اختبرَه .

---

(١) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤/ ١٥٤) .

والرَّابعةُ : أنَّ في كثرةِ الأكلِ قلَّةَ العبادةِ ؛ لأنَّه إذا أكثرَ الإنسانُ الأكلَ . . ثقُلَ بدنُه ، وغلبتْه عيناه ، وفترتْ أعضاؤُه ؛ فلا يجيءُ منه شيءٌ ـ وإنِ اجتهدَ ـ إلاَّ النَّومَ كالجيفةِ الملقاةِ ، ولقد قيلَ : إذا كنتَ بطِناً . . فعُدَّ نفسَك زمِناً .

ولقد ذُكرَ عن يحيىٰ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : أنَّ إبليسَ بدا له وعليه معاليقُ[1] ، فقالَ له يحيى : ما هٰذه ؟ فقالَ : هٰذه الشَّهواتُ الَّتي أصيدُ بها بني آدمَ ، قالَ : هل تجدُ لي فيها شيئاً ؟ قالَ : لا ، إلاَّ أنَّك شبعتَ ذاتَ ليلةٍ فثقَّلناك عن الصَّلاةِ ، فقالَ يحيىٰ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : لا جرمَ أنِّي لا أشبعُ بعدَها أبداً ، فقالَ إبليسُ : لا جرمَ أنِّي لا أنصحُ بعدَها أحداً أبداً .

فهٰذه فيمن لم يشبعْ في عمرِه إلاَّ ليلةً واحدةً ، فكيف بمن لا يجوعُ في عمرِه ليلةً واحدةً ثمَّ يطمعُ في العبادةِ ؟!

وقالَ سفيانُ رحمَه اللهُ : العبادةُ حرفةٌ ، وحانوتُها الخلوةُ ، وآلتُها المجاعةُ .

والخامسةُ : أنَّ في كثرةِ الأكلِ فقدَ حلاوةِ العبادةِ ، قالَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضيَ اللهُ عنه : (ما شبعتُ منذُ أسلمتُ ؛ لأجدَ حلاوةَ عبادةِ ربِّي ، وما رَوِيتُ منذُ أسلمتُ ؛ اشتياقاً إلىٰ لقاءِ ربِّي) .

وهٰذه صفاتُ المكاشَفينَ ، وكانَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنه مكاشَفاً ، وإليه أشارَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقولِه : « ما فضلَكم أبو بكرٍ بفضلِ صومٍ أو صلاةٍ ، وإنَّما هو بشيءٍ وقرَ في صدرِه »[2] .

وقالَ الدَّارانيُّ : (أحلىٰ ما تكونُ العبادةُ إذا التزقَ بطني بظهري)[3] .

والسَّادسةُ : أنَّ فيه خطرَ الوقوعِ في الشُّبهةِ والحرامِ ؛ لأنَّ الحلالَ لا يأتيك

---

(١) **المعاليق** ـ جمع معلاق ، بكسر الميم ـ : ما عُلِّق به من لحم أو عنب ونحوه .

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (١٢٩٩) من قول بكر بن عبد الله المزني رحمه الله تعالى ، وانظر « كشف الخفاء » (٢/ ١٩٠) .

(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٥٣٢٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤/ ١٢٨) .

إلاَّ قوتاً ، ولقد روينا عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قالَ : « إنَّ الحلالَ لا يأتيك إلاَّ قوتاً ، والحرامَ يأتيك جزافاً جزافاً » .

والسَّابعةُ : أنَّ فيه شغلَ القلبِ والبدنِ ؛ بتحصيلِه أوَّلاً ، وبتهيئتِه ثانياً ، ثمَّ بأكلِه ثالثاً ، ثمَّ بإفراغِه والتَّخلُّصِ منه رابعاً ، ثمَّ بالسَّلامةِ منه خامساً ، بأن تبدوَ منه آفةٌ في البدنِ ، بل آفاتٌ وعللٌ ، ولقد قالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « أصلُ كلِّ داءٍ البرَدَةُ ـ يعني التُّخَمةَ ـ وأصلُ كلِّ دواءٍ الأَزْمةُ »[1] يعني الجوعَ والحميةَ .

وعن مالكِ بنِ دينارٍ أنَّه كانَ يقولُ : يا هؤلاءِ ؛ لقدِ اختلفتُ إلى الخلاءِ حتَّى استحييتُ من ربِّي وملَكيَّ ، فيا ليتَ أنَّ اللهَ جعلَ رزقي في حصاةٍ أمصُّها حتَّىٰ أموتَ .

ثمَّ في هٰذه الجملةِ ؛ من طلبِ الدُّنيا ، والطَّمعِ في النَّاسِ ، وتضييعِ الوقتِ بسببِ كثرةِ الأكلِ ما لم يخفَ .

والثَّامنةُ : ما ينالُه من أمورِ الآخرةِ وشدَّةِ سكراتِ الموتِ ، رُويَ في الأخبارِ : أنَّ شدَّةَ سكراتِ الموتِ علىٰ قدرِ لذَّاتِ الحياةِ ، فمن أكثَرَ من هٰذه . . أكثَرَ له من تلك .

والتَّاسعةُ : نقصانُ الثَّوابِ في العقبىٰ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ الآيةَ .

فإنَّه بقدْرِ ما تأخذُ من لذَّاتِ الدُّنيا يَنقصُ لك من لذَّاتِ الآخرةِ ، ولهٰذا المعنىٰ [رُويَ] أنَّ اللهَ تعالىٰ لمَّا عرضَ الدُّنيا علىٰ نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ . . قالَ له : « ولا أنقصُك من آخرتِك شيئاً »[2] ، خصَّه بذلكَ ، فدلَّ

---

(١) قال الإمام مرتضى الزبيدي رحمه الله تعالىٰ في « إتحاف السادة المتقين » (٧/ ٤٠٠) : (رواه الخلال من حديث عائشة بلفظ : « الأزم دواء ، والمعدة بيت الداء ، وعودوا بدناً ما اعتاد ») ، وأما جزؤه الأول . . فقد أخرجه ابن عدي في « الكامل في ضعفاء الرجال » (٢/ ٨٣) و(٣/ ١١٤) .

(٢) حديث عرض الدنيا على النبي صلى الله عليه وسلم أخرجه الحاكم (٣/ ٥٥) ، والدارمي في « سننه » (٧٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما ، وأما الجزء الذي ذكره المصنف رحمه الله تعالىٰ . . فقد أخرجه بمعناه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٣٦) مرسلاً من قول الحسن في كتابه إلىٰ عمر بن عبد العزيز رحمهما الله تعالى .

علىٰ أنَّ لغيرِه النُّقصانَ ، إلاَّ أن يتفضَّلَ اللهُ عليه بذلكَ .

ولقد رُويَ : أنَّ خالدَ بنَ الوليدِ أضافَ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهما ، وهيَّأَ له طعاماً ، فقالَ عمرُ : (هـٰذا لنا ، فما للفقراءِ المهاجرينَ الَّذينَ ماتوا ولم يشبعوا من خبزِ شعيرٍ ؟) ، قالَ خالدٌ : (لهم الجنَّةُ يا أميرَ المؤمنينَ) ، فقالَ عمرُ: (لئن فازوا بالجنَّةِ ، وكانَ هـٰذا حظَّنا من الدُّنيا . . فقد بانوا منَّا بوناً مُبيناً) .

ورُويَ : أنَّ عمرَ رضيَ اللهُ عنه عطِشَ يوماً ، فدعا بماءٍ ، فأعطاه رجلٌ إداوةً فيها ماءٌ نُبذَ فيه تمراتٌ ، فلمَّا قرَّبَها عمرُ من فيه . . وجدَ الماءَ بارداً حلواً ، فأمسكَ وقالَ : أوَّهْ ، فقالَ الرَّجلُ : واللهِ ؛ ما ألَوْتُه حلاوةً يا أميرَ المؤمنينَ[١] ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنه : ذلك الَّذي منعني منه ، ويحكَ ! لولا الآخرةُ . . لشاركْناكم في عيشِكم .

والعاشرةُ : الحبسُ والحسابُ ، واللَّومُ والتَّعييرُ في تركِ الأدبِ في أخذِ الفضولِ وطلبِ الشَّهواتِ ؛ فإنَّ الدُّنيا حلالُها حسابٌ ، وحرامُها عقابٌ ، وزينتُها إلىٰ تبابٍ .

فهـٰذه جملةُ العشرةِ ، وفي إحداها كفايةٌ لمن نظرَ لنفسِه ، فعليكَ أيُّها المجتهدُ بالاحتياطِ البالغِ في القوتِ ؛ كي لا تقعَ في حرامٍ أو شبهةٍ فيلزمُكَ العذابُ ، ثمَّ بالاقتصارِ من الحلالِ علىٰ ما يكونُ عُدَّةً علىٰ عبادةِ اللهِ تعالى ؛ فلا تقعُ في شرٍّ فتبقىٰ في الحبسِ والحسابِ ، واللهُ سبحانَه وليُّ التَّوفيقِ .

فإن قلتَ : فبيِّنْ لنا أوَّلاً حكمَ الحرامِ والشُّبهةِ وحدَّهما .

فأقولُ : لعمرُ اللهِ لقد أشبعْنا القولَ فيه في « أسرارِ معاملاتِ الدِّينِ » ، وذكرْنا له كتاباً مفرداً في كتابِ « الإحياءِ »[٢] ، لـٰكنَّا نشيرُ إلىٰ كلماتٍ مفردةٍ بحيثُ تصلُ إلىٰ فهمِ الضَّعيفِ المبتدي ؛ إذ مقصودُ هـٰذا الكتابِ أن ينتفعَ به المبتدي في العبادةِ ، ويعينَ الطَّالبَ .

---

(١) **ما ألوته حلاوة** : لم أقصِّر في تحليته .

(٢) وهو (كتاب الحلال والحرام) ، كما سيبينه المصنف رحمه الله تعالىٰ (ص١٣٥) .

قالَ بعضُ العلماءِ : كلُّ ما تيقَّنتَ كونَه مِلْكاً للغيرِ ، منهيّاً عنه في الشَّرعِ فهو حرامٌ محضٌ ، وأمَّا إذا لم يكنْ لك يقينٌ بذلكَ ، ولـٰكنْ يغلبُ علىٰ ظنِّك أنَّه كذلكَ . . فهو شبهةٌ .

وقالَ آخرونَ : بلِ الحرامُ المحضُ ما يكونُ به علمٌ أو غالبُ ظنٍّ ؛ لأنَّ غلبةَ الظَّنِّ منَّا تجري مَجرى العلمِ في كثيرٍ من الأحكامِ ، فأمَّا إذا تساوتِ الأمارتانِ حتَّىٰ تبقىٰ شاكّاً ، لا يكونُ لأحدِهما ترجيحٌ عندَك . . فذلكَ شبهةٌ ، يشبهُ أنَّه حلالٌ ، ويشبهُ أنَّه حرامٌ ، فاشتبهَ أمرُه عليكَ ، والتبسَ حالُه .

ثمَّ الامتناعُ عن الَّذي هو حرامٌ محضٌ حتمٌ واجبٌ ، وعن الَّذي هو شبهةٌ تقوىٰ وورعٌ ، وهـٰذا أولى القولينِ عندَنا .

فإن قيلَ : فما تقولُ في قبولِ جوائزِ السَّلاطينِ في هـٰذا الزَّمانِ ؟

فاعلمْ : أنَّ العلماءَ اختلفوا فيه :

فقالَ قومٌ : كلُّ ما لا يَتيقَّنُ أنَّه حرامٌ فله أخذُه .

وقالَ آخرونَ : لا يحلُّ أن يأخذَ ما لا يَتحقَّقُ أنَّه حلالٌ ؛ لأنَّ الأغلبَ في هـٰذا العصرِ علىٰ أموالِ السَّلاطينِ الحرامُ ، والحلالُ في أيديهم معدومٌ عزيزٌ .

وقالَ قومٌ : إنَّ صلاتِ السَّلاطينِ تحِلُّ للغنيِّ والفقيرِ إذا لم يَتحقَّقْ أنَّها حرامٌ ، وإنَّما التَّبعةُ على المعطي ، قالوا : لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قبلَ هديَّةَ المُقوقِسِ ملِكِ الإسكندريَّةِ[1] ، واستقرضَ من اليهودِ مع قولِ اللهِ سبحانَه وتعالى : ﴿ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ .

قالوا : وقد أدركَ جماعةٌ من الصَّحابةِ أيَّامَ الظَّلمةِ وأخذوا منهم ، فمنهم : أبو هريرةَ ، وابْنُ عبَّاسٍ ، وابنُ عمرَ ، وغيرُهم ، رضوانُ اللهِ عليهم أجمعينَ .

---

(١) أهدىٰ للنبي صلى الله عليه وسلم عدة هدايا ، كما جاءت بذلك أحاديث عدة ، انظرها وتخريجها في « مجمع الزوائد » (٤/ ١٥٥ ـ ١٥٦) .

وقالَ آخرونَ : لا يحِلُّ من أموالِهم شيءٌ لغنيٍّ ولا لفقيرٍ ؛ إذ هم موسومونَ بالظُّلمِ ، والغالبُ علىٰ أموالِهم السُّحتُ والحرامُ ، والحكمُ للغالبِ ، فيلزمُ الاجتنابُ .

وقالَ آخرونَ : ما لا يتيقَّنُ أنَّه حرامٌ فهو حلالٌ للفقيرِ دونَ الغنيِّ ، إلاَّ أن يعلمَ الفقيرُ أنَّ ذلك عينُ الغصبِ ، فليسَ له أن يأخذَه إلاَّ ليردَّه علىٰ مالِكه ، ولا حرجَ على الفقيرِ أن يأخذَ من أموالِ السُّلطانِ ؛ لأنَّها إن كانتْ مِلكَ السُّلطانِ فأعطى الفقيرَ . . فله أخذُه بلا ريبٍ ، وإن كانتْ من فيءٍ أو خراجٍ أو عشرٍ . . فللفقيرِ فيه حقٌّ ، وكذلك لأهلِ العلمِ ، قالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه : (من دخل الإسلامَ طائعاً ، وقرأَ القرآنَ ظاهراً[1] . . فله في بيتِ مالِ المسلمينَ كلَّ سنةٍ مئتا درهمٍ ـ ورُويَ مئتا دينارٍ ـ إن لم يأخذْها في الدُّنيا . . أخذَها في الآخرةِ) .

وإذا كانَ كذلكَ . . فالفقيرُ والعالمُ يأخذانِ من حقِّهما .

قالوا : وإذا كانَ المالُ مختلطاً بمالٍ مغصوبٍ ولا يمكنُ تمييزُه ، أو غصباً لا يمكنُ ردُّه علىٰ صاحبِه وذرِّيَّتِه . . فلا مخلصَ للسُّلطانِ منه إلاَّ أن يتصدَّقَ به ، وما كانَ اللهُ ليأمرَه بالصَّدقةِ على الفقيرِ وينهى الفقيرَ عن قبولِها ، أو يأذنَ للفقيرِ في القبولِ وهو عليه حرامٌ ، فإذنْ للفقيرِ أن يأخذَ إلاَّ عينَ الغصبِ والحرامِ فليسَ له أخذُه .

وهـٰذه المسائلُ لا يمكنُ الفتوىٰ فيها إلاَّ ببسطٍ وتشقيقٍ[2] ، وٱستيعابُ القولِ فيها يخرجُ عن المقصودِ من الكتابِ ، فإن أردتَ معرفتَها . . فطالعْ (كتابَ الحلالِ والحرامِ) من كتابِ « إحياءِ علومِ الدِّينِ » تجدْه مشروحاً مبيَّناً إن شاءَ اللهُ تعالى .

فإن قيلَ : فما تقولُ في صِلاتِ أهلِ السُّوقِ وغيرِهم ، هل يلزمُ ردُّها

---

(١) **ظاهراً** : عن ظهر قلب .

(٢) **تشقيق** : تفصيل .

والبحثُ عنها وقد عُلمَتْ مجازفتُهم وقلَّةُ نظرِهم في معاملاتِهم ، وكذلكَ صلاتُ الإخوانِ ؟

فالجوابُ : أنَّه إذا كانَ ظاهرُ الإنسانِ الصَّلاحَ والسَّترَ . . فلا حرجَ عليكَ في قبولِ صلتِه وصدقتِه ، ولا يلزمُ البحثُ عنها بأن تقولَ : قد فسدَ الزَّمانُ ؛ فإنَّ هٰذا سوءُ ظنٍّ بذلكَ الرَّجلِ المسلمِ ، بل حسنُ الظَّنِّ بالمسلمينَ مأمورٌ به .

ثمَّ اعلمْ : ما هو الأصلُ في هٰذا البابِ ، وهو أنَّ هٰهنا شيئينِ :

أحدُهما : حكمُ الشَّرعِ وظاهرُه .

والثَّاني : حكمُ الورعِ وحقُّه .

فحكمُ الشَّرعِ : أن تأخذَ ما أتاك ممَّن ظاهرُه صلاحٌ ولا تسألْ إلاَّ أن تتيقَّنَ أنَّه غصبٌ أو حرامٌ بعينِه .

وحكمُ الورعِ : ألاَّ تأخذَ شيئاً من أحدٍ حتَّىٰ تبحثَ عنه غايةَ البحثِ ، وتستقصيَ غايةَ الاستقصاءِ ، فتستيقنَ أنَّه لا شبهةَ فيه بحالٍ ، وإلاَّ . . فتردُّه .

فلقد روينا عن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضيَ اللهُ عنه : أنَّ غلاماً له أتاه بلبنٍ فشربَه ، فقالَ الغلامُ : كنتَ إذا جئتُك بشيءٍ . . تسألُني عنه ، ولِمَ لم تسألْني عن هٰذا اللَّبنِ ؟ فقالَ : (وما قصَّتُه ؟) ، قالَ : رقَيْتُ قوماً في الجاهليَّةِ فأعطوني هٰذا ، فتقيَّأَ أبو بكرٍ وقالَ : (اللَّهمَّ ؛ هٰذه مقدرتي ، فما بقيَ في العروقِ فأنت حسبُه)[1] .

فهٰذا يدلُّك علىٰ وجوبِ البحثِ عمَّا تَقدُمُ عليه إن كانَ لك نظرٌ في الورعِ وحقِّه ، فهٰذه هٰذه .

فإن قلتَ : فكأنَّ الورعَ يخالفُ الشَّرعَ وحكمَه .

فاعلمْ : أنَّ الشَّرعَ موضوعٌ على اليسرِ والسَّماحةِ ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١ / ٣١) .

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « بُعثتُ بالحنيفيَّةِ السَّمحةِ »[1] ، والورعَ موضوعٌ على التَّشديدِ والاحتياطِ ، كما قيلَ : الأمرُ على المتَّقي أضيقُ من عقدِ التِّسعينَ[2] .

ثمَّ الورعُ من الشَّرعِ أيضاً ، وكلاهما في الأصلِ واحدٌ ، ولـٰكنْ للشَّرعِ حكمانِ : حكمُ الجوازِ ، وحكمُ الأفضلِ الأحوطِ ، فالجائزُ يقال لهُ حكمُ الشَّرعِ ، والأفضلُ الأحوطُ يقالُ له حكمُ الورعِ ، فهما مع تميُّزِهما واحدٌ في الأصلِ ، فافهمْ ذلك راشداً .

فإن قلتَ : إذا جازَ البحثُ والاستقصاءُ عن كلِّ شيءٍ . . فسدَ علينا ما نأخذُه في هـٰذا الزَّمانِ ، وتعذَّرَ الأمرُ بمرَّةٍ علىٰ صاحبِ الورعِ ؛ إذ لا بدَّ له من بلاغٍ يبلِّغُه إلى الطَّاعةِ .

فاعلمْ : أنَّ طريقَ الورعِ شديدٌ ، وأنَّ من قصدَ سلوكَه . . فشرطُه : أن يوطِّنَ نفسَه وقلبَه على احتمالِ الشِّدَّةِ ، وإلاَّ . . فلا يتمُّ له ذلك ، ولهـٰذا المعنىٰ صارَ الكثيرُ من أهلِ الورعِ والسَّابقونَ إلىٰ جبلِ لُبنانَ وغيرِه ، فاقتصروا علىٰ أكلِ الحشيشِ وثمراتٍ تافهةٍ لا شبهةَ فيها بحالٍ ، فمن سمتْ همَّتُه إلىٰ نيلِ منزلةِ الورعِ الأعلى . . فعليه أن يحتملَ الشَّدائدَ ويصبرَ عليها ، ويسلُكَ طريقَ أولئكَ لينالَ منزلتَهم ، وأمَّا إن أقامَ بينَ النَّاسِ ، وأكلَ ممَّا يتداولونَه في أيديهم . . فليكنْ عندَه بمنزلةِ الميتةِ لا يقدمُ عليها إلاَّ عندَ الضَّرورةِ ، ثمَّ لا يتناولُ منها إلاَّ مقدارَ ما يبلِّغُه إلى الطَّاعةِ ، فيكونُ له عذرٌ في ذلك ، ولا يضرُّه إن كانَ في أصلِه شبهةٌ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ أولىٰ بالعذرِ ، ولهـٰذا قالَ الحسنُ البصريُّ رحمَه اللهُ تعالى : فسدَ السُّوقُ ، فعليكم بالقوتِ .

ولقد بلغني عن وهيبِ بنِ الوردِ رحمَه اللهُ أنَّه كانَ يجوِّعُ نفسَه يوماً ويومينِ وثلاثةً ، ثمَّ يأخذُ رغيفاً ويقولُ : اللَّهمَّ ؛ إنَّك تعلمُ أنِّي لا أقوىٰ على العبادةِ وأخشى الضَّعفَ ، وإلاَّ . . لم آكلْه ، اللَّهمَّ ؛ إن كانَ فيه شيءٌ من خبثٍ أو

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٦٦) ، والروياني في « مسنده » (١٢٧٩) ، والطبراني في « الكبير » (٨/٢١٦) عن أبي أمامة رضي الله عنه .

(٢) هيئة عقد التسعين : أن يثني السبابة حتىٰ يعود طرفها عند أصلها من الكف ، ويعطف الإبهام عليها .

حرامٍ . . فلا تؤاخذْني به ، ثمَّ يبلُّ الرَّغيفَ في الماءِ ويأكلُه .

قلتُ : فهـٰذانِ الطَّريقانِ للطَّبقةِ العليا من أهلِ الورعِ فيما نعلمُه ، وأمَّا من دونَهم . . فلهم احتياطٌ وبحثٌ علىٰ مقدارٍ ، ولهم أيضاً نصيبٌ من الورعِ علىٰ مقدارٍ ، وبقدرِ ما تتعنَّىٰ تنالُ ما تتمنَّى ، واللهُ تعالىٰ لا يضيعُ أجرَ من أحسنَ عملاً ، وهو عليمٌ بما يفعلونَ .

فإن قيلَ : فهـٰذا جانبُ الحرامِ ، فأخبرْنا عن جانبِ الحلالِ ، وما حدُّ الفضولِ الَّذي يلزمُ منه الحبسُ والحسابُ ؟ وما المقدارُ الَّذي إذا أخذَه العبدُ . . يكونُ ذلك أدباً ولا يكونُ فضولاً ، ولا عليه فيه حبسٌ ولا حسابٌ ؟

يُقالُ له : فاعلمْ : أنَّ أحوالَ المباحِ في الجملةِ ثلاثةُ أقسامٍ :

أحدُها : أن يأخذَه العبدُ مفاخراً مكاثراً ، مباهياً مرائياً ، فيكونُ الأخذُ منه فعلاً منكراً ، يستوجبُ علىٰ ظاهرِ فعلِه الحبسَ والحسابَ ، واللَّومَ والتَّعييرَ ، وهو منكرٌ وشرٌّ يستوجبُ علىٰ باطنِ فعلِه ـ وهو التَّكاثرُ والتَّفاخرُ ـ عذابَ النَّارِ ، وذلك القصدُ منه معصيةٌ وذنبٌ ؛ لقولِه تعالى : ﴿ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ ﴾ إلىٰ قولِه : ﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « من طلبَ الدُّنيا حلالاً مباهياً ، مكاثراً مفاخراً مرائياً . . لقيَ اللهَ تعالىٰ وهو عليه غضبانُ »[1] ، فالوعيدُ علىٰ قصدِه ذلك بقلبِه .

والقسمُ الثَّاني : أن يأخذَ الحلالَ لشهوةِ نفسِه لا غيرُ ، فذلكَ منه شرٌّ يستوجبُ عليه الحبسَ والحسابَ ؛ لقولِه تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « الدُّنيا حلالُها حسابٌ ، وحرامُها عقابٌ »[2] .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٥/٢٥٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٨٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/١٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الديلمي في « مسند الفردوس » (٥٨٣٠) ، والأزدي في « طبقات الصوفية » (١/٦٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

والقسمُ الثَّالثُ : أن يأخذَ من الحلالِ في حالِ العذرِ قدْراً يستعينُ به علىٰ عبادةِ اللهِ تعالى ، ويقتصرَ علىٰ ذلك ، فذلكَ منه خيرٌ وحسنةٌ وأدبٌ ، فلا حسابَ عليه ولا عقابَ ، بل يستوجبُ عليه الأجرَ والمدحةَ ؛ لقولِه تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « من طلبَ الدُّنيا حلالاً ؛ ٱستعفافاً عن المسألةِ ، وتعطُّفاً علىٰ جارِه ، وسعياً علىٰ عيالِه . . جاءَ يومَ القيامةِ ووجهُه كالقمرِ ليلةَ البدرِ »[1] ، وذلك لمَّا قصدَ به هٰذه القصودَ المحمودةَ للهِ سبحانَه ، فهٰذه هٰذه فاعلمْها .

فإن قيلَ : فما شرطُ المباحِ حتَّىٰ يصيرَ خيراً وحسنةً كما ذكرتم ؟

فاعلمْ : أنَّه يحتاجُ لكونِه خيراً في الأصلِ إلىٰ شرطينِ :

أحدُهما : الحالُ .

والثَّاني : القصدُ .

فالحالُ : يجبُ أن يكونَ في حالِ عذرٍ ، وهو بحيثُ إن لم يأخذْه تُؤخَذْ نفسُه[2] ، وتفسيرُه : أن يكونَ حالُه إن لم يأخذْ ذلك المباحَ . . ينقطعْ بسببِه عن فرضٍ أو سنَّةٍ أو نفلٍ ، فيكونُ ذلك أفضلَ من تركِ المباحِ ؛ فإنَّ تركَ مباحِ الدُّنيا فضيلةٌ ، وإذا كانَ الحالُ كذلكَ . . فهو حالُ العذرِ .

وأمَّا القصدُ : فأن يقصدَ به العُدَّةَ والاستعانةَ علىٰ عبادةِ اللهِ سبحانَه وتعالى ، وهو أن يذكرَ بقلبِه : أنَّه لولا ما فيه من التَّوصُّلِ إلىٰ عبادةِ اللهِ تعالى . . لمَا أخذتُ ذلك ، فهٰذا ذكرُ الحجَّةِ ، فلمَّا حصلَ ذكرُ الحجَّةِ في حالِ العذرِ . . صارَ ذلك الأخذُ من الدُّنيا الحلالِ خيراً وحسنةً وأدباً .

وأمَّا لو كانَ حالُه حالَ العذرِ ولا يكونُ له هٰذا القصدُ والذِّكرُ ، أو يكونُ له

---

(١) هو تتمة للحديث الذي تقدم قريباً ، وهو : « من طلب الدنيا حلالاً مباهياً . . . » .

(٢) في (أ) : (يؤاخَذْ عند الله تعالىٰ) .

هـٰذا القصدُ والذِّكرُ ولا يكونُ في حالِ العذرِ . . فلا يصيرُ ذلك الأخذُ من جملةِ الخيراتِ .

ثمَّ الاستقامةُ علىٰ حفظِ هـٰذا الأدبِ تحتاجُ إلىٰ بصيرةٍ وقصدٍ مجمَلٍ بأنَّه لا يأخذُ من الدُّنيا بحالٍ إلاَّ للعُدَّةِ علىٰ عبادةِ اللهِ تعالى ، حتَّىٰ إنَّه إن سها عن ذكرِ الحجَّةِ في حالٍ . . أجزأَه ذلك القصدُ المجمَلُ عن تجديدِ ذكرِ الحجَّةِ .

قالَ شيخُنا رحمَه اللهُ تعالى : فصارتِ الأمورُ الثَّلاثةُ معتبَرةً فيه[1] ، كلٌّ واحدٍ من وجهٍ ؛ يعني : أنَّ الذِّكرَ والحالَ معتبرانِ في حصولِ كونِه خيراً أصلاً ، والقصدُ المجمَلُ المقتضي عن بصيرةٍ منزلةَ الأدبِ معتبرٌ في الاستقامةِ عليه ، فافهمْ ذلك راشداً .

فإن قيلَ : فإن أخذَ من الدُّنيا الحلالَ لشهوةٍ . . فهل يكونُ ذلك معصيةً ؟ وهل يلزمُه عليه عذابٌ ؟ وهل الأخذُ بالعذرِ فرضٌ أم لا ؟

فاعلمْ : أنَّ ذلك فضيلةٌ ، ونسمِّيه خيراً وحسنةً ، والأمرُ به أمرُ تأديبٍ ، والأخذُ بالشَّهوةِ شرٌّ وسيِّئةٌ ، والنَّهيُ عنه نهيُ زجرٍ وأدبٍ ، وليسَ ذلك بمعصيةٍ ، ولا يكونُ عليه عذابُ النَّارِ ، وإنَّما عليه الحبسُ والحسابُ ، واللَّومُ والتَّعييرُ .

فإن قلتَ : فما هـٰذا الحبسُ والحسابُ الَّذي يلزمُ العبدَ ؟

فاعلمْ : أنَّ الحسابَ أن تُسألَ يومَ القيامةِ عن ماذا ٱكتسبتَ ؟ وفي ماذا أنفقتَ ؟ وماذا أردتَ بذلكَ ؟ والحبسُ حبسٌ عن الجنَّةِ مدَّةَ الحسابِ بذلكَ في عرَصاتِ القيامةِ بينَ أهوالِها ومخاوفِها عُريانَ عطشانَ ، وكفىٰ بذلكَ بليَّةً .

فإن قيلَ : فاللهُ سبحانَه قد أحلَّ لنا هـٰذا الحلالَ ، فاللَّومُ والتَّعييرُ في أخذِه لماذا ؟

فاعلمْ : أنَّ اللَّومَ والتَّعييرَ لتركِه الأدبَ ، كمن أُجلِسَ علىٰ مائدةِ الملِكِ فتركَ الأدبَ ، فإنَّه يُعيَّرُ بذلكَ ويُلامُ وإن كانَ الطَّعامُ له مباحاً .

---

(١) **الأمور الثلاثة هي** : حال العذر ، القصد وذكر الحجة ، البصيرة والقصد المجمل .

والأصلُ في هـٰذا البابِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ العبدَ لعبادتِه ، فهو عبدُ اللهِ تعالىٰ من كلِّ وجهٍ ، فحقَّ للعبدِ أن يعبدَ اللهَ تعالىٰ من كلِّ وجهٍ يمكنُه ، ويجعلَ أفعالَه كلَّها عبادةً من أيِّ وجهٍ أمكنَه ، فإن لم يفعلْ ذلك وآثرَ شهوةَ نفسِه ، واشتغلَ بذلكَ عن عبادةِ ربِّه ، مع تمكُّنِه من ذلك من غيرِ تعذُّرٍ ، والدَّارُ دارُ خدمةٍ وعبادةٍ ، لا دارُ تنعُّمٍ وشهوةٍ . . استحقَّ اللَّومَ بذلكَ والتَّعييرَ من سيِّدِه ، فتأمَّلْ هـٰذا الأصلَ راشداً ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيمِ .

فهـٰذه الجملةُ الَّتي أردنا بيانَها في إصلاحِ النَّفسِ وإلجامِها بلجامِ التَّقوى ، فأْرعَها حقَّها ، واحتفظْ بها جدّاً تفزْ بالخيرِ الكثيرِ في الدَّارينِ إن شاءَ اللهُ تعالى ، واللهُ وليُّ التَّوفيقِ والعصمةِ بفضلِه .

فَصْلٌ
[في بيان معالجة الدنيا والشيطان والخلق والنفس]

فعليكَ ـ أيُّها الرَّجلُ ـ ببذلِ المجهودِ في قطعِ هـٰذه العقبةِ العظيمةِ الطَّويلةِ ؛ فإنَّها أعظمُ العقباتِ شدَّةً ، وأكثرُها مؤونةً ، وأكبرُها آفةً وفتنةً ؛ فإنَّ من هلكَ من الخلقِ كلِّهم إنَّما انقطعوا عن طريقِ الحقِّ : إمَّا بسببِ دنيا ، أو خَلْقٍ ، أو شيطانٍ ، أو نفْسٍ ، ولقد ذكرْنا في كتبِنا المصنَّفةِ من كتابِ « الأسرارِ » و« الإحياءِ » و« القربةِ » ما يبعثُ على الاهتمامِ بذلكَ .

ومقصودُ هـٰذا الكتابِ : أنِّي سألتُ اللهَ تعالىٰ أن يُطلعَني علىٰ سرِّ معالجةِ النَّفْسِ ، وأن يُصلحَني ويُصلحَ بي ، فاقتصرتُ في هـٰذا الكتابِ الشَّريفِ علىٰ نكتٍ وجيزةِ اللَّفظِ ، غزيرةِ المعنى ، تُقنعُ من تأمَّلَها ، وتدَعُه علىٰ واضحةٍ من الطَّريقِ إن شاءَ اللهُ تعالى ، وهـٰذا الفصلُ يختصُّ بنكتٍ في معالجةِ الدُّنيا والخلقِ والشَّيطانِ والنَّفْسِ .

أمَّا الدُّنيا : فحقَّ لك أن تحذرَها وتزهدَ فيها ؛ لأنَّ الأمرَ لا يخلو من ثلاثةٍ :

إمَّا أنت من ذوي البصائرِ والفطنِ ، فحسبُك أنَّ الدُّنيا عدوَّةُ اللهِ سبحانَه ،

وهو حبيبُك ووليُّك ، وأنَّ الدُّنيا نقيصةُ عقلِك ، والعقلُ قيمتُك .

وإمَّا أنت من ذوي الهممِ في عبادةِ اللهِ تعالىٰ والاجتهادِ ، فحسبُك أنَّ الدُّنيا بلغَ من شؤمِها ما يمنعُك من إرادتِها ، وتشغلُك الفكرةُ فيها عن العبادةِ والخيرِ ، فكيف نفسُها ؟

وإمَّا أنت من أهلِ الغفلةِ لا بصيرةَ لك تبصرُ الحقائقَ ، ولا همَّةَ لك تبعثُ على المكارمِ ، فحسبُك أنَّ الدُّنيا لا تبقى ؛ إمَّا أن تفارقَها ، وإمَّا أن تفارقَك ، كما قالَ الحسنُ رضيَ اللهُ عنه : إن بقيتْ لك الدُّنيا . . لم تبقَ لها .

فأيُّ فائدةٍ إذنْ في طلبِها ، وإنفاقِ العمرِ العزيزِ عليها ؟! ولقد أحسنَ القائلُ : [من الوافر]

هبِ ٱلدُّنيا تُساقُ إليك عفواً ... أليسَ مصيرُ ذاك إلىٰ زوالِ ؟!
فما ترجو بعيشٍ ليسَ يبقى ... وشيكاً قد تغيِّرُه اللَّيالي
وما دنياك إلاَّ مثلَ ظلٍّ ... أظلَّك ثمَّ آذنَ بارتحالِ [1]

فلا ينبغي لعاقلٍ إذنْ أن يُخدَعَ بها ، ولقد صدقَ القائلُ فيما قالَ : [من الكامل]

أحلامُ نومٍ أو كظلٍّ زائلٍ ... إنَّ اللَّبيبَ بمثلِها لا يُخدعُ
حتَّىٰ متىٰ تُسقى النُّفوسُ بكأسِها ... ريبَ المنونِ وأنت لاهٍ ترتعُ ؟ [2]

وأمَّا الشَّيطانُ : فحسبُك فيه ما قالَ اللهُ تعالىٰ لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ .

فهٰذا خيرُ العالمينَ وأعلمُهم ، وأعقلُهم وأفضلُهم عندَ اللهِ تعالىٰ يحتاجُ مع ذلك إلىٰ أن يستعيذَ باللهِ من شرِّ الشَّيطانِ ، فكيف بك مع جهلِك ونقصِك وغفلتِك ؟!

وأمَّا الخلقُ : فحسبُك فيهم أنَّك لو خالطتَهم ووافقتَهم في أهوائِهم . . أثمتَ

---

(١) البيتان الأولان لأبي العتاهية . انظر « ديوانه » (ص ١٩٨) .
(٢) البيتان لعمران بن حِطَّان السدوسي ، أخرجهما ابن حبّان في « روضة العقلاء » (ص ٢٨٦) .

وأفسدتَ أمرَ آخرتِك ، وإن خالفتَهم . . تعبتَ بأذيَّاتِهم وجفواتِهم ، وكدَّرت عليكَ أمرَ دنياك ، ثمَّ لا تأمنُ أن يلجئوك إلىٰ معاداتِهم ومناوأتِهم فتقعُ في شرِّهم ، ولأنَّهم إن مدحوك وعظَّموك . . أخافُ عليكَ الفتنةَ والعُجبَ ، وإن ذمُّوك وحقَّروك . . أخافُ عليكَ الحزنَ تارةً ، والغضبَ لغيرِ اللهِ تعالىٰ أخرى ، وكِلا الأمرينِ آفةٌ مهلكةٌ .

ثمَّ اذكرْ حالَك معهم بعدَ ما صرتَ إلى القبرِ بثلاثةِ أيَّامٍ كيف يتركونَك ويهجرونَك وينسونَك ، فلا يكادونَ يذكرونَك ، كأنَّك لم ترَهم يوماً ولم يروك ، فلا يبقىٰ لك هنالكَ إلاَّ اللهُ تعالى ، أفلا يكونُ من الغبنِ العظيمِ أن تضيِّعَ أيَّامَك مع هؤلاءِ الخلقِ ، مع قلَّةِ الوفاءِ وقلَّةِ البقاءِ معهم ، وتترُكَ خدمةَ اللهِ تعالى الَّذي يرجعُ إليه آخرُ الأمرِ وحدَه ، ولا يبقىٰ لك إلاَّ هو أبدَ الآبدينَ ، والحاجاتُ كلُّها إليه ، والتُّكلانُ كلُّه عليه ، والاعتصامُ كلُّه في كلِّ حالٍ وعندَ كلِّ شدَّةٍ وهولٍ به وحدَه لا شريكَ له ؟ فتأمَّلْ يا مسكينُ ؛ لعلَّكَ تُرشَدُ إن شاءَ اللهُ تعالى ، واللهُ وليُّ الهدايةِ والتَّوفيقِ بفضلِه .

وأمَّا النَّفسُ : فحسبُك ما تشاهدُ من حالاتِها ، ورداءةِ إرادتِها ، وسوءِ اختيارِها ، فهي في حالِ الشَّهوةِ بهيمةٌ ، وفي حالِ الغضبِ سبُعٌ ، وفي حالِ المصيبةِ تراها طفلاً ، وفي حالِ النِّعمةِ تراها فرعوناً ، وفي حالِ الجوعِ تراها مجنوناً ، وفي حالِ الشِّبعِ تراها مختالاً ، إن أشبعتَها . . بطِرتْ ومرِحتْ ، وإن جوَّعتَها . . صاحتْ وجزِعتْ ، فهي كما قالَ الأوَّلُ : [من الرمل]

كحمـــارِ السُّـــوءِ إن أشبعتَـــه رمـحَ النَّـاسَ وإن جـاعَ نهـقْ [1]

ولقد صدقَ بعضُ الصَّالحينَ حيثُ قالَ : إنَّ رداءةَ هـٰذه النَّفسِ وجهلَها بحيثُ إذا همَّتْ بمعصيةٍ أو انبعثتْ لشهوةٍ . . لو تشفَّعتَ إليها باللهِ سبحانَه ثمَّ برسولِه ، وبجميعِ أنبيائِه وبكتابِه ، وبجميعِ السَّلفِ الصَّالحِ من عبادِه ، وتعرضُ

(١) البيت لمسكين الدارمي . انظر « الحيوان » (٦/ ٤٩٤) ، و« بهجة المجالس » (١/ ١٠٤) .

عليها الموتَ والقبرَ ، والقيامةَ والجنَّةَ والنَّارَ . . لا تعطي القيادَ ، ولا تتركُ الشَّهوةَ ، ثمَّ إن استقبلتَها بمنعِ رغيفٍ . . تسكنُ وتتركُ شهوتَها ، لتعلمَ خسَّتَها وجهلَها ، فإيَّاك أيُّها الرَّجلُ أن تغفُلَ عنها ؛ فإنَّها كما قالَ خالقُها العالمُ بها جلَّ جلالُه : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ ، فكفىٰ بهـٰذا تنبيهاً لمن عقلَ .

ولقد بلغَنا عن رجلٍ من الصَّالحينَ يقالُ له أحمدُ بنُ أرقمَ البلخيُّ رحمَه اللهُ أنَّه قالَ : نازعَتْني نفسي بالخروجِ إلى الغزوِ ، فقلتُ : سبحانَ اللهِ ! إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ وهـٰذه تأمُرني بالخيرِ ؟ لا يكونُ هـٰذا أبداً ، ولـٰكنَّها استوحشتْ فأرادتْ لقاءَ النَّاسِ لتستروحَ إليهم ، ويتسامعَ النَّاسُ بها ، فيستقبلونَها بالتَّعظيمِ والبرِّ والإكرام ، فقلتُ لها : لا أُنزلُكِ العمرانَ ، ولا أُنزلكِ علىٰ معرفةٍ ، فأجابتْ ، فأسأتُ الظَّنَّ بها ، وقلتُ : اللهُ تعالىٰ أصدقُ ، فقلتُ لها : أقاتلُ العدوَّ حاسراً فتكونينَ أوَّلَ قتيلٍ ، فأجابتْ ، وعدَّ أشياءَ ممَّا أرادَها فأجابتْ إلىٰ كلِّ ذلك ، قالَ : فقلتُ : يا ربِّ ؛ نبِّهْني لها ؛ فإنِّي متَّهمٌ لها ، مصدِّقٌ لك ، فكوشفتُ بها كأنَّها تقولُ : يا أحمدُ ؛ أنت تقتلُني كلَّ يومٍ بمنعك إيَّايَ من شهواتي مرَّاتٍ وبمخالفتِك ولا يشعرُ به أحدٌ ، فإن قاتلتَ . . قُتِلتَ مرَّةً واحدةً فنجوتُ منك ، ويتسامعُ النَّاسُ ، فيقالُ : ٱستُشهدَ أحمدُ ، ويكونُ لي شرفٌ وذكرٌ ، قالَ : فقعدتُ ولم أخرجْ إلى الغزوِ في ذلك العامِ .

فانظرْ إلىٰ خداعِ النَّفسِ وغرورِها ، ترائي النَّاسَ بعدَ الموتِ بعملٍ لم يكنْ بعدُ .

ولقد صدقَ القائلُ فأحسنَ : [من البسيط]

تـوقَّ نفسَـك لا تـأمـنْ غـوائلَهـا فالنَّفسُ أخبثُ من سبعينَ شيطانا

فتنبَّهْ ـ رحمَك اللهُ ـ لهـٰذه الخدَّاعةِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ ، ووطِّنْ علىٰ مخالفتِها قلبَك بكلِّ حالٍ تُصِبْ وتسلمْ إن شاءَ اللهُ تعالى ، ثمَّ عليكَ بإلجامِها بالتَّقوىٰ لا حيلةَ لها سواه .

واعلمْ : أنَّ هـٰهنا أصلاً أصيلاً ، وهو أنَّ العبادةَ شطرانِ : شطرُ الاكتسابِ ،

وشطرُ الاجتنابِ ؛ فالاكتسابُ : فعلُ الطَّاعاتِ ، والاجتنابُ : الامتناعُ عن المعاصي والسَّيِّئاتِ ، وهو التَّقوى ، وإنَّ شطرَ الاجتنابِ علىٰ كلِّ حالٍ أسلمُ وأصلحُ ، وأفضلُ وأشرفُ للعبدِ من شطرِ الاكتسابِ ، ولذلكَ يشتغلُ المبتدئونَ من أهلِ العبادةِ الَّذينَ هم في أوَّلِ درجةِ الاجتهادِ بشطرِ الاكتسابِ ، كلُّ همَّتِهم أن يصوموا نهارَهم ، ويقوموا ليلَهم ، ونحوُ ذلك ، ويشتغلُ المنتهونَ أولو البصائرِ من أهلِ العبادةِ بشطرِ الاجتنابِ ، إنَّما همَّتُهم أن يحفظوا قلوبَهم عن الميلِ إلىٰ غيرِ اللهِ تعالى ، وبطونَهم عن الفضولِ ، وألسنتَهم عن اللَّغوِ ، وأعينَهم عن النَّظرِ إلىٰ ما لا يعنيهم .

ولهٰذا المعنىٰ قالَ العابدُ الثَّاني من العبَّادِ ـ وكانوا سبعةً ـ ليونسَ عليه السَّلامُ : يا يونسُ ؛ من النَّاسِ من حُبِّبَ إليهم الصَّلواتُ فلا يؤثرونَ عليها شيئاً ، وهي عمودُ العبادةِ بالثَّباتِ للهِ تعالىٰ والصِّدقِ والتَّضرُّعِ والابتهالِ ، ومنهم من حُبِّبَ إليهم الصَّومُ فلا يؤثرونَ عليه شيئاً ، ومنهم من حُبِّبَ إليهم الصَّدقةُ فلا يؤثرونَ عليها شيئاً .

يا يونسُ ـ وأنا مفسِّرٌ لك هٰذه الخصالَ ـ اجعلْ طولَ صلاتِك الصَّبرَ على البأساءِ ، والتَّسليمَ لأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، واجعلْ صومَك الصَّمتَ عن كلِّ سوءٍ ، واجعلْ صدقتَك كفَّ الأذى ؛ فإنَّك لا تتصدَّقُ بشيءٍ أفضلَ منه ، ولا تصومُ بشيءٍ أزكىٰ منه .

فإذا علمتَ أنَّ جانبَ الاجتنابِ أولىٰ بالرِّعايةِ والاجتهادِ فيه ؛ فإن حصلَ لك الشَّطرانِ جميعاً ـ الاكتسابُ والاجتنابُ ـ فقدِ استكملَ أمرُك ، وحصلَ مرادُك ، وقد سلمتَ وغنمتَ، فإن لم تبلغْ إلاَّ إلىٰ أحدِهما . . فليكنْ ذلك جانبَ الاجتنابِ، فتسلمُ إن لم تغنمْ ، وإلاَّ . . خسرتَ الشَّطرينِ جميعاً ، وما ينفعُك قيامُ ليلٍ وتعبُه ، ثمَّ يحبطُ بإرادةٍ واحدةٍ ، وما يغنيك صيامُ نهارٍ طويلٍ ، ثمَّ تفسدُه بكلمةٍ واحدةٍ .

ولقد روينا عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما أنَّه قيلَ له : ما تقولُ في رجلينِ

أحدُهما كثيرُ الخيرِ ، كثيرُ الشَّرِّ ، والآخرُ قليلُ الخيرِ ، قليلُ الشَّرِّ ؟ قالَ : (لا أعدلُ بالسَّلامةِ شيئاً)[١] .

ومثالُ ما قلناه : حالُ المريضِ ، وذلك أنَّ معالجةَ المريضِ نصفانِ : نصفٌ هو الدَّواءُ ، ونصفٌ هو الاحتماءُ ، فإن اجتمعا معاً . . فكأنَّك بالمريضِ قد برئَ وصحَّ ، وإلاَّ . . فالاحتماءُ به أولى ؛ إذ لا ينفعُ دواءٌ مع تركِ الاحتماءِ ، ولقد ينفعُ الاحتماءُ مع تركِ الدَّواءِ .

ولقد قالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « أصلُ كلِّ دواءٍ الحِمية »[٢] ، والمعنيُّ بها واللهُ أعلمُ: أنَّها تغني عن كلِّ دواءٍ ، ولذا يقالُ : إنَّ أهلَ الهندِ جلُّ معالجتِهم الحميةُ بمنعِ المريضِ عن الأكلِ والشُّربِ والكلامِ عدَّةَ أيَّامٍ ، فيبرأُ ويصحُّ بذلكَ لا غيرُ .

فتبيَّنَ لك بهٰذه الجملةِ أنَّ التَّقوىٰ ملاكُ الأمرِ وجوهرُه ، وأهلُها هم الطَّبقةُ العليا من العبَّادِ ، فعليكَ ببذلِ المجهودِ في ذلك وصرفِ كلِّ العنايةِ إليه ، واللهُ سبحانَه وليُّ التَّوفيقِ .

فَصْلٌ
[في رعاية العين واللسان والبطن والقلب]

ثمَّ راعِ هٰذه الأعضاءَ الأربعةَ الَّتي هي الأصولُ :

الأوَّلُ : العينُ ، وحسبُك فيها أنَّ مدارَ أمرِ الدِّينِ والدُّنيا على القلبِ ، وأنَّ خطرَ القلبِ وشغلَه وفسادَه في الأكثرِ من العينِ ، ولذلكَ قالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنه : (من لم يملكْ عينَه . . فليسَ للقلبِ عندَه قيمةٌ) .

والثَّاني : اللِّسانُ ، وحسبُك أنَّ فيه ربحَك وغنيمتَك وثمرةَ تعبك واجتهادِك كلِّه للعبادةِ والطَّاعةِ ، وأنَّ خطرَ العبادةِ وإحباطَها وإفسادَها في الأكثرِ من قِبَلِ اللِّسانِ ، بالتَّصنُّعِ والتَّزيُّنِ والغيبةِ ونحوِها ، يُتلفُ عليكَ بلحظةٍ واحدةٍ ما تعبتَ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٨/ ١٩٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٩٢٧) .
(٢) تقدم تخريجه (ص ١٣٢) .

فيه سنةً ، بل خمساً وعشراً ، ولذلكَ قيلَ : (ما شيءٌ أحقَّ بطولِ السِّجنِ من اللِّسانِ)[1] .

وفيما رُويَ : أنَّ أحدَ العبَّادِ السَّبعةِ قالَ ليونسَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : يا يونسُ ؛ إنَّ العبَّادَ إذا اجتهدوا في العبادةِ . . لم يتقوَّوا علىٰ عبادتِهم بشيءٍ أفضلَ من الصَّبرِ عن الكلامِ في فصلٍ طويلٍ ، ثمَّ عادَ إلىٰ ذلك فقالَ : فلا يكوننَّ عندَك شيءٌ آثرُ من حفظِ لسانِك ، ولا تكوننَّ لشيءٍ أعنىٰ به من سلامةِ صدرِك ، فهٰذه هٰذه .

ثمَّ آذكرِ النَّفَسَ الَّذي تكلَّمتَ فيه بفضولٍ ماذا كانَ يضرُّك لو قلتَ : أستغفرُ اللهَ ؟ فربَّما يوافقُ ساعةً عزيزةً فيغفرُ اللهُ لك ، فتربحُ رأسَك ، أو قلتَ : لا إلهَ إلاَّ اللهُ ، فيكونُ لك من الأجرِ والذُّخرِ ما لا يحيطُ به وَهْمُك ، أو تقولُ : أسألُ اللهَ العافيةَ ، فربَّما يتَّفقُ حسنُ نظرٍ ، فيستجيبُ اللهُ تعالىٰ دعوتَك ، فنجوتَ من بليَّةِ الدُّنيا والآخرةِ .

أفلا يكونُ من الخسرانِ العظيمِ والغبنِ الفظيعِ أن تفوِّتَ علىٰ نفسِك كلَّ هٰذه الفوائدِ الكريمةِ ، وتجعلَ نفَسَك ووقتَك في فضولٍ ، أقلُّ ما يلزمُك فيه اللَّومُ والحسابُ والحبسُ يومَ القيامةِ ؟

ولقد أحسنَ القائلُ : [من الخفيف]

إغتنمْ ركعتينِ في ظلمةِ اللَّيـ ـلِ إذا كنتَ فارغاً مستريحاً
وإذا ما هممتَ بالنُّطقِ في البا طلِ فاجعلْ مكانَه تسبيحا
فاغتنامُ السُّكوتِ أفضلُ من خو ضٍ وإن كنتَ بالحديثِ فصيحا[2]

والثَّالثُ : البطنُ ، وحسبُك أنَّ مقصودَك العبادةُ ، وأنَّ الطَّعامَ بَذرُ العملِ وماؤُه ، منه يبدو وينبتُ ، وإذا خبُثَ البذرُ . . لا يطيبُ الزَّرعُ ، بل فيه خطرُ أن

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٦/ ٢٣٧) ، والطبراني في « الكبير » (٩/ ١٤٩) من قول ابن مسعود رضي الله عنه .
(2) تقدم تخريجها (ص ١١٠) .

يُفسدَ عليك أرضَك فلا تفلحُ أبداً ، ومن ذلك ما بلغَنا عن معروفٍ ٱلكرخيِّ أنَّه قالَ : إذا صمتَ . . فٱنظرْ علىٰ أيِّ شيءٍ تفطرُ ، وعندَ من تفطرُ ، وطعامَ من تأكلُ ؟ فكم مَن يأكلُ أَكْلةً فينقلبُ قلبُه عمَّا كانَ عليه ، فلا يعودُ إلىٰ حالِه أبداً ، وكم من أَكْلةٍ حَرمَتْ قيامَ ليلةٍ ، وكم من نظرةٍ منعتْ قراءةَ سورةٍ ، وإنَّ العبدَ ليأكلُ الأَكْلةَ فيُحرَمُ بها قيامَ سنةٍ .

فعليكَ ـ أيُّها الرَّجلُ ـ بالنَّظرِ الدَّقيقِ والاحتياطِ البالغِ الشَّديدِ في قُوتِك إن كانَ لك عنايةٌ بقلبِك ، وهِمّةٌ في عبادةِ ربِّك .

هٰذا في أصلِ القوتِ حتَّىٰ يكونَ من وجهِه[1] ، ثمَّ عليكَ بالأدبِ فيه ، وإلاَّ . . كنتَ حمَّالاً للطَّعامِ ، مضيِّعاً للأيَّامِ ؛ إذ قد علمنا يقيناً ، بل رأينا عياناً أنَّ العبادةَ لا يجيءُ منها شيءٌ إذا امتلأَ البطنُ ، وإن أكرهتَ النَّفْسَ علىٰ ذلك ، وجاهدتَ بضروبِ الحيلِ . . فلا يكونُ لتلكَ العبادةِ لذَّةٌ ولا حلاوةٌ ، ولذلكَ قيلَ : لا تطمعْ بحلاوةٍ في العبادةِ مع كثرةِ الأكلِ ، وأيُّ نورٍ في نفْسٍ بلا عبادةٍ ، وفي عبادةٍ بلا لذَّةٍ ولا حلاوةٍ ؟!

ولهٰذا المعنىٰ قالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمَه اللهُ : صحبتُ أكثرَ رجالِ اللهِ تعالىٰ في جبلِ لبنانَ ، فكانوا يوصونَني : إذا رجعْتَ إلىٰ أبناءِ الدُّنيا . . فعِظْهم بأربعٍ ؛ قلْ لهم : من يُكثرِ الأكلَ . . لا يجدْ لذَّةَ العبادةِ ، ومن ينمْ كثيراً . . لا يجدْ في عمرِه بركةً ، ومن طلبَ رضا النَّاسِ . . فلا ينتظرْ رضا اللهِ ، ومن يُكثرِ الكلامَ بفضولٍ وغيبةٍ . . فلا يخرجْ من الدُّنيا علىٰ دينِ الإسلامِ .

وعن سهلٍ رحمَه اللهُ أنَّه قالَ : جماعُ الخيرِ كلِّه في هٰذه الخصالِ الأربعِ ، وبها صارتِ الأبدالُ أبدالاً : إخماصُ البطونِ ، والصَّمتُ ، والاعتزالُ عن الخلقِ ، وسهرُ اللَّيلِ .

وقالَ بعضُ العارفينَ : الجوعُ رأسُ مالِنا ، ومعناه : أنَّ ما يحصلُ لنا من فراغٍ وسلامةٍ ، وعبادةٍ وحلاوةٍ ، وعلمٍ نافعٍ . . بسببِ الجوعِ والصَّبرِ عليه للهِ سبحانَه .

---

(١) يعني : من وجهه الحلال .

وأمَّا القلبُ : فحسبُك أنَّه أصلُ الكلِّ ؛ إن أفسدتَه . . فسدَ الكلُّ ، وإن أصلحتَه . . صلحَ الكلُّ ؛ إذ هو الشَّجرةُ ، وسائرُ الأعضاءِ أغصانٌ ، ومن الشَّجرةِ تشرَبُ الأغصانُ وتصلُحُ وتفسُدُ ، وإنَّه الملِكُ ، وسائرُ الأعضاءِ تبعٌ وأركانٌ ، وإذا صلحَ الملِكُ . . صلحتِ الرَّعيَّةُ ، وإذا فسدَ . . فسدتْ ، فإذنْ صلاحُ العينِ واللِّسانِ والبطنِ وغيرِه دليلٌ علىٰ صلاحِ القلبِ وعمرانِه ، وإذا رأيتَ فيها خللاً وفساداً . . فاعلمْ أنَّ ذلك من خللٍ في القلبِ وفسادٍ وقعَ ثَمَّ ، بل الفسادُ فيه أكثرُ ، فاصرفْ عنايتَك إليه فأصلحْه يصلُحِ الكلُّ بمرَّةٍ فتستريحَ .

ثمَّ أمرُه دقيقٌ عسيرٌ ؛ إذ هو مبنيٌّ على الخواطرِ ، وهي ليستْ تحتَ يدِك ، والامتناعُ من اتِّباعِها مجهودُ طاقتِك ، ففيه أقصى المشقَّةِ ، ولهـٰذا المعنىٰ صارَ إصلاحُه أشدَّ علىٰ أهلِ الاجتهادِ ، والاهتمامُ بأمرِه أكبرَ وأكثرَ عندَ ذوي البصائرِ .

وعن أبي يزيدَ رحمَه اللهُ أنَّه قالَ : عالجتُ قلبي عشراً ، ولساني عشراً ، ونفسي عشراً ، فكانَ قلبي أصعبَ الثَّلاثةِ ، فهـٰذه هـٰذه .

ثمَّ عليكَ بالاهتمامِ بالخصالِ الأربعِ الَّتي ذكرناها ؛ من الأملِ ، والعجلةِ في الأمورِ ، والحسدِ ، والكِبْرِ ، وإنَّما خصصنا هـٰذه الأربعةَ من بينِ سائرِ الخصالِ في هـٰذا الموضعِ ، وحضَضنا على الاحتراسِ منها ؛ لأنَّها عللُ القرَّاءِ خاصَّةً ؛ إذ هي تعتري سائرَ النَّاسِ عموماً ، والقرَّاءَ خصوصاً ، فتكونُ أقبحَ وأشنعَ .

ترى الرَّجلَ القارئَ يطوِّلُ الأملَ ويعدُّه نيَّةَ خيرٍ فيوقعُه في الكسلِ والتَّواني في العملِ .

وتراه يستعجلُ في تحصيلِ منازلِ الخيرِ فينقطعُ عنها ، أو في إجابةِ دعاءٍ صالحٍ فيُحرمُ ذلك ، أو في الدُّعاءِ علىٰ أحدٍ بسوءٍ فيندمُ علىٰ ذلك ، كما ذُكرَ عن نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ .

وتراه يحسدُ نظراءَه علىٰ ما آتاهم اللهُ من فضلِه ، حتَّىٰ ربَّما يبلغُ منه ذلك مبلغاً يحملُه علىٰ قبائحَ وفضائحَ لا يقدمُ عليها فاسقٌ ولا فاجرٌ ، ولهـٰذا المعنىٰ قالَ سفيانُ الثَّوريُّ رحمَه اللهُ : ما أخافُ علىٰ دمي إلاَّ القرَّاءَ والعلماءَ ، فاستنكروا

منه ذلك ، فقالَ : ما أنا قلتُه ، إنَّما قالَه إبراهيمُ النَّخَعيُّ رحمَه اللهُ تعالى .

وعن عطاءٍ قالَ : (قالَ لي الثَّوريُّ رحمَه اللهُ : ٱحذروا القرَّاءَ واحذروني معهم ، فلو خالفتُ أودَّهم لي في رمَّانةٍ ؛ فأقولُ : إنَّها حلوةٌ ، ويقولُ : إنَّها حامضةٌ . . ما أمنتُه أن يسعىٰ بدمي إلىٰ سلطانٍ جائرٍ)[1] .

وعن مالكِ بنِ دينارٍ رحمَه اللهُ تعالىٰ أنَّه قالَ : (إنِّي أقبلُ شهادةَ القرَّاءِ علىٰ جميعِ الخلقِ ، ولا أقبلُ شهادةَ بعضِهم علىٰ بعضٍ ؛ لأنِّي وجدتُهم حسَّاداً)[2] .

وعن الفضيلِ أنَّه قالَ لابنِه : اشترِ لي داراً بعيدةً من القرَّاءِ ، ما لي ولقومٍ إن ظهرتْ منِّي زلَّةٌ . . هتكوني ، وإن ظهرتْ عليَّ نعمةٌ . . حسدوني .

وكذلكَ تراه يتكبَّرُ على النَّاسِ ويستخفُّ بهم ، مصعِّراً خدَّهُ ، معبِّساً وجهَه ، كأنَّما يمنُّ على النَّاسِ بما يصلِّي زيادةَ ركعتينِ ، وكأنَّما جاءَه من اللهِ تعالىٰ منشورٌ بالجنَّةِ والبراءةِ من النَّارِ ، أو كأنَّه استيقنَ السَّعادةَ لنفسِه والشَّقاوةَ لسائرِ النَّاسِ ، ثمَّ مع ذلك يلبسُ لباسَ المتواضعينَ من صوفٍ وغيرِه ويتماوتُ ، وهـٰذا لا يليقُ بالتَّرفُّعِ والتَّكبُّرِ ولا يلائمُه ، بل يناقضُه ، ولـٰكن الأعمىٰ لا يبصرُ .

وذُكرَ أنَّ فرقداً السَّبَخيَّ دخلَ على الحسنِ وعليه كساءٌ ، وعلى الحسنِ حلَّةٌ ، فجعلَ يلمسُها ، فقالَ الحسنُ : (ما لك تنظرُ إلىٰ ثيابي ؟ ثيابي ثيابُ أهلِ الجنَّةِ ، وثيابُك ثيابُ أهلِ النَّارِ ، بلغني أنَّ أكثرَ أهلِ النَّارِ أصحابُ الأكسيةِ) ، ثمَّ قالَ الحسنُ : (جعلوا الزُّهدَ في ثيابِهم ، والكبرَ في صدورِهم ، والَّذي يُحلَفُ به ؛ لأحدُكم بكسائِه أعظمُ كِبراً من صاحبِ المطرَفِ بمطرَفِه)[3] .

وإلىٰ هـٰذا المعنىٰ أشارَ ذو النُّونِ رحمَه اللهُ حيثُ قالَ : [من الوافر]

تصوَّفَ فازدهىٰ بالصُّوفِ جهلاً وبعـضُ النَّـاسِ يلبسُـه مَجَـانَـهْ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٧/٨) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٧٨) .

(٣) أخرجه ابن سعد في « الطبقات الكبرى » (٧/١٦٩) ، **والمطرف** ـ بضم الميم وكسرها ، وبفتح الراء ـ : رداء من خز مربَّع ذو أعلام .

يـريـك مهـانـةً ويـريـك كبـراً ... وليسَ الكبـرُ مـن شكـلِ المهـانـهْ
تصـوَّفَ كـي يقـالَ لـه أميـنٌ ... ومـا معنـىٰ تصـوُّفِـه الأمـانـهْ
ولـمْ يـردِ الإلـهَ بـه ولٰكـنْ ... أرادَ بـه الطَّـريـقَ إلـى الخيـانـهْ (١)

فلتحذرْ ـ أيُّها الرَّجلُ ـ من هٰذه الآفاتِ الأربعِ ، لا سيَّما الكبرَ ؛ فإنَّ الثَّلاثَ الأُوَلَ مداحضُ لو زلَلتَ فيها . . لوقعتَ في العصيانِ ، والكبرُ مدحضٌ لو زلَلتَ فيه . . لوقعتَ في بحارِ الكفرِ والطُّغيانِ ، ولا تنسَ حديثَ إبليسَ وفتنتَه أنَّه أبىٰ واستكبرَ وكانَ من الكافرينَ .

والرُّجوعُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أن يعصمَنا جميعاً بحسنِ نظرِه ، إنَّه الجوادُ الكريمُ .

فَصْلٌ

[في إجمال ما مر تفصيله بشأن الدنيا والخلق والشيطان والنفس]

وجملةُ الأمرِ : أنَّك إذا نظرتَ بعقلِك أيُّها الرَّجلُ ، فعلمتَ أنَّ الدُّنيا لا بقاءَ لها ، وأنَّ نفعَها لا يفي بضرِّها وتبعاتِها ؛ من كدِّ البدنِ وشغلِ القلبِ في الدُّنيا ، والعذابِ الأليمِ والحسابِ الطَّويلِ في الآخرةِ . . زهدتَ في فضولِها ، فلا تأخذُ منها إلاَّ ما لا بدَّ لك منه في عبادةِ ربِّك ، وتدعُ التَّنعُّمَ والتَّلذُّذَ إلى الجنَّةِ دارِ النَّعيمِ المقيمِ في جوارِ ربِّ العالمينَ ، الملِكِ القادرِ الغنيِّ الكريمِ .

وعلمـتَ أنَّ الخلـقَ لا وفـاءَ لهـم ، وأنَّ مـؤونتَهـم أكثـرُ مـن معـونتِهـم فيما يعنيك ، وتركتَ مخالطتَهم إلاَّ فيما لا بدَّ لك منه ، تنتفعُ بخيرِهم ، وتجتنبُ ضرَّهم ، وتجعلُ صحبتَك لمن لا تخسرُ في صحبتِه ، ولا تندمُ علىٰ خدمتِه ، وأنسَك بكتابِه وملازمتِك إيَّاه ، فيكونُ لك بكلِّ حالٍ ، وترىٰ منه كلَّ جميلٍ وإفضالٍ ، وتجدُه عندَ كلِّ نائبةٍ في الدُّنيا والآخرةِ ، كما قالَ عليه الصَّلاةُ

---

(١) وتنسب هٰذه الأبيات أيضاً إلىٰ محمود الوراق . انظر « ديوانه » (ص ٢٣٨) .

والسَّلامُ : « أحفظِ اللهَ تجدْه حيثُ اتَّجهتَ »[1] .

وعلمتَ أنَّ الشَّيطانَ خبيثٌ قد تجرَّدَ لمعاداتِك ، فاستعذتَ بربِّك القادرِ القاهرِ من هٰذا الكلبِ اللَّعينِ ، ولا تغفلْ عن مكايدِه ومصايدِه فتطردَه بذكرِ اللهِ تعالى ، ولا تعبأنَّ بذلكَ ؛ فإنَّه يسيرٌ إذا ظهرتْ منك عزيمةُ الرِّجالِ ، فإنَّه كما قالَ تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

ولقد صدقَ أبو حازمٍ فيما قالَ : (ما الدُّنيا وما إبليسُ ؟ أمَّا الدُّنيا : فما مضىٰ فحلمٌ ، وما بقيَ فأمانيُّ ، وأمَّا الشَّيطانُ : فواللهِ ؛ لقد أُطيعَ فما نفعَ ، ولقد عُصيَ فما ضرَّ)[2] .

وعلمتَ جهالةَ هٰذه النَّفسِ وجماحَها إلىٰ ما يضرُّها ويُهلكُها ، فنظرتَ إليها ـ رحمةً لها ـ نظرَ العقلاءِ والعلماءِ الَّذينَ ينظرونَ في العواقبِ ، لا نظرَ الجهَّالِ والصِّبيانِ الَّذينَ ينظرونَ في الحالِ ، ولا يفطنونَ لغائلةِ الأذى ، وينفرونَ من مرارةِ الدَّواءِ ، وألجمتَها بلجامِ التَّقوى ؛ بأن تمنعَها عمَّا لا تحتاجُ إليه بالحقيقةِ ؛ من فضولِ كلامٍ ونظرٍ ، وتلبُّسٍ بخصلةٍ فاسدةٍ ؛ من طولِ أملٍ ، أو عجَلٍ ، أو حسدِ مسلمٍ ، أو تكبُّرٍ في غيرِ موضعِه ، أو أكلٍ بمحضِ شهوةٍ وشرَهٍ ، وتعطيَها ما ليسَ لها منه بدٌّ ، ولا تخافُ منه ضرراً ؛ إذ لا ضرورةَ إلى الفضولِ ، وقد وسَّعَ اللهُ تعالى الأمرَ علىٰ عبادِه برحمتِه ، وأغناهم عن جميعِ ما يضرُّهم في أمرِ دينِهم ، فأيُّ حاجةٍ إلىٰ ذلك ؟! فإنَّ الأمرَ كما قالَ بعضُ الصَّالحينَ : (إنَّ التَّقوىٰ أهونُ شيءٍ ؛ إذا رابني شيءٌ . . تركتُه)[3] .

فإنَّ النَّفسَ ستلينُ وتتعوَّدُ ما عوَّدتَها ، وإنَّها لَكما قالَ القائلُ : [من الكامل]

فالنَّفسُ راغبةٌ إذا رغَّبتَها ... وإذا تُردُّ إلىٰ قليلٍ تقنعُ[4]

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٥٤١) ، والترمذي (٢٥١٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٤٥) .

(٣) أخرجه البخاري بنحوه من قول حسان بن أبي سنان ، كتاب البيوع ، باب تفسير المتشابهات ، تعليقاً .

(٤) البيت لأبي ذؤيب الهذلي . انظر « عيون الأخبار » (٢/ ١٩١) ، و« العقد الفريد » (٣/ ١٥١) .

وقالَ آخرُ : [من الطويل]

(هي النَّفسُ ما حمَّلتَها تتحمَّلُ)[١]

ويُروى : (ما عوَّدتَها تتعوَّدُ) .

وقالَ آخرُ : [من الطويل]

صبرتُ عن اللَّذَّاتِ حتَّىٰ تولَّتِ وألزمتُ نفسي صبرَها فاستمرَّتِ
وما النَّفسُ إلاَّ حيثُ يجعلُها الفتى فإن أُطعِمتْ تاقتْ وإلاَّ تسلَّتِ[٢]

فإذا علمتَ الَّذي وصفناه . . كنتَ من الزَّاهدينَ في الدُّنيا ، الرَّاغبينَ في الآخرةِ .

وٱعلمْ : أنَّ من سُمِّيَ باسمِ الزَّاهدِ . . فلقد سُمِّيَ بألفِ ٱسمٍ ممدوحٍ .

وكنتَ من المنفردينَ المنقطعينَ إلى اللهِ سبحانَه ، الَّذينَ هم أهلُ الأُنسِ ، خدمُ ربِّ العالمينَ ، فتكونُ كما قالَ القائلُ : [من المتقارب]

تشاغلَ قومٌ بدنياهمُ وقومٌ تخلَّوا لمولاهمُ
فألزمَهم بابَ مرضاتِه وعن سائرِ الخلقِ أغناهمُ
إذا فكَّروا بالَّذي أسلفوا أذابَ القلوبَ وأبكاهمُ
ولا يعرفونَ سوىٰ حبِّه وطاعتِه طولَ محياهمُ
يَصفُّونَ باللَّيلِ أقدامَهمْ وعينُ المهيمنِ ترعاهمُ
فطَوراً ينادونَه سجَّداً ويبكونَ طَوراً خطاياهمُ
وأضحوا صياماً بجهدِهمُ تباركَ من هو قوَّاهمُ
هم الذَّاكرونَ هم السَّاجدون هم الحامدونَ لمولاهمُ
هم المخبتونَ بنيَّاتِهمْ أرادوا رضاه فأرضاهمُ
فطوبىٰ لهم ثمَّ طوبىٰ لهمْ إذا بالتَّحيَّةِ حيَّاهمُ
فأسكنَهم في فراديسِه وأعلى المنازلِ بوَّاهمُ

---

(١) تمام البيت : (وللدهر أيام تجور وتعدل) ، وهو لعلي بن الجهم . انظر « ديوانه » (ص ١٧٢) .
(٢) البيتان نسبهما القاضي التنوخي في « الفرج بعد الشدة » (٥/ ٦٣) إلىٰ عمرو بن معدي كرب الزبيدي ، ونسبهما أبو نصر الفتح ابن خاقان في « مطمح الأنفس » (ص ١٥٦) إلىٰ جعفر بن عثمان المصحفي .

وكنتَ من المجاهدينَ في اللهِ تعالى ، الخواصِّ من عبادِ اللهِ تعالى ، الَّذينَ قالَ فيهم سبحانَه : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ .

وكنتَ من المتَّقينَ ، الَّذينَ لهم سعادةُ الدَّارينِ ، وصرتَ حينئذٍ أفضلَ من كثيرٍ من الملائكةِ المقرَّبينَ ؛ إذ ليستْ لهم شهوةٌ تدعو إلىٰ قبيحٍ ، ولا نفسٌ خبيثةٌ .

وكنتَ قد خلَّفتَ هـٰذه العقبةَ الطَّويلةَ الشَّديدةَ وراءَك ، وسيقتِ العوائقُ كلُّها إلىٰ مقصودِك ، ولا يهولَنَّك ؛ فإنَّه مع الاستعانةِ باللهِ تعالىٰ والاعتصامِ به لَهيِّنٌ .

نسألُ اللهَ تعالىٰ وهو خيرُ مسؤولٍ أن يمدَّك وإيَّانا بحسنِ توفيقِه وعونِه وتيسيرِه ؛ فإنَّه الكافي لكلِّ مهمٍّ ، والمستعانُ[1] به في كلِّ معضلٍ ، فبيدِه الخلقُ والأمرُ ، وهو علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ .

فهـٰذا ما أردنا ذكرَه في هـٰذا البابِ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيمِ .

* * *

(١) في جميع النسخ : (والاستعانة) .

العقبةُ الرَّابعةُ
وهي عقبةُ العوارضِ

ثمَّ عليكَ يا طالبَ العبادةِ ـ وفَّقَكَ اللهُ تعالى ـ بكفايةِ العوارضِ الشَّاغلةِ عن عبادةِ اللهِ تعالى ، وسدِّ سبيلِها عنك ؛ لئلاَّ تُشغَلَ عن مقصودِك ، وقد ذكرنا أنَّها أربعةٌ :

أحدُها : الرِّزقُ ومطالبةُ النَّفسِ بذلكَ ، وإنَّما كفايتُه في التَّوكُّلِ ، فعليكَ بالتَّوكُّلِ على اللهِ تعالىٰ في موضعِ الرِّزقِ والحاجةِ بكلِّ حالٍ ، وذلك لأمرينِ :

أحدُهما : لتتفرَّغَ للعبادةِ ، ويتمشَّىٰ لك من الخيرِ حقُّه ؛ فإنَّ من لم يكنْ متوكِّلاً . . فلا بدَّ من ٱشتغالِه عن عبادةِ اللهِ بسببِ الحاجةِ والرِّزقِ والمصلحةِ ؛ إمَّا ظاهراً ، وإمَّا باطناً ؛ إمَّا بطلبٍ وكسبٍ بالبدنِ كعامَّةِ الرَّاغبينَ ، وإمَّا بذكرٍ وإرادةٍ ووسوسةٍ بالقلبِ كالمجتهدينَ المعلِّقينَ .

والعبادةُ تحتاجُ إلىٰ فراغِ القلبِ والبدنِ ليحصلَ حقُّها ، والفراغُ لا يكونُ إلاَّ للمتوكِّلينَ ، بل أقولُ : كلُّ من هو ضعيفُ القلبِ ، لا يكادُ يطمئنُّ قلبُه إلاَّ بشيءٍ معلومٍ فلا يكادُ يتمُّ له أمرٌ خطيرٌ من دنيا وآخرةٍ .

وكثيراً ما سمعتُ من شيخي أبي محمَّدٍ رحمَه اللهُ تعالىٰ يقولُ : إنَّما الأمورُ تتمشَّىٰ في هٰذا العالمِ لرجلينِ : متوكِّلٍ ، أو متهوِّرٍ .

قلتُ : وهٰذا كلامٌ جامعٌ في معناه ؛ فإنَّ المتهوِّرَ يقصدُ الأمورَ علىٰ قوَّةِ عادةٍ وجرأةِ قلبٍ ، لا يلتفتُ إلىٰ صارفٍ يصرفُه ، أو خاطرٍ يُضعفُه ، فتجري له الأمورُ .

والمتوكِّلُ يقصدُ الأمورَ علىٰ قوَّةٍ وبصيرةٍ ، وكمالِ يقينٍ بوعدِ اللهِ سبحانَه ،

وتمامِ ثقةٍ بضمانِه ، فلا يلتفتُ إلىٰ إنسانٍ يخوِّفُه ، أو شيطانٍ يوسوسُه ، فيفوزُ بمقاصدِه ، ويظفرُ بمطالبه .

وأمَّا المعلِّقُ الضَّعيفُ[1] : فهو أبداً بينَ توكُّلٍ وتردُّدٍ ، وفتورٍ وتحيُّرٍ ، كالحمارِ في معلفِه ، والدَّجاجِ في قفصِه ، يرمُقُ ما تعوَّدَ من صاحبِه ، لا يكادُ ينفكُّ من ذلك ، قد تقاعدتْ نفسُه عن معالي الأمورِ ، وأنقطعتْ همَّتُه ، فلا يكادُ يقصدُ أمراً شريفاً ، وإن قصدَه . . فلا يكادُ يظفرُ به ولا يتمُّ له ذلك ، أما ترىٰ أصحابَ الهممِ من أبناءِ الدُّنيا لم ينالوا مرتبةً كبيرةً ومنزلةً خطيرةً إلاَّ بانقطاعِ قلوبِهم عن أنفسِهم وأموالِهم وأهلِيهم ؟!

وأمَّا الملوكُ : فيباشرونَ الحروبَ ، ويكافحونَ الأعداءَ : إمَّا هُلْكاً ، وإمَّا مُلْكاً ، حتَّىٰ تحصلَ لهم مرتبةُ المُلْكِ وعقدُ الولايةِ .

وقيلَ : إنَّ معاويةَ رضيَ اللهُ عنه لمَّا نظرَ إلى العسكرينِ يومَ صِفِّينَ . . قالَ : (من أرادَ خطيراً . . خاطرَ بعظيمتِه) .

وأمَّا التُّجَّارُ : فيركبونَ المهالكَ برّاً وبحراً ، ويطرحونَ أنفسَهم وأموالَهم في المقاطعِ شرقاً وغرباً ، ويوطِّنونَ أنفسَهم علىٰ أحدِ الأمرينِ : إمَّا فوتِ الأرواحِ ، وإمَّا حصولِ الأرباحِ ، حتَّىٰ يحصلَ لهم بذلكَ كلُّ ربحٍ عظيمٍ ، ومالٍ جسيمٍ ، وعِلْقٍ نفيسٍ .

وأمَّا السُّوقيُّ الَّذي قد ضعُفَ قلبُه ، ورقَّ عزمُه : لا يكادُ يقطعُ القلبَ عن عَلاقتِه من نفسِه ومالِه ، فهو من بيتِه إلىٰ دكَّانِه طولَ عمرِه لا يصلُ إلىٰ مرتبةٍ شريفةٍ كالملوكِ ، ولا إلىٰ ربحٍ عظيمٍ كالتُّجَّارِ المخاطرينَ ، فإن نالَ في سوقِه رِبْحَ درهمٍ علىٰ بضاعتِه . . فذلكَ له كثيرٌ ، وذلك لتعلُّقِ قلبِه بشيءٍ معلومٍ ، فهـٰذا في الدُّنيا وأبنائِها .

وأمَّا أبناءُ الآخرةِ : فرأسُ مالِهم هـٰذه الخصلةُ الَّتي هي التَّوكُّلُ وقطعُ القلبِ عن العلائقِ ، لمَّا أحكموها وأعطَوها حقَّها . . تفرَّغوا لعبادةِ اللهِ تعالى ، وتمكَّنوا

---

(١) **المعلق الضعيف** : الذي تعلق قلبه بالدنيا فكان ضعيف القلب في الدين .

من التَّفرُّدِ عن الخلقِ ، والسِّياحةِ في الأرضِ ، واقتحامِ الفيافي ، واْستيطانِ الجبالِ والشِّعابِ ، فصاروا أقوياءَ العبادِ ، ورجالَ الدِّينِ ، وأحرارَ النَّاسِ ، وملوكَ الأرضِ بالحقيقةِ ، يسيرونَ حيثُ يشاؤونَ ، وينزلونَ حيثُ يشاؤونَ ، ويقصدونَ من الأمورِ العظامِ علماً وعبادةً ما يشاؤونَ ، لا عائقَ لهم ، ولا حاجزَ لهم دونَهم ، فكلُّ الأماكنِ لهم واحدٌ ، وكلُّ الأزمانِ عندَهم واحدٌ ، وإليه الإشارةُ بقولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « من سرَّه أن يكونَ أقوى النَّاسِ . . فليتوكَّلْ على اللهِ ، ومن سرَّه أن يكونَ أكرمَ النَّاسِ . . فليتَّقِ اللهَ ، ومن سرَّه أن يكونَ أغنى النَّاسِ . . فليكنْ بما في يدِ اللهِ أوثقَ منه بما في يدِه »[(١)] .

وعن سليمانَ الخوَّاصِ رحمَه اللهُ قالَ : لو أنَّ رجلاً توكَّلَ على اللهِ سبحانَه بصدقِ النِّيَّةِ . . لاحتاجَ إليه الأمراءُ ومَن دونَهم ، وكيفَ يَحتاجُ إلىٰ أحدٍ ومولاه الغنيُّ الحميدُ ؟!

وعن إبراهيمَ الخوَّاصِ رحمَه اللهُ قالَ : (لقيتُ غلاماً في التِّيهِ كأنَّه سبيكةُ فضَّةٍ ، قلتُ : إلىٰ أينَ يا غلامُ ؟ قالَ : إلىٰ مكَّةَ ، قلتُ : بلا زادٍ ولا راحلةٍ ؟ فقالَ : يا ضعيفَ اليقينِ ؛ الَّذي يقدرُ علىٰ حفظِ السَّماواتِ والأرضِ يقدرُ أن يوصلَني إلىٰ مكَّةَ بلا زادٍ ولا راحلةٍ ، فلمَّا دخلتُ مكَّةَ . . فإذا هو في الطَّوافِ يقولُ : [من مجزوء الرجز]

يا نفسُ سيحي أبدا ... يا نفسُ موتي كمدا
ولا تحبِّي أحدا ... إلاَّ الجليلَ الصَّمدا

فلمَّا رآني . . قالَ : يا شيخُ ؛ أنت بعدُ علىٰ ذلكَ الضَّعفِ ؟!)[(٢)] .

وقالَ أبو مطيعٍ لحاتمٍ الأصمِّ : (بلغني أنَّك تقطعُ المفاوزَ بالتَّوكُّلِ من غيرِ زادٍ ولا راحلةٍ ، قالَ حاتمٌ : زادي أربعةُ أشياءَ ، قالَ : ما هي ؟ قالَ : أرى

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٧٠) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٣٦٧) ، وعبد بن حميد في « مسنده » (٦٧٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما .
(٢) أخرجه القشيري في « رسالته » (ص ١٤٣) .

الدُّنيا والآخرةَ مملوكةً للهِ عزَّ وجلَّ ، وأرى الخلقَ كلَّهم عبيدَ اللهِ وعيالَه ، وأرى الأرزاقَ والأسبابَ كلَّها بيدِ اللهِ ، وأرىٰ قضاءَ اللهِ نافذاً في جميعِ أرضِ اللهِ)[1] .

ولقد أحسنَ من قالَ : [من الوافر]

أرى الـزُّهَّـادَ فـي رَوْحٍ وراحـهْ ... قلـوبُهـم عـن الـدُّنيـا مُـزاحـهْ
إذا أبصـرتَهـم أبصـرتَ قـومـاً ... ملـوكَ الأرضِ سيمتُهـم سمـاحـهْ

وأمَّا الأمرُ الثَّاني الَّذي اقتضى التَّوكُّلَ على اللهِ سبحانَه في هـٰذا الشَّأنِ : فهو ما في تركِه من الخطرِ العظيمِ والأمرِ الكبيرِ .

قلتُ : أليسَ اللهُ سبحانَه قرنَ الرِّزقَ بالخلقِ فقالَ : ﴿خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ ؟ فدلَّ علىٰ أنَّ الرِّزقَ من اللهِ لا غيرُ كالخلقِ .

ثمَّ لم يكتفِ بالدَّلالةِ حتَّىٰ وعدَ فقالَ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ .

ثمَّ لم يكتفِ بالوعدِ حتَّىٰ ضمنَ فقالَ : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ .

ثمَّ لم يكتفِ بالضَّمانِ حتَّىٰ أقسمَ فقالَ : ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ .

ثمَّ لم يكتفِ بذلكَ كلِّه حتَّىٰ أمرَ بالتَّوكُّلِ وأبلغَ وأنذرَ فقالَ : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ ، وقالَ سبحانَه : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ .

فمن لم يعتبرْ بقولِه ، ولم يكتفِ بوعدِه ، ولم يطمئنَّ إلىٰ ضمانِه ، ولم يَقنعْ بقسَمِه ، ثمَّ لم يبالِ بأمرِه ووعدِه ووعيدِه . . فانظرْ ماذا يكونُ حالُه ؟! وانتبهْ أيَّ محنةٍ تجيءُ من هـٰذا ؟! وهـٰذه واللهِ مصيبةٌ شديدةٌ ، ونحنُ منها في غفلةٍ عظيمةٍ ، ولقد قالَ الصَّادقُ الأمينُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لابنِ عمرَ : « كيف أنت إذا بقيتَ بينَ قومٍ يُخبِّئونَ رزقَ سَنتِهم لضعفِ اليقينِ ؟! »[2] .

---

(١) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٨/ ٢٣٧) .
(٢) أخرجه عبد بن حميد في « مسنده » (٨١٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وانظر « الترغيب والترهيب » (٤٧٨٠) .

وعن الحسنِ قالَ : لعنَ اللهُ أقواماً أقسمَ لهم ربُّهم فلم يصدِّقوه .

وقالتِ الملائكةُ عندَ نزولِ هـٰذه الآيةِ : ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ : هلكتْ بنو آدمَ ، أغضبوا الرَّبَّ حتَّىٰ أقسمَ لهم علىٰ أرزاقِهم .

وعن أُويسٍ القرنيِّ أنَّه قالَ : لو عبدتَ اللهَ عبادةَ أهلِ السَّماواتِ والأرضِ . . لمَا تقبَّلَ منك حتَّىٰ تصدِّقَه ، قيلَ : وكيف تصدِّقُه ؟ قالَ : تكونُ آمناً بما تكفَّلَ اللهُ تعالىٰ لك من أمرِ رزقِك ، وترىٰ جسدَك فارغاً لعبادتِه .

ولقد قالَ له هرمُ بنُ حيَّانَ : أين تأمرُني أن أقيمَ ؟ فأومأَ بيدِه إلى الشَّام ، قالَ هرمٌ : كيف المعيشةُ بها ؟ قالَ : أفٍّ لهـٰذه القلوبِ ، لقد خالطَها الشَّكُّ ؛ فما تنفعُها الموعظةُ .

وبلغَنا أنَّ نبَّاشاً تابَ علىٰ يدِ أبي يزيدَ البَسطاميِّ رحمَه اللهُ تعالى ، فسألَه أبو يزيدَ عن حالِه ، فقالَ : نبشتُ عن ألفِ قبرٍ فلم أرَ وجوهَهم إلى القبلةِ إلاَّ رجلينِ ، فقالَ أبو يزيدَ : مساكينُ أولئكَ ، تهمةُ الرِّزقِ حوَّلتْ وجوهَهم عن القبلةِ .

وذكرَ لي بعضُ أصحابِنا : أنَّه رأىٰ رجلاً من أهلِ الصَّلاحِ ، فسألَه عن حالِه ، فقالَ : هل سلمتَ بإيمانِك ؟ فقالَ : إنَّما يسلمُ الإيمانُ للمتوكِّلينَ .

نسألُ اللهَ تعالىٰ أن يصلحَنا بفضلِه ، ولا يؤاخذَنا بما نحنُ أهلُه ، إنَّه أرحمُ الرَّاحمينَ ، فهـٰذه هـٰذه .

فإن قلتَ : فأخبِرْنا ما حقيقةُ التَّوكُّلِ وحكمُه ؟ وما يلزمُ العبدَ منه من أمرِ الرِّزقِ ؟

فاعلمْ : أنَّه إنَّما يتبيَّنُ لك هـٰذا في أربعةِ فصولٍ : بيانِ لفظةِ التَّوكُّلِ ، وموضعِه ، وحدِّه ، وحصنِه .

فأمَّا اللَّفظةُ : فإنَّما هي توكُّلٌ ، تفعُّلٌ من الوكالةِ ، فالمتوكِّلُ علىٰ أحدٍ هو الَّذي يتَّخذُه بمنزلةِ الوكيلِ القائمِ بأمرِه ، الضَّامنِ لإصلاحِه ، الكافي له من غيرِ تكلُّفٍ وٱهتمامٍ ، فهـٰذه جملتُه .

وأمَّا الموضعُ : فاعلمْ أنَّ التَّوكُّلَ ٱسمٌ مطلقٌ في ثلاثةِ مواضعَ :

أحدُها : في موضعِ القسمةِ ، وهو الثِّقةُ باللهِ تعالىٰ بأنَّه لا يفوتُك ما قسمَ لك ؛ فإنَّ حكمَه لا يتبدَّلُ ، وهـٰذا واجبٌ بالسَّمعِ .

والثَّاني : في موضعِ النُّصرةِ ، وهو ٱلاعتمادُ والوثاقةُ بنصرِ اللهِ عزَّ وجلَّ لك إذا نصرتَه وجاهدتَ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ، وقالَ : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ ، وقالَ : ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، وهـٰذا واجبٌ بالوعدِ .

والثَّالثُ : في موضعِ الرِّزقِ والحاجةِ ؛ بأنَّ اللهَ تعالىٰ متكفِّلٌ بما يقيمُ بنيتَك لخدمتِه ، وتتمكَّنُ به من عبادتِه ، وذلك قولُه تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ .

وقالَ الصَّادقُ الأمينُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « لو توكَّلْتم على اللهِ حقَّ توكُّلِه .. لرزقَكم كما يَرزقُ الطَّيرَ ، تغدو خِماصاً ، وتروحُ بطاناً »[1] .

وهـٰذا فرضٌ لازمٌ للعبدِ بدليلِ العقلِ والشَّرعِ جميعاً ، وهـٰذا هو الأشهرُ والأغلبُ منه ـ أعني : التَّوكُّلَ في موضعِ الرِّزقِ ـ وهو المقصودُ من هـٰذا الفصلِ ، فموضعُ التَّوكُّلِ إذن هو الرِّزقُ ، وهو الرِّزقُ المضمونُ ـ فيما قالَ العلماءُ ـ باللهِ تعالى ، وإنَّما يتَّضحُ لك هـٰذا ببيانِ أقسامِ الرِّزقِ .

فاعلمْ : أنَّ الرِّزقَ أربعةُ أقسامٍ : مضمونٌ ، ومقسومٌ ، ومملوكٌ ، وموعودٌ .

فالمضمونُ : هو الغذاءُ وما به قِوامُ البنيةِ دونَ سائرِ الأسبابِ ، فالضَّمانُ من اللهِ تعالىٰ لهـٰذا النَّوعِ ، والتَّوكُّلُ يجبُ بإزائِه بدليلِ العقلِ والشَّرعِ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ كلَّفَنا خدمتَه وطاعتَه بأبدانِنا ، فضمنَ لنا ما يسدُّ خللَ البِنيةِ لنقومَ بما كلَّفَنا .

وقالَ بعضُ مشايخِ الكرَّاميَّةِ كلاماً حسناً علىٰ أصلِه : إنَّ ضمانَ أرزاقِ العبادِ واجبٌ في حكمةِ اللهِ تعالىٰ لثلاثةِ أشياءَ :

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧٣٠) ، والحاكم (٣١٨/٤) ، والترمذي (٢٣٤٤) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

أحدُها : أنَّه سيِّدٌ ونحنُ العبيدُ ، وعلى السَّيِّدِ كفايةُ مؤنةِ العبيدِ ، كما أنَّ على العبيدِ خدمةَ السَّيِّدِ .

والثَّاني : أنَّه خلقَهم محتاجينَ إلى الرِّزقِ ، ولم يجعلْ لهم سبيلاً إلىٰ طلبه ؛ إذ لا يدرونَ ما هو رزقُهم ؟ وأين هو ؟ ومتىٰ هو ؟ ليطلبوه بعينِه من مكانِه ، وفي وقتِه ليصلوا إليه ، فوجبَ أن يكفيَهم أمرَ ذلك ويوصلَهم إليه .

والثَّالثُ : أنَّه كلَّفَهم الخدمةَ ، وطلبُ الرِّزقِ شاغلٌ عنها ، فوجبَ أن يكفيَهم المؤنةَ ليتفرَّغوا للخدمةِ .

وهٰذا كلامُ من لم يُحطْ بأسرارِ الرُّبوبيَّةِ ، والقائلُ بأنَّ الرِّزقَ على ٱللهِ واجبٌ تائهٌ ، وقد أوضحْنا في فنِّ الكلامِ فسادَه ، ولنرجعْ إلى المقصودِ من غرضِنا .

وأمَّا الرِّزقُ المقسومُ : فهو ما قسمَه اللهُ سبحانَه وكتبَه في اللَّوحِ المحفوظِ ما يأكلُه ويشربُه ويلبسُه كلُّ واحدٍ بمقدارٍ ووقتٍ مؤقَّتٍ ، لا يزيدُ ولا ينقصُ ، ولا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ عمَّا كُتبَ بعينِه ، كما قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « الرِّزقُ مقسومٌ مفروغٌ منه ، ليسَ تقوىٰ متَّقٍ بزائدِه ، ولا فجورُ فاجرٍ بناقصِه »[1] .

وأمَّا المملوكُ : فما يملكُه كلُّ واحدٍ من أموالِ الدُّنيا علىٰ حسبِ ما قدَّرَ اللهُ تعالىٰ وقسمَ له أن يملكَه ، وهو من رزقِ اللهِ تعالى ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم ﴾ أي : ممَّا ملَّكناكم .

وأمَّا الموعودُ : فهو ما وعدَ اللهُ تعالى المتَّقينَ من عبادِه بشرطِ التَّقوىٰ حلالاً من غير كدٍّ ، قالَ ٱللهُ تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ .

فهٰذه أقسامُ الرِّزقِ ، والتَّوكُّلُ إنَّما يجبُ بإزاءِ المضمونِ منها ، فاعلمْ ذلك .

---

(١) ذكره في « لسان الميزان » (٢/١٤٨) ، وانظر « كشف الخفاء » (١/٢٢٩) .

وأمَّا حدُّ التَّوكُّلِ : فقد قالَ بعضُ شيوخِنا : إنَّه اتِّكالُ القلبِ إلى اللهِ تعالىٰ بالانقطاعِ إليه ، والإياسِ عمَّا دونَه .

وقالَ بعضُهم : حفظُ القلبِ إلى اللهِ تعالىٰ بموضعِ المصلحةِ ، بتركِ تعليقِه علىٰ شيءٍ دونَه .

قالَ الشَّيخُ أبو عمرٍو رحمَه اللهُ[1] : التَّوكُّلُ تركُ التَّعليقِ ، والتَّعليقُ : ذكرُ قِوامِ بنيتِك عن شيءٍ دونَ اللهِ تعالى .

قالَ شيخي الإمامُ رحمَه اللهُ : التَّوكُّلُ والتَّعليقُ ذِكرانِ ، فالتَّوكُّلُ : هو ذكرُ قِوامِ بنيتِك من قِبَلِ اللهِ تعالى ، والتَّعليقُ : ذكرُ قِوامِها عمَّن دونَ اللهِ تعالى .

والأقاويلُ عندي ترجعُ إلىٰ أصلٍ واحدٍ ، وهو أن توطِّنَ قلبَك علىٰ أنَّ قِوامَ بنيتِك وسدَّ خَلَّتِك وكفايتِك إنَّما هو من اللهِ عزَّ وجلَّ ، لا بأحدٍ دونَ اللهِ تعالى ، ولا بحطامٍ من الدُّنيا ، ولا بسببٍ من الأسبابِ ، ثمَّ إنَّ اللهَ تعالىٰ إن شاءَ . . سبَّبَ له مخلوقاً أو حطاماً ، وإن شاءَ . . كفاه بقدرتِه دونَ الأسبابِ والوسائطِ ، فإذا ذكرتَ ذلك بقلبِك ، وتوطَّنْتَ عليه ، وانقطعَ القلبُ عن المخلوقينَ والأسبابِ بمرَّةٍ إلى اللهِ سبحانَه وحدَه . . فقد حصَّلَ التَّوكُّلُ حقَّه ، فهٰذا حدُّه .

وأمَّا حصنُ التَّوكُّلِ الباعثُ عليه : فهو ذكرُ ضمانِ اللهِ تعالى ، وحصنُ حصنِه : ذكرُ جلالِ اللهِ وكمالِه في علمِه وقدرتِه ونزاهتِه عن الخُلفِ والسَّهوِ والعجزِ وصفاتِ النَّقصِ ، فإذا واظبَ العبدُ علىٰ هٰذه الأذكارِ . . بعثَتْه على التَّوكُّلِ على اللهِ سبحانَه في أمرِ الرِّزقِ .

فإن قيلَ : هل يلزمُ العبدَ طلبُ الرِّزقِ بحالٍ ؟

فاعلمْ : أنَّ الرِّزقَ المضمونَ الَّذي هو الغذاءُ والقِوامُ لا يمكنُنا طلبُه ؛ إذ هو

---

(١) قال الإمام الكديري رحمه الله تعالىٰ في « سراج الطالبين » (٢/ ٩٧) : (قيل : أراد به أبا عمرو محمد بن إبراهيم الزجاجي النيسابوري ، جاور بمكة سنين كثيرة ، ومات بها ، صحب الجنيد وأبا عثمان والنوري والخواص ورويماً ، مات سنة ثمان وأربعين وثلاث مئة) .

شيءٌ من فعلِ اللهِ سبحانَه بالعبدِ ، كالحياةِ والموتِ ، لا يقدرُ العبدُ علىٰ تحصيلِه ولا دفعِه .

وأمَّا المقسومُ من الأسبابِ : فلا يلزمُ العبدَ طلبُه ؛ إذ لا حاجةَ للعبدِ إلىٰ ذلك ، وإنَّما حاجتُه إلى المضمونِ ، وهو من اللهِ تعالى ، وفي ضمانِ اللهِ تعالى .

وأمَّا قولُه تعالى : ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ . . فالمرادُ به : العلمُ والثَّوابُ ، وقيلَ : بل هو رخصةٌ ؛ إذ هو أمرٌ واردٌ بعدَ الحظرِ ، فيكونُ بمعنى الإباحةِ ، لا بمعنى الإيجابِ والإلزامِ .

فإن قيلَ : لكنْ لهذا الرِّزقِ المضمونِ أسبابٌ ، فهل يلزمُنا طلبُ الأسبابِ ؟

قيلَ له : لا يلزمُك ذلك ؛ إذ لا حاجةَ للعبدِ إليه ؛ إذ اللهُ سبحانَه يفعلُ بسببٍ وبغيرِ سببٍ ، فمن أين يلزمُنا طلبُ السَّببِ ؟!

ثمَّ إنَّ اللهَ تعالىٰ ضمنَ لنا ضماناً مطلقاً من غيرِ شرطِ الطَّلبِ والكسبِ ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ .

ثمَّ كيف يصحُّ أن يأمرَ العبدَ بطلبِ ما لا يعرفُ مكانَه فيطلبُه ؟! إذ لا يعرفُ أيَّ سببٍ منها رزقُه الَّذي يتناولُه لا غيرُ ، والَّذي يصيرُ سببَ غذائِه وتربيتِه لا غيرُ ، فالواحدُ منَّا لا يعرفُ ذلك السَّببَ بعينِه ، ومن أين يحصلُ له ، فلا يصحُّ تكليفُه ، فتأمَّلْ ذلك راشداً ؛ فإنَّه بيِّنٌ .

ثمَّ حسبُك أنَّ الأنبياءَ صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ والأولياءَ المتوكِّلينَ لم يطلبوا رزقاً في الأكثرِ والأعمِّ ، وتجرَّدوا للعبادةِ ، وبالإجماعِ أنَّهم لم يكونوا تاركينَ لأمرِ اللهِ تعالى ، ولا عاصينَ له تعالىٰ في ذلك ، فتبيَّنَ لكَ أنَّ طلبَ الرِّزقِ وأسبابِه ليسَ بأمرٍ لازمٍ للعبدِ .

فإن قلتَ : هل يزيدُ الرِّزقُ بالطَّلبِ ؟ وهل ينقصُ بتركِ الطَّلبِ ؟

قلتُ : كلاَّ ؛ فإنَّه مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ ، مقدَّرٌ مؤقَّتٌ ، ولا تبديلَ لحكمِ اللهِ ، ولا تغييرَ لقسمتِه وكتابتِه .

هٰذا هو الصَّحيحُ عندَ علمائِنا رضيَ اللهُ عنهم ، خلافَ ما ذهبَ إليه بعضُ أصحابِ حاتمٍ وشقيقٍ ، قالوا : إنَّ الرِّزقَ لا يزيدُ ولا ينقصُ بفعلِ العبدِ ، لٰكنَّ المالَ يزيدُ وينقصُ ، وهٰذا فاسدٌ ؛ لأنَّ الدَّليلَ في الموضعينِ واحدٌ ، وهو الكتابةُ والقسمةُ ، وإليه الإشارةُ بقولِه تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ ، ولو كانَ بالطَّلبِ يزيدُ ، وبالتَّركِ ينقصُ . . لكانَ للأسىٰ والفرحِ موضعٌ إذا هو قصَّرَ وتوانىٰ حتَّىٰ فاته ، وجدَّ وشمَّرَ حتَّىٰ حصَّلَه ، وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للسَّائلِ : « هاكَ ، لو لم تأتِها . . لأتتْك »[1] .

وقالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : « لو ندَّ أحدُكم من رزقِه . . لأدركَه كما يُدركُه الموتُ »[2] .

فإن قيلَ : فالثَّوابُ والعقابُ أيضاً مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ ، ثمَّ يلزمُنا طلبُ الثَّوابِ ، وتركُ موجِبِ العقابِ ، فهل يزيدُ بالطَّلبِ ، أو ينقصُ بالتَّركِ ؟

فاعلمْ : أنَّ طلبَ الثَّوابِ إنَّما وجبَ لأنَّ اللهَ تعالىٰ أمرَ به أمراً حتماً ، وأوعدَ علىٰ تركِه ، ولم يضمنِ الثَّوابَ علىٰ غيرِ فعلٍ منَّا ، وزيادةُ الثَّوابِ والعقابِ بفعلِ العبدِ ، فالفرقُ بينَهما في نكتةٍ ، وهي ما قالَه بعضُ علمائِنا رضيَ اللهُ عنهم : إنَّ المكتوبَ في اللَّوحِ المحفوظِ قسمانِ :

ـ قسمٌ هو مكتوبٌ مطلقاً من غيرِ شرطٍ وتعليقٍ بفعلِ العبدِ ، وهو الأرزاقُ والآجالُ ، أمَا ترىٰ كيف ذكرَهما اللهُ تعالىٰ مطلقاً غيرَ مشروطٍ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ، وقالَ تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣٢٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٤٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، والحديث قاله النبي صلى الله عليه وسلم لما أعطى السائل الذي جاء يسأله تمرةً عائرةً ؛ أي : ساقطة لا مالك لها .

(٢) أخرجه بنحوه ابن حبان (٣٢٣٨) عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، وبلفظه الطبراني في « الأوسط » (٤٤٤١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

وقالَ صاحبُ الشَّرعِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : « أربعةٌ قد فُرِغَ منهنَّ : الخَلْقُ ، والخُلُقُ ، والرِّزقُ ، والأَجلُ »؟[1]

ـ وقسمٌ مكتوبٌ بشرطٍ معلَّقٍ ، مشروطٌ بفعلِ العبدِ ، وهو الثَّوابُ والعقابُ ، أمَا ترىٰ كيف ذكرَهما اللهُ تعالىٰ في كتابه معلَّقاً بفعلِ العبدِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ ؟

وهٰذا بيِّنٌ فاعلمْه .

فإن قيلَ : فنحنُ نجدُ الطَّالبينَ يجدونَ الأرزاقَ والأموالَ ، والتَّاركينَ يَعدِمونَ ويفتقرونَ .

قيلَ له : كأنَّك لا تجدُ مع ذلك طالباً محروماً فقيراً ، أو فارغاً مرزوقاً غنيّاً ، بل إنَّ هٰذا هو الأكثرُ؛ لتعلمَ أنَّ ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ ، وتدبيرُ الملكِ الحكيمِ .

وأنشدني أبو بكرٍ محمَّدُ بنُ سابقٍ الصِّقلِّيُّ الواعظُ رحمَه اللهُ تعالىٰ بالشَّامِ : [من البسيط]

كم من قويٍّ قويٍّ في تقلُّبه ... مهذَّبِ الرَّأيِ عنه الرِّزقُ منحرفُ
وكم ضعيفٍ ضعيفٍ في تقلُّبِه ... كأنَّه من خليجِ البحرِ يغترفُ
هٰذا دليلٌ علىٰ أنَّ الإلٰهَ لَه ... في الخلقِ سرٌّ خفيٌّ ليسَ ينكشفُ[2]

فإن قلتَ : فهل ندخلُ الباديةَ بلا زادٍ ؟

فاعلمْ : أنَّه إن كانَ لك قوَّةُ القلبِ باللهِ والثِّقةُ البالغةُ بوعدِ اللهِ . . فادخلْ ، وإلاَّ . . فكنْ كالعوامِّ بعلائقِهم ، ولقد سمعتُ الإمامَ أبا المعالي رحمَه اللهُ يقولُ : إنَّ من جرىٰ مع اللهِ تعالىٰ علىٰ عادةِ النَّاسِ . . جرى اللهُ تعالىٰ معه علىٰ

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (١٥٨٣) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أخرج أبو نعيم في « الحلية » (٧/٢٧٦) ، وابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ١٥٢) عن محمد بن يحيى بن أبي عمر قال : كنا عند سفيان بن عيينة ، فذكروا الفضل بن الربيع ودهاءه ، فأنشأ سفيان يقول . . . وذكر البيتين الأولين .

ما هو عادةُ النَّاسِ في كفايةِ المؤنةِ ، وهـٰذا كلامٌ حسنٌ جدّاً ، وفيه فوائدُ جمَّةٌ لمن تأمَّلَها .

فإن قلتَ : أليسَ اللهُ تعالىٰ يقولُ : ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ ؟

فاعلمْ : أنَّ فيه قولينِ :

أحدُهما : أنَّه زادُ الآخرةِ ، ولذلكَ قالَ : ﴿خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ ، ولم يقلْ : حطامُ الدُّنيا وأسبابُها .

والثَّاني : (أنَّه كانَ قومٌ لا يأخذونَ زاداً في طريقِ الحجِّ لأنفسِهم اتِّكالاً على النَّاسِ ، ويسألونَ ويلحُّونَ ويؤذونَ النَّاسَ ، فأُمروا بالزَّادِ أمرَ تنبيهٍ)[1] .

علىٰ أنَّ أخذَ الزَّادِ من مالِكَ خيرٌ من أخذِ مالِ النَّاسِ والاتِّكالِ عليهم ، وكذلكَ نقولُ .

فإن قلتَ : فالمتوكِّلُ هل يحملُ الزَّادَ معه في الأسفارِ أم لا ؟

فاعلمْ : أنَّه ربَّما يحملُ الزَّادَ ولا يعلِّقُ القلبَ به بأنَّه لا محالةَ رزقُه ، وفيه قِوامُه ، إنَّما يعلِّقُ القلبَ باللهِ تعالىٰ ويتوكَّلُ عليه ، ويقولُ : إنَّ الرِّزقَ مقسومٌ مفروغٌ منه ، واللهُ تعالىٰ إن شاءَ . أقامَ بِنْيَتي بهـٰذا أو بغيرِه ، وربَّما يحملُ بنِيَّةٍ أخرى ؛ بأن يعينَ مسلماً أو نحوِ ذلك ، وليسَ الشَّأنُ في أخذِ الزَّادِ وتركِه ، إنَّما الشَّأنُ في القلبِ ، لا تُعلِّقْ قلبَك إلاَّ بوعدِ اللهِ تعالىٰ وحسنِ كفايتِه وضمانِه ، فكم من حاملٍ للزَّادِ وقلبُه مع اللهِ تعالىٰ دونَ الزَّادِ ، وكم من تاركٍ للزَّادِ وقلبُه مع الزَّادِ دونَ اللهِ تعالى ، فالشَّأنُ إذنْ في القلبِ ، فافهمْ هـٰذه الأصولَ تُكفَ المؤنةَ إن شاءَ اللهُ تعالى .

فإن قيلَ : فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كانَ يحملُ الزَّادَ ، وكذلكَ الصَّحابةُ والسَّلفُ الصَّالحُ .

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٢٣) ، وابن حبان (٢٦٩١) ، وأبو داوود (١٧٣٠) من قول ابن عباس رضي الله عنهما .
وهـٰؤلاء القوم : هم أهل اليمن كما في الحديث .

يقالُ له : لا جرمَ أنَّ ذلك مباحٌ غيرُ حرامٍ ، إنَّما الحرامُ تعليقُ القلبِ بالزَّادِ ، وتركُ التَّوكُّلِ على اللهِ سبحانَه وتعالى ، فافهمْ ذلك .

ثمَّ ما ظنُّك برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حيثُ قالَ اللهُ تعالىٰ له : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ ، أعَصاهُ في ذلك وعلَّقَ قلبَه بطعامٍ أو شرابٍ أو درهمٍ أو دينارٍ ؟ كلاَّ وحاشا أن يكونَ ذلك ، بل كانَ قلبُه مع اللهِ تعالى ، وتوكُّلُه على اللهِ تعالى ، فإنَّه الَّذي لم يلتفتْ إلى الدُّنيا بأسرِها ، ولم يمدَّ يدَه إلىٰ مفاتيحِ خزائنِ الأرضِ كلِّها ، وإنَّما كانَ أخذُ الزَّادِ منه ومن السَّلفِ الصَّالحِ لنيَّاتِ الخيرِ ، لا لميلِ قلوبِهم عن اللهِ تعالىٰ إلى الزَّادِ ، والمعتبرُ القصدُ علىٰ ما أعلمناك ، فانتبهْ من رَقدتِك .

فإن قلتَ : أيُّهما أفضلُ ؛ أخذُ الزَّادِ أم تركُه ؟

فاعلمْ : أنَّ هـٰذا يختلفُ باختلافِ الحالِ ؛ إن كانَ مقتدىً به يريدُ أن يبيِّنَ أنَّ أخذَ الزَّادِ مباحٌ ، أو ينويَ به عونَ مسلمٍ ، أو إغاثةَ ملهوفٍ ونحوَ ذلك . . فالأخذُ أفضلُ ، وإن كانَ منفرداً ، قويَّ القلبِ باللهِ سبحانَه ، يشغلُه الزَّادُ عن عبادةِ اللهِ تعالى . . فالتَّركُ أفضلُ ، فتفهَّمْ هـٰذه الجملةَ واحتفظْ بها راشداً ، وباللهِ التَّوفيقُ .

العارضُ الثَّاني : الأخطارُ وإرادتُها وقصودُها ، وإنَّما كفايتُها في التَّفويضِ ، فعليكَ بتفويضِ الأمرِ كلِّه إلى اللهِ سبحانَه وتعالى ، وذلك لأمرينِ :

أحدُهما : لطمأنينةِ القلبِ في الحالِ ؛ فإنَّ الأمورَ إذا كانتْ خطيرةً مبهمةً لا يُدرَىٰ صلاحُها من فسادِها . . تكونُ بها مضطربَ القلبِ ، هائمَ النَّفسِ ، لا تَدري تقعُ في صلاحٍ أو فسادٍ ، فإذا فوَّضتَ الأمرَ كلَّه إلى اللهِ تعالى . . علمتَ أنَّك لا تقعُ إلاَّ في صلاحٍ وخيرٍ ، فتكونُ آمناً من الخطرِ والآفةِ والمخالفةِ ، مطمئنَّ القلبِ في الحالِ ، وهـٰذه الطُّمأنينةُ والأمنُ والرَّاحةُ في القلبِ غنيمةٌ عظيمةٌ ، وكانَ شيخُنا رحمَه اللهُ يقولُ في مجالسِه كثيراً : دعِ التَّدبيرَ علىٰ من خلقَك تسترحْ ، وقد أنشَدَ في ذلك : [من الخفيف]

إنَّ من كانَ ليسَ يدري أفي المحـ ـبوبِ نفعٌ لـه أو المكروهِ

لحــريٌّ بــأن يفــوِّضَ مــا يعــ ــجزُ عنــه إلــى الَّــذي يكفيــهِ
الإلــهِ البَــرِّ الَّــذي هــو بــالــرَّأ فــةِ أحنــىٰ مــن أمِّــه وأبيــهِ[1]

والثَّاني من الأمرينِ : حصولُ الصَّلاحِ والخيرِ في الاستقبالِ ، وذلك لأنَّ الأمورَ بالعواقبِ مبهمةٌ ، فكم من شرٍّ في صورةِ خيرٍ ، وكم من ضرٍّ في حِليةِ نفعٍ ، وكم من سمٍّ في هيئةِ شَهدٍ ، وأنت الجاهلُ بالعواقبِ والأسرارِ ، فإذا أردتَ الأمورَ قطعاً ، وأخذتَ فيها باختيارِك متحكِّماً . . فما أسرعَ ما تقعُ في هلاكِ وأنت لا تشعرُ .

ولقد حُكيَ أنَّ بعضَ العبَّادِ كانَ يسألُ اللهَ تعالىٰ أن يريَه إبليسَ ، فقيلَ له : سلِ اللهَ تعالى العافيةَ ، فأبىٰ إلاَّ ذلك ، فأظهرَه اللهُ تعالىٰ له ، فلمَّا رآهُ العابدُ . . قصدَه بالضَّربِ ، فقالَ له إبليسُ : لولا أنَّك تعيشُ مئةَ سنةٍ . . لأهلكتُك وعاقبتُك ، فاغترَّ بقولِه ، وقالَ في نفسِه : إنَّ عمري بعيدٌ طويلٌ ، فأفعلُ ما أريدُ ثمَّ أتوبُ ، فوقعَ في الفسقِ ، وتركَ العبادةَ ، فهلكَ .

ففي هـٰذه ما ينبِّهُك علىٰ تركِ الحكمِ في إرادتِك ، واللَّجاجِ في مطلوبِك ، ويحذِّرُك طولَ الأملِ أيضاً ؛ فإنَّه الآفةُ العظيمةُ ، ولقد صدقَ القائلُ : [من الوافر]

ألا يــا نفــسُ إن تــرضــيْ بقــوتٍ تكـــونـــي حـــرَّةً أبـــداً مليَّـــهْ
وإيَّـــاكِ المطـــامـــعَ والأمـــانـــي فكـــم أمنيَّـــةٍ جلبـــتْ منيَّـــهْ[2]

وأمَّا إذا فوَّضتَ أمرَك إلى اللهِ سبحانَه ، وسألتَه أن يختارَ لك ما هو صلاحُك . . لم تلقَ إلاَّ الخيرَ والسَّدادَ ، ولا تقعُ إلاَّ على الصَّلاحِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ حكايةً عن العبدِ الصَّالحِ : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ❁ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ .

أمَا ترىٰ كيف أعقبَ تفويضَه الوقايةَ من الأسواءِ ، والنَّصرَ على الأعداءِ ،

---

(1) الأبيات لإسماعيل بن أبي محمد اليزيدي . انظر « معجم الأدباء » (٣/ ٣٤) ، و« الوافي بالوفيات » (٩/ ٢٤٠) .

(2) البيتان لعبد الله بن المعتز . انظر « ديوانه » (ص ٣٩٢) .

وبلوغَ المرادِ ؟ فتأمَّلْ موفَّقاً إن شاءَ اللهُ تعالى .

فإن قلتَ : بيِّنْ لنا معنى التَّفويضِ وحكمَه .

فاعلمْ : أنَّ هـٰهنا فصلينِ ، بهما يتَّضحُ الكلامُ :

أحدُهما : موضعُ التَّفويضِ .

والثَّاني : معناه وحدُّه وضدُّه .

أمَّا موضعُه : فاعلمْ أنَّ المراداتِ ثلاثةٌ :

مرادٌ تعلمُ يقيناً أنَّه فسادٌ وشرٌّ لا شكَّ فيه ألبتَّةَ ، كالنَّارِ والعذابِ ، وفي الأفعالِ كالكفرِ والبدعةِ والمعصيةِ ، فلا سبيلَ إلىٰ إرادةِ ذلك .

والثَّاني : مرادٌ تعلمُ قطعاً أنَّه صلاحٌ ، كالجنَّةِ والإيمانِ والسُّنَّةِ ونحوِ ذلك ، فلك إرادتُها بالحكمِ ، لا موضعَ للتَّفويضِ فيه ؛ إذ لا خطرَ فيه ولا شكَّ أنَّه خيرٌ وصلاحٌ .

والثَّالثُ : مرادٌ لا تعلمُ يقيناً أنَّ لك فيه صلاحاً أو فساداً ، وذلك نحوُ النَّوافلِ والمباحاتِ ، فهـٰذا موضعُ التَّفويضِ ، فليسَ لك أن تريدَها قطعاً ، بل بالاستثناءِ وشرطِ الخيرِ والصَّلاحِ ، فإن قيَّدتَ إرادتَك بالاستثناءِ . . فهو تفويضٌ ، وإن أردتَ دونَ الاستثناءِ . . فهو طمعٌ مذمومٌ منهيٌّ عنه .

فموضعُ التَّفويضِ إذنْ : كلُّ مرادٍ فيه الخطرُ ، وهو ألاَّ تستيقنَ صلاحَك فيه .

وأمَّا معنى التَّفويضِ : فقد قالَ بعضُ شيوخِنا رحمَهم اللهُ : هو تركُ اختيارِ ما فيه مخاطرةٌ إلى المختارِ المدبِّرِ ، العالمِ بمصلحةِ الخلقِ ، لا إلهَ إلاَّ هو .

وعبارةُ الشَّيخِ أبي محمَّدٍ السِّجْزيِّ رحمَه اللهُ : هو تركُ اختيارِك المخاطرةَ على المختارِ ، ليختارَ لك ما هو خيرٌ لك .

وقالَ الشَّيخُ أبو عمرٍو رحمَه اللهُ : هو تركُ الطَّمعِ ، والطَّمعُ هو إرادةُ الشَّيءِ المخاطَرِ بالحكمِ .

فهٰذه عباراتُ المشايخِ رحمَهم اللهُ .

والَّذي نقولُه : أنَّ التَّفويضَ إرادةُ أن يحفظَ اللهُ عليكَ مصالحَك فيما لا تأمنُ فيه الخطرَ .

وضدُّ التَّفويضِ : الطَّمعُ ، والطَّمعُ في الجملةِ يجري علىٰ وجهينِ :

أحدُهما : في معنى الرَّجاءِ ، تريدُ شيئاً لا خطرَ فيه ، أو فيه مخاطرةٌ بالاستثناءِ ، وذلك ممدوحٌ غيرُ مذمومٍ ، كما قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ ، وقالَ : ﴿ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ ﴾ .

وهٰذا القسمُ ليسَ ممَّا نحنُ فيه بسبيلٍ ههنا .

والثَّاني : طمعٌ مذمومٌ ، قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « إيَّاكم والطَّمعَ ؛ فإنَّه فقرٌ حاضرٌ »[1] .

وقيلَ : هلاكُ الدِّينِ وفسادُه الطَّمعُ ، ومِلاكُه الورعُ .

قالَ شيخُنا رحمَه ٱللهُ : الطَّمعُ المذمومُ شيئانِ :

أحدُهما : سكونُ القلبِ إلىٰ منفعةٍ مشكوكةٍ .

والثَّاني : إرادةُ الشَّيءِ المخاطَرِ بالحكمِ ، وهٰذه الإرادةُ تقابلُ التَّفويضَ لا غيرُ ، فٱعلمْ ذلك .

وأمَّا حصنُ التَّفويضِ : فهو ذكرُ خطرِ الأمورِ وإمكانِ ٱلهلاكِ والفسادِ فيها ، وحصنُ حصنِه : ذكرُ عجزِك عن الاعتصامِ عن ضروبِ الخطرِ ، والامتناعِ عن الوقوعِ فيها بجهلِك وغفلتِك وضعفِك .

فالمواظبةُ علىٰ هٰذينِ الذِّكرينِ تحملُك علىٰ تفويضِ الأمور كلِّها إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، والتَّحفُّظِ عن الحكمِ فيها ، والامتناعِ عن إرادتِها إلاَّ بشرطِ الخيرِ والصَّلاحِ ، فهٰذه هٰذه وباللهِ التَّوفيقُ .

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/٣٢٦) ، والروياني في « مسنده » (١٥٣٨) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، والطبراني في « الأوسط » (٧٧٤٩) عن جابر رضي الله عنه .

فإن قيلَ : ما هـٰذا الخطرُ الَّذي يوجبونَ التَّفويضَ لأجلِه في الأمورِ ؟

فاعلمْ : أنَّ الخطرَ في الجملةِ خطرانِ :

خطرُ الشَّكِّ بأنَّه يكونُ أو لا يكونُ ، وأنَّك تصلُ إليه أو لا تصلُ إليه ، وهـٰذا يحتاجُ إلى الاستثناءِ ، ويقعُ في بابِ النِّيَّةِ والأملِ .

والثَّاني : خطرُ الفسادِ بألاَّ تستيقنَ فيه الصَّلاحَ لنفسِك أو الفسادَ ، وهـٰذا ٱلَّذي يُحتاجُ فيه إلى التَّفويضِ .

ثمَّ ٱختلفتْ عباراتُ الأئمَّةِ في الخطرِ :

فعن بعضِهم : أنَّ الخطرَ في الفعلِ هو أن تكونَ دونَه نجاةٌ ، ويمكنُ أن يجامعَه ذنبٌ ، فالإيمانُ والاستقامةُ والسُّنَّةُ لا خطرَ فيها ؛ إذ لا يمكنُ دونَ الإيمانِ نجاةٌ ألبتَّةَ ، والاستقامةُ لا يجامعُها ذنبٌ ، فإذنْ تصحُّ إرادةُ الإيمانِ والاستقامةِ بالحكمِ .

وقالَ الأستاذُ رحمَه اللهُ : الخطرُ في الفعلِ ما يمكنُ أن يعترضَ فيه ما يكونُ الاشتغالُ بالعارضِ أولىٰ من الإقدامِ علىٰ ذلك الفعلِ ، وذلك يقعُ في المباحاتِ والسُّننِ والفرائضِ ، ألا ترىٰ أنَّ من تضيَّقَ عليه وقتُ الصَّلاةِ وقصدَ أداءَها ، فقصدَه غريقٌ أو حريقٌ يمكنُه إنقاذُه . . فالاشتغالُ بإنقاذِه أولىٰ من الإقبالِ على الصَّلاةِ ؟ فلا تصحُّ إذنْ إرادةُ المباحاتِ والنَّوافلِ والكثيرِ من الفرائضِ بالحكمِ .

فإن قيلَ : كيف يصحُّ أن يفترضَ اللهُ علىٰ عبدِه شيئاً ، ويوعدَه علىٰ تركِه ، ثمَّ لا يكونُ له صلاحٌ في فعلِه ؟

فاعلمْ : أنَّ شيخَنا رحمَه اللهُ تعالىٰ قالَ : إنَّ ٱللهَ تعالىٰ لا يأمُر العبدَ بشيءٍ إلاَّ وفيه صلاحُه إذا تجرَّدَ عن العوارضِ ، ولا يضيِّقُ عليه فعلاً فرضاً بحيثُ لا معدلَ له عن ذلك إلاَّ وله فيه صلاحٌ ، وإنَّما ربَّما يسبِّبُ اللهُ تعالىٰ له عذراً لأجلِه ، يكونُ العدولُ عن أحدِ المأمورَينِ أولىٰ من الاشتغالِ بالآخرِ كما ذكرنا ، فيكونُ العبدُ في ذلك معذوراً بل مأجوراً ، لا بتركِ هـٰذا الفرضِ ، بل بفعلِ الفرضِ الثَّاني الَّذي هو أولى .

ولقد سمعتُ الإمامَ رحمَه اللهُ تعالىٰ يقولُ في هٰذه المسألةِ : إنَّ كلَّ ما افترضَ اللهُ علىٰ عبادِه من الصَّلاةِ والحجِّ والصَّومِ ونحوِه ففيها صلاحٌ لا محالةَ للعبدِ ، وصحَّتْ إرادتُها بالحكمِ ، فاتَّفقَ رأيُنا علىٰ ذلك ، فبقيَ المباحاتُ والنَّوافلُ إذنْ في هٰذا الحكمِ ، فاعلمْ ذلك فإنَّه من غوامضِ البابِ ، وباللهِ التَّوفيقُ .

فإن قيلَ : هل يأمنُ المفوِّضُ الهلاكَ والفسادَ والدَّارُ دارُ محنةٍ ؟

فاعلمْ : أنَّ في الأغلبِ لا يُفعلُ بالمفوِّضِ إلاَّ الصَّلاحُ ، وقد يُفعلُ به في النَّادرِ غيرُ الصَّلاحِ ، ولذلكَ ربَّما يخذلُه اللهُ تعالىٰ فيقعُ عن منزلةِ التَّفويضِ ، ولا صلاحَ للعبدِ في الخِذلانِ والوقوعِ عن منزلةِ التَّفويضِ ، وبه قالَ الشَّيخُ أبو عمرٍو رحمَه اللهُ .

وقيلَ : لا يُفعلُ بالمفوِّضِ إلاَّ ما فيه صلاحُه فيما فوَّضَ إلى اللهِ سبحانَه ، والخِذلانُ والقصورُ عن منزلةِ التَّفويضِ ممَّا لا يقعُ فيه التَّفويضُ ؛ إذ لا شكَّ في فسادِ ذلك ، والتَّفويضُ إنَّما يقعُ فيما يُشكُّ في فسادِه وصلاحِه ، وهٰذا أولى القولينِ عندَ شيخِنا رحمَه اللهُ ؛ إذ لولا ذلك . . لمَا قويتِ الباعثةُ على التَّفويضِ .

فإن قيلَ : فهل يجبُ أن يُفعلَ بالمفوِّضِ ما هو الأفضلُ ؟

فاعلمْ : أنَّ الإيجابَ مستحيلٌ في حقِّ اللهِ سبحانَه وتعالى ، ولا يجبُ لعبادِه عليه شيءٌ ، وقد يَفعلُ بالعبدِ الأصلحَ دونَ الأفضلِ حكمةً من فعلِه ، ألا ترىٰ أنَّه قدَّرَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابِه رضيَ اللهُ عنهم أن يناموا طولَ ٱللَّيلِ إلىٰ طلوعِ الشَّمسِ في بعضِ الأسفارِ حتَّىٰ فاتتْهم صلاةُ ٱللَّيلِ وصلاةُ الفجرِ والصَّلاةُ أفضلُ من النَّومِ ؟[1] .

وربَّما يُقدِّرُ للعبدِ الغنىٰ والنِّعمةَ في ٱلدُّنيا وإن كانَ الفقرُ أفضلَ ، ويقدِّرُ له ٱلاشتغالَ بالأزواجِ والأولادِ وإن كانَ التَّجرُّدُ لعبادةِ اللهِ تعالىٰ أفضلَ ؛ فإنَّه بعبادِه خبيرٌ بصيرٌ .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥) ، ومسلم (٦٨١) ، وابن خزيمة (٤١٠) عن أبي قتادة رضي الله عنه .

وهٰذا كما أنَّ الطَّبيبَ الحاذقَ النَّاصحَ يختارُ للمريضِ ماءَ الشَّعيرِ وإن كانَ ماءُ السُّكَّرِ أفضلَ وأنفسَ ؛ لمَا علمَ أنَّ صلاحَ علَّتِه في ماءِ الشَّعيرِ ، والمقصودُ للعبدِ النَّجاةُ من الهلاكِ ، لا الفضلُ والشَّرفُ مع الفسادِ والهلاكِ .

فإن قيلَ : هل يكونُ المفوِّضُ مختاراً ؟

فاعلمْ : أنَّ الصَّحيحَ عندَ علمائِنا أنَّه يكونُ مختاراً ولا يقدحُ في تفويضِه ، وذلك أنَّ المعنىٰ فيه إذا كانَ له صلاحٌ في المفضولِ والأفضلِ . . فهو يريدُ من ٱللهِ تعالىٰ أن يسبِّبَ له الأفضلَ ، كما أنَّ المريضَ يقولُ للطَّبيبِ : ٱجعلْ دوائي ماءَ السُّكَّرِ دونَ ماءِ الشَّعيرِ إذا كانَ لي صلاحٌ في كليْهما ؛ ليحصلَ لي الفضلُ والصَّلاحُ جميعاً ، فكذلكَ العبدُ إذا سألَ اللهَ تعالىٰ أن يجعلَ صلاحَه فيما هو الأفضلُ ويسبِّبَ له ذلك ليجمعَ له الفضلَ والصَّلاحَ جميعاً ، ولـٰكنْ بشرطِ أنَّه إن ٱختارَ ٱللهُ تعالىٰ له الصَّلاحَ في غيرِ الأفضلِ أن يكونَ راضياً بذلكَ .

فإن قيلَ : فلماذا كانَ للعبدِ أن يختارَ الأفضلَ وليسَ له أن يختارَ الأصلحَ ؟

فاعلمْ : أنَّ الفرقَ بينَهما : أنَّ العبدَ يعرفُ الأفضلَ من المفضولِ ولا يعرفُ الصَّلاحَ من الفسادِ ليريدَه بالحكمِ ، ثمَّ معنى ٱختيارِه الأفضلَ : أن يريدَ من اللهِ تعالىٰ أن يجعلَ صلاحَه فيما هو الأفضلُ ، ويختارَ له ذلك ويقدِّرَه ، لا أنَّ للعبدِ تحكُّماً في شيءٍ من ذلك ، فاعلمْه .

فهٰذه جملةٌ من دقيقِ هٰذا العلمِ وأسرارِه ، ولولا أنَّ الحاجةَ مسَّتْ إليه . . لمَا تعرَّضْنا لإيرادِه ؛ لأنَّه يلاطمُ بحارَ علومِ المكاشفةِ ، مع أنِّي ٱقتصرتُ على النُّكتِ المقنعةِ في هٰذا الكتابِ ، وقصدتُ الإيضاحَ لينتفعَ به فحولُ العلماءِ والمبتدئونَ إن شاءَ اللهُ تعالى ، وباللهِ التَّوفيقُ .

العارضُ الثَّالثُ : القضاءُ وورودُ أنواعِه ، وإنَّما كفايتُه في الرِّضا به ، فعليكَ أن ترضىٰ بقضاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وذلك لأمرينِ :

أحدُهما : التَّفرُّغُ للعبادةِ ؛ لأنَّكَ إذا لم ترضَ بقضاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ . . تكونُ مهموماً مشغولَ القلبِ أبداً بأنَّه لِمَ كانَ كذا ؟ ولِمَ لا يكونُ كذا ؟

فإذا ٱشتغلَ القلبُ بشيءٍ من هـٰذه الهمومِ . . كيف يتفرَّغُ للعبادةِ ؟! إذ ليسَ لك إلاَّ قلبٌ واحدٌ وقد ملأتَه من ٱلهمومِ وما كانَ وما يكونُ من أمرِ الدُّنيا ، فأيُّ موضعٍ يكونُ فيه لذكرِ العبادةِ وفكرِ الآخرةِ ؟!

ولقد صدقَ شقيقٌ رحمَه اللهُ حيثُ قالَ : إنَّ حسرةَ الأمورِ الماضيةِ وتدبيرَ الآتيةِ قد ذهبتْ ببركةِ ساعتِك هـٰذه .

والثَّاني من الأمرينِ : خطرُ ما في السُّخطِ من غضبِ اللهِ تعالى ، ولقد روينا في الأخبارِ : أنَّ نبيّاً من الأنبياءِ شكا بعضَ ما نالَه من المكروهِ إلى اللهِ سبحانَه وتعالى ، فأوحى ٱللهُ تعالىٰ إليه : أتشكوني ولستُ بأهلِ ذمٍّ ولا شكوى ؟! هـٰكذا بدا شأنُك في علمِ الغيبِ ، فلِمَ تسخطُ قضائي عليكَ ؟ أتريدُ أن أغيِّرَ الدُّنيا لأجلِك ، أو أبدِّلَ اللَّوحَ المحفوظَ بسببِك ، فأقضي ما تريدُ دونَ ما أريدُ ، ويكونُ ما تحبُّ دونَ ما أحبُّ ؟ فبعزَّتي حلفتُ ؛ لئن تلجلجَ هـٰذا في صدرِك مرَّةً أخرى . . لأَسلُبَنَّك ثوبَ النُّبوَّةِ ، ولأُورِدَنَّك النَّارَ ولا أبالي .

قلتُ : فليستمعِ العاقلُ هـٰذه السِّياسةَ العظيمةَ والوعيدَ الهائلَ مع أنبيائِه وأصفيائِه صلواتُ اللهِ عليهم ، فكيف مع غيرِهم ؟!

ثمَّ استمعْ ما يقولُ : (لئن تلجلجَ هـٰذا في صدرِك مرَّةً أخرىٰ) ، فهـٰذا في حديثِ النَّفسِ وتردُّدِ القلبِ ، فكيف بمن يصرخُ ويستغيثُ ويشكو ، أو ينادي بالويلِ والصُّراخِ من ربِّه علىٰ رؤوسِ الملأِ ويتَّخذُ له أعواناً وأصحاباً ؟!

وهـٰذا لمن سخطَ مرَّةً ، فكيف بمن هو في السُّخطِ على اللهِ تعالىٰ جميعَ عمرِه ؟!

وهـٰذا لمن شكا إليه ، فكيف بمن شكا إلىٰ غيرِه ؟!

نعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا ، وسيِّئاتِ أعمالِنا ، ونسألُه أن يعفوَ عنَّا ، ويغفرَ لنا سوءَ آدابِنا ، ويصلحَنا بحسنِ نظرِه ، إنَّه أرحمُ الرَّاحمينَ .

فإن قيلَ : فما معنى الرِّضا بالقضاءِ وحقيقةُ ذلك وحكمُه ؟

فاعلمْ : أنَّ علماءَنا قالوا : إنَّ الرِّضا تركُ السُّخطِ ، والسُّخطُ ذكرُ غيرِ

ما قضى ٱللهُ تعالىٰ بأنَّه أولىٰ به وأصلحُ له فيما لا يستيقنُ فسادَه وصلاحَه ، هٰذا شرطٌ فيه ، فاعلمْ ذلك .

فإن قلتَ : أليسَ الشُّرورُ والمعاصي بقضاءِ اللهِ تعالىٰ وقدرِه ؟ فكيف يرضى العبدُ الشَّرَّ ويلزمُهُ ذلك ؟!

فاعلمْ : أنَّ الرِّضا إنَّما يلزمُ بالقضاءِ ، وقضاءُ الشَّرِّ ليسَ بشرٍّ ، وإنَّما الشَّرُّ هو المقضيُّ ؛ فلا يكونُ رضاً بالشَّرِّ .

وقد قالَ شيوخُنا رحمَهم اللهُ تعالى : المقضيَّاتُ أربعةٌ : نعمةٌ ، وشدَّةٌ ، وخيرٌ ، وشرٌّ .

فالنِّعمةُ : يجبُ الرِّضا فيها بالقاضي ، والقضاءِ ، والمقضيِّ ، ويجبُ عليه الشُّكرُ من حيثُ إنَّها نعمةٌ ، وإظهارُ النِّعمةِ عليه ؛ بإبداءِ أثرِ النِّعمةِ .

والشِّدَّةُ : يجبُ الرِّضا فيها بالقاضي ، والقضاءِ ، والمقضيِّ ، ويجبُ عليه الصَّبرُ من حيثُ إنَّها شدَّةٌ .

وٱلخيرُ : يجبُ الرِّضا فيه بالقاضي ، والقضاءِ ، والمقضيِّ ، ويجبُ عليه ذكرُ المنَّةِ من حيثُ إنَّه خيرٌ وفَّقَه له .

والشَّرُّ : يجبُ عليه فيه الرِّضا بالقاضي ، والقضاءِ ، والمقضيِّ من حيثُ إنَّه مقضيٌّ ، لا من حيثُ إنَّه شرٌّ ، وكونُه مقضيّاً يرجعُ إلى القاضي والقضاءِ بالحقيقةِ ، وهٰذا كما أنَّك ترضىٰ مذهبَ المخالفِ أن يكونَ معلوماً لك ، لا أن يكونَ مذهباً لك ، ثمَّ كونُه معلوماً يرجعُ إلى العلمِ ، فالرِّضا والمحبَّةُ إنَّما يكونُ بالحقيقةِ للعلمِ بمذهبِ المخالفِ لا بمذهبِه ، وكذلكَ الرِّضا بالمقضيِّ .

فإن قيلَ : فالرَّاضي هل يكونُ مستزيداً ؟

قيلَ له : نعمْ ، بشرطِ الخيرِ والصَّلاحِ دونَ الحكمِ ، ولا يخرجُه ذلك عن الرِّضا ، بل أن يدلَّ على الرِّضا فهو أولى ؛ لأنَّ من أعجبَه شيءٌ ورضيَ ذلك . . ٱستزادَ منه ، وكانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا حضرَ ٱللَّبنُ . . يقولُ :

« اللَّهمَّ ؛ باركْ لنا فيه ، وزدْنا منه » ، وفي غيرِه يقولُ : « وزدْنا خيراً منه »[1] ، وفي موضعٍ من الموضعينِ لم يدلَّ علىٰ أنَّه غيرُ راضٍ بما قدَّرَ اللهُ تعالىٰ له من ذلك .

فإن قلتَ : فلم يُذكَرْ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الاستثناءُ وشرطُ الخيرِ والصَّلاحِ .

فاعلمْ : أنَّ هـٰذه الأمورَ إنَّما تكونُ بالقلبِ ، وأنَّ ما يقالُ باللِّسانِ عبارةٌ عن ذلك ، فلا معتبرَ بتركِ عبارتِه مع حصولِه بالقلبِ ، فاعلمْ ذلك موقناً .

العارضُ الرَّابعُ : الشَّدائدُ والمصائبُ ، وإنَّما كفايتُها بالصَّبرِ عليها ، فعليكَ بالصَّبرِ في المواطنِ كلِّها ، وإنَّما ذلك لأمرينِ :

أحدُهما : للوصولِ إلى العبادةِ وحصولِ المقصودِ منها ؛ فإنَّ مبنىٰ أمرِ العبادةِ كلِّها على الصَّبرِ وٱحتمالِ المشقَّاتِ ، فمن لم يكنْ صبوراً . . لم يصلْ إلىٰ شيءٍ منها بالحقيقةِ ، وذلك أنَّ من قصدَ عبادةَ اللهِ تعالىٰ وتجرَّدَ لها . . ٱستقبلتْه شدائدُ ومحنٌ ومصائبُ من وجوهٍ :

أحدُها : أنَّه لا عبادةَ إلاَّ وفي نفسِها مشقَّةٌ ، ولذلكَ كانَ كلُّ هـٰذا التَّرغيبِ فيه ووعْدِ الثَّوابِ عليه ؛ إذ لا يتأتَّىٰ فعلُ العبادةِ إلاَّ بقمعِ الهوىٰ وقهرِ النَّفسِ ؛ إذ هي زاجرةٌ عن الخيرِ ، ومخالفةُ الهوىٰ وقهرُ النَّفسِ من أشدِّ الأمورِ على الإنسانِ .

وثانيها : أنَّ العبدَ إذا فعلَ الخيرَ مع المشقَّةِ . . لزمَه الاحتياطُ له حتَّىٰ لا يفسدَ عليه ، وٱلإبقاءُ على العملِ أشدُّ من العملِ .

وثالثُها : أنَّ الدَّارَ دارُ محنةٍ ، فمن كانَ فيها . . لا بدَّ له من الابتلاءِ بشدائدِها ومصائبِها ، وذلك أقسامٌ : فمنها المصيبةُ في الأهلِ والقراباتِ والإخوانِ والأصحابِ بالموتِ والفقدِ والفراقِ ، وفي النَّفسِ بأنواعِ الأمراضِ والأوجاعِ ،

---

(١) أخرجه أبو داوود (٣٧٣٠) ، والترمذي (٣٤٥٥) ، والنسائي في « الكبرى » (١٠٠٤٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وفي العِرضِ بقتالِ النَّاسِ إيَّاه ، والطَّمعِ فيه ، والازدراءِ به ، والغيبةِ له ، والكذبِ عليهِ ، وفي المالِ بالذَّهابِ والزَّوالِ .

ولكلٍّ واحدةٍ من هـٰذه المصائبِ لذعةٌ وحُرقةٌ من نوعٍ آخرَ ، فيحتاجُ إلى الصَّبرِ عليها كلِّها ، وإلاَّ . . فيمنعُه الجزعُ والتَّلهُّفُ من التَّفرُّغِ للعبادةِ .

ورابعُها : أنَّ طالبَ الآخرةِ أشدُّ ٱبتلاءً وأكثرُ محنةً أبداً ، ومن كانَ إلى ٱللهِ تعالىٰ أقربَ . . فالمصائبُ له في الدُّنيا أكثرُ ، والبلاءُ عليه أشدُّ ، أمَا تسمعُ قولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « أشدُّ النَّاسِ بلاءً الأنبياءُ ، ثمَّ الشُّهداءُ ، ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ ؟ »(١) .

فإذنْ من قصدَ الخيرَ وتجرَّدَ لطريقِ الآخرةِ . . ٱستقبلتْه هـٰذه المحنُ ، فإن لم يصبرْ عليها ، ولا يكونُ بحيثُ لا يَلتفتُ إليها . . ٱنقطعَ عن الطَّريقِ ، وٱشتغلَ عن العبادةِ ، فلا يصلُ إلىٰ شيءٍ من ذلك .

ولقد أعلمَنا ٱللهُ سبحانَه بالتقاءِ المحنِ والمصائبِ وٱبتلائِنا بها ، وحقَّقَ ذلك وأكَّدَه فقالَ : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ﴾ ، ثمَّ قالَ سبحانَه : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ ، فكأنَّه يقولُ : وطِّنوا أنفسَكم علىٰ أنَّه لا بدَّ لكم من أنواعِ البلايا ، فإن تصبروا . . فأنتمُ الرِّجالُ ، وعزائمُكم عزائمُ الرِّجالِ .

فإذنْ من عزمَ علىٰ عبادةِ اللهِ تعالى . . يجبُ أوَّلاً أن يعزمَ على الصَّبرِ الطَّويلِ ، ويوطِّنَ نفسَه على ٱحتمالِ المشاقِّ العظيمةِ المتواليةِ إلى الموتِ ، وإلاَّ . . فقد قصدَ الأمرَ بغيرِ آلتِه ، وأتاه من غيرِ وجهِه .

ولقد ذُكرَ عن الفضيلِ رحمَه ٱللهُ أنَّه قالَ : (من عزمَ علىٰ قطعِ طريقِ الآخرةِ . . فليجعلْ علىٰ نفسِه أربعةَ ألوانٍ من الموتِ : الأبيضَ ، والأحمرَ ، والأسودَ ، والأخضرَ ؛ فالموتُ الأبيضُ : الجوعُ ، والأسودُ : ذمُّ النَّاسِ ،

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٩٠٠) ، والحاكم (١/ ٤٠) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

والأحمرُ : مخالفةُ الشَّيطانِ ، والأخضرُ : الوقائعُ بعضُها علىٰ بعضٍ)[1] .

والثَّاني من الأمرينِ : ما في الصَّبرِ من خيرِ الدُّنيا والآخرةِ .

من ذلك : النَّجاةُ والنَّجاحُ ، قالَ تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ، معناه : ومن يتَّقِ اللهَ تعالىٰ بالصَّبرِ . . يجعلْ له مخرجاً من الشَّدائدِ .

ومنها : الظَّفَرُ على الأعداءِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

ومنها : الظَّفَرُ بالمرادِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ .

وقيلَ : كتبَ يوسفُ في جوابِ يعقوبَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ : إنَّ آباءَك صبروا فظفروا ، فاصبرْ كما صبروا تظفرْ كما ظفروا .

وفي هٰذا المعنىٰ قيلَ : [من البسيط]

لا تيأسَنَّ وإن طالَتْ مطالبةٌ ... إذا ٱستعنتَ بصبرٍ أن ترىٰ فرجَا
أخلِقْ بذي الصَّبرِ أن يحظىٰ بحاجتِه ... ومدمنِ القرعِ للأبوابِ أن يلجَا
إنَّ الأمورَ إذا اشتدَّتْ مطالبُها ... فالصَّبرُ يفتُقُ منها كلَّ ما ارتُتِجا[2]

ومنها : التَّقدُّمُ على النَّاسِ والإمامةُ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ﴾ .

ومنها : الثَّناءُ من اللهِ سبحانَه وتعالى ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ .

ومنها : البشارةُ والصَّلاةُ والرَّحمةُ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ إلىٰ قولِه : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ .

---

(١) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٥٣٢٢) ، وفي « الزهد الكبير » (٤٠٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٧٨) من قول حاتم الأصم رحمه الله تعالى .

(٢) الأبيات لمحمد بن يسير الرياشي . انظر « الأغاني » (١٤/ ٤٣) ، و« البيان والتبيين » (٢/ ٣٦٠) .

ومنها : المحبَّةُ من اللهِ تعالى ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

ومنها : الدَّرجاتُ العلا في الجنَّةِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ .

ومنها : الكرامةُ العظيمةُ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ .

ومنها : ثوابٌ بلا غايةٍ ولا نهايةٍ ، خارجٌ عن أوهامِ الخلقِ وأعدادِهم ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ .

فسبحانَه من سيِّدٍ ماجدٍ ما أكرمَه ، كلُّ هـٰذه الكراماتِ في الدُّنيا والآخرةِ يعطيها عبدَه علىٰ صبرِ ساعةٍ !!

فبانَ لك أنَّ خيرَ الدُّنيا والآخرةِ في الصَّبرِ ، قالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « ما أُعطيَ أحدٌ من عطاءٍ خيرٍ أوسعَ من الصَّبرِ »[1] .

وعن عمرَ رضيَ اللهُ عنه أنَّه قالَ : جميعُ خيرِ المؤمنينَ في صبرِ ساعةٍ واحدةٍ .

ولقد أحسنَ القائلُ : [من مخلع البسيط]

أَلصَّبرُ مفتاحُ ما يُرَجَّى ... وكلُّ خيرٍ بهِ يكونُ
إِصبرْ وإن طالَتِ اللَّيالي ... فربَّما أمكنَ الحَرونُ
وربَّما نيلَ باصطبارٍ ... ما قيلَ هيهاتَ لا يكونُ

وقالَ آخرُ : [من الطويل]

صبرتُ وكانَ الصَّبرُ منِّي سجيَّةً ... وحسبُك أنَّ اللهَ أثنىٰ على الصَّبرِ
إذا كانَ بابُ الذُّلِّ من جانبِ الغنى ... سمَوتُ إلى العلياءِ من جانبِ الفقرِ
سأصبرُ حتَّىٰ يحكمَ اللهُ بينَنا ... فإمَّا إلىٰ يسرٍ وإمَّا إلىٰ عسرِ

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٩) ، ومسلم (١٠٥٣) ، وابن حبان (٣٤٠٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

فعليكَ باغتنامِ هـٰذه الخصلةِ الشَّريفةِ وبذلِ المجهودِ فيها . . تكنْ من الفائزينَ ، واللهُ تعالىٰ وليُّ التَّوفيقِ بفضلِه .

فإن قلتَ : فما حقيقةُ الصَّبرِ وحكمُه ؟

فاعلمْ : أنَّ لفظةَ الصَّبرِ من طريقِ اللُّغةِ : الحبسُ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ أي : احبِسْ نفسَك معهم ، وإنَّما يُوصَفُ اللهُ تعالىٰ بالصَّبرِ علىٰ معنىٰ حبسِه العذابَ عن المجرمينَ فلا يعاجلُهم به .

ثمَّ المعنى الَّذي هو من مساعي القلبِ سُمِّيَ صبراً ؛ لأنَّه حبسُ النَّفْسِ عن الجزَعِ ، والجزَعُ فيما قالَه العلماءُ : ذكرُ اضطرابِك في الشِّدَّةِ ، وقيلَ : بل إرادةُ الخروجِ عن الشِّدَّةِ بالحكمِ ، والصَّبرُ تركُه .

وحصنُ الصَّبرِ : ذكرُ مقدارِ الشِّدَّةِ ووقتِها ، وأنَّها لا تزيدُ ولا تنقصُ ، ولا تتقدَّمُ ولا تتأخَّرُ ، ولا فائدةَ في الجزَعِ ، بل فيه الضَّررُ والخطرُ .

وحصنُ هـٰذا الحصنِ : ذكرُ حُسنِ عوضِ اللهِ تعالىٰ عليه ، وكريمِ الذُّخرِ في ذلك لديه ، فهـٰذه هـٰذه ، وباللهِ التَّوفيقُ .

فَصْلٌ

[فيما ينبغي أن يكون عليه العبد في تدبير رزقه]

فعليكَ بقطعِ هـٰذه العقبةِ الشَّديدةِ المنيعةِ بدفعِ هـٰذه العوارضِ الأربعةِ وإزاحةِ علَّتِها ، وإلاَّ . . فلا تدعُك تذكرُ مقصودَك من العبادةِ وتتفكَّرُ فيها ، فضلاً عن أن تدركَها وتحصِّلَها ، وإنَّ لكلِّ واحدٍ منها شغلاً شاغلاً عاجلاً وآجلاً .

ثمَّ إنَّ أعظمَها وأعضلَها أمرُ هـٰذا الرِّزقِ وتدبيرُه ؛ فإنَّه البليَّةُ الكبرىٰ لعامَّةِ الخلقِ ، أتعبَتْ نفوسَهم ، وشغلَتْ قلوبَهم ، وأكثرَتْ همومَهم ، وضيَّعَتْ أعمارَهم ، وأعظمَتْ تبعاتِهم وأوزارَهم ، وعدلَتْ بهم عن اللهِ تعالىٰ وخدمتِه إلىٰ خدمةِ الدُّنيا وخدمةِ المخلوقينَ ، فعاشوا في الدُّنيا في ظلمةٍ وغفلةٍ ، وتعبٍ

ونصبٍ ، ومهانةٍ وذلٍّ ، وقدِموا الآخرةَ مفاليسَ ، بينَ أيديهم الحسابُ والعذابُ إن لم يرحمِ اللهُ تعالىٰ بفضلِه .

وانظرْ كم من آيةٍ أنزلَ اللهُ تعالىٰ في ذلك ، وكم ذكرَ من وعدِه وضمانِه وقَسَمِه علىٰ ذلك ، ولم تزلِ الأنبياءُ والعلماءُ يعظونَ النَّاسَ ، ويبيِّنونَ لهم الطَّريقَ ، ويصنِّفونَ لهم الكتبَ ، ويضربونَ لهم الأمثالَ ، ويخوِّفونَهم باللهِ تعالى ، وهم مع ذلك لا يهتدونَ ولا يتَّقونَ ولا يطمئنُّونَ ، بل هم في غمرةٍ من ذلك لا يزالونَ يخافونَ أن يفوتَهم غَداءٌ أو عَشاءٌ .

وأصلُ ذلك كلِّه : قلَّةُ التَّدبُّرِ لآياتِ اللهِ سبحانَه ، وقلَّةُ التَّفكُّرِ في صنائعِ اللهِ ، وتركُ التَّذكُّرِ لكلامِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، وتركُ التَّأمُّلِ لأقوالِ الصَّالحينَ ، مع الاسترسالِ لوساوسِ الشَّيطانِ ، والإصغاءِ إلىٰ كلامِ الجاهلينَ ، والاغترارِ بعاداتِ الغافلينَ ، حتَّىٰ تمكَّنَ الشَّيطانُ منهم ، ورسخَتِ العاداتُ في قلوبِهم ، فتأدَّىٰ بهم ذلك إلىٰ ضعفِ القلبِ ورقَّةِ اليقينِ .

وأمَّا الأخيارُ الَّذينَ هم أولو الأبصارِ وأربابُ الجِدِّ والاجتهادِ : فأبصروا طريقَ السَّماءِ فلم يعبؤوا بأسبابِ الأرضِ ، واعتصموا بحبلِ اللهِ فلم يكترثوا بعلائقِ الخلقِ ، وتيقَّنوا بآياتِ اللهِ تعالىٰ وأبصروا طريقَه فلم يلتفتوا إلىٰ وساوسِ الشَّيطانِ والخلقِ والنَّفْسِ .

فإذا وسوسَ لهم شيطانٌ أو نفْسٌ أو إنسانٌ بشيءٍ . . قاموا بالمشاقَّةِ والمدافعةِ والمخالفةِ ، حتَّىٰ ولَّى الخلقُ عنهم ، واعتزلَ عنهم الشَّيطانُ ، وانقادَتْ لهم النَّفْسُ ، واستقامَ لهم الطَّريقُ المستقيمُ ، علىٰ ما ذُكرَ عن إبراهيمَ بنِ أدهمَ رحمَه اللهُ تعالىٰ أنَّه لمَّا أرادَ أن يدخلَ الباديةَ . . أتاه الشَّيطانُ فخوَّفَه بأنَّ هٰذه باديةٌ مُهلِكةٌ ولا زادَ معك ولا سببَ ، فعزمَ علىٰ نفسِه رحمَه اللهُ أن يقطعَ الباديةَ علىٰ تجرُّدِه ذلك ، وألاَّ يقطعَها حتَّىٰ يصلِّيَ تحتَ كلِّ ميلٍ من أميالِها ألفَ ركعةٍ[1] ، وقامَ بما عزمَ عليه ، وبقيَ في الباديةِ اثنتيْ عشْرةَ سنةً ، حتَّىٰ إنَّ الرَّشيدَ حجَّ في

---

(١) الميل ـ بكسر الميم ـ : منار يُبنىٰ للمسافر في الطريق ، يُهتدىٰ به ويَدلُّ على المسافة .

بعضِ تلك السِّنينَ فرآه تحتَ ميلٍ يصلِّي ، فقيلَ له : هـٰذا إبراهيمُ بنُ أدهمَ ، فأتاه فقالَ : كيف تجدُك يا أبا إسحاقَ ؟ فأنشأَ إبراهيمُ يقولُ : [من الطويل]

نُرقِّعُ دنيانا بتمزيقِ دينِنا فلا دينُنا يبقىٰ ولا ما نُرقِّعُ
فطوبىٰ لعبدٍ آثرَ اللهَ ربَّه وجادَ بدنياه لما يَتوقَّعُ(١)

وعن بعضِ الصَّالحينَ رحمَه اللهُ أنَّه كانَ في بعضِ البوادي ، فوسوسَ له الشَّيطانُ بأنَّك متجرِّدٌ ، وهـٰذه باديةٌ مُهلِكةٌ لا عمرانَ فيها ولا ناسَ ، فعزمَ علىٰ نفسه بأن يمضيَ علىٰ تجرُّدِه ، وأن يتركَ الطَّريقَ حتَّىٰ لا يقعَ بأحدٍ من النَّاسِ ، وألاَّ يأكلَ شيئاً حتَّىٰ يجعلَ اللهُ في فيه السَّمنَ والعسلَ ، ثمَّ عدلَ عن الطَّريقِ ومرَّ علىٰ وجهِه ، قالَ رحمَه اللهُ : فسِرتُ ما شاءَ اللهُ ، فإذا بقافلةٍ قد أضلَّتِ الطَّريقَ وهم يسيرونَ ، فلمَّا أبصرتُهم . . رميتُ بنفسي إلى الأرضِ لعلَّهم لا يبصرونَني ، فسيَّرهم اللهُ حتَّىٰ وقفوا عليَّ ، فغمضتُ عينَيَّ ، فدنَوا منِّي وقالوا : هـٰذا منقطعٌ قد غُشيَ عليه من الجوعِ والعطشِ ، فهاتُوا سمناً وعسلاً نجعلْه في فيه لعلَّه يُفيقُ ، فأتَوا بسمنٍ وعسلٍ ، فسددتُ فمي وأسناني ، فأتَوا بسكِّينٍ فعالجوا فمي حتَّىٰ يفتحوه ، فضحكتُ ، وفتحتُ فايَ ، فلمَّا رأوا ذلك منِّي . . قالوا : أمجنونٌ أنت ؟ قلتُ : لا والحمدُ للهِ تعالىٰ(٢) ، وأخبرتُهم ببعضِ ما جرىٰ لي مع الشَّيطانِ .

وعن بعضِ مشايِخنا رحمَهم اللهُ تعالىٰ قالَ : نزلتُ في بعضِ أسفاري أيَّامَ التَّعليمِ مسجداً ، وكنتُ متجرِّداً علىٰ عادةِ أوليائِنا ، فوسوسَ إليَّ الشَّيطانُ بأنَّ

---

(١) أخرجه محمد بن إسحاق ابن منده في « مسند إبراهيم بن أدهم » (٤٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ٣٣٦) ، لـٰكنهم لم يذكروا البيت الثاني .

(٢) في هامش (أ) : (سألَ المأمونُ اليزيديَّ عن شيء ، فقال : لا وجعلني الله فداءك يا أمير المؤمنين ، فقال : لله درُّك ! ما وُضعتْ واو قط أحسن من موضعها في لفظك . قلت : وإنما حسن وضع الواو في لفظه المذكور ؛ لأنه لو حذفها منه . . لاستحق بذلك الأدب من الملوك ، بل القتل ؛ لأنه حينئذ يكون نافياً لجعله فداءً له ، وإثباتها يثبت جعله فداء نفسه الكريمة ، مقدِّماً بقاءه علىٰ بقاء نفسه عند نزول النوائب ، وذلك من أعظم الآداب ، وأحسن التخاطب . « تاريخ اليافعي » [٢/ ٤] ، وقال النووي في « شرح مسلم » : قال العلماء : ويستحب أن يقال في مثل هـٰذا بالواو ، فيقال : لا ويرحمك الله ، ذكره في « باب اختلاف المجتهدين » [١٢/ ١٩] ، وفي « فضائل سلمان » [١٦/ ٦٦] ، والله أعلم) .

هـٰذا مسجدٌ بعيدٌ عن النَّاسِ ، لو صِرْتَ إلىٰ مسجدٍ بينَ النَّاسِ . . لرآكَ أهلُه وقاموا بكفايتِك ، فقلتُ : لا أبيتُ إلاَّ ههنا ، وعليَّ عهدُ اللهِ ألاَّ آكلَ شيئاً إلاَّ الحلواءَ ، ولا آكلَ حتَّىٰ توضعَ في فمي لقمةً لقمةً ، وصلَّيتُ العتمةَ وأغلقتُ البابَ ، فلمَّا مضىٰ صدرٌ من اللَّيلِ . . إذا أنا بإنسانٍ يدقُّ البابَ ومعه سراجٌ ، فلمَّا أكثرَ الدَّقَّ . . فتحتُ البابَ ؛ فإذا أنا بعجوزٍ معها شابٌّ وقد دخلَتْ فوضعَتْ بينَ يديَّ طبقاً من الخبيصِ ، وقالتْ : هـٰذا الشَّابُّ ولدي ، صنعْتُ له هـٰذا الخبيصَ ، وجرىٰ بينَنا كلامٌ ، فحلفَ ألاَّ يأكلَ حتَّىٰ يأكلَ معه رجلٌ غريبٌ ، ـ أو قالتْ : هـٰذا الغريبُ الَّذي في المسجد ـ فكُلْ رحمَك اللهُ ، وأخذَتْ تضعُ في فمي لقمةً وفي فمِ ولدِها لقمةً حتَّى اكتفينا ، ثمَّ انصرفا وأغلقتُ البابَ عليَّ متعجِّباً ممَّا جرى !!

فهـٰذه وأمثالُها من مجاهداتِ الصَّالحينَ ومناقضاتِهم للشَّيطانِ ، فإنَّ لك في ذلك فوائدَ ثلاثةً :

إحداها : أن تعلمَ أنَّ الرِّزقَ لا يفوتُ من قُدِّرَ له بحالٍ .

والثَّانيةُ : أن تعلمَ أنَّ أمرَ الرِّزقِ والتَّوكُّلِ لمهمٌّ جدّاً ، وأنَّ للشَّيطانِ فيه غوائلَ ووساوسَ عظيمةً ، حتَّىٰ إنَّ مثلَ أولئكَ الأئمَّةِ الزُّهَّادِ لم يتخلَّصوا من ذلك ، ولم ييأسْ منهم الشَّيطانُ بعدَ طولِ تلك الرِّياضاتِ وكثرةِ تلك المجاهداتِ الَّتي سبقَتْ لهم حتَّىٰ يحتاجوا إلىٰ دفعِه بهـٰذه المناقضاتِ ، ولعمري ؛ إنَّ من جاهدَ النَّفسَ والشَّيطانَ سبعينَ سنةً لا يأمنُ أن يوسوسا له كما يوسوسانِ للمبتدىءِ في العبادةِ ، بل لغافلٍ لم يجتهدْ ساعةً في الرِّياضةِ ، ولو ظفرا به . . لفضحاه وأهلكاه هلاكَ الغافلينَ المغترِّينَ ، وفي ذلك عبرةٌ لأولي الأبصارِ .

والثَّالثةُ : أن تعلمَ أنَّ الأمرَ لا يتمُّ إلاَّ بالجِدِّ المحضِ والمجاهدةِ البالغةِ ؛ فإنَّهم كانوا لحماً ودماً وبدناً وروحاً مثلَك ، بل كانوا أنحفَ أبداناً ، وأضعفَ أركاناً ، وأدقَّ عظاماً منك ، ولـٰكنْ كانتْ لهم قوَّةُ العلمِ ، ونورُ اليقينِ ، وهمَّةُ أمرِ الدِّينِ ، حتَّىٰ قَوُوا علىٰ مثلِ تلك المجاهداتِ ، والقيامِ بحقِّ تلك المقاماتِ ، فانظرْ لنفسك رحمَنا اللهُ وإيَّاك ، وداوِها من هـٰذا الدَّاءِ المعضلِ لعلَّك تفلحُ إن شاءَ اللهُ تعالى .

فَصْلٌ

[في ذكر فوائد وتفصيلات تتعلق بتدبير الرزق]

ثمَّ اْعلمْ بعدَ هـٰذه الجملةِ : أنِّي مجرِّدٌ لك نكَتاً وجدتُها ، بحيثُ تنكتُ في القلبِ إذا تذكَّرتَها ، وتكفيك مؤنةَ هـٰذا البابِ ، وتدعُك علىٰ واضحةٍ من الحقِّ إن تأمَّلْتَها وعملْتَ بها ، واللهُ سبحانَه الموفِّقُ .

الأولى : أن تعلمَ أنَّ اللهَ تعالىٰ ضمنَ رزقَك في كتابِه ، وتكفَّلَ لك به ، فما تقولُ لو وعدَك ملِكٌ من ملوكِ الدُّنيا أنَّه يُضيفُك اللَّيلةَ ويعشِّيك وأنت حسنُ الظَّنِّ به أنَّه صادقٌ لا يكذبُ ، ولا يُخلفُ الوعدَ ؟ بل لو وعدَك بذلكَ سوقيٌّ أو يهوديٌّ[1] ، أو نصرانيٌّ أو مجوسيٌّ ، مستورٌ عندَك بظاهرِه ، عفيفٌ في معاملتِه . . ألستَ تثقُ بوعدِه ، وتطمئنُّ بقولِه ، ولا تهتمُّ لعشائِك تلك اللَّيلةِ اْتِّكالاً عليه ؟ فما لك وقد وعدَك اللهُ ، وضمنَ لك رزقَك وتكفَّلَ به ، بل أقسمَ عليه في غيرِ موضعٍ ، وأنت لا تطمئنُّ بوعدِه ، ولا تسكنُ إلىٰ قولِه وضمانِه ، ولا تنظرُ إلىٰ قسَمِه ، بل يضطربُ قلبُك ويهتمُّ ؟! فيا لها من فضيحةٍ لو رأيت وبالَها ! ويا لها من مصيبةٍ لو علمْتَ نكالَها !

وعن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه : [من الطويل]

أتطلبُ رزقَ اللهِ من عندِ غيرِه ... وتصبحُ من خوفِ العواقبِ آمنَا

وترضىٰ بصرَّافٍ وإن كانَ مشركاً ... ضميناً ولا ترضىٰ بربِّك ضامنَا

كأنَّك لم تقرأْ بما في كتابِه ... فأصبحتَ منحولَ اليقينِ مباينَا ؟ ![2]

ولهـٰذا المعنىٰ ينجرُّ هـٰذا الأمرُ إلى الشَّكِّ والشُّبهةِ ، ويُخافُ علىٰ صاحبه ـ والعياذُ باللهِ ـ سلبُ المعرفةِ والدِّينِ ، ولهـٰذا قالَ سبحانَه : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

---

(١) السوقي : الرجل من عامة الناس ، نسبةً إلى السُّوقة ، وهم الرعية .

(٢) وتنسب أيضاً لمحمود الوراق كما في « العقد الفريد » (٣/ ١٤٧) ، وانظر « ديوانه » (ص١٨٩) .

فحسْبُ المؤمنِ المهتمِّ لأمرِ دينِه هـٰذه النُّكتةُ الواحدةُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيمِ .

الثَّانيةُ : أن تعلمَ أنَّ الرِّزقَ مقسومٌ ، صحَّ ذلك من كتابِ اللهِ تعالىٰ وأخبارِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، وتعلمَ أنَّ قسمتَه لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ ، فإن أنكرتَ القسمةَ أو جوَّزتَ نقضَها . . فذلكَ بابُ الكفرِ تقرعُه ، نعوذُ باللهِ ، وإن علمتَ أنَّه حقٌّ لا يتغيَّرُ . . فأيُّ فائدةٍ في الاهتمامِ والطَّلبِ إلاَّ الذُّلُّ والهوانُ في الدُّنيا ، والشِّدَّةُ والخسرانُ في الآخرةِ ؟ ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « مكتوبٌ علىٰ ظهرِ الحوتِ والثَّورِ هـٰذا رزقُ فلانِ بنِ فلانٍ ، فلا يزدادُ الحريصُ إلاَّ جهداً » .

وفي مثلِ ذلك يقولُ شيخُنا رحمَه اللهُ : إنَّ ما قُدِّرَ لماضِغَيْكَ أن يمضغاه فلا يمضغُه غيرُك ، فكلْ ـ ويحك ـ رزقَك بالعزِّ ، ولا تأكلْه بالذُّلِّ ، فهـٰذه نكتةٌ حسنةٌ مقنعةٌ للرِّجالِ .

الثَّالثةُ : ما سمعتُ من شيخي الإمامِ رحمَه اللهُ يحكي عن الأستاذِ رحمَه اللهُ أنَّه كانَ يقولُ : إنَّ ممَّا يُقنعني في أمرِ الرِّزقِ أنِّي تذكَّرتُ وقلتُ لنفسي : أليسَ هـٰذا الرِّزقُ للحياةِ والعيشِ ؟ قالتْ : نعم ، فقلتُ لها : فالميِّتُ ما يصنعُ بالرِّزقِ إذا ماتَ ؟ قالتْ : لا شيءَ ، قلتُ : فإذا كانَ حياةُ العبدِ في خزائنِ اللهِ تعالىٰ وحدَه وبيدِه . . فكذلكَ الرِّزقُ ؛ إن شاءَ يعطيني ، وإن شاءَ يمنعني ، وهو غيبٌ عنِّي ، موكولٌ إلى اللهِ سبحانَه ، يدبِّرُه كيف يشاءُ ، وأنا ساكنُ النَّفسِ بذلكَ .

وهـٰذه نكتةٌ لطيفةٌ مقنعةٌ لأهلِ التَّحقيقِ .

النُّكتةُ الرَّابعةُ : ممَّا ذكرْنا في هـٰذا الفصلِ : أنَّ اللهَ تعالىٰ ضمنَ رزقَ العبدِ ، ولم يضمنْ إلاَّ الرِّزقَ المضمونَ الَّذي هو الغذاءُ والتَّربيةُ ، وفيه القِوامُ والعدَّةُ .

وأمَّا الأسبابُ من الطَّعامِ والشَّرابِ : فالعبدُ إذا تجرَّدَ لعبادةِ اللهِ تعالىٰ وتوكَّلَ عليه . . فربَّما تُحبَسُ عنه الأسبابُ ، فلا يعبأنَّ بذلكَ ولا يضجرُ ؛ لمَا عَلِمَ من حقيقةِ الأمرِ أنَّ الضَّمانَ لِقوامِ البِنيةِ ، والتَّوكُّلُ على اللهِ تعالىٰ إنَّما هو في هـٰذا

المعنىٰ لا غيرُ ، والمنتظَرُ من اللهِ تعالىٰ هـٰذا المعنى ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا محالةَ يمدُّه بالقوَّةِ ليقومَ بحقِّ العبادةِ والخدمةِ ما دامَ له أجلٌ وتكليفٌ بالعبادةِ ، وهـٰذا هو المقصودُ ، واللهُ سبحانَه قادرٌ علىٰ ما يشاءُ ، إن شاءَ يقيمُ بِنيةَ عبدِه بطعامٍ وشرابٍ ، أو بطينٍ وترابٍ ، أو بتسبيحٍ وتهليلٍ كالملائكةِ ، وإن شاءَ بدونِ هـٰذا كلِّه .

فليسَ مطلوبُ العبدِ إلاَّ القِوامَ والقوَّةَ للعبادةِ ، ليسَ الأكلَ والشُّربَ وشدَّةَ الشَّهوةِ ونيلَ اللَّذَّةِ ، فلا ٱعتبارَ بالأسبابِ إذنْ ، ولهـٰذا المعنىٰ قويتِ الزُّهَّادُ والعبَّادُ على الأسفارِ وطيِّ اللَّيالي والأيَّامِ .

فمنهم من لم يأكلْ عشْرةَ أيَّامٍ ، ومنهم من لم يأكلْ شهراً وشهرينِ وهو علىٰ قوَّتِه ، ومنهم من كانَ يستفُّ الرَّملَ فيجعلُه اللهُ عزَّ وجلَّ له غذاءً ، نحوُ ما ذُكرَ عن الثَّوريِّ رحمَه اللهُ تعالى : أنَّه نفدتْ نفقتُه بمكَّةَ ، فمكثَ خمسةَ عشَرَ يوماً يستفُّ الرَّملَ .

وقالَ أبو معاويةَ الأسودُ : (رأيتُ إبراهيمَ بنَ أدهمَ يأكلُ الطِّينَ عشرينَ يوماً)[1] .

وعن الأعمشِ قالَ : (قالَ لي إبراهيمُ التَّيميُّ رحمَه اللهُ : ما أكلتُ منذُ شهرٍ ، قلتُ : منذُ شهرٍ ؟ قالَ : ولا شهرينِ ، إلاَّ أنَّ إنساناً ناشدني علىٰ عنقودٍ من عنبٍ فأكلتُه ، فأنا أشتكي بطني)[2] .

قلتُ : فلا تعجبنَّ من ذلك ؛ فإنَّ للهِ القدرةَ علىٰ ما يشاءُ ، وهـٰذا مريضٌ تراه لا يأكلُ شهراً وهو حيٌّ يعيشُ ، والمريضُ علىٰ كلِّ حالٍ أضعفُ نفساً وأرقُّ طبعاً من القويِّ .

وأمَّا الَّذي يموتُ جوعاً : فذلكَ أجلٌ حضرَه ، كالَّذي يموتُ شِبَعاً وتُخَمةً ، ولقد بلغني عن أبي سعيدٍ الخرَّازِ رحمَه اللهُ أنَّه قالَ : كانَ حالي مع اللهِ تعالىٰ أن

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٨١) .
(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢١٤) .

يُطعمَني في كلِّ ثلاثةِ أيَّامٍ ، فدخلتُ الباديةَ ، فمضتْ عليَّ ثلاثةُ أيَّامٍ ما طَعِمتُ فيها ، فلمَّا كانَ في اليومِ الرَّابعِ . . وجدتُ ضعفاً ، فجلستُ مكاني ، فإذا بهاتفٍ يقولُ : يا أبا سعيدٍ ؛ أيُّما أحبُّ إليك : سببٌ أو قُوى ؟ فقلتُ : لا ، إلاَّ القُوى ، فقمتُ من وقتي وقد ٱستقللتُ ، فأقمْتُ ٱثنيْ عشرَ يوماً ما طَعِمتُ ولا وجدتُ ألماً لذلكَ .

فإذا رأى العبدُ ٱحتباسَ الأسبابِ عنه ، وعلمَ من نفسِه التَّوكُّلَ على ٱللهِ . . فليستيقنْ بأنَّ ٱللهَ تعالىٰ يمدُّه بالقوَّةِ ، فلا يضجرَنَّ لذلكَ ، بل حقُّه أن يشكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ ذلك شكراً كثيراً ؛ فإنَّ له المنَّةَ والصُّنعَ اللَّطيفَ ؛ إذ رفعَ عنه المؤونةَ ، وأعطاه المعونةَ ، وحصلَ له الأصلُ والمقصودُ ، ودفعَ عنه الثِّقلَ والواسطةَ ، وخرقَ له علائقَ العادةِ ، وأراه طريقَ القدرةِ ؛ أن شبَّهَ حالَه بحالِ الملائكةِ ، ورفعَه عن حالةِ البهائمِ والعامَّةِ في تلك الكرامةِ ، فتأمَّلْ هٰذا الأصلَ الكبيرَ تغنمِ الرِّبحَ العظيمَ إن شاءَ اللهُ تعالى .

قلتُ : لعلَّك تقولُ : إنَّك أطنبتَ في هٰذا الفصلِ خلافَ شرطِ الكتابِ .

فأقولُ : لَعَمْرُ اللهِ ؛ إنَّه لقليلٌ في جنبِ ما يُحتاجُ إليه في هٰذا المعنى ؛ إذ هو أهمُّ شأناً في العبادةِ ، بل عليه مدارُ أمرِ الدُّنيا والعبوديَّةِ ، فمَن له همَّةٌ في هٰذا الشَّأنِ . . فليستمسكْ بذلكَ وليرعَه حقَّه ، وإلاَّ . . فهو عن المقصودِ بمعزلٍ .

والَّذي يدلُّك علىٰ بصيرةِ علماءِ الآخرةِ العارفينَ باللهِ : أنَّهم بنَوا أمرَهم على التَّوكُّلِ على اللهِ ، والتَّفرُّغِ لعبادةِ اللهِ ، وقطعِ العلائقِ كلِّها ، فكم صنَّفوا من كتابٍ ، وكم أوصَوا من وصيَّةٍ ، وقيَّضَ اللهُ سبحانَه لهم أعواناً من السَّادةِ وأصحاباً ، فتمشَّىٰ لهم من الخيرِ المحضِ ما لم يتمشَّ لطائفةٍ من طوائفِ الأئمَّةِ الزُّهَّادِ الكَرَّاميَّةِ ؛ فإنَّهم بنَوا مذهبَهم علىٰ أصولٍ غيرِ مستقيمةٍ ، وما زلنا أعزَّةً ما دمنا علىٰ منهاجِ أئمَّتِنا ، يَخرجُ من معابدِنا ومدارسِنا كلَّ حينٍ : إمَّا إمامٌ في العلمِ ، كالأستاذِ أبي إسحاقَ ، وأبي حامدٍ ، وأبي الطَّيِّبِ الطَّبريِّ ، وابنِ فُورَكٍ ، وشيخِنا الإمامِ ، وأمثالِهم من السَّادةِ ، وإمَّا صدِّيقٌ في العبادةِ ، كأبي إسحاقَ الشِّيرازيِّ ، وأبي سعيدٍ الصُّوفيِّ ، ونصرٍ المقدسيِّ ، وغيرِهم ممَّن فاقَ

الأمَّةَ علماً وزهداً ، حتَّىٰ ضعُفَتِ القلوبُ من بعضِنا ، وتلطَّخْنا بشيءٍ من العلائقِ الَّتي ضرُّها أكثرُ من نفعِها ، فتراجعَتِ الأمورُ ، وتقاعدَتِ الهممُ ، وطارَتِ البركاتُ ، وزالَتِ اللذَّاتُ والحلاواتُ ، فلا تكادُ تصفو لأحدٍ عبادةٌ ، أو يحصلُ له علمٌ وحقيقةٌ ، فإنَّ اللُّمعةَ الَّتي تظهرُ منَّا الآنَ ليستْ إلاَّ ممَّن بقيَ علىٰ منهاجِ أسلافِنا وشيوخِنا المتقدِّمينَ[1] ، كالحارثِ المحاسبيِّ ، ومحمَّدِ بنِ إدريسَ الشَّافعيِّ ، والمزنيِّ ، وحرملةَ ، وغيرِهم من أئمَّةِ الدِّينِ ، رضيَ اللهُ عنهم أجمعينَ ، فهم كما قيلَ : [من الطويل]

رعى اللهُ أقواماً رعَوا حقَّ ربِّهم ... فلا نقضوا عهداً ولا أخلفوا عهدَا

فمـا صحبـوا الأيَّـامَ إلاَّ تعفُّفـاً ... وما وجدوا من حبِّ سيِّدِهم بُدَّا

أفـاضـلُ صِـدِّيقـونَ أهـلُ ولايـةٍ ... إلىٰ سيِّدِ السَّاداتِ قد جعلوا القصدا

تحلَّلَ عَقدُ الصَّبرِ من كلِّ صابرٍ ... وما حلَّتِ الأيَّامُ من عقدِهم عقدَا

وكنَّا في الصَّدرِ الأوَّلِ ملوكاً فصرْنا سُوقةً ، وكنَّا فرساناً فصرْنا رجَّالةً ، وليتنا لا ننقطعُ عن الطَّريقِ بمرَّةٍ ، واللهُ المستعانُ على المصائبِ ، والمسؤولُ ألاَّ يسلبَنا هٰذا الرَّمقَ ، إنَّه جوادٌ كريمٌ ، منَّانٌ رحيمٌ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيمِ .

وأمَّا التَّفويضُ : فتأمَّلْ فيه أصلينِ :

أحدُهما : أنَّك تعلمُ أنَّ الاختيارَ لا يصلحُ إلاَّ لمن كانَ عالماً بالأمورِ بجميعِ جهاتِها ، ظاهرِها وباطنِها ، وحالِها وعاقبتِها ، وإلاَّ . . فلا يأمنُ أن يَختارَ الفسادَ والهلاكَ علىٰ ما فيه الخيرُ والصَّلاحُ ، ألا ترىٰ أنَّك لو قلتَ لبدويٍّ أو قَرويٍّ أو راعي غنمٍ : انقدْ لي هٰذه الدَّراهمَ وميِّزْ لي بينَ جيِّدِها ورديئِها . . فإنَّه لا يهتدي لذلكَ ، ولو قلتَ لسوقيٍّ غيرِ صيرفيٍّ . . فربَّما يعسرُ أيضاً ؟

فلا تأمنُ إذنْ إلاَّ بأن تَعرضَها على الصَّيرفيِّ الخبيرِ بالذَّهبِ والفضَّةِ وما فيهما

---

(١) **اللمعة** ـ بضم اللام ـ : أصلها : القطعة من النَّبت إذا أخذَتْ في اليُبس ، والمراد هنا : بقية العلم والعمل .

من الخواصِّ والأسرارِ ، وهٰذا العلمُ المحيطُ بالأمورِ من جميعِ الوجوهِ لا يصلحُ إلاَّ للهِ ربِّ العالمينَ ، فلا يستحقُّ إذنْ أحدٌ أن يكونَ له الاختيارُ والتَّدبيرُ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له ، ولذلكَ يقولُ عزَّ من قائلٍ : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ ، ثمَّ قالَ تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .

وحُكيَ عن بعضِ الصَّالحينَ أنَّه قيلَ له عن اللهِ تعالى : سلْ تُعطَ ـ وكانَ موفَّقاً ـ فقالَ : إنَّ عالماً بجميعِ الوجوهِ يقولُ لجاهلٍ من جميعِ الوجوهِ : سلْ تُعطَ ، أيش أعلمُ ماذا يصلحُ لي فأسألَه ؟! ولٰكن اخترْ أنت لي ، فهٰذه هٰذه .

الأصلُ الثَّاني : ما تقولُ لو أنَّ رجلاً قالَ لك : أنا أقومُ بجميعِ أمورِك ، وأدبِّرُ جميعَ ما تحتاجُ إليه من مصالحِك ؛ ففوِّضِ الأمرَ كلَّه إليَّ ، واشتغلْ أنت بشأنِك الَّذي يعنيك ، وهو عندَك أعلمُ أهلِ زمانِك ، وأحكمُهم وأقواهم ، وأرحمُهم وأتقاهم ، وأصدقُهم وأوفاهم . . ألستَ تغتنمُ ذلك وتعدُّه أعظمَ نعمةٍ ، وتمتنُّ منه أكبرَ منَّةٍ ، وتقدِّمُ له أوفرَ شكرٍ وأجملَ ثناءٍ ؟

ثمَّ إذا اختارَ لك شيئاً لا تعرفُ وجهَ الصَّلاحِ فيه . . فلا تضجرُ لذلكَ ، بل تثقُ وتطمئنُّ إلىٰ تدبيرِه ، وتعلمُ أنَّه لا يختارُ لك إلاَّ ما هو الخيرُ ، وما ينظرُ لك إلاَّ الصَّلاحَ كيفما كانَ الأمرُ ، بعدَما وكَّلتَ الأمرَ إليه وضمنَ ذلك .

فما لك إذنْ لا تفوِّضُ الأمورَ إلىٰ ربِّ العالمينَ سبحانَه وهو الَّذي يدبِّرُ الأمرَ من السَّماءِ إلى الأرضِ ، فهو أعلمُ كلِّ عالمٍ ، وأقدرُ كلِّ قادرٍ ، وأرحمُ كلِّ راحمٍ ، وأغنىٰ كلِّ غنيٍّ ؛ ليختارَ لك بلطيفِ علمِه وحسنِ تدبيرِه ما لا يبلغُه علمُك ، ولا يدركُه فهمُك ، وتشتغلُ أنت بشأنِك الَّذي يعنيك في عاقبتِك ، وإذا اختارَ لك أمراً لا تعلمُ وجهَ سرِّه . . رضيتَ بذلكَ ، واطمأننتَ إليه كيفما كانَ ، فهو الصَّلاحُ والخيرُ ؟! فتأمَّلْ راشداً إن شاءَ اللهُ تعالى ، وباللهِ سبحانَه التَّوفيقُ .

وأمَّا الرِّضا بالقضاءِ : فتأمَّلْ فيه أصلينِ مقنعينِ لا مزيدَ لك عليهما :

أحدُهما : ما في الرِّضا من الفائدةِ في الحالِ والمآلِ .

أمَّا الفائدةُ الحاليَّةُ : ففراغُ القلبِ ، وقلَّةُ الهمِّ من غيرِ فائدةٍ ، ولذلكَ قالَ بعضُ الزُّهادِ رحمَه اللهُ : إذا كانَ القدَرُ حقّاً . . فالهمُّ فضلٌ ، وأصلُه الخبرُ المأثورُ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قالَ لابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه : « ليقلَّ همُّك ، وما قُدِّرَ يكونُ ، وما لم تُرزَقْ لم يأتِك »[1] .

هٰذا هو الكلامُ الجامعُ النَّبويُّ ، البالغُ في قلَّةِ اللَّفظِ وكثرةِ المعنى .

وأمَّا الفائدةُ في المآلِ : فثوابُ اللهِ تعالىٰ ورضوانُه ، قالَ تعالى : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾ .

وما في السُّخطِ من الهمِّ والحُزْنِ والضَّجرِ في الحالِ ، والوزرِ والعقوبةِ في الآخرةِ بلا فائدةٍ .

إذ القضاءُ نافذٌ ؛ فلا ينصرفُ بهمِّك وسخطِك ، كما قيلَ : [من الكامل]

ما قد قُضِي يا نفسُ فاصطبري له ... ولكِ الأمانُ من الَّذي لم يُقدَرِ
وتيقَّني أنَّ المقدَّرَ كائنٌ ... حتماً عليكِ صبرتِ أم لم تصبري[2]

والعاقلُ لا يختارُ الهمَّ بلا فائدةٍ مع الوزرِ والعقوبةِ علىٰ راحةِ القلبِ وثوابِ الجنَّةِ .

والأصلُ الثَّاني : ما في السُّخطِ من عظيمِ الخطرِ والضَّررِ والكفرِ والنِّفاقِ ، إلاَّ أن يتداركَه اللهُ تعالىٰ ، وتأمَّلْ قولَه تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ ، نفى الإيمانَ وأقسمَ علىٰ من سخطَ قضاءَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، فكيفَ حالُ من سخطَ قضاءَ اللهِ تعالى ؟!

ولقد روينا أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : « من لم يرضَ بقضائي ، ولم يصبرْ علىٰ

---

(١) أخرجه أبو بكر الشيباني في « الآحاد والمثاني » (٢٨٠٦) ، واللالكائي في « إعتقاد أهل السنة » (١٠٨٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٤٤) عن مالك بن عبد الله المعافري رضي الله عنه ، وانظر « الإصابة » (٣/٣٢٨) .

(٢) البيت الأول لعلي بن محمد صاحب الزنج . انظر « الوافي بالوفيات » (٢١/ ٤١١) .

بلائي ، ولم يشكرْ نعمائي . . فليتَّخذْ إلهاً سوائي »[1] .

قيلَ : كأنَّه يقولُ : هـٰذا لا يرضاني ربّاً حينَ يسخطُ ، فليتَّخذْ ربّاً آخرَ يرضاه ، وهـٰذا غايةُ الوعيدِ والتَّهديدِ لمن عقلَ ، ولقد صدقَ بعضُ السَّلفِ إذ قيلَ له : ما العبوديَّةُ والرُّبوبيَّةُ ؟ فقالَ : الرَّبُّ يقضي ، والعبدُ يرضى ، فإذا قضى الرَّبُّ ، ولم يرضَ العبدُ . . فما هناك ربوبيَّةٌ ولا عبوديَّةٌ .

فتأمَّلْ هـٰذا الأصلَ ، وانظرْ لنفسِك لعلَّك تسلمُ بعونِ اللهِ تعالىٰ وتوفيقِه .

وأمَّا الصَّبرُ : فإنَّه دواءٌ مرٌّ ، وشربةٌ كريهةٌ ، [إلاَّ أنَّها] مباركةٌ كريمةٌ ، تجلبُ كلَّ منفعةٍ ، وتدفعُ عنك كلَّ مضرَّةٍ ، وإذا كانَ الدَّواءُ بهـٰذه الصِّفةِ . . فالإنسانُ العاقلُ يُكرِهُ النَّفسَ علىٰ شربِه وتجرُّعِه ، ويغضي علىٰ مرارتِه وحدَّتِه ، ويقولُ : مرارةُ ساعةٍ ، وراحةُ سنةٍ .

وأمَّا المنافعُ الَّتي يجلبُها : فاعلمْ أنَّ الصَّبرَ أربعةٌ :

- صبرٌ على الطَّاعةِ .
- وصبرٌ عن المعصيةِ .
- وصبرٌ عن فضولِ الدُّنيا .
- وصبرٌ على المحنِ والمصائبِ .

فإذا احتملَ مرارةَ الصَّبرِ ، وصبرَ في هـٰذه المواطنِ الأربعةِ . . تحصلُ له الطَّاعاتُ ومنازلُها من الاستقامةِ ، وثوابُها الجزيلُ في العاقبةِ ، ثمَّ لا يقعُ في المعاصي وبليَّاتِها في الدُّنيا وتبعاتِها في الآخرةِ ، ثمَّ لا يُبتلَىٰ بطلبِ الدُّنيا وما لها من الشُّغلِ في الحالِ والتَّبعةِ في المآلِ ، ثمَّ لا يحبطُ أجرُه علىٰ ما ابتلِيَ به وذهبَ عنه ، فحصلَ إذنْ بسببِ الصَّبرِ الطَّاعةُ ومنازلُها الشَّريفةُ وثوابُها ، والتَّقوىٰ والزُّهدُ والعوضُ والثَّوابُ الجزيلُ من اللهِ تعالى ، وتفصيلُ ذلك أمرٌ لا يعلمُه إلاَّ اللهُ عزَّ وجلَّ .

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير » (٢٢/ ٣٢٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢١/ ٥٩) عن أبي هند الداري رضي الله عنه .

وأمَّا دفعُ المضارِّ : فيريحُه أوَّلاً من مؤنةِ الجزعِ ومقاساتِه في الدُّنيا ، ثمَّ وزرِه وعقوبتِه في الآخرةِ .

وأمَّا إن هو ضعُفَ عن الصَّبرِ ، وسلكَ طريقَ الجزعِ . . فاتَه كلُّ منفعةٍ ، ولحقَه كلُّ مضرَّةٍ ؛ إذ لا يصبرُ علىٰ مشقَّةِ الطَّاعةِ فلا يفعلُ الطَّاعةَ ، ولا يصبرُ علىٰ حفظِها فيُحبطُها ، أو لا يصبرُ على المواظبةِ عليها فلا يصلُ إلىٰ منزلةٍ شريفةٍ فيها من درجاتِ الاستقامةِ ، أو لا يصبرُ عن معصيةٍ فيقعُ فيها ، أو عن فضولٍ فيشتغلُ به ، أو لا يصبرُ علىٰ مصيبةٍ فيُحرَمُ ثوابَ الصَّبرِ ، وربَّما يُكثِرُ الجزعَ حتَّىٰ يفوتَ العوضُ بسببِ ذلك ، فتكونُ له مصيبتانِ : فوتُ الشَّيءِ ، والأخرىٰ فوتُ الأجرِ والعوضِ ، وحلولُ المكروهِ وحرمانُ الصَّبرِ ، ولقد قيلَ : حرمانُ الصَّبرِ على المصيبةِ أشدُّ من المصيبةِ ، وأيُّ فائدةٍ في شيءٍ يذهبُ بالحاصلِ الموجودِ ، ولا يردُّ عليكَ الذَّاهبَ المفقودَ ؟! وإذا فاتَك أحدُهما . . فلا يفوتُك الآخرُ .

ومن الكلامِ الجامعِ : ما ذُكرَ أنَّ عليّاً رضيَ اللهُ عنه عزَّىٰ رجلاً فقالَ : (إن صبرْتَ . . جرتْ عليكَ المقاديرُ وأنت مأجورٌ ، وإن جزعتَ . . جرتْ عليكَ المقاديرُ وأنت مأزورٌ)[1] .

ثمَّ أقولُ : وجملةُ الأمرِ : أنَّ قطعَ القلبِ عن العلائقِ المألوفةِ ، وقطعَ النَّفسِ عن العاداتِ الرَّاسخةِ ؛ بالتَّوكُّلِ المحضِ على اللهِ عزَّ وجلَّ ، وتركِ التَّدبيرِ في الأمورِ ، وتفويضِها إلى اللهِ عزَّ وجلَّ من غيرِ علمٍ بمَا هو السِّرُّ فيها ، وكبحَ النَّفسِ عن السُّخطِ والجزعِ مع تسارعِ النَّفسِ إليه ، وإكراهِها علىٰ لجامِ الرِّضا وتجرُّعِ شربةِ الصَّبرِ مع نفرتِها عن ذلك . . لأمرٌ مرٌّ ، وعلاجٌ شديدٌ ، وحملٌ ثقيلٌ ، ولـٰكنَّه تدبيرٌ سديدٌ ، وطريقٌ مستقيمٌ ، وله عاقبةٌ محمودةٌ ، وأحوالٌ سديدةٌ مسعودةٌ .

وما تقولُ في الوالدِ المشفقِ الغنيِّ إذا منعَ ولدَه العزيزَ رطبةً أو تفَّاحةً يأكلُها

---

(١) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩/١٣٩) في تعزية علي بن أبي طالبٍ الأشعثَ بنَ قيس رضي الله عنهما على ابنٍ له .

وهو أرمدُ ، ويسلِّمُه إلى المعلِّم الغليظِ السَّائسِ ، ويحبسُه طولَ النَّهارِ عندَه ويُضجرُه ، ويحملُه إلى الحجَّامِ ليحجمَه فيوجعَه ويُقلقَه ؟ أترىٰ منعَ ذلك من بخلٍ فيه ؟! كيفَ وهو يعطي الأجانبَ ويوسِّعُ عليهم ؟! أو هوانٍ لهـٰذا الولدِ عندَه ؟ كيفَ وهو يكنزُ له جميعَ ما في يدِه ؟! أو قصدَ بذلكَ إتعابَه وإيذاءَه لبغضٍ له ؟ كيفَ وهو قرَّةُ عينِه ، وثمرةُ فؤادِه ، لو هبَّتْ عليه ريحٌ . . لعزَّ عليه ذلك ؟! كلاَّ ، ولـٰكنْ لِمَا علمَ أنَّ صلاحَه في ذلك ، وأنْ بهـٰذا التَّعبِ القليلِ يصلُ إلىٰ خيرٍ كثيرٍ ، ونفعٍ عظيمٍ .

وما تقولُ في الطَّبيبِ الحاذقِ النَّاصحِ المحبِّ إذا منعَ المريضَ الدَّنِفَ شربةَ ماءٍ وهو ظمآنُ يتقلَّىٰ كبدُه[1] ، وسقاه شربةَ إهليلَجٍ كريهةً[2] ، تجزعُ عن ذلك نفسُه وطبعُه ؟ أترىٰ أنَّ ذلك منه معاداةٌ وإيذاءٌ ؟! كلاَّ ، بل هو نصحٌ وإحسانٌ لِمَا علمَ يقيناً أنَّ في إعطائِه شهوتَه ساعةً هلاكَه وعطبَه رأساً ، وفي منعِ ذلك شفاؤه وبقاؤه .

فتأمَّلْ أيُّها الرَّجلُ إذا حبسَ اللهُ عنك رغيفاً أو درهماً ، فتعلمُ يقيناً أنَّه يملكُ ما تريدُ ، ويقدرُ علىٰ إيصالِه إليك ، وله الجودُ والفضلُ ، ويعلمُ حالَك فلا يخفىٰ عليه شيءٌ ، فلا عُدْمَ ولا عجزَ ، ولا خفاءَ ولا بخلَ ، تعالى اللهُ عن ذلك وتقدَّسَ ؛ فإنَّه أغنى الأغنياءِ ، وأقدرُ القادرينَ ، وأعلمُ العلماءِ ، وأجودُ الأجودينَ ، فتعلمُ إذنْ بالحقيقةِ أنَّه لم يمنعْك إلاَّ لصلاحٍ واختيارٍ لك ، كيف وهو الَّذي يقولُ : ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ؟

كيف وهو الَّذي جادَ عليكَ بمعرفتِه ، وهي الَّتي تتلاشىٰ في جنبِها الدُّنيا بأسرِها ؟

وفي الخبرِ المشهورِ : (إنَّ اللهَ سبحانَه وتعالىٰ يقولُ : إنِّي لأذودُ أوليائي عن

---

(١) الدنف : المريض الذي لزمه المرض الشديد ، فإذا فتحتَ نونَه . . استوىٰ فيه المذكر والمؤنث ، والمثنىٰ والجمع ، وإذا كسرتها . . أنثتَ وثنيت وجمعت .

(٢) الإهليلج ـ بكسر الهمزة واللام الأولى ، وفتح الثانية ـ : شجر له ثمر علىٰ هيئة حَب الصنوبر الكبار ، يداوىٰ به باستعماله مربَّىً .

نعيمِ الدُّنيا كما يذودُ الرَّاعي الشَّفيقُ إبلَه عن مباركِ العُرَّةِ)[1] .

وإذا ابتلاك بشدَّةٍ . . فاعلمْ يقيناً أنَّه غنيٌّ عن امتحانِك وابتلائِك ، عالمٌ بحالِك ، بصيرٌ بضعفِك ، وهو بك رؤوفٌ رحيمٌ ، أما تسمعُ قولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « للهُ أرحمُ بعبدِه المؤمنِ من الوالدةِ الشَّفيقةِ بولدِها » ؟[2] .

فإذا علمتَ هـٰذا . . علمتَ أنَّه لم يُنزلْ بك هـٰذا المكروهَ إلاَّ لصلاحٍ لك جهلتَه أنت وهو عالمٌ بذلكَ ، ولهـٰذا المعنىٰ تراه يُكثرُ ابتلاءَ أوليائِه وأصفيائِه الَّذينَ هم أعزُّ عبادِه ، حتَّىٰ يقولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « إذا أحبَّ اللهُ قوماً . . ابتلاهم »[3] ، ويقولُ : « أشدُّ النَّاسِ بلاءً الأنبياءُ ، ثمَّ الشُّهداءُ ، ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ »[4] .

وإذا رأيتَ اللهَ تعالىٰ يحبسُ عنكَ الدُّنيا ، أو يُكثرُ عليكَ الشَّدائدَ والبلوى . . فاعلمْ أنَّك عندَه عزيزٌ ، وأنَّك عندَه بمكانٍ عليٍّ ، وأنَّه يسلكُ بك طريقَ أوليائِه ، فإنَّه يراك ولا يحتاجُ إلىٰ ذلك ، أما تسمعُ قولَه تعالى : ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ ؟ بلِ اعرفْ منَّته عليكَ فيما يَحفظُ عليكَ من صلاحِك ، ويُكثرُ من أجرِك وثوابِك ، ويُنزلُك منازلَ الأبرارِ والأعزَّةِ عندَه ، فكم ترىٰ من عواقبَ حميدةٍ ، ومواهبَ كريمةٍ ، واللهُ وليُّ التَّوفيقِ بمنِّه وفضلِه .

فصل

[في أن من عرف صفات الباري جل وعلا ترك تدبير الأمور إليه]

وبالجملةِ : إذا علمتَ يقيناً أنَّ اللهَ تعالى المليءُ بضمانِ رزقِك الَّذي لا بدَّ لك منه في بقائِك وقيامِك بعبادتِه ، وأنَّه القادرُ علىٰ ما يشاءُ كيف يشاءُ ، وهو

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٠) من قول ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخرجه ابن أبي الدنيا في « التواضع والخمول » (٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/ ٥٩) من قول وهب بن منبه رحمه الله تعالى .

والعرة ـ بضم العين ـ : الجرب .

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) ، وابن ماجه (٤٠٣١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٤) تقدم تخريجه (ص ١٧٧) .

البصيرُ بحاجتِك حالاً فحالاً ، ساعةً فساعةً . . اتَّكلتَ علىٰ ضمانِه الحقِّ ، ووعدِه الصِّدقِ ، وسكنَ قلبُك بذلكَ ، وأضربتَ عن ذكرِ العلائقِ والأسبابِ ، وتعلُّقِ قلبك بها ؛ إذ العلائقُ لا تغنيك ولا تكفيك دونَ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ فإنَّه تعالىٰ ييسِّرُ أكلَها وشربَها ، ثمَّ هو الَّذي يُمرئُها ويُهنئُها ، ثمَّ هو الَّذي يُلحقُك قوَّتَها ونفعَها ، ويدفعُ عنك ثقلَها وضرَّها ، وهو تعالىٰ يغنيك ويكفيك دونَها إذا شاءَ ، فالأمرُ كلُّه إليه وحدَه لا شريكَ له ، فتوكَّلْ عليه لا غيرُ .

وكذلكَ تتركُ التَّدبيرَ في أمورِك علىٰ من يدبِّرُ السَّماءَ والأرضَ ، وتريحُ نفسَك عن كلِّ شيءٍ لا يبلغُه علمُك وبصرُك من أمرٍ يكونُ غداً أو لا يكونُ ، وأنَّه كيفَ يكونُ ، وتكفُّ عن لعلَّ ولو ؛ إذ ليسَ فيه إلاَّ شغلُ القلبِ ، وتضييعُ الوقتِ ، ولعلَّه تكونُ أمورٌ لم تخطرْ ببالِك ، فيكونُ ما سبقَ من فكرِك وتدبيرِك ، وتضييعِك الوقتَ العزيزَ فيه لغواً بلا فائدةٍ ، بل خسراناً تندمُ عليه ، وتغبنُ فيه ؛ لمكانِ شغلِ القلبِ ، وتضييعِ العمرِ في ذلك ، وفي هٰذا المعنىٰ لبعضِ الزُّهَّادِ رضيَ اللهُ عنهم : [من الكامل]

سبقَتْ مقاديرُ الإلٰهِ وحكمُه ... فأرحْ فؤادَك من لعلَّ ومن لوِ

وقالَ آخرُ : [من الكامل]

سيكونُ ما هو كائنٌ في وقتِه ... وأخو الجهالةِ مُتعَبٌ محزونُ
فلعلَّ ما تخشاه ليسَ بكائنٍ ... ولعلَّ ما ترجوه ليسَ يكونُ[1]

وتقولُ لنفسِك في الجملةِ : يا نفسُ ؛ لن يصيبَنا إلاَّ ما كتبَ اللهُ لنا ، هو مولانا ، وهو حسبُنا ونعمَ الوكيلُ ؛ إذ هو قديرٌ لا نهايةَ لقدرتِه ، حكيمٌ لا نهايةَ لحكمتِه ، رحيمٌ لا نهايةَ لرحمتِه ، ومن كانَ بهٰذه الصِّفةِ . . فحقيقٌ أن يُتوكَّلَ عليه ، ويُفوَّضَ الأمرُ كلُّه إليه ، فعليك بالتَّفويضِ .

وكذلكَ توطِّنُ قلبَك علىٰ أنَّ ما يقضي اللهُ لك فهو الأوفقُ والأصلحُ ، وأنَّ

---

(١) البيتان لعبد الله بن محمد بن أبي عيينة . انظر « الكامل » للمبرد (٢/٥١٦) ، لكن البيت الثاني بمعناه .

ذلك لا يبلغُ علمُنا كيفيَّتَه وسرَّه ، وتقولُ : يا نفسُ ؛ المقدورُ كائنٌ لا محالةَ ؛ فلا فائدةَ في السُّخطِ ، والخيرةُ فيما يصنعُ اللهُ تعالى ؛ فلا وجهَ للسُّخطِ ، ألستِ تقولينَ : رضيتُ باللهِ ربّاً ، فكيفَ لا ترضَيْنَ بقضائِه ، والقضاءُ من شأنِ الرُّبوبيَّةِ وحقِّها ، فعليكِ بالرِّضا ؟!

وكذلكَ إذا أصابتْك مصيبةٌ ، وحلَّ بك مكروهٌ . . فتراعي نفسَك عندَ ذلك ، وتضبطُ قلبَك حتَّىٰ لا تجزعَ ولا تظهرَ منك شكايةٌ وقلقٌ ، لا سيَّما عندَ الصَّدمةِ الأولى ؛ فإنَّ الشَّأنَ هنالكَ ، والنَّفسُ متسارعةٌ جدّاً إلىٰ عادةِ الجزعِ عندَ ذلك ، وتقولُ : يا نفسُ ؛ هـٰذه قد وقعَتْ فلا حيلةَ لدفعِها ، وقد دفعَ اللهُ تعالىٰ ما هو أكبرُ منها ، فإنَّ أنواعَ البلاءِ في خزائنِه لكثيرةٌ ، وإنَّ هـٰذه ستنقضي فلا تبقى ، وإنَّها سحابةٌ ستنقشعُ ، فتجلَّدي يا نفسُ قليلاً تجدي لذلكَ سروراً طويلاً ، وثواباً جزيلاً ، بعدَ أنْ لا دفعَ للنَّازلِ ، ولا فائدةَ في الجزعِ ، ولا مصيبةَ في الحقيقةِ مع العزاءِ والصَّبرِ ، فتشغلُ لسانَك بالاسترجاعِ ، وقلبَك بذكرِ ما يحصلُ لك عندَ اللهِ تعالىٰ من الأجرِ ، وتتذكَّرُ صبرَ أولي العزمِ على المصائبِ العظامِ من الأنبياءِ والأولياءِ والأعزَّةِ على اللهِ تعالى .

وإذا حبسَ اللهُ عنك الدُّنيا في وقتٍ . . فتقولُ : يا نفسُ ؛ هو أعلمُ بالحالِ وأرحمُ بكِ وأكرمُ ؛ فإنَّه الَّذي يُطعمُ الكلبَ في خسَّتِه ، ويطعمُ الكافرَ في عداوتِه ، وأنا عبدُه العارفُ الموحِّدُ ، أما أساوي عندَه رغيفاً ؟! هـٰذا محالٌ أيضاً ، فاعلمي بالحقيقةِ أنَّه لم يحبسْ ذلك عنكِ إلاَّ لنفعٍ عظيمٍ ، وسيجعلُ اللهُ بعدَ عسرٍ يسراً ، فاصبري قليلاً تري العجبَ من لطيفِ صنعِه ، أمَا سمعتِ قولَ القائلِ : [من الوافر]

توقَّعْ صنعَ ربِّك سوفَ يأتي ... بما تهواه من فرَجٍ قريبِ
ولا تيأسْ إذا ما نابَ خطبٌ ... فكم في الغيبِ من عجبٍ عجيبِ

وقولَ الآخرِ : [من الهزج]

ألا يا أيُّها المرءُ الـ ... ـذي الهمُّ بهِ برَّحْ

إذا ٱشتــــدَّتْ بـــك العســـرى ففكِّــــرْ فـــي ألــــم نشـــرحْ
فعســـــرٌ بيـــــنَ يســـريـــنِ إذا ذكـــرتَـــــه فـــٱفـــرحْ[1]

فإذا جرَّبتَ هٰذه الأذكارَ ونحوَها ، وواظبتَ عليها بالتَّكريرِ والتَّمرينِ . . فإنَّ ذلك سيهوِّنُ عليكَ إذا كانتْ لك همَّةٌ وٱجتهادٌ زماناً غيرَ طويلٍ .

ولقد دفعتَ هٰذه العوارضَ الأربعةَ عن نفسِك[2] ، وكُفيتَ مؤنتَها ، وصرتَ عندَ اللهِ تعالىٰ من المتوكِّلينَ المفوِّضينَ ، الرَّاضينَ بقضائِه ، الصَّابرينَ علىٰ بلائِه ، وحصَّلتَ لنفسِك راحةَ القلبِ والبدنِ في الدُّنيا ، وعظيمَ الثَّوابِ والذُّخرِ في العقبى ، وجليلَ القدرِ والمحبَّةِ عندَ ربِّ العالمينَ ، فيجتمعُ لك خيرُ الدَّارينِ ، وتستقيمُ لك طريقُ العبادةِ ؛ إذ لا عائقَ ولا شاغلَ ، وكنتَ حينئذٍ قد قطعتَ هٰذه العقبةَ العسيرةَ ، واللهُ سبحانَه المسؤولُ أن يُمدَّك وإيَّانا بحسنِ توفيقِه ؛ فإنَّ الأمرَ كلَّه بيدِه ، وهو أرحمُ الرَّاحمينَ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيمِ .

* * *

(١) أخرج الواحدي في « الوسيط » (٤/٥١٩) عن العتبي قال : كنت ذات يوم في البادية بحالة من الغم ، فألقي في رُوعي بيت شعر ، فقلت : [من الهزج]
أرى المـــــوتَ لمـــــن أصبـــ ـــحَ مغمـــومـــاً لــــه أروحْ
فلما أن جن الليل . . سمعت هاتفاً يهتف من الهواء . . . وذكر الأبيات بنحوها .
قال : فحفظت الأبيات ، وفرج الله غمي .

(٢) **العوارض الأربعة** : الرزق ، والأخطار ، والقضاء ، والشدائد والمصائب ، وقد مر شرحها .

العقبةُ الخامسةُ
وهي عقبةُ البواعثِ

ثمَّ عليكَ ـ يا أخي ـ بالسَّيرِ إذا ٱستقامَ لك الطَّريقُ ، وسهُلَتْ لك السَّبيلُ ، وارتفعَتِ العوائقُ ، وزالتِ العوارضُ ، ولا يحصلُ لك السَّيرُ المستقيمُ إلاَّ باستشعارِ الخوفِ والرَّجاءِ والتزامِهما حقَّهما علىٰ حدِّهما .

أمَّا الخوفُ : فإنَّما يجبُ التزامُه لأمرينِ :

أحدُهما : للزَّجرِ عن المعاصي ؛ فإنَّ هـٰذه النَّفسَ أمَّارةٌ بالسُّوءِ ، ميَّالةٌ إلى الشَّرِّ ، طمَّاحةٌ إلى الفتنةِ ، ولا تنتهي عن ذلك إلاَّ بتخويفٍ عظيمٍ ، وتهديدٍ بالغٍ ، ليستْ هي في طبعِها حرَّةً يهمُّها الوفاءُ ، ويمنعُها الحياءُ عن الجفاءِ ، وإنَّما هي كما قالَ القائلُ : [من مجزوء الكامل]

أَلعبـدُ يُقـرَعُ بـالعصـا ... والحُـرُّ تكفيـه المـلامـةْ[1]

والتَّدبيرُ في أمرِها : أن تقرعَها أبداً بسوطِ التَّخويفِ قولاً وفعلاً وفكراً ، نحوَ ما ذُكرَ عن بعضِ الصَّالحينَ أنَّ نفسَه دعتْه إلىٰ معصيةٍ ، فانطلقَ ونزعَ ثيابَه ، وجعلَ يتمرَّغُ في الرَّمضاءِ ويقولُ لنفسِه : ذوقي ، فنارُ جهنَّمَ أشدُّ حرّاً من هـٰذه ، أيْ جيفةً باللَّيلِ ، وبَطالةً بالنَّهارِ .

والثَّاني : لئلاَّ تُعجَبَ بالطَّاعاتِ فتَهلِكَ ، بل تقمعُها بالذَّمِّ والعيبِ والنَّقصِ من الأسواءِ والأوزارِ الَّتي فيها ضروبُ الأخطارِ ، وذلك نحوُ ما ذُكرَ عن النَّبيِّ

---

(١) البيت ليزيد بن مفرِّغ . انظر « البيان والتبيين » (٣/٣٦) ، و« الكامل » للمبرد (١/٣٥٤) .

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قالَ : « لو أنِّي وعيسىٰ أوخذنا بما كسبَتْ هاتانِ . . لعُذِّبنا عذاباً لم يُعذَّبْه أحدٌ » وأشارَ بإصبعَيه[1] .

وعن الحسنِ أنَّه كانَ يقولُ : ما يأمنُ أحدُنا أن يكونَ قد أصابَ ذنباً فطُبِّقَ بابُ المغفرةِ دونَه ، فهو يعملُ في غيرِ معملٍ .

وعن ابنِ السَّمَّاكِ فيما يعاتبُ نفسَه : (تقولينَ قولَ الزَّاهدينَ ، وتعملينَ عملَ المنافقينَ ، وفي الجنَّةِ تطمعينَ ، هيهاتَ هيهاتَ ! إنَّ للجنَّةِ قوماً آخرينَ ، ولهم أعمالٌ غيرُ ما تعملينَ)[2] .

فهٰذه وأمثالُها ممَّا يلزمُ العبدَ تذكيرُها للنَّفسِ وتكريرُها عليها ؛ لئلاَّ تعجبَ بطاعةٍ ، أو تقعَ في معصيةٍ ، وباللهِ التَّوفيقُ .

وأمَّا الرَّجاءُ : فإنَّما يلزمُكَ ٱستشعارُه لأمرينِ :

أحدُهما : للبعثِ على الطَّاعاتِ ، وذلك أنَّ الخيرَ ثقيلٌ ، والشَّيطانُ عنه زاجرٌ ، والهوىٰ إلىٰ ضدِّه داعٍ ، وحالُ أهلِ الغفلةِ من عامَّةِ الخلقِ في النَّفسِ منطبعٌ مشاهَدٌ ، والثَّوابُ الَّذي يُطلَبُ بالطَّاعاتِ عن العينِ غائبٌ ، وأمدُ الوصولِ إليه فيما يحسبُه بعيدٌ ، وإذا كانَ الحالُ علىٰ هٰذه الحالةِ . . فلا تنبعثُ النَّفسُ للخيرِ ، ولا ترغبُ فيه حقَّه ، ولا تهتزُّ له إلاَّ بأمرٍ يقابلُ كلَّ هٰذه الموانعِ ويساويها ، بل يزيدُ عليها ، وذلك الأمرُ هو الرَّجاءُ القويُّ في رحمةِ اللهِ تعالى ، والتَّرغيبُ البالغُ في حسنِ ثوابِه وكريمِ أجرِه ، ولقد قالَ شيخُنا رحمَه اللهُ : الحزنُ يمنعُ من الطَّعامِ ، والخوفُ يمنعُ من الذُّنوبِ ، والرَّجاءُ يقوِّي على الطَّاعاتِ ، وذكرُ الموتِ يزهِّدُ في الفضولِ .

والثَّاني : ليهوِّنَ عليكَ ٱحتمالَ الشَّدائدِ والمشقَّاتِ .

وٱعلمْ : أنَّ من عرفَ ما يطلبُ . . هانَ عليه ما يبذلُ ، ومن طابَ له شيءٌ

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٥٧) و(٦٥٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٣٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وإشارته صلى الله عليه وسلم بإصبعيه كانت بالإبهام والتي تليها ، كما في « صحيح ابن حبان » (٦٥٧) .

(٢) أخرجه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٢/ ٤٤٦) .

ورغبَ فيه حقَّ رغبتِه . . ٱحتملَ شدَّتَه ولم يبالِ بما يلقىٰ من مؤنتِه ، ومن أحبَّ أحداً حقَّ محبَّتِه . . أحبَّ أيضاً ٱحتمالَ محنتِه ، حتَّىٰ إنَّه ليجدُ لتلكَ المحنةِ ضروباً من اللَّذَّةِ ، ألا ترىٰ مشتارَ العسلِ لا يفكِّرُ بلسعِ النَّحلِ[1] ؛ لِمَا يتذكَّرُ من حلاوةِ العسلِ ، والأجيرُ لا يعبأُ بارتقاءِ السُّلَّمِ الطَّويلِ مع الحملِ الثَّقيلِ طولَ النَّهارِ الصَّائفِ المديدِ ؛ لِمَا يتذكَّرُ من أخذِ درهمينِ بالعشيِّ ، وإنَّ الفلاَّحَ لا يفكِّرُ بمقاساةِ الحرِّ والبردِ ومباشرةِ الشَّقاءِ والكدِّ طولَ السَّنةِ ؛ لِمَا يتذكَّرُ من البيدرِ أوانَ الغلَّةِ ؟

وكذلكَ ـ يا أخي ـ العبَّادُ الذينَ هم أهلُ الاجتهادِ ، إذا ذكروا الجنَّةَ في طيبِ مقيلِها ، وأنواعِ نعيمِها ؛ من قصورِها وحورِها ، وطعامِها وشرابِها ، وحليِّها وحللِها ، وسائرِ ما أعدَّه اللهُ تعالىٰ لأهلِها . . هانَ عليهم ما احتملوه من تعبٍ في عبادةٍ ، أو فاتَهم في الدُّنيا من لذَّةٍ ونعمةٍ ، أو نالَهم من ضرٍّ ومشقَّةٍ .

ولقد حُكيَ أنَّ أصحابَ سفيانَ الثَّوريِّ رحمَه اللهُ كلَّموه فيما كانوا يرونَ من خوفِه وٱجتهادِه ورثَّةِ حالِه ، فقالوا : (يا أستاذُ ؛ لو نقصْتَ من هٰذا الجهدِ . . نِلتَ مرادَك أيضاً إن شاءَ اللهُ تعالى ، فقالَ سفيانُ : كيف لا أجتهدُ وقد بلغني أنَّ أهلَ ٱلجنَّةِ يكونونَ في منازِلهم ، فيتجلَّىٰ لهم نورٌ تضيءُ له الجنَّاتُ الثَّمانيةُ ، فيظنُّونَ أنَّ ذٰلك نورٌ من جهةِ الرَّبِّ سبحانَه وتعالى ، فيخرُّونَ ساجدينَ ، فينادَوْنَ : أنِ ٱرفعوا رؤوسَكم ، ليسَ الَّذي تظنُّونَ ، إنَّما هو نورُ جاريةٍ تبسَّمتْ في وجهِ زوجِها ؟! ثمَّ أنشأَ يقولُ : [من البسيط]

ما ضرَّ من كانتِ الفردوسُ مسكنَه ... ماذا تحمَّلَ من بؤسٍ وإقتارِ
تراه يمشي كئيباً خائفاً وجلاً ... إلى المساجدِ يمشي بينَ أطمارِ
يا نفسُ ما لَكِ من صبرٍ علىٰ لهبٍ ... قد حانَ أن تُقبلي من بعدِ إدبارِ)[2]

---

(١) مشتار العسل : الذي يستخرج العسل من محله .

(٢) أخرج القصة أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٧٤) ، وأما الأثر الذي بلغ سفيان الثوري رحمه الله تعالى . . فقد أخرجه بنحوه مرفوعاً الخطيبُ في « تاريخ بغداد » (١١/ ١٦٣) ، وابن عدي في « الكامل في ضعفاء الرجال » (٢/ ٤٥٧) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
والأطمار ـ جمع طمر ، بكسر الطاء ـ : الثوب الخلَق .

قلتُ أنا : وإذا كانَ مدارُ أمرِ العبوديَّةِ على الأمرينِ : القيامِ بالطَّاعةِ ، والانتهاءِ عن المعصيةِ ، وذلك لا يتمُّ مع هٰذه النَّفسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ إلاَّ بترغيبٍ وترهيبٍ ، وترجيةٍ وتخويفٍ ؛ فإنَّ الدَّابَّةَ الحَرونَ تحتاجُ إلىٰ قائدٍ يقودُها ، وإلىٰ سائقٍ يسوقُها ، وإذا وقعَتْ في مَهواةٍ فربَّما تُضرَبُ بالسَّوطِ من جانبٍ ، ويُلوَّحُ لها بالشَّعيرِ من جانبٍ آخرَ ، حتَّىٰ تنهضَ وتتخلَّصَ ممَّا وقعتْ فيه ، وإنَّ الصَّبيَّ العَرِمَ[1] لا يمرُّ إلى الكُتَّابِ إلاَّ بترجيةٍ من الوالدينِ ، وتخويفٍ من المعلِّمِ . . فكذلكَ هٰذه النَّفسُ دابَّةٌ حَرونٌ ، وقعتْ في مَهواةِ الدُّنيا ، فالخوفُ سوطُها وسائقُها ، والرَّجاءُ شعيرُها وقائدُها ، وإنَّها الصَّبيُّ العَرِمُ ، يُحمَلُ إلىٰ كتَّابِ العبادةِ والتَّقوى ، فذِكرُ النَّارِ والعقابِ تخويفُه ، وذِكرُ الجنَّةِ وثوابِها ترجيتُه وترغيبُه ، ولذلكَ يلزمُ العبدَ الطَّالبَ للعبادةِ والرِّياضةِ أن يُشعِرَ النَّفسَ بالأمرينِ اللَّذينِ هما : الخوفُ ، والرَّجاءُ ، وإلاَّ . . فلا تساعدُه نفسُه الجموحُ علىٰ ذلك ، وبهٰذا المعنىٰ أتى الذِّكرُ الحكيمُ بمجموعِ الأمرينِ : الوعدِ والوعيدِ ، والتَّرغيبِ والتَّهديدِ ، وأبلغَ في كلٍّ منهما ، فذكرَ من الثَّوابِ الكريمِ ما لا صبْرَ عنه ، وذكَرَ من العقابِ الأليمِ ما لا صبْرَ عليه .

فعليكَ إذنْ بالتزامِ هٰذينِ المعنيينِ يحصلْ لك مرادُك ، ويسهلْ عليكَ احتمالُ المشقَّةِ ، واللهُ تعالىٰ وليُّ التَّوفيقِ بفضلِه ورحمتِه .

فإن قلتَ : فما حقيقةُ الرَّجاءِ والخوفِ وحكمُهما ؟

فاعلمْ : أنَّ الخوفَ والرَّجاءَ عندَ علمائِنا رحمَهم اللهُ تعالىٰ يرجعانِ إلىٰ قبيلِ الخواطرِ ، وإنَّما المقدورُ للعبدِ مقدِّماتُهما .

قالوا : والخوفُ رِعدةٌ تحدثُ في القلبِ عندَ ظَنِّ مكروهٍ ينالُه ، والخشيةُ نحوُه ، لٰكنَّ الخشيةَ تقتضي ضرباً من الاستعظامِ والمهابةِ ، وضدُّ الخوفِ الجراءةُ ، ولٰكنْ قد يقابَلُ بالأمنِ ، فيقالُ : خائفٌ وآمنٌ ، وخوفٌ وأمنٌ ؛ لأنَّ الآمنَ الَّذي يجترىءُ على اللهِ سبحانَه وتعالى ، والحقيقةُ أنَّ الجراءةَ تُضادُّه .

---

(١) **الصبي العرم** : الشديد الشرس ، وقد عرم الصبي من باب : نصر وضرب وكرم .

ومقدِّماتُ الخوفِ أربعٌ :

الأولى : ذكرُ الذُّنوبِ الكثيرةِ الَّتي سبقتْ ، وكثرةِ الخصومِ الَّذينَ مضوا في المظالمِ وأنت مرتهنٌ لم يتبيَّنْ لك الخلاصُ بعدُ .

والثَّانيةُ : ذكرُ شدَّةِ عقوبةِ اللهِ سبحانَه الَّتي لا طاقةَ لك بها .

والثَّالثةُ : ذكرُ ضعفِ نفسِك عن احتمالِ العقوبةِ .

والرَّابعةُ : ذكرُ قدرةِ اللهِ تعالىٰ عليكَ متىٰ شاءَ وكيف شاءَ .

وأمَّا الرَّجاءُ : فهو ابتهاجُ القلبِ بمعرفةِ فضلِ اللهِ تعالى ، وٱسترواحُه إلىٰ سعةِ رحمةِ اللهِ تعالى ، وهـٰذا من جملةِ الخواطرِ غيرُ مقدورٍ للعبدِ ، ورجاءٌ هو مقدورٌ ، وهو تذكُّرُ فضلِ اللهِ تعالىٰ وسعةِ رحمتِه ، وقد تُسمَّىٰ أيضاً إرادةُ المخاطرةِ بالاستثناءِ رجاءً ، والمرادُ من هـٰذا البابِ هو الأوَّلُ ، وهو التَّذكُّرُ علىٰ حسبِ الابتهاجِ والاسترواحِ ، وضدُّه اليأسُ ، وهو تذكُّرُ فواتِ رحمةِ اللهِ وفضلِه ، وقطعُ القلبِ عن ذلك ، وهو معصيةٌ محضةٌ .

وهـٰذا الرَّجاءُ فرضٌ إذا لم يكنْ للعبدِ سبيلٌ إلى الامتناعِ عن اليأسِ إلاَّ به ، وإلاَّ . . فهو نفلٌ بعدَ ٱعتقادِ الجملةِ في فضلِ اللهِ سبحانَه وسعةِ رحمتِه .

ومقدِّماتُ الرَّجاءِ أربعٌ :

الأولى : ذكرُ سوابقِ فضلِه إليك من غيرِ قَدَمٍ أو شفيعٍ[1] .

والثَّانيةُ : ذكرُ ما وعدَ من جزيلِ ثوابِه وعظيمِ كرامتِه علىٰ حسبِ فضلِه وكرمِه ، دونَ ٱستحقاقِك إيَّاهُ بالفعلِ ؛ إذ لو كانَ علىٰ حسبِ الفعلِ . . لكانَ أقلَّ شيءٍ وأصغرَ أمرٍ .

والثَّالثةُ : ذكرُ كثرةِ نعمةِ اللهِ تعالىٰ عليكَ في أمرِ دينِك ودنياك في الحالِ من أنواعِ الإمدادِ والألطافِ من غيرِ ٱستحقاقٍ أو سؤالٍ .

والرَّابعةُ : ذكرُ سعةِ رحمةِ اللهِ تعالىٰ وسبقِها غضبَه ، وأنَّه الرَّحمنُ الرَّحيمُ ،

---

(١) **القدم** ـ بفتح القاف والدال ـ : السابقة في الأمر : يقال : لفلان قدم سابقة ؛ أي : أثرة حسنة .

الغنيُّ الكريمُ ، الرَّؤوفُ بعبادِه المؤمنينَ .

فإذا واظبتَ علىٰ هـٰذينِ النَّوعينِ من الأذكارِ . . أفضيا بك إلى ٱستشعارِ الخوفِ والرَّجاءِ بكلِّ حالٍ ، واللهُ تعالىٰ وليُّ التَّوفيقِ بمنِّه وفضلِه .

فَصْلٌ

[في وجوب أخذ الاحتياط عند قطع عقبة البواعث]

فعليكَ ـ أيُّها الرَّجلُ ـ بقطعِ هـٰذه العقبةِ في تمامِ الاحتياطِ والتَّحرُّزِ ونهايةِ الرِّعايةِ ؛ فإنَّها عقبةٌ دقيقةُ المسلكِ ، خطرةُ الطَّريقِ ، وذلك أنَّ طريقَها بينَ طريقينِ مخوفينِ مهلكينِ :

أحدُهما : طريقُ الأمنِ .

والثَّاني : طريقُ اليأسِ .

وطريقُ الرَّجاءِ والخوفِ هو الطَّريقُ العدلُ بينَ الطَّريقينِ الجائرينِ ، فإن غلبَ الرَّجاءُ عليكَ حتَّىٰ فقدتَ الخوفَ ألبتَّةَ . . وقعتَ في طريقِ الأمنِ ، ولا يأمنُ مكرَ اللهِ إلاَّ القومُ الخاسرونَ ، وإن غلبَ الخوفُ عليكَ حتَّىٰ فقدتَ الرَّجاءَ ألبتَّةَ . . وقعتَ في طريقِ اليأسِ ، ولا ييأسُ من رَّوحِ اللهِ إلاَّ القومُ الكافرونَ .

فإن كنتَ ركبتَ بينَ الرَّجاءِ والخوفِ ، واعتصمتَ بهما جميعاً . . فهو الطَّريقُ العدلُ المستقيمُ الَّتي هي سبيلُ أولياءِ اللهِ تعالىٰ وأصفيائِه الَّذينَ وصفَهم بقولِه : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ .

فإذنْ ظهرَ لك في هـٰذه العقبةِ ثلاثةُ طرقٍ : طريقُ الأمنِ وٱلجراءةِ ، وطريقُ اليأسِ والقنوطِ ، وطريقُ الخوفِ والرَّجاءِ ممتدٌّ بينَهما ، فإن مِلْتَ عنه بقدمٍ إلىٰ يمينِك أو يسارِك . . وقعتَ في المُهلكيْنِ ، وهلكتَ مع الهالكينَ .

ثمَّ الشَّأنُ أنَّ الطريقينِ الجائرينِ المُهلكيْنِ أوسعُ مجالاً ، وأكثرُ داعياً ، وأسهلُ سلوكاً من الطَّريقِ العدلِ ؛ لأنَّك إذا نظرتَ من جانبِ الأمنِ . . رأيتَ من

سعةِ رحمةِ اللهِ وكثرةِ فضلِه وغايةِ جودِه ما لا يبقىٰ لك معه خوفٌ ، فتتّكلُ علىٰ ذلك بمرّةٍ وتأمنُ ، وإن نظرتَ من جانبِ الخوفِ . . رأيتَ من عظيمِ سياسةِ اللهِ تعالىٰ وكثرةِ هيبتِه ودقّةِ أمرِه وغايةِ مناقشتِه مع أوليائِه وأصفيائِه ما لا يكادُ يبقىٰ لك معه رجاءٌ ، فتيأسُ بمرّةٍ وتقنطُ .

فتحتاجُ إذنْ ألاّ تنظرَ إلىٰ سعةِ رحمةِ اللهِ تعالىٰ فقطْ حتّىٰ تتّكلَ وتأمنَ ، ولا إلىٰ عظيمِ الهيبةِ والمناقشةِ فقطْ حتّىٰ تقنطَ وتيأسَ ، بل تنظرُ إلىٰ هـٰذا وإلىٰ هـٰذا جميعاً ، وتأخذُ من هـٰذا بعضاً ، ومن هـٰذا بعضاً ، فتركَبُ بينَهما طريقاً دقيقاً ، وتسلُكُ ذلك لتسلمَ ؛ فإنَّ طريقَ الرَّجاءِ المحضِ سهلٌ واسعٌ عريضٌ ، وعاقبتُه تؤدِّيك إلى الأمنِ والخسرانِ ، وطريقُ الخوفِ المحضِ واسعٌ عريضٌ ، وعاقبتُه تؤدِّيك إلى الضَّلالِ والكفرانِ ، والطَّريقُ العدلُ بينَهما طريقُ الخوفِ والرَّجاءِ ، وإن كانَ دقيقاً عسراً . . فإنَّه سبيلٌ سالمٌ ، ومنهجٌ بيِّنٌ ، يؤدِّي إلى الغفرانِ والإحسانِ ، ثمَّ إلى الجنانِ والرِّضوانِ ، ولقاءِ الملكِ الرَّحمـٰنِ سبحانَه ، أمَا تسمعُ قولَه تعالىٰ في أبناءِ هـٰذا السَّبيلِ : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ، ثمَّ قالَ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ؟

فتأمَّلْ هـٰذه الجملةَ جدّاً وتشمَّرْ وتنبَّهْ للأمرِ ؛ فإنَّه لا يجيءُ بالهوينى ، واللهُ الموفِّقُ .

ثمَّ اعلمْ : أنَّه لا يتأتَّىٰ لك سلوكُ هـٰذه الطَّريقِ ، وحملُ هـٰذه النَّفسِ الجموحِ الكسلانةِ على الخيرِ باجتنابِ المحبوبِ عندَها ، واكتسابِ الطَّاعاتِ الثَّقيلةِ عليها . . إلاَّ بالتَّحفُّظِ بثلاثةِ أصولٍ ، والتَّذكُّرِ لها علىٰ سبيلِ الدَّوامِ من غيرِ فترةٍ ولا غفلةٍ .

أحدُها : ذكرُ أقوالِه تعالىٰ في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ .

والثَّاني : ذكرُ أفعالِه سبحانَه في الأخذِ والعفوِ .

والثَّالثُ : ذكرُ جزائِه للعبادِ في المعادِ من الثَّوابِ والعقابِ .

وتفصيلُ كلِّ أصلٍ منها يحتاجُ إلىٰ صحفٍ كثيرةٍ ، ولأجلِها صنَّفْنا كتابَ

« تنبيهِ الغافلينَ » ، ونحنُ نشيرُ في هـٰذا الكتابِ إلىٰ كلماتٍ توقفُك على المقصودِ إن شاءَ اللهُ تعالى .

الأصلُ الأوَّلُ : في أقوالِه سبحانَه .

تدبَّرْ ـ أيُّها الرَّجلُ ـ ما في الكتابِ العزيزِ من آياتِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ والتَّرجيةِ والتَّخويفِ .

فمن آياتِ الرَّجاءِ : قولُه تعالى : ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ، ﴿ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ، ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ ، ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ ، ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ .

فهـٰذه ونحوُها من آياتِ الرَّجاءِ .

ومن آياتِ التَّخويفِ والسِّياسةِ : قولُه تعالى : ﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ ، ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ، ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ ، ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ ، ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ ، ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ ، ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ .

نسألُ اللهَ تعالىٰ أن يسلِّمَنا برحمتِه .

ومن الآياتِ اللَّطيفةِ الجامعةِ بينَ الخوفِ والرَّجاءِ : قولُه تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ثمَّ قالَ في عقِبه : ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ لئلاَّ يستوليَ عليكَ الرَّجاءُ بمرَّةٍ .

وقولُه : ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ ثمَّ قالَ في عقِبه : ﴿ ذِي الطَّوْلِ ﴾ لئلاَّ يستوليَ عليكَ الخوفُ بمرَّةٍ .

وأعجبُ من ذلك قولُه تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ ثمَّ قالَ في عقِبه : ﴿ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ .

وأعجبُ منه قولُه تعالى : ﴿ مَنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ، علَّقَ الخشيةَ باسمِ الرَّحمنِ دونَ ٱسمِ ٱلجبَّارِ والمنتقمِ والمتكبِّرِ ونحوِه ؛ لتكونَ الخشيةُ مع ذكرِ الرَّحمةِ ، فلا تكونُ ٱلخشيةُ تُطيرُ قلبَك بمرَّةٍ ، فيكونُ تخويفاً في تأمينٍ ، وتحريكاً في تسكينٍ ، كما تقولُ : أمَا تخشى الوالدةَ الرَّحيمةَ ؟ أمَا تخافُ الوالدَ الشَّفيقَ ؟ أمَا تحذرُ الأميرَ الكريمَ ؟ والمرادُ من ذلك أن يكونَ الطَّريقُ عدلاً ، فلا تذهبُ إلىٰ أمنٍ ولا قنوطٍ .

جعلنا اللهُ وإيَّاكم من المتدبِّرينَ لهٰذا ٱلذِّكرِ الحكيمِ ، العاملينَ بما فيه ، إنَّه الجوادُ الكريمُ .

الأصلُ الثَّاني : في أفعالِه ومعاملاتِه .

أمَّا من جانبِ الخوفِ : فاعلمْ أنَّ إبليسَ عبدَ اللهَ ثمانينَ ألفَ سنةٍ ، فلم يتركْ ـ فيما قيلَ ـ موضعَ قدمٍ إلاَّ وسجدَ للهِ تعالىٰ فيه سجدةً ، ثمَّ تركَ له أمراً واحداً فطردَه عن بابِه ، وضربَ بوجهِه عبادةَ ثمانينَ ألفَ سنةٍ ، ولعنَه إلىٰ يومِ الدِّينِ ، وأعدَّ له عذاباً أليماً أبدَ الآبدينَ .

حتَّىٰ رُويَ : (أنَّ الصَّادقَ الأمينَ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه رأىٰ جبريلَ عليه السَّلامُ متعلِّقاً بأستارِ الكعبةِ وهو يصرخُ وينادي : إلٰهي وسيِّدي ؛ لا تغيِّرِ ٱسمي ، ولا تبدِّلْ جسمي)[1] .

ثمَّ آدمُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، صفيُّه ونبيُّه الَّذي خلقَه بيدِه ، وأسجدَ له ملائكتَه ، وحملَه علىٰ أعناقِهم إلىٰ جوارِه ، ٱنبسطَ فأكلَ أكلةً واحدةً لم يُؤذَنْ له فيها ، فنُوديَ : (ألاَ لا يجاورني من عصاني)[2] ، وأمرَ الملائكةَ الَّذينَ حملوا سريرَه يزجُّونَه من سماءٍ إلىٰ سماءٍ ، حتَّىٰ أوقعوه بالأرضِ ، ولم تُقبلْ توبتُه ـ فيما رُويَ ـ حتَّىٰ بكىٰ علىٰ ذلك مئتيْ سنةٍ[3] ، ولحقَه من الهوانِ والبلاءِ ما لحقَه ، وبقيتْ ذرِّيَّتُه في تبعاتِ ذلك إلى الأبدِ .

---

(١) أخرجه بنحوه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥١/ ١٦٤) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
(٢) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٧/ ٤١٩) و(٥٦/ ٣١٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه .
(٣) أخرجه الطبري في « تاريخه » (١/ ١٣٣) من قول ابن عباس رضي الله عنهما .

ثمَّ إنَّ نوحاً شيخَ المرسلينَ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم أجمعينَ ، الَّذي ٱحتملَ في أمرِ دينِه ما ٱحتملَ . . لم يقلْ إلاَّ كلمةً واحدةً علىٰ غيرِ وجهِها ، إذ نُوديَ : ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ .

حتَّىٰ رُويَ في بعضِ الأخبارِ : أنَّه لم يرفعْ رأسَه إلى السَّماءِ حياءً من اللهِ تعالىٰ أربعينَ سنةً .

ثمَّ إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ خليلُ ٱللهِ تعالىٰ لم يكنْ منه إلاَّ هفوةٌ واحدةٌ ، فكم خافَ وتضرَّعَ وقالَ : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ .

حتَّىٰ رُويَ : (أنَّه كانَ يبكي من شدَّةِ الخوفِ ، فيرسلُ ٱللهُ تعالى الأمينَ جبريلَ عليه السَّلامُ ، فيقولُ : يا إبراهيمُ ؛ هل رأيتَ خليلاً يعذِّبُ خليلَه بالنَّارِ ؟ فيقولُ : يا جبريلُ ؛ إذا ذكرتُ خطيئتي . . نسيتُ خُلَّتَه)[1] .

ثمَّ موسى بنُ عمرانَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يكنْ منه إلاَّ لطمةٌ واحدةٌ عن حِدَّةٍ[2] ، فكم خافَ وتضرَّعَ وٱستغفرَ وقالَ : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى ﴾ .

ثمَّ في زمانِه بلعمُ بنُ باعوراءَ ، كانَ بحيثُ إذا نظرَ إلى السَّماءِ . . يرى العرشَ ، وهو المعنيُّ بقولِه تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ ـ ولم يقلْ : آيةً واحدةً ـ إلاَّ أنَّه مالَ إلى ٱلدُّنيا وأهلِها مَيلةً واحدةً ، وتركَ لوليٍّ من أوليائِه حرمةً واحدةً[3] ، فسلبَه اللهُ معرفتَه ، وجعلَه بمنزلةِ الكلبِ المطرودِ ، فقالَ : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ﴾ ، فأوقعَه في بحرِ الضَّلالِ والهلاكِ إلى الأبدِ ، حتَّىٰ سمعْتُ بعضَ العلماءِ يقولُ : إنَّه كانَ في أوَّلِ أمرِه بحيثُ يكونُ في مجلسِه ٱثنا عشرَ ألفَ محبرةٍ للمتعلِّمينَ الَّذينَ يكتبونَ

---

(١) قال الإمام الكديري رحمه الله تعالىٰ في « سراج الطالبين » (٢/٢٦٩) : (رواه ابن أبي الدنيا في « كتاب الخائفين ») .

(٢) **الحدة** : ما يعتري الإنسان من الغضب .

(٣) قال الإمام الكديري رحمه الله تعالىٰ في « سراج الطالبين » (٢/٢٧٢) شارحاً هـٰذه العبارة : (« وترك » بلعم « لولي » أي : لموسىٰ عليه السلام « من أوليائه » تعالىٰ) .

عنه ، ثمَّ صارَ بحيثُ كانَ أوَّلَ من صنَّفَ كتاباً وذكرَ فيه أن ليسَ للعالمِ صانعٌ ، نعوذُ باللهِ ثمَّ نعوذُ باللهِ من سخطِه وعذابِه الأليمِ ، وفظيعِ خذلانِه الَّذي لا طاقةَ لنا به .

فانظرْ حبَّ الدُّنيا وشؤمَها ماذا تجلبُ للعلماءِ خاصَّةً ، فتنبَّهْ ؛ فإنَّ الأمرَ خطيرٌ ، والعمرَ قصيرٌ ، وفي العملِ تقصيرٌ ، والنَّاقدُ بصيرٌ ، فإن ختمَ بالخيرِ أعمالَنا ، وأقالَنا عثراتِنا . . فما ذلك عليه بعسيرٍ .

ثمَّ إنَّ داوودَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ خليفتَه في أرضِه أذنبَ ذنباً واحداً ، فبكىٰ علىٰ ذلك حتَّىٰ نبتَ العشبُ في الأرضِ من دموعِه ، وقالَ : إلهي وسيِّدي ؛ أما ترحمُ بكائي وتضرُّعي ؟ فأجيبَ : يا داوودُ ؛ نسيتَ ذنبَك ، وذكرتَ بكاءَك ؟! ولم تُقبَلْ توبتُه أربعينَ يوماً ، وقيلَ : أربعينَ سنةً .

ثمَّ يونسُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ غضبَ غضبةً واحدةً في غيرِ موضعِها ، فسجنَه في بطنِ الحوتِ تحتَ قعرِ البحارِ أربعينَ يوماً وهو ينادي : لا إلهَ إلاَّ أنت سبحانَك إنِّي كنتُ من الظَّالمينَ ، وسمعتِ الملائكةُ صوتَه ، فقالوا : إلهَنا وسيِّدَنا ؛ صوتٌ معروفٌ في موضعٍ مجهولٍ ، قالَ اللهُ تعالى : ذلك عبدي يونسُ ، فتشفَّعتْ فيه الملائكةُ[1] ، ثمَّ مع ذلك كلِّه غيَّرَ اسمَه ، فقالَ : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ ﴾ ، فنسبَه إلىٰ سجنِه ، ثمَّ قالَ : ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ، ثمَّ ذكرَ نعمتَه ومنَّتَه عليه فقالَ : ﴿ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ ، فانظرْ إلىٰ هـٰذه السِّياسةِ أيُّها المسكينُ .

وكذلكَ هلمَّ جرّاً إلىٰ سيِّدِ المرسلينَ أكرمِ خلقِه عليه بقولِه له : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ، حتَّىٰ كانَ يقولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « شيَّبتْني هودٌ وأخواتُها »[2] قيلَ : عنىٰ هـٰذه الآيةَ وأشكالَها في القرآنِ .

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري في « تفسيره » (١٧/١٠٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وعبد الرزاق الصنعاني في « تفسيره » (٣/١٥٦) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الحاكم (٢/٣٤٣) ، والترمذي (٣٢٩٧) بلفظ : (شيبتني « هود » و« الواقعة » و« المرسلات » و« عم يتساءلون » و« إذا الشمس كورت ») عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، إلا أن الحاكم لم يذكر (المرسلات) ، وبلفظه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٨٨٠) عن أبي جحيفة =

وقالَ تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ إلىٰ أن منَّ عليه بالغفرانِ فقالَ : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ .

وقالَ : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ ، وكانَ بعدَ ذلك عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يصلِّي اللَّيلَ حتَّىٰ تورَّمَتْ قدماه ، فيقولونَ : أتفعلُ هٰذا يا رسولَ اللهِ وقد غفرَ اللهُ لك ما تقدَّمَ من ذنبِك وما تأخَّرَ ؟! فيقولُ : « أفلا أكونُ عبداً شكوراً ؟ »[1] .

وكانَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يقولُ : « لو أنِّي وعيسىٰ أوخذْنا بما كسبَتْ هاتانِ . . لعُذِّبنا عذاباً لم يُعَذَّبْه أحدٌ من العالمينَ »[2] .

كانَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يصلِّي اللَّيلَ ويبكي ويقولُ : « أعوذُ بعفوِك من عقابِك ، وبرضاك من سخطِك ، وأعوذُ بك منك ، لا أحصي ثناءً عليكَ أنت كما أثنيتَ علىٰ نفسِك »[3] .

ثمَّ الصَّحابةُ رضيَ اللهُ عنهم الَّذينَ هم خيرُ قرنٍ من خيرِ أمَّةٍ كانَ يبدو منهم شيءٌ من المزاحِ ، فنزلَ قولُه تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ الآيةَ[4] .

ثمَّ وضعَ في هٰذه الأمَّةِ مع كونِها مرحومةً الحدودَ والسِّياساتِ العظيمةَ والآدابَ ، حتَّىٰ كانَ يونسُ بنُ عُبيدٍ يقولُ : لا تأمنْ من قَطعَ في خمسةِ دراهمَ خيرَ عضوٍ منك أن يكونَ عذابُه هٰكذا غداً .

= رضي الله عنه ، والطبراني في « الكبير » (١٧/٢٨٦) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ، وقد روي الحديث بروايات عدة في بيان أخوات (هود) ، وقد ذكر جملة منها مع مخرجيها السيوطي في « الدر المنثور » (٤/٣٩٦ ـ ٣٩٨) .

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٦) ، ومسلم (٢٨١٩) ، وابن خزيمة (١١٨٢) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

(٢) تقدم تخريجه (ص ١٩٩) .

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٦) ، وابن خزيمة (٦٥٥) ، وابن حبان (١٩٣٢) عن عائشة رضي الله عنها .

(٤) أخرج مسلم (٣٠٢٧) ، والنسائي في « الكبرى » (١١٥٠٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهٰذه الآية : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد ١٦] إلا أربع سنين) .

نسألُ اللهَ تعالى الكريمَ الرَّحيمَ ألاَّ يعاملَنا إلاَّ بمحضِ كرمِه ، إنَّه أرحمُ الرَّاحمينَ .

وأمَّا من جانبِ الرَّجاءِ : فحدِّثْ عن رحمةِ اللهِ الواسعةِ ولا حرجَ ، ومن الَّذي يعرفُ غايتَها أو يحسنُ وصفَها ؟! فإنَّه الَّذي يهبُ كفرَ سبعينَ سنةً بإيمانِ ساعةٍ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ .

أمَا ترىٰ في أمرِ سحرةِ فرعونَ الَّذينَ جاؤوا لحربِه[1] ، وحلفوا بعزَّةِ فرعونَ عدوِّه ، فما كانَ إلاَّ أنْ رأوا آيةَ موسىٰ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فعرفوا الحقَّ ؛ فقالوا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ ، ولم يَذكرْ أنَّهم زادوا عليها عملاً ، ثمَّ انظرْ كم كرَّرَ ذكرَهم في معنى المدحِ في كتابِه العزيزِ ، وكم كبائرَ وصغائرَ غفرَها لهم بإيمانِ ساعةٍ بل لحظةٍ ، فما قالوا إلاَّ ﴿ ءَامَنَّا ﴾ عن صدقِ القلوبِ . . كيف قبلَهم ووهبَ لهم جميعَ ما سلفَ ؟! ثمَّ كيف جعلَهم رؤوسَ الشُّهداءِ في الجنَّةِ أبدَ الآبدينَ ؟!

فهٰذا حالُ من عرفَه ووحَّدَه ساعةً بعدَ كلِّ ذلك الكفرِ والضَّلالِ والفسادِ ، فكيف حالُ من أفنىٰ في توحيدِه عمرَه ، لا يرىٰ لذلكَ أهلاً في الدَّارينِ غيرَه ؟!

أمَا ترىٰ أصحابَ الكهفِ وما كانوا عليه من الكفرِ طولَ أعمارِهم إذ قالوا : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، والتجؤوا إليه . . كيف قبلَهم ، ثمَّ أعزَّهم وأكرمَهم فقالَ : ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ ؟! وكيف أعظمَ لهم الحرمةَ ، وألبسَهم ٱلمهابةَ والخشيةَ ، حتَّىٰ يقولَ لأكرمِ الخلقِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ ؟! بل كيف أكرمَ كلباً تبعَهم ، حتَّىٰ ذكرَه في كتابِه العزيزِ مرَّاتٍ ، ثمَّ جعلَه معهم في الدُّنيا محجوباً ، ويدخلُه الجنَّةَ في الآخرةِ مكرَّماً ؟! فهٰذا فضلُه مع كلبٍ خطا خطواتٍ مع قومٍ عرفوه ووحَّدوه أيَّاماً معدودةً من غيرِ عبادةٍ أو خدمةٍ ، فكيف فضلُه مع عبدِه المؤمنِ

(١) قال الإمام الكديري رحمه الله تعالىٰ في « سراج الطالبين » (٢/ ٢٨٦) : (« لحربه » أي : حرب حبيبه موسىٰ عليه الصلاة والسلام) .

الَّذي خدمَه ووحَّدَه وعبدَه سبعينَ سنةً ، ولو عاشَ سبعينَ ألفَ سنةٍ . . لكانَ قاصداً للعبوديَّةِ ؟!

أمَا سمعتَ كيف عاتبَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ في دعائِه على المجرمينَ بالهلاكِ ؟![1]

وكيف عاتبَ موسىٰ [عليه السَّلامُ] في أمرِ قارونَ فقالَ : (ٱستغاثَ بك قارونُ فلم تُغثْه ، فوعزَّتي ؛ لو ٱستغاثَ بي . . لأغثتُه وعفوتُ عنه) ؟![2]

وكيف عاتبَ يونسَ عليه السَّلامُ في شأنِ قومِه بأنَّك تحزنُ علىٰ شجرةِ يقطينٍ أنبتُّها في ساعةٍ ، وأيبستُها في ساعةٍ ، ولا تحزنُ علىٰ مئةِ ألفٍ أو يزيدونَ ؟![3]

ثمَّ كيف قبلَ عذرَهم ، وصرفَ عذابَه العظيمَ عنهم بعدَما أضلَّهم ؟!

ثمَّ كيف عاتبَ سيِّدَ المرسلينَ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آلِه أجمعينَ فيما رُويَ : أنَّه دخلَ من بابِ بني شيبةَ ، فرأىٰ قوماً يضحكونَ ، فقالَ : « لم تضحكونَ ؟ ألا أراكم تضحكونَ ؟ » ، حتَّىٰ إذا كانَ عندَ الحِجْرِ . . رجعَ إليهم القهقرىٰ وقالَ : « جاءني جبريلُ فقالَ : يا محمَّدُ ؛ إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ لك : لمَ تقنِّطُ عبادي من رحمتي ؟ ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ » ؟![4]

وهـٰذا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ : « للهُ أرحمُ بعبدِه المؤمنِ من الوالدةِ الشَّفيقةِ بولدِها »[5] .

وفي الخبرِ المشهورِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قالَ : « إنَّ للهِ تعالىٰ

---

(١) أخرج البيهقي في « الشعب » (٦٢٧٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦/ ٢٢٦) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لما رأىٰ إبراهيم ملكوت السماوات والأرض . . أبصر عبداً علىٰ خطيئة فدعا عليه ، ثم أبصر عبداً علىٰ خطيئة فدعا عليه ، فأوحى الله عز وجل إليه : أن يا إبراهيم ؛ إنك عبد مستجاب الدعوة ؛ فلا تدع علىٰ أحد . . . » الحديث .

(٢) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦١/ ٩٨) عن عبد الله بن عوف فيما بلغه ، وعزاه في « الدر المنثور » (٦/ ٤٤٣) لعبد بن حميد من قول عكرمة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٧/ ٤٥٩) من قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٤) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (٨٩٢) ، والطبري في « تفسيره » (١٤/ ٥٠) عن عطاء بن أبي رباح ، عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

(٥) تقدم تخريجه (ص ١٩٤) .

مئةَ رحمةٍ ، فواحدةٌ منها قسمَها بينَ الجنِّ والإنسِ والبهائمِ ، فبها يتعاطفونَ ، وبها يتراحمونَ ، وٱدَّخرَ منها تسعةً وتسعينَ لنفسِه يرحمُ بها عبادَه يومَ القيامةِ »[1] .

وإذ قد أعطاك اللهُ تعالىٰ من الرَّحمةِ الواحدةِ كلَّ هـٰذه العطايا الكريمةِ العزيزةِ ؛ من معرفتِه سبحانَه وتعالى ، والكونِ من هـٰذه الأمَّةِ المرحومةِ[2] ، ثمَّ معرفةِ السُّنةِ والجماعةِ ، إلىٰ سائرِ ما لديك من النِّعمِ الظَّاهرةِ والباطنةِ . . فمرجوٌّ من فضلِه العظيمِ أن يتمَّ ذلك ؛ فإنَّ من بدأَ بالإحسانِ . . فعليه الإتمامُ ، ويجعلَ من تسعٍ وتسعينَ رحمةً لك الحظَّ الوافرَ ، نسألُ اللهَ تعالىٰ ألاَّ يخيِّبَ آمالَنا من فضلِه العظيمِ بفضلِه ، إنَّه السَّيِّدُ الكريمُ ، الجوادُ الرَّحيمُ .

وأمَّا الأصلُ الثَّالثُ : في ذكرِ ما وعدَ وأوعدَ في المَعادِ .

فلنذكرْ في ذلك الأحوالَ الأربعةَ : الموتَ ، والقبرَ ، والقيامةَ ، والجنَّةَ والنَّارَ ، وما في كلِّ مقامٍ منها من الخطرِ للمطيعينَ ، والعاصينَ ، والمقصِّرينَ ، والمجتهدينَ .

أمَّا الموتُ : فأذكرُ فيه حالَ رجلينِ :

أحدُهما : ما رُويَ عن ٱبنِ شبرمةَ أنَّه قالَ : دخلتُ مع الشَّعبيِّ علىٰ رجلٍ مريضٍ نعودُه وهو بما به وعندَه رجلٌ يلقِّنُه : لا إلهَ إلاَّ ٱللهُ ، فقالَ الشَّعبيُّ : ٱرفقْ به ، فتكلَّمَ المريضُ وقالَ : إن تلقِّنِّي أو لم تلقِّنِّي . . فإنِّي لا أدعُها ، ثمَّ قرأَ : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ ، فقالَ الشَّعبيُّ : الحمدُ للهِ الَّذي نجَّىٰ صاحبَنا .

والآخرُ : ما حُكيَ أنَّ تلميذاً للفضيلِ بنِ عياضٍ حضرتْه الوفاةُ ، فدخلَ عليه الفضيلُ وجلسَ عندَ رأسِه ، وقرأَ (سورةَ يٰس) ، فقالَ : يا أستاذُ ؛ لا تقرأْ هـٰذه السُّورةَ ، فسكتَ ، ثمَّ لقَّنَه فقالَ : قلْ : لا إلهَ إلاَّ اللهُ ، فقالَ : لا أقولُها ؛ لأنِّي

---

(١) أخرجه مسلم (١٩/٢٧٥٢) ، وابن حبان (٦١٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) المراد : كونك من هـٰذه الأمة المرحومة هو عطية كريمة ، ونعمة جليلة .

منها بريءٌ ، وماتَ علىٰ ذلك ، فدخلَ الفضيلُ منزلَه وجعلَ يبكي أربعينَ يوماً لم يخرجْ من البيتِ ، ثمَّ رآه في النَّومِ وهو يُسحَبُ إلىٰ جهنَّمَ ، فقالَ : بأيِّ شيءٍ نزعَ اللهُ المعرفةَ منك وكنتَ أعلمَ تلامذتي ؟ قالَ : بثلاثةِ أشياءَ :

أوَّلُها : بالنَّميمةِ ؛ فإنِّي قلتُ لأصحابي بخلافِ ما قلتُ لك .

والثَّاني : بالحسدِ ؛ فإنِّي حسدتُ أصحابي .

والثَّالثُ : كانَ بي علَّةٌ ، فجئتُ إلى الطَّبيبِ فسألتُه عنها ، فقالَ : تشربُ في كلِّ سنةٍ قَدَحاً من خمرٍ ، فإن لم تفعلْ . . تبقَ بك العلَّةُ ، فكنتُ أشربُه .

نعوذُ باللهِ من سخطِه الَّذي لا طاقةَ لنا به .

ثمَّ أذكرُ حالَ رجلينِ آخرينِ :

أحدُهما : ما حُكيَ عن عبدِ اللهِ بنِ المباركِ رحمَه اللهُ تعالى : أنَّه لمَّا ٱحتُضِرَ . . نظرَ إلى السَّماءِ فضحكَ وقالَ : ﴿ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴾ .

وسمعْتُ إمامَ الحرمينِ رضيَ اللهُ عنه يحكي عن الأستاذِ أبي بكرٍ رحمَه اللهُ أنَّه قالَ : كانَ لي صاحبٌ أيَّامَ التَّعليمِ ، وكانَ مبتدئاً كثيرَ الجهدِ في التَّعلُّمِ ، تقيّاً متعبِّداً ، وكانَ لا يحصلُ له مع ذلك الاجتهادِ إلاَّ القليلُ ، وكنَّا نتعجَّبُ من حالِه ، فمرضَ فلزمَ مكانَه بينَ الأولياءِ في الرِّباطِ ولم يدخلْ إلىٰ بيتِ المرضى ، وكانَ يجتهدُ مع مرضِه ، فٱشتدَّتْ به الحالُ وأنا إلىٰ جانبه ، فبينَما هو كذلكَ . . إذ شخصَ ببصرِه إلى السَّماءِ ثمَّ قالَ لي : يا بنَ فُورَكٍ ؛ ﴿ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴾ ، وتوفِّيَ عندَ ذلك رحمةُ اللهِ عليه .

وأمَّا الآخرُ : فنحوُ ما رُويَ عن مالكِ بنِ دينارٍ رحمَه اللهُ أنَّه دخلَ علىٰ جارٍ له ٱحتُضرَ ، فقالَ له : يا مالكُ ؛ جبلانِ من نارٍ بينَ يديَّ أُكلَّفُ الصُّعودَ عليهما ، قال : فسألتُ أهلَه فقالوا : كانَ له مكيالانِ ، يكيلُ بأحدِهما ويكتالُ بالآخرِ ، فدعوتُ بهما ، فضربتُ أحدَهما بالآخرِ حتَّىٰ كسرتُهما ، ثمَّ سألتُ الرَّجلَ فقالَ : ما يزدادُ الأمرُ عليَّ إلاَّ عِظَماً .

وأمَّا القبرُ والحالُ بعدَ الموتِ : فأذكرُ فيه حالَ رجلينِ :

أحدُهما : ما ذُكرَ عن بعضِ الصَّالحينَ [أنَّه] قالَ : (رأيتُ سفيانَ الثَّوريَّ في النَّومِ بعدَ موتِه ، فقلتُ : كيف حالُك يا أبا عبدِ اللهِ ؟ فأعرضَ عنِّي وقالَ : ليسَ هـٰذا زمانَ الكنى ، فقلتُ : كيف حالُك يا سفيانُ ؟ فأنشأَ يقولُ : [من الطويل]

نظرتُ إلىٰ ربِّي عِياناً فقالَ لي ... هنيئاً رضائي عنك يا بنَ سعيدِ
لقد كنتَ قوَّاماً إذا اللَّيلُ قد دجا ... بعبرةِ مشتاقٍ وقلبِ عميدِ
فدونَك فاْخترْ أيَّ قصرٍ تريدُه ... وزرني فإنِّي عنك غيرُ بعيدِ)(1)

والرَّجلُ الثَّاني : ما ذُكرَ أنَّ بعضَهم رُئيَ في النَّومِ شاحبَ اللَّونِ ، مغلولةً يداه إلىٰ عنقِه ، فقيلَ له : ما فعلَ اللهُ بك ؟ فأنشدَ يقولُ : [من المتقارب]

تولَّىٰ زمانٌ لعبْنا به ... وهـٰذا زمانٌ بنا يلعبُ

وحالَ رجلينِ آخرينِ :

أحدُهما : ما رُويَ عن بعضِ الصَّالحينَ أنَّه قالَ : كانَ لي ٱبنٌ ٱستُشهدَ ، فلم أره في المنامِ إلىٰ ليلةِ تُوُفِّيَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رضيَ اللهُ عنه ، إذ تراءىٰ لي تلكَ اللَّيلةَ ، فقلتُ : يا بُنيَّ ؛ ألم تكُ ميتاً ؟! فقالَ : لا ، ولـٰكنِّي ٱستُشهدتُ ، وأنا حيٌّ عندَ اللهِ تعالىٰ أُرزَقُ ، فقلتُ : ما جاءَ بك ؟ قالَ : نوديَ في أهلِ السَّماءِ : ألاَ لا يبقىٰ نبيٌّ ولا صدِّيقٌ ولا شهيدٌ إلاَّ وحضرَ الصَّلاةَ علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، فجئتُ لأشهدَ الصَّلاةَ عليه ، ثمَّ جئتُكم لأسلِّمَ عليكم .

وأمَّا الآخرُ : فما رُويَ عن هشامِ بنِ حسَّانَ أنَّه قالَ : ماتَ لي ٱبنٌ حدَثٌ ، فرأيتُه في المنامِ ، فإذا هو أشيبُ ، فقلتُ : يا بُنيَّ ؛ ما هـٰذا الشَّيبُ ؟ فقالَ : لمَّا قدمَ علينا فلانٌ . . زفرتْ جهنَّمُ لقدومِه زفرةً لم يبقَ منَّا أحدٌ إلاَّ شابَ .

نعوذُ باللهِ الرَّحيمِ من العذابِ الأليمِ .

وأمَّا القيامةُ : فتأمَّلْ قولَ اللهِ تعالى : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ .

---

(1) أخرجه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٧٤) .

فواحدٌ يخرجُ من قبرِه فإذا البراقُ علىٰ رأسِ القبرِ والتَّاجُ والحللُ ، فيلبسُ ويركبُ إلىٰ جنَّاتِ النَّعيمِ ، لا يُخلَّىٰ من عزَّتِه أن يمشيَ إلى الجنَّةِ برجليه .

وآخرُ يخرجُ من قبرِه فإذا الزَّبانيةُ والأغلالُ والأنكالُ ، لا يُخلُّونَ الشَّقيَّ أن يمشيَ إلى النَّارِ برجليه ، بل يُسحَبُ إلىٰ سواءِ الجحيمِ علىٰ وجهِه ، نعوذُ باللهِ من سخطِه .

ولقد سمعتُ بعضَ العلماءِ يروي عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قالَ : « إذا كانَ يومُ القيامةِ . . يخرجُ قومٌ من قبورِهم ، لهم نُجُبٌ من نورٍ يركبونَها ، لها أجنحةٌ خضرٌ ، فتطيرُ بهم في عرصاتِ القيامةِ ، حتَّىٰ إذا أتَوْا علىٰ حيطانِ الجنَّةِ ؛ فإذا رأتْهم الملائكةُ . . قالَ بعضُهم لبعضٍ : من هؤلاءِ ؟ فيقولونَ : ما ندري ، لعلَّهم من أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، فيأتيهم بعضُ الملائكةِ فيقولونَ لهم : من أنتم ؟ ومن أيِّ الأممِ أنتم ؟ فيقولونَ : نحنُ من أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، فتقولُ لهم الملائكةُ : هل حُوسبْتم ؟ فيقولونَ : لا ، فيقولونَ : هل وُزنْتم ؟ فيقولون : لا ، فيقولونَ : هل قرأتُم كتبَكم ؟ فيقولونَ : لا ، فتقولُ الملائكةُ : ارجعوا ، فكلُّ ذلك وراءَكم ، فيقولونَ : هل أعطيتمونا شيئاً فنحاسبَ عليه ؟! »

وفي خبرٍ آخرَ : « ما ملكنا شيئاً فنعدلَ أو نجورَ ! ولـٰكنْ عبدنا ربَّنا حتَّىٰ دعانا فأجبناه ، فينادي منادٍ : صدقَ عبادي ، ما على المحسنينَ من سبيلٍ ، واللهُ غفورٌ رحيمٌ » .

أما تسمعُ قولَه تعالَى : ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ ؟

فأعظِمْ برجلٍ يشاهدُ تلكَ الأهوالَ والزَّلازلَ والوقائعَ وهو آمنٌ لا يدخلُ قلبَه فزعٌ ، ولا يكونُ علىٰ قلبِه ثقلٌ !

نسألُ اللهَ تعالىٰ أن يجعلَنا وإيَّاكم من أولئكَ السُّعداءِ ، وما ذلك على اللهِ بعزيزٍ .

وأمَّا الجنَّةُ والنَّارُ : فتأمَّلْ فيهما آيتينِ من كتابِ اللهِ تعالى :

إحداهما : قولُه تعالى : ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ .

و[**الثانية**] : قالَ تعالىٰ حكايةً عن آخرينَ : ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ ، فرُوِيَ : أنَّهم يصيرونَ عندَ ذلك كلاباً يتعاوَوْنَ في النَّارِ .

نعوذُ باللهِ الرَّؤوفِ الرَّحيمِ من عذابِه الأليمِ ؛ فإنَّ الأمرَ كما قالَ يحيى بنُ معاذٍ رحمَه اللهُ : لا ندري أيُّ المصيبتينِ أعظمُ : فوتُ الجِنانِ ، أم دخولُ النِّيرانِ ؟ أمَّا الجنَّةُ : فلا صبرَ عنها ، وأمَّا النَّارُ : فلا صبرَ عليها .

وعلىٰ كلِّ حالٍ : فوتُ النَّعيمِ أيسرُ من مقاساةِ الجحيمِ .

ثمَّ الطَّامَّةُ الكبرىٰ والمصيبةُ العظمىٰ هي الخلودُ ؛ إذ لو كانَ الأمرُ علىٰ كلِّ حالٍ منقطعاً . لكانَ الأمرُ هيِّناً ، ولٰكنِ الشَّأنُ في أبدٍ بلا آخرٍ ، فأيُّ قلبٍ يحتملُ ذلك ؟ وأيُّ نفسٍ تصبرُ علىٰ ذلك ؟ ولذلكَ قالَ عيسى ابنُ مريمَ عليه السَّلامُ : « ذكرُ خلودِ الخالدينَ يقطعُ قلوبَ الخائفينَ » .

وذُكِرَ عندَ الحسنِ : أنَّ آخرَ من يخرجُ من النَّارِ رجلٌ يقالُ له هنَّادٌ ، عُذِّبَ ألفَ عامٍ ، ينادي : يا حنَّانُ يا منَّانُ ، فبكى الحسنُ وقالَ : يا ليتني كنتُ هنَّاداً ، فتعجَّبوا منه ، فقالَ : ويحَكم ! أليسَ يوماً يخرجُ ؟

قلتُ أنا : فرجعَ الأمرُ كلُّه إذنْ إلىٰ أصلٍ واحدٍ ، وهي النُّكتةُ الَّتي تقصمُ الظُّهورَ ، وتصفِّرُ الوجوهَ ، وتقطعُ القلوبَ ، وتذيبُ الأكبادَ ، وتدمي العيونَ من العبادِ ، وهي خوفُ نزعِ المعرفةِ ، فهٰذه الغايةُ الَّتي ينتهي إليها خوفُ الخائفينَ ، وتبكي عليها أعينُ الباكينَ .

ولقد قالَ بعضُهم : إنَّ الغمومَ ثلاثةٌ : غمُّ الطَّاعةِ ألاَّ تُقبَلَ ، وغمُّ المعصيةِ ألاَّ تُغفَرَ ، وغمُّ المعرفةِ أن تُسلبَ .

وقالَ المخلصونَ : بلِ الغمُّ كلُّه واحدٌ بالحقيقةِ ، وهو غمُّ المعرفةِ ، وكلُّ غمٍّ دونَه جللٌ[(١)] ؛ إذ له انقضاءٌ .

ولقد بلغَنا عن يوسفَ بنِ أسباطٍ رحمَه اللهُ أنَّه قالَ : (دخلتُ علىٰ سفيانَ فبكىٰ ليلَه أجمعَ ، فقلتُ : بكاؤُك هـٰذا على الذُّنوبِ ؟ قال : فحملَ تبناً وقالَ : الذُّنوبُ على اللهِ أهونُ من هـٰذا ، إنَّما أخشىٰ أن يسلبَني اللهُ الإسلامَ)[(٢)] .

نسألُ اللهَ ربَّنا الحنَّانَ المنَّانَ سبحانَه ألاَّ يبتليَنا بمصيبةٍ ، وأن يتمَّ علينا بفضلِه كبيرَ نعمتِه ، وأن يتوفَّانا علىٰ ملَّةِ الإسلامِ ، إنَّه أرحمُ الرَّاحمينَ .

وقد ذكرْنا سببَ سوءِ الخاتمةِ ومعناها في كتابِ « إحياءِ علومِ الدِّينِ » ، فتأمَّلْه هناكَ ؛ فإنَّ الخوضَ فيه هـٰهنا خروجٌ إلى الإكثارِ ، فتأمَّلْ هـٰذه الجملةَ راشداً ؛ فإنَّ التَّفصيلَ أكثرُ من أن يأتيَ عليه الوهمُ والذِّكرُ ، لعلَّكَ تفلحُ بعونِ اللهِ وحسنِ توفيقِه .

فإن قلتَ : فأيَّ الطَّريقينِ أسلُكُ : طريقَ الخوفِ ، أم طريقَ الرَّجاءِ ؟

يقالُ لك : بلِ المركَّبَ بينَهما ، فلقد قيلَ : من غلبَ عليه الرَّجاءُ . . صارَ مرجئاً[(٣)] ، وربَّما يُخافُ عليه أن يصيرَ خُرَّمياً[(٤)] ، ومن غلبَ عليه الخوفُ . . صارَ حروريّاً[(٥)] ، والمرادُ : ألاَّ ينفردَ بأحدِهما دونَ الآخرِ ؛ فإنَّ ـ بالحقيقةِ ـ الرَّجاءَ الحقيقيَّ لا ينفكُّ عن الخوفِ الحقيقيِّ ، والخوفَ الحقيقيَّ لا ينفكُّ عن الرَّجاءِ الحقيقيِّ ، ولذلكَ قيلَ : الرَّجاءُ كلُّه لأهلِ الخوفِ إلاَّ الأمنَ ، والخوفُ كلُّه لأهلِ الرَّجاءِ إلاَّ اليأسَ .

---

(١) **جلل** : هين يسير ، ويأتي الجلل بمعنى : الأمر العظيم ؛ فهو من الأضداد .
(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١٢) .
(٣) **المرجئة** : فرقة إسلامية ، لا يحكمون علىٰ أحد من المسلمين بشيء ، بل يرجئون الحكم إلىٰ يوم القيامة ، ومن أشهر أقوالهم : (إنه لا يضر مع الإيمان معصية ، ولا ينفع مع الكفر طاعة) .
(٤) **الخرمية** : هم أتباع بابك الخرمي ، المنسوب إلىٰ بلدة بفارس ، ويقولون بالتناسخ والحلول والإباحية .
(٥) **الحرورية** : طائفة الخوارج ، نسبة إلىٰ حروراء ، قرية قرب الكوفة ، لجؤوا إليها حين خالفوا الإمام علياً رضي الله عنه .

فإن قلتَ : فهل يكونُ أحدُهما أرجحَ وأكثرَ ذكراً بحالٍ ؟

فاعلمْ : أنَّ العبدَ إذا كانَ صحيحاً قويّاً . . فالخوفُ أولىٰ به ، وإذا مرضَ وضعُفَ ـ لا سيَّما إذا أشرفَ على الآخرةِ ـ فالرَّجاءُ أولى ، كذا سمعتُ العلماءَ يقولونَ .

قلتُ : وذلك لما رُويَ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ : « أنا عندَ المنكسرةِ قلوبُهم من مخافتي »[1] ، فيصيرُ رجاؤُه أولىٰ في ذلك الوقتِ ؛ لانكسارِ قلبه وخوفِه المتقدِّمِ زمانَ الصِّحَّةِ والقوَّةِ والإمكانِ ، ولذلكَ يُقالُ لهم : لا تخافوا ولا تحزنوا .

فإن قلتَ : أليسَ قد جاءتِ الأخبارُ الكثيرةُ في حسنِ الظَّنِّ باللهِ والتَّرغيبِ في ذلك ؟

فاعلمْ : أنَّ من حسنِ الظَّنِّ باللهِ تعالى الحذرَ من معصيتِه ، والخوفَ من عقابِه ، والاجتهادَ في خدمتِه .

واعلمْ : أنَّ هاهنا أصلاً أصيلاً ونكتةً عزيزةً يغلطُ فيها الكثيرُ من النَّاسِ ، وهو أنَّ الفرقَ بينَ الرَّجاءِ والأمنيَّةِ : أنَّ الرَّجاءَ يكونُ علىٰ أصلٍ ، والتَّمنِّيَ لا يكونُ علىٰ أصلٍ .

مثالُه : من زرعَ زرعاً ، واجتهدَ وجمعَ بيدراً ، ثمَّ يقولُ : أرجو أن يحصلَ لي منه مئةُ قفيزٍ . . فذلكَ منه رجاءٌ ، وآخرُ لا يزرعُ زرعاً ، ولا يعملُ يوماً عملاً ، فذهبَ ونامَ وأغفلَ سنتَه ، فإذا جاءَ وقتُ البيادرِ . . يقولُ : أرجو أن يحصلَ لي مئةُ قفيزٍ ، فيقالُ له : من أين لك هاذا الرَّجاءُ ؟ وإنَّما ذلك أمنيَّةٌ منه بلا أصلٍ .

فكذلكَ العبدُ إذا اجتهدَ في عبادةِ اللهِ تعالى ، وانتهىٰ عن معصيةِ اللهِ تعالى ؛ يقولُ : أرجو أن يتقبَّلَ اللهُ هاذا اليسيرَ ، ويتمَّ هاذا التَّقصيرَ ، ويُعظمَ الثَّوابَ ، ويعفوَ عن الزَّللِ ، وأحسنَ الظَّنَّ . . فهاذا منه رجاءٌ .

وأمَّا إذا غفلَ وتركَ الطَّاعاتِ ، وارتكبَ المعاصيَ ، ولم يبالِ بسخطِ اللهِ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٦٤) ، وأحمد في « الزهد » (ص ٦٤) من قول النبي موسىٰ عليه الصلاة والسلام ، وانظر « كشف الخفاء » (١/ ٢٠٣) .

تعالىٰ ولا رضاه ، ولا وعدِه ووعيدِه ، ثمَّ أخذَ يقولُ : أرجو من اللهِ الجنَّةَ والنَّجاةَ من النَّارِ . فذلكَ منه أمنيَّةٌ لا حاصلَ تحتَها ، سمَّاها رجاءً وحسنَ ظنٍّ ، وذلك منه خطأٌ وضلالٌ ، وقد نظمَ المعنى القائلُ : [من البسيط]

ترجو النَّجاةَ ولم تسلُكْ مسالكَها   إنَّ السَّفينةَ لا تجري على اليبَسِ[1]

قلتُ : وممَّا يبيِّنُ هـٰذا الأصلَ ما روينا عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قالَ : « الكيِّسُ من دانَ نفسَه ، وعملَ لما بعدَ الموتِ ، والعاجزُ من أتبعَ نفسَه هواها ، وتمنَّىٰ على اللهِ الأمانيَّ »[2] .

وفي ذلك قالَ الحسنُ البصريُّ : (إنَّ أقواماً ألهتْهم أمانيُّ المغفرةِ حتَّىٰ خرجوا من الدُّنيا مفاليسَ وليستْ لهم حسنةٌ ، فيقولُ أحدُهم : إنِّي أحسنُ الظَّنَّ بربِّي ، وكذبَ ، لو أحسنَ الظنَّ بربِّه . . لأحسنَ العملَ له ، ثمَّ تلا قولَه تعالى : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾)[3] .

وعن جعفرٍ الضُّبَعيِّ قالَ : رأيتُ أبا ميسرةَ العابدَ وقد بدتْ أضلاعُه من ٱلاجتهادِ ، قلتُ : يرحمُك اللهُ ؛ إنَّ رحمةَ اللهِ واسعةٌ ، فغضبَ وقالَ : هل رأيتَ منِّي ما يدلُّ على القنوطِ ؟ إنَّ رحمةَ اللهِ قريبٌ من المحسنينَ ، قالَ جعفرٌ : فأبكاني قولُه .

فإذا كانَ الرُّسلُ والأبدالُ والأولياءُ مع كلِّ هـٰذا الاجتهادِ في الطَّاعةِ والحذرِ عن المعصيةِ . . فأيَّ شيءٍ تقولُ ؟! أمَا كانَ لهم حسنُ ظنٍّ باللهِ تعالى ؟ بلى ؛ فإنَّهم كانوا أعلمَ بسعةِ رحمةِ اللهِ وأحسنَ ظنّاً بجودِه منك ، ولـٰكنْ علموا أنَّ ذلك دونَ الاجتهادِ أمنيَّةٌ وغرورٌ .

فٱعتبرْ بهـٰذه النُّكتةِ ، وتأمَّلْ حالَهم ، وٱنتبهْ من رقدتِك ، وٱللهُ تعالىٰ وليُّ التَّوفيقِ .

---

(١) البيت لأبي العتاهية . انظر « ديوانه » (ص ١٣٥) .

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٥٧) ، والترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) عن شداد بن أوس رضي الله عنهما .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « الوجل والتوثق بالعمل » (٢) .

فَصْلٌ

[في خلاصة الكلام وزبدته بشأن مقامي الخوف والرجاء]

وجملةُ الأمرِ : أنَّك إذا تذكَّرتَ سعةَ رحمةِ اللهِ تعالى الَّتي سبقتْ غضبَه ووسعتْ كلَّ شيءٍ ، ثمَّ كنتَ من هٰذه الأمَّةِ المرحومةِ الكريمةِ على اللهِ تعالى ، ثمَّ غايةَ فضلِه العظيمِ ، وكمالَ جودِه القديمِ ، وجعلَ عنوانَ كتابِه إليك : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ، ثمَّ كثرةَ أياديه إليكَ ونعمِه عليكَ ظاهرةً وباطنةً من غيرِ شفيعٍ أو قَدَمٍ سابقةٍ لك .

وتذكَّرتَ من جانبٍ آخرَ كمالَ جلالِه وعظمتِه ، وعظمَ سلطانِه وهيبتِه ، ثمَّ شدَّةَ غضبِه الَّذي لا تقومُ له السَّماواتُ والأرضُ ، ثمَّ غايةَ غفلتِك ، وكثرةَ ذنوبِك وجفوتِك ، مع دقَّةِ أمرِه وخطرِ معاملتِه في إحاطةِ علمِه وبصرِه بالعيوبِ والغيوبِ ، ثمَّ حسنَ وعدِه وثوابِه الَّذي لا تبلغُ كنهَه الأوهامُ ، وشدَّةَ وعيدِه وأليمَ عقابِه الَّذي لا تحتملُ ذكرَه القلوبُ ، تارةً تنظرُ إلىٰ فضلِه ، وتارةً تنظرُ إلىٰ عذابِه ، وتارةً تنظرُ إلىٰ رأفتِه ورحمتِه ، وطوراً تنظرُ إلىٰ نفسِك في جفواتِها وجناياتِها . . يؤدِّي بك جميعُ ذلك إلى الخوفِ والرَّجاءِ ، وكنتَ قد سلكتَ السَّبيلَ الشَّارعَ القصدَ[1] ، وعدلتَ عن الجانبينِ المهلكينِ : الأمنِ واليأسِ ، ولا تتيهُ فيهما مع التَّائهينَ ، ولا تهلكُ مع الهالكينَ ، وشربتَ الشَّرابَ الممزوجَ العدلَ ؛ فلا تهلكُ ببرودةِ الرَّجاءِ الصِّرفِ ، ولا بحرارةِ الخوفِ الصِّرفِ ، فكأنِّي بك وقد وصلتَ إلى المقصودِ غانماً ، وشُفيتَ من العلَّتينِ سالماً ، ووجدتَ النَّفسَ قد ٱنبعثتْ للطَّاعةِ ، ودانتْ في الخدمةِ ليلاً ونهاراً من غيرِ فترةٍ ولا غفلةٍ ، واجتنبتَ المعاصيَ والمخازيَ وهجرتَهما بمرَّةٍ ، كما قالَ نوفٌ : (إنَّ نوفاً إذا ذكرَ الجنَّةَ . . طالَ شوقُه ، وإذا ذكرَ النَّارَ . . طارَ نومُه)[2] .

---

(١) السبيلَ الشارعَ القصدَ : الطريق الأعظم المستقيم ، تفسير على اللف والنشر المرتب .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٤/ ١٣٥٤) من قول صهيب الرومي رضي الله عنه

وصرتَ حينئذٍ من الأصفياءِ الخواصِّ العابدينَ ، الَّذينَ وصفَهم ٱللهُ تعالىٰ بقولِه : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ .

وكنتَ قد خلَّفتَ هٰذه العقبةَ الخطيرةَ وراءَك بإذنِ اللهِ تعالىٰ وحسنِ توفيقِه ، فكم لك من حلاوةٍ وصفوةٍ في الدُّنيا ، وكم لك من ذخرٍ كريمٍ وأجرٍ عظيمٍ في العقبى ، واللهُ سبحانَه وتعالىٰ مسؤولٌ أن يمدَّك وإيَّانا بحسنِ توفيقِه وتسديدِه ، إنَّه أرحمُ الرَّاحمينَ ، وأجودُ الأجودينَ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيمِ .

* * *

العقبةُ السَّادسةُ
وهي عقبةُ القوادحِ

[القادح الأول : عدم الإخلاص] .

ثمَّ عليكَ يا أخي ـ أيَّدكَ ٱللهُ وإيَّانا بحسنِ توفيقِه ـ بعدَ ما ٱستبانَ لك السَّبيلُ ، وٱستقامَ لكَ المسيرُ بتمييزِ سعيِك وصيانتِه عمَّا يفسدُه ويضيِّعُه عليكَ ، وإنَّما لزمَك ذلك بإقامةِ الإخلاصِ وذكرِ المنَّةِ للهِ ، والاجتنابِ عن ضدِّه لأمرينِ :

أحدُهما : لِمَا في فعلِه من الفائدةِ ، وهو حسنُ القبولِ من اللهِ تعالى ، وفوزُ الثَّوابِ عليه .

وإلاَّ[1] . . فتكونُ مردوداً ، ذاهبَ الثَّوابِ حكماً ، كُلاًّ أو بعضاً ، علىٰ ما رُويَ في الحديثِ المشهورِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ سبحانَه يقولُ : أنا أغنى الأغنياءِ عن الشِّركِ ، من عملَ عملاً فأشركَ فيه غيري . . فنصيبي له ؛ فإنِّي لا أقبلُ إلاَّ ما كان خالصاً »[2] .

وقيلَ : (إن اللهَ تعالىٰ يقولُ لعبدِه يومَ القيامةِ إذا التمسَ ثوابَ عملِه : ألم يُوسَّعْ لك في المجالسِ ؟ ألم تكنِ المرآسَ في الدُّنيا ؟ ألم يُرخَّصْ بيعُك وشراؤُك ؟ ألم تُكرَّمْ ؟)[3] .

---

(١) هٰذا هو الأمر الثاني .

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) ، وابن خزيمة (٩٣٨) ، وابن حبان (٣٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وليس فيه : (فإني لا أقبل . . .) ، وأخرجه الضياء في « المختارة » (٨/ ٩٠) ، والدارقطني في « سننه » (١/ ٥١) عن الضحاك بن قيس الفهري رضي الله عنه ، وفيه : « يا أيها الناس ؛ أخلصوا أعمالكم لله عز وجل ؛ فإن الله لا يقبل إلا ما أخلص له . . . » الحديث .

(٣) أخرج مسلم (٢٩٦٨) ، وابن حبان (٤٦٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه نحوَه في حديث طويل =

هٰذا وأشباهَه[1] من الخطرِ والضَّررِ .

قلتُ : ومن خطرِ الرِّياءِ فضيحتانِ ومصيبتانِ :

أمَّا الفضيحتانِ :

فإحداهما : فضيحةُ السِّرِّ ، وهي اللَّومُ علىٰ رؤوسِ الملائكةِ ، وذلك لما رُويَ : « إنَّ الملائكةَ تصعدُ بعملِ العبدِ مبتهجينَ ، فيقولُ ٱللهُ تعالى : ردُّوه إلىٰ سجِّينٍ ؛ فإنَّه لم يُرِدْني به »[2] ، فيُفتضَحُ ذلك العملُ والعبدُ .

والثَّانيةُ : فضيحةُ العلانيةِ ، وهي يومَ القيامةِ علىٰ رؤوسِ الخلائقِ .

رُويَ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « إنَّ المرائيَ ينادَىٰ يومَ القيامةِ بأربعةِ أسماءٍ : يا كافرُ ، يا فاجرُ ، يا غادرُ ، يا خاسرُ ؛ ضلَّ سعيُك ، وبطلَ أجرُك ؛ فلا خلاقَ لك اليومَ ؛ ٱلتمسِ الأجرَ ممَّن كنتَ تعملُ له يا مخادعُ »[3] .

ورُويَ : « أنَّه ينادي منادٍ يومَ القيامةِ يُسمعُ الخلائقَ : أينَ الَّذينَ كانوا يعبدونَ النَّاسَ ؟ قوموا ، خذوا أجورَكم ممَّن كنتم عملتُم له ؛ فإنِّي لا أقبلُ عملاً خالطَه شيءٌ »[4] .

وأمَّا المصيبتانِ :

فإحداهما : فواتُ الجنَّةِ ، وذلك ما رُويَ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ :

= عندما يلاقي الله عز وجل ثلاثة من الرجال ، فيقول للأول : « أي فلُ ـ أي : يا فلان ـ ألم أكرمك وأسودك وأزوجك ، وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى » قال : « فيقول : أفظننت أنك ملاقيَّ ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإني أنساك كما نسيتني . . . » الحديث .

(١) منصوب بفعل محذوف ، تقديره : (افهم) أو نحوه .

(٢) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (٤٥٢) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٥٢٠) عن ضمرة بن حبيب ـ رحمه الله تعالى ـ مرسلاً .

(٣) عزاه الإمام السيوطي رحمه الله تعالىٰ في « الدر المنثور » (١/ ٧٤) إلىٰ أحمد بن منيع في « مسنده » بسند ضعيف عن رجل من الصحابة ، وقال الإمام العراقي رحمه الله تعالىٰ في « المغني » (٣/ ٢٩٤) : (أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية جبلة اليحصبي عن صحابي لم يسم) .

(٤) أخرج ابن حبان (٤٠٤) ، والترمذي (٣١٥٤) عن أبي سعيد ـ الترمذي : سعد ـ بن أبي فضالة الأنصاري وكان من الصحابة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه . . نادىٰ مناد : من كان أشرك في عمله لله أحداً . . فليطلب ثوابه من عنده ؛ فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » .

« إنَّ الجنَّةَ تكلَّمتْ وقالتْ : أنا حرامٌ علىٰ كلِّ بخيلٍ ومراءٍ »[1] .

والخبرُ يحتملُ معنيينِ :

أحدُهما : أنَّ هـٰذا البخيلَ من يبخلُ بأقبحِ بخلٍ ، وهو قولُ : (لا إلٰهَ إلاَّ ٱللهُ ، محمَّدٌ رسولُ اللهِ) .

وهـٰذا المرائي من يرائي بأقبحِ رياءٍ ، وهو المنافقُ الَّذي يرائي بإيمانِه وتوحيدِه ، وفي هـٰذا القولِ ترجيةٌ .

والثَّاني : أنَّه من لم ينتهِ عن البخلِ والرِّياءِ ، ولم يراعِ نفسَه ، ففيه خطرانِ :

أحدُهما : أن يلحقَه شؤمُ ذلك فيقعَ في الكفرِ ، فتفوتَه ٱلجنَّةُ رأساً والعياذُ باللهِ .

والآخرُ : سلبُ الإيمانِ الَّذي يستحقُّ به النَّارَ ، نعوذُ باللهِ من سخطِه وشديدِ غضبِه .

والمصيبةُ الثَّانيةُ : دخولُ النَّارِ ، وذلك لما رَوىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنه عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قالَ : « أوَّلُ من يُدعىٰ يومَ القيامةِ رجلٌ قد جمعَ القرآنَ ، ورجلٌ قاتلَ في سبيلِ اللهِ ، ورجلٌ كثيرُ المالِ .

فيقولُ ٱللهُ تعالىٰ للقارىءِ : ألم أعلِّمْك ما أنزلتُ علىٰ رسولي ؟ فيقولُ : بلىٰ يا ربِّ ، فيقولُ : ماذا عملتَ فيما علمتَ ؟ فيقولُ : يا ربِّ ؛ قمتُ به آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ ، فيقولُ ٱللهُ : كذبتَ ، وتقولُ الملائكةُ : كذبتَ ، ويقولُ اللهُ : بل أردتَ أن يقالَ : فلانٌ قارىءٌ ، فقد قيلَ ذلك .

ويُؤتىٰ بصاحبِ المالِ فيقولُ له : ألم أوسِّعْ عليكَ حتَّىٰ لم أدعْك تحتاجُ إلىٰ أحدٍ ؟ فيقولُ : بلىٰ يا ربِّ ؛ فيقولُ : ماذا عملتَ فيما آتيتُك ؟ فيقولُ : كنتُ أصِلُ الرَّحمَ وأتصدَّقُ ، فيقولُ اللهُ : كذبتَ ، وتقولُ الملائكةُ : كذبتَ ، فيقولُ اللهُ سبحانَه : بل أردتَ أن يُقالَ : فلانٌ جوادٌ ، فقد قيلَ ذلك .

---

(١) أخرجه تمام الرازي في « الفوائد » (٢٥٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٢/ ١٥٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

ويُؤتىٰ بالَّذي قُتِلَ في سبيلِ اللهِ ، فيقولُ اللهُ : ما فعلتَ ؟ فيقولُ : أُمرتُ بالجهادِ في سبيلِك ، فقاتلتُ حتَّىٰ قُتِلتُ ، فيقولُ اللهُ تعالى : كذبتَ ، وتقولُ الملائكةُ : كذبتَ ، ويقولُ اللهُ : بل أردتَ أن يُقالَ : فلانٌ جريءٌ ، فقد قيلَ ذلك » .

قالَ : ثمَّ ضربَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيدِه علىٰ ركبتي وقالَ : « يا أبا هريرةَ ؛ أولئكَ أوَّلُ خلقِ اللهِ تُسعَّرُ بهم نارُ جهنَّمَ »(١) .

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ : « إنَّ النَّارَ وأهلَها يعجُّونَ من أهلِ الرِّياءِ » قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ وكيفَ تعجُّ النَّارُ ؟ قال : « من حرِّ النَّارِ الَّتي يُعذَّبونَ بها » .

وفي هٰذه الفضائحِ عبرةٌ لأولي الأبصارِ ، واللهُ سبحانه وليُّ الهدايةِ بفضلِه .

فإن قلتَ : فأخبِرْنا عن حقيقةِ الإخلاصِ والرِّياءِ ، وحكمِهما وتأثيرِهما في العملِ .

فٱعلمْ : أنَّ الإخلاصَ عندَ علمائِنا إخلاصانِ : إخلاصُ العملِ ، وإخلاصُ طلبِ الأجرِ .

فأمَّا إخلاصُ العملِ : فهو إرادةُ التَّقرُّبِ إلى اللهِ تعالى ، وتعظيمُ أمرِه ، وإجابةُ دعوتِه ، والباعثُ عليه : الاعتقادُ الصَّحيحُ .

وضدُّ هٰذا الإخلاصِ : النِّفاقُ ، وهو التَّقرُّبُ إلىٰ مَن دونَ اللهِ سبحانَه وتعالى .

وقالَ شيخُنا رحمَه اللهُ تعالى : النِّفاقُ هو الاعتقادُ الفاسدُ الَّذي هو للمنافقِ في اللهِ عزَّ وجلَّ ، وليسَ هو من قبيلِ الإراداتِ ؛ لعلَّةٍ ذكرناها في موضعِها .

وأمَّا الإخلاصُ في طلبِ الأجرِ : فهو إرادةُ نفعِ الآخرةِ بعملِ الخيرِ .

وكانَ شيخُنا رحمَه ٱللهُ تعالىٰ يقولُ : إنَّه إرادةُ نفعِ الآخرةِ بخيرٍ لم يُرَدَّ ردّاً

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥) ، وابن خزيمة (٢٤٨٢) ، وابن حبان (٤٠٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

يتعذَّرُ خيرُه بحيثُ تُرجىٰ به تلكَ المنفعةُ ، وقد شرحنا هـٰذه الشَّرائطَ .

وقالَ الحواريُّونَ لعيسى ابنِ مريمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : ما الخالصُ من الأعمالِ ؟ قالَ : (الَّذي يعملُ للهِ تعالىٰ ولا يحبُّ أن يحمدَه عليه أحدٌ)[1] .

وهـٰذا تعرُّضٌ لتركِ الرِّياءِ ، وإنَّما خصَّه بالذِّكرِ ؛ لأنَّه أقوى الأسبابِ المشوِّشةِ للإخلاصِ .

وقالَ الجنيدُ : الإخلاصُ : تصفيةُ الأعمالِ من الكدوراتِ .

وقالَ الفضيلُ : الإخلاصُ : دوامُ المراقبةِ ونسيانُ الحظوظِ كلِّها .

وهـٰذا هو البيانُ الكاملُ ، والأقاويلُ في هـٰذا كثيرةٌ ؛ فلا فائدةَ في تكثيرِ النَّقلِ بعدَ انكشافِ الحقيقةِ ، وقد قالَ سيِّدُ الأوَّلينَ والآخرينَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذ سُئلَ عن الإخلاصِ فقالَ : « تقولُ : ربِّي اللهُ ، ثمَّ تستقيمُ كما أُمرتَ »[2] أي : لا تعبدْ هواكَ ونفسَك ، ولا تعبدْ إلاَّ ربَّك ، وتستقيمُ في عبادتِك كما أُمرتَ .

وهـٰذه إشارةٌ إلىٰ قطعِ كلِّ ما سوى اللهِ عزَّ وجلَّ عن مجرى النَّظرِ ، وهو الإخلاصُ حقّاً .

وضدُّ الإخلاصِ : الرِّياءُ[3] ، وهو إرادةُ نفعِ الدُّنيا بعملِ الآخرةِ .

ثمَّ الرِّياءُ ضربانِ : رياءٌ محضٌ ، ورياءُ تخليطٍ .

فالمحضُ : أن تريدَ به نفعَ الدُّنيا لا غيرُ .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٨/ ١١٢) .

(٢) قال الإمام العراقي رحمه الله تعالىٰ في « المغني » (٤/ ٣٨٢) : (لم أره بهـٰذا اللفظ) ، ولعل مقصوده : أنه لم يره بهـٰذا اللفظ جواباً عن الإخلاص ، كما يبين ذلك ذكرُه للحديث المشهور بعد ، وهو ما أخرجه ابن حبان (٥٦٩٨) ، والحاكم (٤/ ٣١٣) ، والترمذي (٢٤١٠) عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال : يا رسول الله ؛ حدثني بأمر أعتصم به ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل : ربي الله ، ثم استقم » .

(٣) الرياء ضدُّ إخلاصِ طلبِ الأجر ، وأما إخلاص العمل : فضده النفاق ، وقد تم بيان ذلك قريباً ، وعليه : فمقصود المصنف رحمه الله تعالىٰ من الإخلاص في قوله : (وضد الإخلاص الرياء) هو : إخلاص طلب الأجر ، لا مطلق الإخلاص ، فليعلم .

والتَّخليطُ : أن تريدَهما جميعاً ؛ نفعَ الدُّنيا ، ونفعَ الآخرةِ ، هٰذا حدُّهما .

وأمَّا تأثيرُهما : فإنَّ إخلاصَ العملِ أن تجعلَ الفعلَ قربةً ، وإخلاصَ طلبِ الأجرِ أن تجعلَه مقبولاً وافرَ الأجرِ والتَّعظيمِ .

والنِّفاقُ يُحبطُ العملَ ويُخرجُه عن كونِه قربةً مستحَقّاً عليه الثَّوابُ بالوعدِ من اللهِ تعالى .

فالرِّياءُ المحضُ لا يكونُ من العارفِ عندَ بعضِ العلماءِ وإن كانَ أبطلَ لنصفِ الثَّوابِ ، وعندَ آخرينَ قد يكونُ الرِّياءُ المحضُ من العارفِ ، وأنَّه يَذهَبُ بنصفِ الأضعافِ ، والتَّخليطُ يَذهَبُ بربعِ الأضعافِ .

والصَّحيحُ عندَ شيخِنا رحمَه اللهُ : أنَّ الرِّياءَ المحضَ لا يكونُ من العارفِ مع تذكُّرِ الآخرةِ ، ويكونُ مع السَّهوِ .

والمختارُ : أنَّ من تأثيرِ الرِّياءِ رفعَ القبولِ والنُّقصانِ في الثَّوابِ ، وألاَّ تقديرَ له بنصفٍ ولا ربعٍ .

وشرحُ هٰذه المسائلِ يطولُ ، وقد شرحناها في كتابِ « إحياءِ علومِ الدِّينِ » شرحاً مستقصياً ، وأشبعنا القولَ في « أسرارِ معاملاتِ الدِّينِ » .

فإن قلتَ : فما موضعُ الإخلاصِ ؟ وفي أيِّ طاعةٍ يقعُ ويجبُ ؟

فاعلمْ : أنَّ الأعمالَ عندَ بعضِ العلماءِ ثلاثةُ أقسامٍ :

ـ قسمٌ يقعُ فيه الإخلاصانِ جميعاً ، وهو العباداتُ الظَّاهرةُ الأصليَّةُ .

ـ وقسمٌ لا يقعُ فيه شيءٌ منهما ، وهو الباطنةُ الأصليَّةُ .

ـ وقسمٌ يقعُ فيه إخلاصُ طلبِ الأجرِ دونَ إخلاصِ العملِ ، وهو المباحاتُ المأخوذةُ للعُدَّةِ .

قالَ شيخُنا رحمَه اللهُ : إنَّ كلَّ عملٍ يحتملُ الصَّرفَ إلىٰ غيرِ اللهِ تعالىٰ من العباداتِ الأصليَّةِ يقعُ فيه إخلاصُ العملِ ، فالعباداتُ الباطنةُ أكثرُها يقعُ فيها إخلاصُ العملِ .

وأمَّا إخلاصُ طلبِ الأجرِ : قالَ مشايخُ الكَرَّاميَّةِ : لا يقعُ في العباداتِ الباطنةِ ؛ إذ لا يطَّلعُ عليها أحدٌ إلاَّ اللهُ سبحانَه ، فامتنعَ منها دواعي الرِّياءِ ، فلم يحتجْ إلىٰ إخلاصِ طلبِ الأجرِ .

وكانَ شيخُنا رحمَه اللهُ يقولُ : إذا أرادَ العبدُ المتقرِّبُ من اللهِ تعالىٰ بالعباداتِ الباطنةِ نفْعَ الدُّنيا . . فهو أيضاً رياءٌ .

قلتُ أنا : فلا يبعدُ إذنْ أن يقعَ في كثيرٍ من العباداتِ الباطنةِ الإخلاصانِ ، وكذلكَ في النَّوافلِ ، يجبُ فيها الإخلاصانِ جميعاً عندَ الشُّروعِ فيها .

وأمَّا المباحاتُ المأخوذةُ للعُدَّةِ : فإنَّما يقعُ فيها إخلاصُ طلبِ الأجرِ دونَ إخلاصِ العملِ ؛ إذ هي لا تصلحُ أن تكونَ بنفسِها قربةً ، بل هي عُدَّةٌ على القربةِ .

فإن قلتَ : هـٰذا موضعُهما ، فبيِّنْ لنا وقتَهما من العملِ .

فاعلمْ : أنَّ إخلاصَ العملِ مع الفعلِ يقارنُه لا محالةَ ولا يتأخَّرُ عنه ، وأمَّا إخلاصُ طلبِ الأجرِ : فربَّما يتأخَّرُ عنه ، وعندَ بعضِ العلماءِ : يعتبرونَ فيه وقتَ الفراغِ من العملِ ، فإذا فرغَ علىٰ إخلاصٍ أو رياءٍ . . فقدِ انقضى الأمرُ ، ولا يمكنُه استدراكُه بعدُ .

وعندَ عبدانَ من المشايخِ الكَرَّاميَّةِ : ما لم ينلِ المنفعةَ المطلوبةَ بالرِّياءِ يمكنُه إقامةُ الإخلاصِ في ذلك العملِ ، فإذا نالَ المطلوبَ . . فقد فاتَ .

وقالَ بعضُ العلماءِ : إنَّ الفريضةَ يمكنُ إقامةُ الإخلاصِ فيها إلى الموتِ ، وأمَّا النَّوافلُ : فلا سبيلَ إلىٰ ذلك .

قالَ : والفرقُ بينَهما : أنَّ اللهَ تعالىٰ أدخلَ العبدَ في الفريضةِ ، فمأمولٌ منه التَّفضُّلُ والتَّيسيرُ فيها ، وأمَّا النَّفلُ : فالعبدُ الَّذي أدخلَ نفسَه فيه وتكلَّفَه فطولبَ بحقِّ ما تكلَّفَه .

قلتُ أنا : وفي هـٰذه المسألةِ فائدةٌ ، وهي أنَّ من سبقَ منه الرِّياءُ ، أو تركَ الإخلاصَ في عملٍ . . فيمكنُه استدراكُ ذلك وتلافيه علىٰ أحدِ الوجوهِ الَّتي ذكرناها .

والمقصودُ من نقلِ مذاهبِ النَّاسِ في هـٰذه الدَّقائقِ : عِلمُنا الآنَ بقلَّةِ العاملينَ ، وقلَّةِ الرَّغبةِ في سلوكِ هـٰذه الطَّريقِ ، والتَّقريبُ على المبتدئِ في العبادةِ ، فإن لم يجدْ لعلَّتِه دواءً في هـٰذا القولِ . . وجدَه في الآخَرِ ؛ لاختلافِ الأعراضِ وعللِ الأعمالِ وآفاتِها ، فافهمْ راشداً إن شاءَ اللهُ تعالى .

فإن قلتَ : أكلُّ عملٍ يحتاجُ إلىٰ إخلاصٍ مفرَدٍ ؟

فاعلمْ : أنَّه قد اختُلِفَ في ذلك :

فقيلَ : إنَّه يجبُ لكلِّ عملٍ إخلاصٌ مفرَدٌ .

وقيلَ : يجوزُ تناولُ الإخلاصِ لجملةٍ من العباداتِ ، فالعملُ ذو الأركانِ كالصَّلاةِ والوضوءِ يكفيهما إخلاصٌ واحدٌ ؛ لأنَّ بعضَها متعلِّقٌ ببعضٍ صلاحاً وفساداً ، فصارتْ كشيءٍ واحدٍ .

فإن قلتَ : إن أرادَ بعملِه الخيرَ نفعاً من اللهِ تعالىٰ ولا يريدُ من النَّاسِ شيئاً من مِدحةٍ أو سُمعةٍ أو مَنفعةٍ . . أيكونُ ذلك رياءً ؟

فاعلمْ : أنَّ ذلك محضُ الرِّياءِ .

قالَ علماؤُنا رحمَهم اللهُ : الاعتبارُ في الرِّياءِ بالمرادِ ، لا بالَّذي تريدُ منه ، فإن كانَ مرادُك من عملِ الخيرِ نفعاً دنيويّاً . . فإنَّه رياءٌ ، سواءٌ أردتَه من اللهِ أو من النَّاسِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ .

وليسَ الاعتبارُ بلفظةِ الرِّياءِ واشتقاقِها من معنى الرُّؤيةِ ، وإنَّما سُمِّيتْ هـٰذه الإرادةُ الفاسدةُ بهـٰذا الاسمِ ؛ لأنَّها أكثرُ ما تقعُ وتكونُ من قِبَلِ النَّاسِ ورؤيتِهم ، فافهمْ .

فإن قلتَ : إذا كانَ القصدُ في الدُّنيا الَّتي يريدُها من اللهِ التَّعفُّفَ عن النَّاسِ ، والعُدَّةَ علىٰ عبادةِ اللهِ تعالى . . أيكونُ ذلك رياءً ؟

فاعلمْ : أنَّ التَّعفُّفَ ليسَ في كثرةِ المالِ والجاهِ ، وإنَّما هو في القناعةِ والثِّقةِ بكفايةِ اللهِ تعالى .

وأمَّا العُدَّةُ علىٰ عبادةِ اللهِ تعالى : فإذا كانَ مرادُه ذلك . . فلا يكونُ رياءً .

وكذلكَ ما يتَّصلُ بأمرِ الآخرةِ وأسبابِها ويصيرُ قصدُه قطعاً لذلكَ ، فإن أُريدَ بعملِ الخيرِ هـٰذا النَّوعُ . . فلا تكونُ تلك الإرادةُ رياءً ؛ لأنَّ هـٰذه الأمورَ تصيرُ بتلكَ النِّيَّةِ خيراً ، وتصيرُ في حكمِ أعمالِ الآخرةِ ، ولا تكونُ إرادةُ الخيرِ رياءً .

وكذلكَ إن أردتَ أن يكونَ لك تعظيمٌ عندَ النَّاسِ ، أو محبَّةٌ عندَ المشايخِ والأئمَّةِ ، ويكونُ قصدُك من ذلك التَّمكُّنَ من تأييدِ مذهبِ الحقِّ ، والرَّدَّ علىٰ أهلِ البدعِ ، والنَّشرَ للعلمِ أو حضَّ النَّاسِ على العبادةِ ونحوَ ذلك ، دونَ أن تقصدَ بذلكَ شرفَ نفسِك من حيثُ هي أو دنيا تنالُها . . فإنَّ هـٰذه كلَّها إراداتٌ سديدةٌ ، ونيَّاتٌ محمودةٌ ، لا يدخلُ شيءٌ منها في بابِ الرِّياءِ ؛ إذ المقصودُ منها أمرُ الآخرةِ بالحقيقةِ .

واعلمْ : أنِّي سألتُ بعضَ مشايخِنا عمَّا يعتادُه أولياؤُنا من قراءةِ (سورةِ الواقعةِ) في أيَّامِ العسرةِ ؛ أليسَ المرادُ بذلكَ أن يدفعَ اللهُ تعالىٰ تلكَ الشِّدَّةَ عنهم ، ويوسِّعَ عليهم بشيءٍ من الدُّنيا علىٰ ما جرتْ به العادةُ ؟ فكيف تصحُّ إرادةُ متاعِ الدُّنيا بعملِ الآخرةِ ؟!

فقالَ في جوابِه رحمَه اللهُ كلاماً معناه : إنَّ المرادَ منهم أن يرزقَهم اللهُ قناعةً أو قوتاً يكونُ لهم عدَّةً علىٰ عبادةِ اللهِ تعالىٰ وقوَّةً علىٰ درسِ العلمِ ، وهـٰذه من جملةِ إراداتِ الخيرِ دونَ الدُّنيا .

واعلمْ : أنَّ هـٰذه السِّيرةَ ـ أعني : قراءةَ هـٰذه السُّورةِ عندَ الشِّدَّةِ في أمرِ الرِّزقِ والخصاصةِ ـ إنَّما هو شيءٌ وردتْ به الأخبارُ المأثورةُ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وعن الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهم[1] ، حتَّىٰ إنَّ ابنَ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه

---

(١) أخرج البيهقي في « الشعب » (٢٢٦٩) ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٦٨٠) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ « سورة الواقعة » في كل ليلة . . لم تصبه فاقة أبداً » .

حينَ عوتبَ في أمرِ ولدِه ؛ إذ لم يتركْ لهم من الدُّنيا شيئاً قال : (لقد خلَّفتُ لهم « سورةَ الواقعةِ »)[١] .

ومن ذلك الأصلِ في السَّنةِ جرتْ هـٰذه الخصلةُ في سيرِ علمائِنا رحمَهم اللهُ تعالى[٢] ، وإلاَّ . . فلا مبالاةَ بحمدِ اللهِ تعالىٰ بشدَّةٍ في أمرِ الدُّنيا أو سعةٍ وهم الَّذينَ يغتنمونَ ضيقَ الدُّنيا وعسرَها ، ويتغالَوْنَ بذلكَ فيما بينَهم[٣] ، ويعدُّونَه من اللهِ تعالىٰ مِنَّةً عظيمةً ، ويخافونَ إذا بدا لهم سَعةٌ من الدُّنيا الَّتي لا يعدُّها أكثرُ النَّاسِ إلاَّ الإحسانَ والنِّعمةَ أن يكونَ ذلك الضِّيقُ والشِّدَّةُ استدراجاً من اللهِ تعالىٰ ومصيبةً ، كيف وبطانتُهم الطَّيُّ والأسفارُ في عمومِ أحوالِهم[٤] ، ومقدَّموهم يقولونَ : الجوعُ رأسُ مالِنا ؟!

فهـٰذا وضعُ مذهبِ أهلِ التَّصوُّفِ ، وهو مذهبي ومذهبُ أشياخي ، وبذلكَ جرتْ سيرةُ سلفِنا .

وأمَّا تقصيرُ بعضِ المتأخِّرينَ : فلا يعتبَرُ به ، وإنَّما ذكرْنا هـٰذا الفصلَ لئلاَّ يغمزَ فيهم مخالفٌ ، جهلاً منه بمقاصدِ القومِ في أمورِهم ، أو يغلطَ فيه مبتدئٌ سليمُ الصَّدرِ لم يأخذْ من العلمِ حقَّه فيقولُ : كيف يليقُ هـٰذا بحالِ أهلِ الزُّهدِ والتَّجرُّدِ وأربابِ الصَّبرِ والرِّياضةِ ولم يعلمْ أنَّ هـٰذا شيءٌ مأخوذٌ من السُّنَّةِ ؟!

ثمَّ المقصودُ : حصولُ القناعةِ والعُدَّةِ ، لا أتِّباعُ الشَّرهِ والشَّهوةِ ، والضَّعفُ عن احتمالِ العسرةِ والشِّدَّةِ ، وأكثرُ ما ترىٰ في عقيبِ ذلك قناعةٌ في القلبِ ، وفقدُ كلَبِ الجوعِ وضعفُه ، وسلُوُّه عن الطَّعامِ ونهمتِه ، وقد علمَ ذلك من امتحنَه ، فاعلمْ هـٰذه الجملةَ موفَّقاً إن شاءَ اللهُ تعالى .

---

(١) أخرجه بنحوه البيهقي في « الشعب » (٢٢٦٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٨٦/٣٣) .
(٢) **السنة** : القحط .
(٣) **يتغالون** : يشددون حتىٰ يتجاوزوا الحد .
(٤) **بطانتهم الطي** : محبوبهم الجوع .

القادحُ الثَّاني : العجبُ .

وإنَّما يلزمُك اجتنابُه لأمرينِ :

أحدُهما : أنَّه يحجبُ عن التَّوفيقِ والتَّأييدِ من اللهِ تعالى ؛ فإنَّ المعجبَ مخذولٌ ، فإذا انقطعَ عن العبدِ التَّأييدُ والتَّوفيقُ . . فما أسرعَ ما يهلكُ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « ثلاثٌ مهلكاتٌ : شحٌّ مطاعٌ ، وهوىً متَّبعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِه »[1] .

الثَّاني : أنَّه يفسدُ العملَ الصَّالحَ ، ولذلكَ قالَ المسيحُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : يا معشرَ الحواريِّينَ ؛ كم من سراجٍ قد أطفأتْه الرِّيحُ ، وكم من عابدٍ قد أفسدَه العجبُ .

وإذا كانَ المقصودُ والفائدةُ العبادةَ وهٰذه الخصلةُ تحرمُ العبدَ حتَّىٰ لا يحصلَ له خيرٌ ، وإن حصلَ فقليلٌ من ذلك يفسدُه ، حتَّىٰ لا يبقىٰ بيدِه شيءٌ . . فحقيقٌ أن يحذرَ من ذلك ويتحفَّظَ ، واللهُ تعالىٰ وليُّ التَّوفيقِ والعصمةِ .

فإن قلتَ : فما حقيقةُ العجبِ ؟ وما معناه ؟ وما تأثيرُه وحكمُه ؟ فبيِّنْ لنا ذلك .

فاعلمْ : أنَّ حقيقةَ العجبِ استعظامُ العملِ الصَّالحِ ، وتفصيلُه عندَ علمائِنا رحمَهم اللهُ : ذكرُ العبدِ حصولَ شرفِ العملِ الصَّالح بشيءٍ دونَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، أو النَّاسِ ، أو النَّفسِ ، قالوا : وقد يكونُ العجبُ مثلَّثاً ؛ بأن يذكرَ ذلك من هٰذه الثَّلاثةِ جميعاً ؛ النَّفسِ ، والخَلْقِ ، والشَّيءِ ، ومثنًّى ؛ بأن يذكرَه من اثنينِ ، وموحَّداً ؛ بأن يذكرَه من واحدٍ .

وضدُّ العجبِ : ذكرُ المنَّةِ ، وهو أن يذكرَ أنَّه بتوفيقِ اللهِ تعالى ، وأنَّه الَّذي شرَّفَه وعظَّمَ ثوابَه وقدْرَه ، وهٰذا الذِّكرُ فرضٌ عندَ دواعي العجبِ ، نفلٌ في سائرِ الأوقاتِ .

---

(١) أخرجه البزار في « مسنده » (٣٣٦٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٣٢٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٥٤٤٨) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

وأمَّا تأثيرُ العجبِ في العملِ : قالَ بعضُ العلماءِ : المعجبُ ينتظرُ الإحباطَ ؛ فإن تابَ قبلَ موتِه.. سلمَ ، وإلاَّ.. أُحبِطَ ، وإليه ذهبَ محمَّدُ بنُ صابرٍ من شيوخِ الكَرَّاميَّةِ ، والإحباطُ عندَه : أن يذهبَ عن العملِ جميعُ الأسماءِ الحسنةِ ، حتَّىٰ لا يستحقُّ بذلكَ ثواباً ولا مِدحةً ألبتَّةَ ، وفي قولِ غيرِه : هو ذهابُ الإضعافِ لا غيرُ .

فإن قلتَ : كيف يلتبسُ على العبدِ العارفِ أنَّ اللهَ تعالىٰ هو الَّذي وفَّقَ للعملِ الصَّالحِ ، وعظَّمَ قدْرَه ، وأكثرَ ثوابَه بفضلِه ومنِّه ؟

فاعلمْ : أنَّ هٰهنا نكتةً لطيفةً ، وذخيرةً شريفةً ، وهي أنَّ النَّاسَ في العجبِ ثلاثةُ أصنافٍ :

ـ صنفٌ هم المعجَبونَ بكلِّ حالٍ ، وهم المعتزلةُ والقدَريَّةُ ، الَّذينَ لا يرونَ للهِ عليهم منَّةً في أفعالِهم ، وينكرونَ العونَ والتَّوفيقَ الخاصَّ واللُّطفَ ، وذلك لشبهةٍ ٱستولتْ عليهم .

ـ وصنفٌ هم الذَّاكرونَ المنَّةَ بكلِّ حالٍ ، وهم المستقيمونَ ، لا يُعجَبونَ بشيءٍ من الأعمالِ ، وذلك لبصيرةٍ أُكرموا بها ، وتأييدٍ خُصُّوا به .

ـ والصِّنفُ الثَّالثُ هم المخلِّطونَ ، وهم عامَّةُ أهلِ السُّنَّةِ ، تارةً ينتبهونَ فيذكرونَ منَّةَ اللهِ تعالى ، وتارةً يغفلونَ فيعجبونَ ، وذلك لمكانِ الغفلةِ العارضةِ ، والفترةِ في الاجتهادِ ، والنَّقصِ في البصيرةِ .

فإن قلتَ : كيف حالُ القدريَّةِ والمعتزلةِ في أفعالِهم ؟

فاعلمْ : أنَّ في ذلك ٱختلافاً :

فقيلَ : إنَّه محبطٌ ؛ لمكانِ ٱعتقادِهم .

وقيلَ : لا يُحبَطُ عملٌ باعتقادٍ بالجملةِ من فِرَقِ الإسلامِ حتَّىٰ يُخصَّ كلُّ عملٍ بإعجابٍ ، كما أنَّ اعتقادَ أهلِ السُّنَّةِ لا يمنعُ العجبَ في كلِّ عملٍ حتَّىٰ يخصَّه بذكرِ المنَّةِ .

فإن قيلَ : فهل سوى العجبِ والرِّياءِ من قادحٍ في العمَلِ ؟

قيلَ له : أجلْ ، إنَّ فيه لقوادحَ سواهما ، لـٰكنَّا خصَّصناهما بالذِّكرِ ؛ لأنَّهما الأصلُ الَّذي يدورُ عليهما معظمُ البابِ .

وقد قالَ بعضُ المشايخِ : إنَّ حقَّ العبدِ أن يتحفَّظَ في العملِ من عشرةِ أشياءَ : النِّفاقِ ، والرِّياءِ ، والتَّخليطِ[1] ، والمنِّ ، والأذى ، والنَّدامةِ ، والعجبِ ، والحسرةِ ، والتَّهاونِ ، وخوفِ ملامةِ النَّاسِ .

ثمَّ ذكرَ شيخُنا رحمَه اللهُ ضدَّ كلِّ خصلةٍ منها وإضرارَها بالعملِ ؛ فضدُّ النِّفاقِ إخلاصُ العملِ ، وضدُّ الرِّياءِ إخلاصُ طلبِ الأجرِ ، وضدُّ التَّخليطِ التَّفريدُ ، وضدُّ المنِّ تسليمُ العملِ إلى اللهِ تعالى ، وضدُّ الأذىٰ تحصينُ العملِ ، وضدُّ النَّدامةِ تثبيتُ النَّفسِ ، وضدُّ العجبِ ذكرُ المنَّةِ ، وضدُّ الحسرةِ ٱغتنامُ الخيرِ ، وضدُّ التَّهاونِ تعظيمُ التَّوفيقِ ، وضدُّ خوفِ الملامةِ الخشيةُ .

واعلمْ : أنَّ النِّفاقَ يُحبطُ العملَ ، والرِّياءَ يوجبُ ردَّهُ ، والمنَّ والأذىٰ يحبطانِ الصَّدقةَ أصلاً في الوقتِ ، وعندَ بعضِ المشايخِ يبطلانِ إضعافَها ، وأمَّا النَّدامةُ : فإنَّها تحبطُ العملَ في قولِهم جميعاً ، والعجبُ يُذهبُ إضعافَ العملِ ، والحسرةُ والتَّهاونُ وخوفُ الملامةِ تخفِّفُ العملَ فتُذهبُ رزانتَه[2] .

قلتُ : فالقبولُ والرَّدُّ عندَ أهلِ التَّحصيلِ يرجعانِ إلىٰ ضروبٍ من التَّعظيمِ والاستخفافِ ، والإحباطُ إبطالُ منافعَ تكونُ بالفعلِ وبسببِه ، ثمَّ تارةً يكونُ إبطالاً للثَّوابِ ، وأخرىٰ إبطالاً للتَّضعيفِ ، والثَّوابُ منفعةٌ يقتضيها الفعلُ بعينِه وقرائنِه وأحوالِه ، والتَّضعيفُ زيادةٌ علىٰ هـٰذا ، والرَّزانةُ زيادةٌ تحصلُ بمقتضىٰ قرائنَ وأحوالٍ أُخَرَ ، كالإحسانِ إلىٰ أحدٍ من أهلِ الخيرِ ، ثمَّ إلى الوالدينِ ، ثمَّ إلىٰ نبيٍّ من الأنبياءِ ، ففي السرِّ يكونُ رزانةً ولا يكونُ تضعيفاً .

فهـٰذا تهذيبُ ما تحقَّقتُ من هـٰذه المعاني ، فافهمْ ذلكَ وباللهِ التَّوفيقُ .

---

(١) **التخليط** : أن يريد بالعمل الواحد نفعَ الدنيا ونفعَ الآخرة . انظر (ص ٢٢٧) .

(٢) بقيت خصلة (التخليط) من الخصائل العشرة التي مرت لم يذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ حكمها وتأثيرها في العمل ؛ فعند بعض العلماء : تذهب بربع الأجر المضاعف ، واختار المصنف : عدم التقدير بشيء . انظر (ص ٢٢٧) .

فَصْلٌ

[في بيان أصول الرياء والعجب]

فعليكَ بقطعِ هـٰذه العقبةِ المخوفةِ ، ذاتِ المقاطعِ والمهالكِ والمتالفِ في غايةِ التَّحرُّزِ ، فإنَّ صاحبَ بضاعةِ الطَّاعاتِ قد قطعَ تلكَ العقباتِ ، وتحمَّلَ تلك المشقَّاتِ ، حتَّىٰ حصلتْ له بضاعةٌ من العبادةِ عزيزةٌ شريفةٌ ؛ فإنَّه لا يَخافُ علىٰ بضاعتِه تلك إلاَّ في هـٰذه العقبةِ ؛ فإنَّ فيها مقاطعَ يحذرُ أن تُسلَبَ فيها بضاعتُه ، ومتالفَ يَحذرُ أن يبدوَ منها آفاتٌ تفسدُ عليه طاعتَه ، ثمَّ أعظمُها خطراً وأعمُّها وقوعاً هـٰذانِ القاطعانِ اللَّذانِ هما : الرِّياءُ والعجبُ ، فلنذكرْ في كلِّ واحدٍ منهما أصولاً مقنعةً نجرِّدُها لك ، لعلَّك تُكفىٰ مؤنتَها بإذنِ اللهِ تعالى .

أمَّا الرِّياءُ : فأذكرُ فيه :

أوَّلاً : قولَ اللهِ سبحانَه : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ ، كأنَّ اللهَ سبحانَه وتعالىٰ يقولُ : إنِّي خلقتُ السَّماواتِ والأرضَ وما بينَهما في كلِّ هـٰذه الصَّنائعِ والبدائعِ واكتفيتُ بنظرِك لتعلمَ أنِّي عالمٌ قادرٌ وأنت تصلِّي ركعتينِ ، مع ما فيهما من المعايبِ والتَّقصيرِ ، فلا تكتفي بنظري إليك ، وبعلمي بك ، وثنائي عليكَ ، وشكري لك حتَّىٰ تحبَّ أن يعلمَ الخلقُ ليمدحوك بذلكَ ، أيكونُ ذلك وفاءً ؟ أيكونُ ذلك عقلاً يرضاه أحدٌ لنفسِه ؟ ويحك أفلا تعقلُ ؟!

والأصلُ الثَّاني : أنَّ مَن كانَ له جوهرٌ نفيسٌ ، يمكنُه أن يأخذَ في ثمنِه ألفَ ألفِ دينارٍ ، فباعَه بفلسٍ . . أليسَ يكونُ ذلك خسراناً عظيماً ، وغبناً فظيعاً ، ودليلاً بيِّناً علىٰ خسَّةِ الهمَّةِ ، وقصورِ العلمِ ، وضعفِ الرَّأيِ ، وقلَّةِ العقلِ ؟

فما ينالُه العبدُ بعملِه من الخلقِ من مدحةٍ وحطامٍ بالإضافةِ إلىٰ رضا ربِّ العالمينَ وشكرِه وثنائِه وثوابِه . . لأقلُّ من فلسٍ في جنبِ ألفِ ألفِ دينارٍ وأضعافِ ذلك ، بل في جنبِ الدُّنيا وما فيها وأكثرُ وأكبرُ ، ألا يكونُ من الخسرانِ المبينِ أن

تفوِّتَ نفسُك تلكَ الكراماتِ العزيزةَ الشَّريفةَ بهٰذه الأمورِ الحقيرةِ الدَّنيَّةِ ؟

ثمَّ إن كانَ ولا بدَّ لك من هٰذه الدُّنيا الخسيسةِ . . فاقصدْ أنت الآخرةَ تتبعْك الدُّنيا ، بل ٱطلبِ الرَّبَّ وحدَه يعطِك الدَّارينِ ؛ إذ هو مالكُهما جميعاً ، وذلك قولُه تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ .

وقالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يعطي الدُّنيا بعملِ الآخرةِ ، ولا يعطي الآخرةَ بعملِ الدُّنيا »[1] .

فإذا أنت أخلصتَ النِّيَّةَ ، وجرَّدتَ الهمَّةَ للآخرةِ . . حصلتْ لك الآخرةُ والدُّنيا جميعاً ، وإن أنت أردتَ الدُّنيا . . ذهبتْ عنك الآخرةُ في الوقتِ ، وربَّما لا تنالُ الدُّنيا كما تريدُ ، وإن نلتَها . . فلا تبقىٰ لك ، فتكونُ قد خسرتَ الدُّنيا والآخرةَ ، فتأمَّلْ أيُّها العاقلُ .

والأصلُ الثَّالثُ : أنَّ المخلوقَ الَّذي لأجلِه تعملُ ، ورضاه تطلبُ ، لو علمَ أنَّك تعملُ لأجلِه . . لأبغضَك ، ولسخطَ عليكَ ، وٱستهانَ بك ، وٱستخفَّ بك ، فكيف يعملُ العاقلُ العملَ لأجلِ من لو علمَ به أنَّه يطلبُ رضاه . . لسخطَ عليه وأهانَه ؟!

فٱعملْ يا مسكينُ لأجلِ من إذا عملتَ لأجلِه ، وقصدتَه بسعيِك ، وطلبتَ رضاه بذلكَ . . أحبَّك وأكرمَك وأعطاك ، حتَّىٰ أرضاك وأغناك عن الكلِّ وكفاك ، فهٰذه هٰذه ، فافطنْ لها إن كنتَ تعقلُ .

والأصلُ الرَّابعُ : أنَّ من حصلَ له سعيٌ يمكنُ أن يكتسبَ به رضا أعظمِ ملِكٍ في الدُّنيا ، فطلبَ به رضا كنَّاسٍ خسيسٍ بينَ النَّاسِ . . فيكونُ ذلك دليلاً على السَّفهِ ورداءةِ الرَّأيِ منه وسوءِ الحظِّ له ، ويقالُ : ما حاجتُك إلىٰ رضا هٰذا الكنَّاسِ مع إمكانِك من رضا الملِكِ ؟ فكيفَ وقد سخطَ الكنَّاسُ عليكَ بسببِ سخطِ الملِكِ ، ففاتَك الكلُّ ؟! فهٰذا حالُ المرائي .

---

(١) أخرجه القضاعي في « مسند الشهاب » (١١٠٨) ، وابن المبارك في « الزهد » (٥٤٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

وأيُّ حاجةٍ إلىٰ إرضاءِ مخلوقٍ حقيرٍ ضعيفٍ مهينٍ وهو متمكِّنٌ من تحصيلِ رضوانِ اللهِ ربِّ العالمينَ الكافي عن الكلِّ ؟

فإن ضعفتِ الهمَّةُ ، وكلَّتِ البصيرةُ ، حتَّىٰ طلبتَ رضا مخلوقٍ لا محالةَ . . فسبيلُك أن تجرِّدَ إرادتَك ، وتُخلِصَ سعيَك للهِ تعالى ؛ فإنَّ القلوبَ والنَّواصيَ بيدِه ، فهو يُميلُ إليك القلوبَ ، ويجمعُ لك النُّفوسَ ، ويشحنُ من حبِّك الصُّدورَ ، فتنالُ من ذلك ما لا تنالُه بجهدِك وقصدِك ، فإن لم تفعلْ ، وقصدتَ بعملِك رضا المخلوقينَ دونَه سبحانَه . . فإنَّه يصرفُ عنك القلوبَ ، وينفِّرُ عنك النُّفوسَ ، ويُسخطُ عليكَ الخلقَ ، فيحصلُ لك بهٰذا الأمرِ سخطُ اللهِ وسخطُ النَّاسِ جميعاً ، فيا له من خسرانٍ وحرمانٍ !

ولقد ذُكرَ عن الحسنِ أنَّه قالَ : (كانَ رجلٌ يقولُ : واللهِ ؛ لأعبُدَنَّ اللهَ عبادةً أُذكَرُ بها ، فكانَ أوَّلَ داخلِ المسجدَ ، وآخرَ خارجٍ منه ، لا يراه أحدٌ حينَ الصَّلاةِ إلاَّ قائماً يصلِّي ، وصائماً لا يفطرُ ، ويجلسُ إلىٰ حلَقِ الذِّكرِ ، فلبثَ كذا سبعةَ أشهرٍ ، وكانَ لا يمرُّ بقومٍ إلاَّ قالوا : فعلَ اللهُ بهٰذا المرائي كذا وصنعَ ، فأقبلَ علىٰ نفسِه باللَّومِ ، وقالَ لها : إنِّي أراني في غيرِ شيءٍ ، لأجعلَنَّ عملي كلَّه للهِ ، فلم يزدْ علىٰ عملِه الَّذي كانَ يعملُه قبلَ ذلك ، إلاَّ أنَّه تغيَّرتْ نيَّتُه إلى الخيرِ ، فكانَ بعدَ ذلك يمرُّ بالنَّاسِ فيقولونَ : رحمَ اللهُ فلاناً ، الآنَ قد أقبلَ على الخيرِ ، ثمَّ قرأَ الحسنُ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ ، قالَ : يُحبُّهم ويحبِّبُهم إلى المؤمنينَ)[1] .

ولقد صدقَ القائلُ : [من مخلع البسيط]

يا مبتغي الحمدَ والثَّوابا	في عملٍ تبتغي محالاَ
قد خيَّبَ اللهُ ذا رياءٍ	وأبطلَ السَّعيَ والكلالاَ
من كانَ يرجو لقاءَ ربٍّ	أخلصَ من خوفِه الفعالاَ
أَلخلدُ والنَّارُ في يديه	فرائِه يعطك النَّوالاَ

(١) عزاه الإمام ابن كثير في « تفسيره » (٣/ ١٤٠) إلى ابن أبي حاتم رحمهما الله تعالى .

والنَّـــاسُ لا يملكـــونَ شيئـــاً فكيـــفَ راءيتَهـــم ضـــلالاً

وأمَّا العجبُ : فلنذكرْ فيه أصولاً :

أحدُها : أنَّ فعلَ العبدِ إنَّما صارتْ له قيمةٌ لمَّا وقعَ من اللهِ موقعَ الرِّضا والقبولِ ، وإلاَّ . . فترى الأجيرَ يعملُ طولَ النَّهارِ بدرهمينِ ، والحارسَ يسهرُ طولَ اللَّيلِ بدانقينِ ، وكذلكَ أصحابُ الصِّناعاتِ والحرفِ كلُّ واحدٍ يعملُ في اللَّيلِ والنَّهارِ ، فيكونُ قيمةُ ذلك دراهمَ معدودةً ، فإن صرفتَ الفعلَ إلى اللهِ سبحانَه وتعالى ، فصمتَ للهِ تعالىٰ يوماً . . فيكونُ صومُك ذلك اليومَ لا قيمةَ له إذا رضيَه وتقبَّلَه ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وفي الخبرِ : « أعددتُ لعبادي الصَّائمينَ ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ »[1] .

فهـٰذا يومُك الَّذي قيمتُه درهمانِ مع احتمالِ التَّعبِ العظيمِ . . صارتْ له هـٰذه القيمةُ بتأخيرِ غداءٍ إلىٰ عشاءٍ ، ولو قمتَ ليلةً للهِ تعالىٰ وأخلصتَها له . . كانَ قيامُك لا قيمةَ له في الشَّرفِ والنَّفاسةِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ، فهـٰذا الَّذي قيمتُه دانقانِ أو درهمانِ صارَ له هـٰذه القيمةُ والقدْرُ ، بل لو جعلتَ للهِ تعالىٰ ساعةً تصلِّي فيها ركعتينِ خفيفتينِ ، بل نفَساً قلتَ فيه : لا إلهَ إلاَّ اللهُ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ، فهـٰذا نفَسٌ من أنفاسِك الَّتي لا قيمةَ لها عندَ أهلِ الدُّنيا ولا عندَك ، فكم تضيِّعُها في لا شيءٍ ، وكم تمرُّ عليكَ بلا فائدةٍ . . صارَ له كلُّ هـٰذا القدْرِ العظيمِ لماذا ؟ لِمَا أنَّه وقعَ مرضيّاً للهِ تعالى ، فعظَّمَ قدرَه ، وكبَّر قيمتَه بفضلِه .

فحقَّ إذنْ للعاقلِ أن يرىٰ حقارةَ عملِه ، وقلَّةَ مقدارِه من حيثُ هو ، وألاَّ يرىٰ إلاَّ منَّةَ اللهِ تعالىٰ عليه فيما شرَّفَ من قدْرِ عملِه ، وأعظمَ من جزائِه ، وأن يحذرَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) ، وابن حبان (٣٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، لـٰكن بلفظ (الصالحين) بدل (الصائمين) .

علىٰ فعلِه من أن يقعَ علىٰ وجهٍ لا يصلحُ للهِ ولا يقعُ منه موقعَ الرِّضا ، فتذهبُ عنه القيمةُ الَّتي حصلتْ له ، ويعودُ إلىٰ ما كانَ في الأصلِ من الثَّمنِ الحقيرِ من دراهمَ أو دوانقَ ، وأحقرَ وأخسَّ من ذلك .

ومثالُه : أنَّ العنقودَ من العنبِ ، والإضبارةَ من الرَّيحانِ[1] ، يكونُ قيمتُه في السُّوقِ دانقاً ، فإن أهداه واحدٌ إلىٰ ملِكٍ مع خسَّتِه ، فوقعَ منه موقعَ الرِّضا . . فيهبُ له علىٰ ذلك ألفَ دينارٍ ؛ لِمَا وقعَ من الملِكِ موقعَ الرِّضا ، فصارَ ما قيمتُه حبَّةٌ بألفِ دينارٍ ، فإذا لم يرضَه الملِكُ وردَّه عليه . . رجعَ إلىٰ قيمتِه الخسيسةِ من حبَّةٍ أو دانقٍ ، فكذلكَ ما نحنُ فيه ، فتنبَّهْ وأبصرْ منَّةَ اللهِ تعالى ، وصنْ فِعلَك عمَّا يَشينُه عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

والأصلُ الثَّاني : ما تعلمُ أنَّ الملِكَ في الدُّنيا إذا أجرىٰ علىٰ أحدٍ جرايةً ؛ من طعامٍ أو كسوةٍ ، أو دراهمَ أو دنانيرَ معدودةٍ فانيةٍ . . فإنَّه يستخدمُه بضروبِ الخدمةِ آناءَ اللَّيلِ والنَّهارِ ، مع ما في ذلك من ٱلذُّلِّ والصَّغارِ ، ويقومُ علىٰ رأسِه حتَّىٰ تخدَّرَ رجلاه ، ويسعىٰ بينَ يديه إذا ركبَ ، وربَّما يحتاجُ أن يكونَ علىٰ بابِه طولَ اللَّيلِ حارساً ، وربَّما يبدو له عدوٌّ ، فيحتاجُ أن يقاتلَ عدوَّه ، فيبذلَ روحَه الَّتي لا خلفَ عنها لأجلِه ، ويحتملُ كلَّ هـٰذه الخدمةِ والكلفةِ والخطرِ والضَّررِ لأجلِ تلك المنفعةِ النَّكدةِ الحقيرةِ ، مع أنَّها بالحقيقةِ من اللهِ تعالى ، وإنَّما هو بمنزلةِ سببٍ في ذلك ، فربُّك الَّذي خلقَك ولم تك شيئاً ، ثمَّ ربَّاك فأحسنَ التَّربيةَ ، ثمَّ أنعمَ عليكَ من النِّعمِ الظَّاهرةِ والباطنةِ في دينِك ونفسِك ودنياك ما لا يبلغُ كنهَها فهمُك ووهمُك ، قالَ عزَّ من قائلٍ : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ، ثمَّ إنَّك تصلِّي ركعتينِ مع ما فيهما من المعايبِ والآفاتِ ، ومع ما وعدَ عليهما في المستقبلِ من حسنِ الثَّوابِ وضروبِ الكراماتِ ، حتَّىٰ تستعظمَ ذلك وتعجبَ به ، فليسَ هـٰذا من شأنِ عاقلٍ إذا نظرتَ ، فهـٰذه هـٰذه .

والأصلُ الثَّالثُ : أنَّ الملِكَ الَّذي من شأنِه أن تخدمَه الملوكُ والأمراءُ ،

---

(١) الإضبارة ـ بكسر الهمزة وفتحها ـ : الحزمة .

وتقومَ علىٰ رأسِه السَّاداتُ والعظماءُ ، ويتولَّىٰ خدمتَه الألبّاءُ والحكماءُ ، ويطلبَ مدحتَه العقلاءُ والعلماءُ ، ويمشيَ بينَ يديه الأكابرُ والرُّؤساءُ . . إذا أذنَ لسوقيٍّ أو قَرَويٍّ بمقتضىٰ رأفةٍ وعنايةٍ له في بابِه حتَّىٰ زاحمَ أولئكَ الملوكَ والسَّاداتِ والأكابرَ والفضلاءَ في خدمتِه ومدحتِه ، وجعلَ له مقاماً من حضرتِه معلوماً ، ونظرَ إلىٰ خدمتِه بعينِ الرِّضا وإن كانتْ مشوَّشةً معيوبةً . . أليسَ يقالُ له : لقد كبُرَتْ علىٰ هـٰذا الحقيرِ المنَّةُ من الملِكِ ، وعظُمتْ عنايتُه به ، فإن أخذَ هـٰذا الحقيرُ يمنُّ على الملِكِ بتلكَ الخدمةِ المعيوبةِ ، ويستعظمُ ذلك ويعجبُ به . . ألاَ يقالُ : إنَّ ذلك لسفيهٌ جدّاً ، ومجنونٌ لا يعقلُ شيئاً ؟ !

ولمَّا تقرَّرَ هـٰذا . . فإنَّ إلهَنا سبحانَه هو الملِكُ الَّذي يسبِّحُ له السَّماواتُ السَّبعُ والأرضُ ومن فيهنَّ ، وإنْ من شيءٍ إلاَّ يسبِّحُ بحمدِه ، والمعبودُ الَّذي يسجدُ له من في السَّماواتِ والأرضِ طوعاً وكَرهاً .

فمن الخدمِ علىٰ بابِه : جبريلُ الأمينُ ، وميكائيلُ ، وإسرافيلُ ، وعَزرائيلُ ، وحملةُ العرشِ ، والكَروبيُّونَ ، والرُّوحانيُّونَ ، وسائرُ الملائكةِ المقرَّبينَ ، الَّذينَ لا يحصي عددَهم إلاَّ اللهُ ربُّ العالمينَ في منازِلِهم الرَّفيعةِ ، وأنفسِهم الطَّاهرةِ ، وعباداتِهم العظيمةِ .

ثمَّ من خدَّامِه الَّذينَ علىٰ بابِه : آدمُ ، ونوحٌ ، وإبراهيمُ ، وموسى ، وعيسى ، ومحمَّدٌ خيرُ العالمينَ ، مع سائرِ الأنبياءِ والمرسلينَ ، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم أجمعينَ ، في مراتبِهم المنيفةِ ، ومناقبِهم العزيزةِ الشَّريفةِ ، ومقاماتِهم الكريمةِ ، وعباداتِهم الجليلةِ الخطيرةِ .

ثمَّ من العلماءِ : الأئمَّةُ الأبرارُ والزُّهَّادُ في مراتبِهم العظيمةِ الفاخرةِ ، وأبدانِهم النَّقيَّةِ الطَّاهرةِ ، وعباداتِهم الكثيرةِ الخالصةِ المتظاهرةِ .

وأذلُّ الخدمِ علىٰ بابِه : ملوكُ ٱلدُّنيا وجبابرتُها ، يخرُّونَ له على الأذقانِ ساجدينَ صاغرينَ ، ويعفِّرونَ الوجوهَ في التُّرابِ خاضعينَ ، ويرفعونَ إليه حوائجَهم باكينَ ضارعينَ ، ويعترفونَ له بالعبوديَّةِ ولأنفسِهم بالنَّقصِ ساجدينَ

صاغرينَ ، حتَّىٰ ربَّما ينظرُ إليهم نظرةً ، ويقضي لهم بفضلِه حاجةً ، أو يتجاوزُ عنهم بكرمِه زلَّةً ، فمع هـٰذه العظمةِ والجلالِ ، والمُلْكِ والكمالِ قد أذنَ لك في حقارتِك وعيوبِك ، وأنت الَّذي لو ٱستأذنتَ علىٰ رئيسِ بلدِك . . فربَّما لا يأذنُ لك ، وإن كلَّمتَ أميرَ ناحيتِك . . فربَّما لا يكلِّمُك ، وإن سجدتَ لسلطانِ بلدِك بالأرضِ . . فربَّما لا يلتفتُ إليك ، أذنَ لك جلَّ جلالُه حتَّىٰ تعبدَه وتثنيَ عليه وتخاطبَه ، بل تدلُّ عليه بالمسألةِ وتباسطُه ، فتستقضيه حاجاتِك ، وتستكفيه مهمَّاتِك ، ثمَّ إنَّه يرضىٰ ركعتيك في معايبِهما ، بل يُعِدُّ لك عليهما من الثَّوابِ ما لا يخطرُ بقلبِ بشرٍ ، وأنت مع ذلك تَعجبُ بهاتينِ الرَّكعتينِ ، وتستكثرُ ذلك وتستعظمُه ، ولا ترىٰ منَّةَ اللهِ عليكَ في ذلك ، فما أسوأَك من عبدٍ ! وما أجهلَك من إنسانٍ ! واللهُ تعالى المستعانُ ، وإليه المشتكىٰ من هـٰذه النَّفسِ الجاهلةِ وعليه التُّكلانُ ، فهـٰذه هـٰذه .

فَصْلٌ

[في ضرب مثالٍ تتضح به حقيقة المعجب بعمله]

وعلىٰ وجهٍ آخرَ : الملِكُ العظيمُ إذا أذنَ بإدخالِ الهدايا إليه ، فيدخلُ بحضرتِه الأمراءُ ، والكبراءُ والرُّؤساءُ ، والنُّبلاءُ والأغنياءُ بأنواعِ الهدايا ؛ من الجواهرِ الثَّمينةِ ، والذَّخائرِ النَّفيسةِ ، والأموالِ الجليلةِ . . فإن جاءَ بقَّالٌ بباقةِ بقلٍ ، أو قَرَويٌّ بسلَّةِ عنبٍ تساوي دانقاً أو حبَّةً ، فيدخلُ في حضرتِه ويزاحمُ أولئكَ الأكابرَ والأغنياءَ بهداياهم الكثيرةِ الشَّريفةِ ، وهـٰذا الملِكُ يقبلُ من هـٰذا الفقيرِ هديَّتَه ، وينظرُ إليه بنظرِ القبولِ والرِّضا ، ويأمرُ له بأنفسِ خلعةٍ وكرامةٍ . . ألا يكونُ منه ذلك غايةَ الفضلِ والكرمِ ؟

فإن أخذَ هـٰذا الفقيرُ يمنُّ بذلكَ على الملِك ويعجبُ به ، ويستعظمُه وينسىٰ ذكرَ منَّةِ الملِكِ . . ألا يقالُ : هـٰذا مجنونٌ مضطربُ العقلِ ، أو سفيهٌ سيِّءُ الأدبِ ، عظيمُ الجهلِ ؟

فالآنَ إنَّك إذا قمتَ للهِ ليلةً وصلَّيتَ له ركعتينِ ؛ فإذا فرغتَ . . فتفكَّرْ كم قامَ للهِ سبحانَه في هـٰذه اللَّيلةِ من الخدمِ في أقطارِ الأرضِ بَرِّها وبحرِها ، وجبالِها

وبلادِها ، من أصنافِ المستقيمينَ والصِّدِّيقينَ ، والخائفينَ والمشتاقينَ ، والمجتهدينَ والمتضرِّعينَ ، وكم حضرتْ في هـٰذه السَّاعةِ ببابِ اللهِ سبحانَه من عبادةٍ صافيةٍ ، وخدمةٍ خالصةٍ ، عن أنفسٍ خاشعةٍ ، وألسنٍ طاهرةٍ ، وعيونٍ باكيةٍ ، وقلوبٍ عامرةٍ ، وصدورٍ نقيَّةٍ ، وأركانٍ تقيَّةٍ ، وصلاتُك إن كنتَ بذلتَ المجهودَ في تحسينِها وإحكامِها وإخلاصِها . . فلا تكادُ تصلحُ بحضرةِ هـٰذا الملكِ العظيمِ ، ولا تتبيَّنُ في جنبِ تلك العباداتِ الَّتي تعرضُ هنالكَ ، كيف وقد كانتْ منك عن قلبٍ غافلٍ مختلطٍ بأنواعِ العيوبِ ، وبدنٍ نجسٍ بأقذارِ الذُّنوبِ ، ولسانٍ متلطِّخٍ بأنواعِ المعصيةِ والفضولِ ؟! فكيف يصلحُ هـٰذا أن يُحملَ إلىٰ تلك الحضرةِ ؟! وكيف يستأهلُ أن يُهدىٰ إلىٰ ربِّ العزَّةِ ؟!

قالَ شيخُنا رحمَه اللهُ : ٱنظرْ أيُّها الغافلُ ، هل وجَّهتَ قطُّ صلاةً من صلواتِك إلى السَّماءِ كمائدةٍ بعثتَها إلىٰ بيوتِ الأغنياءِ ؟

وكانَ أبو بكرٍ الورَّاقُ يقولُ : ما فرغتُ قطُّ من صلاةٍ إلاَّ استحييتُ منها حينَ فرغتُ منها أشدَّ حياءً من ٱمرأةٍ فرغتْ من الزِّنا .

ثمَّ إنَّ الرَّبَّ الكريمَ سبحانَه بمحضِ كرمِه وفضلِه عظَّمَ قدرَ هاتينِ الرَّكعتينِ ، ووعدَ عليهما من جزيلِ الثَّوابِ ما وعدَ ، وأنت عبدُه وفي جرايتِه ، وعملتَ ما عملتَ بتوفيقِه وتيسيرِه ، ثمَّ مع ذلك تعجبُ بذلكَ وتنسىٰ منَّةَ اللهِ عليكَ ، هـٰذا واللهِ أعجبُ العجبِ ، لا يكادُ يصدرُ مثلُه إلاَّ عن جاهلٍ لا فكرَ له ، وغافلٍ لا ذهنَ له ، وقلبٍ ميِّتٍ خاوٍ لا خيرَ فيه ، فهـٰذه هـٰذه ، نسألُ اللهَ حسنَ الكفايةِ بمنِّه وفضلِه .

فَصْلٌ

[في بيان دقة عقبة القوادح ، وشدة غبنها ، وعظيم خطرها]

ثمَّ أقولُ بعدَ هـٰذه الجملةِ : تيقَّظْ من رَقدتِك أيُّها الرَّجلُ في هـٰذه العقبةِ ، وإلاَّ . . كنتَ من الخاسرينَ ؛ فإنَّ هـٰذه العقبةَ أشدُّ وأشقُّ وأمرُّ وأضرُّ عقبةٍ

ٱستقبلتْك في هـٰذه الطَّريقِ ؛ إذ إليها تنتهي ثمرةُ كلٍّ ما مضىٰ من العقباتِ ، فإن سلمتَ . . غنمتَ وربحتَ ، وإن كانتِ الأخرى . . فقد ضاعَ السَّعيُ كلُّه ، وخابَ الأملُ ، وبطلَ العمرُ .

ثمَّ الشَّأنُ كلُّه : أنَّه قد ٱجتمعَ في هـٰذه العقبةِ هـٰهنا ثلاثةُ أمورٍ : الأوَّلُ : أنَّ الأمرَ دقيقٌ جدّاً ، والغبنَ شديدٌ ، والخطرَ عظيمٌ .

أمَّا دقَّةُ الأمرِ : فإنَّ مجاريَ الرِّياءِ والعجبِ في الأعمالِ دقيقةٌ خفيَّةٌ بالغايةِ ، فلا يكادُ يتنبَّهُ لذلكَ إلاَّ كلُّ نحريرٍ في أمرِ الدِّينِ ، بصيرٍ يقظانِ القلبِ متحرِّزٍ ، وأنَّىٰ يطَّلعُ عليه الجاهلُ اللَّعوبُ ، والغافلُ النَّؤومُ ؟!

ولقد سمعتُ بعضَ علمائِنا رحمَهم اللهُ بنيسابورَ يحكي أنَّ عطاءً السَّلِيميَّ[1] رحمَه اللهُ نسجَ ثوباً فأحكمَه وحسَّنَه جدّاً ، ثمَّ حملَه إلى السُّوقِ فعرضَه فاسترخصَه البزَّازُ وقالَ : إنَّ فيه عيوباً كيتَ وكيتَ ، فأخذَه عطاءٌ وجلسَ يبكي بكاءً شديداً ، فندمَ الرَّجلُ علىٰ ذلك ، وجعلَ يعتذرُ إليه ، ويبذلُ له في ثمنِه ما يريدُ ، فقالَ له عطاءٌ : ليسَ ذلك ما تظنُّ ، إنَّما أنا عاملٌ في هـٰذه الصِّناعةِ ، وقد ٱجتهدتُ في إحكامِ هـٰذا الثَّوبِ وإصلاحِه وتحسينِه حتَّىٰ لا يوجدَ به عيبٌ ، فلمَّا عُرِضَ على البصيرِ بعيوبِه . . أظهرَ فيه عيوباً كنتُ عنها غافلاً ، فكيف أعمالُنا هـٰذه إذا عُرِضتْ غداً على اللهِ الخبيرِ البصيرِ ، كم يبدو فيها من العيوبِ والنُّقصانِ الَّذي نحنُ اليومَ عنه غافلونَ ؟!

وعن بعضِ الصَّالحينَ قالَ : كنتُ ليلةً في وقتِ السَّحرِ في غرفةٍ لي شارعةٍ أقرأُ (سورةَ طه) ، فلمَّا أنْ ختمتُها . . غفوتُ غفوةً ، فرأيتُ شخصاً نزلَ من السَّماءِ بيدِه صحيفةٌ ، فنشرَها بينَ يديَّ ، فإذا فيها (سورةُ طه) ، وإذا تحتَ كلِّ كلمةٍ عشرُ حسناتٍ مثبتةٍ إلاَّ كلمةً واحدةً ، فإنِّي رأيتُ مكانَها محواً ولم أرَ تحتَها

---

(١) في جميع النسخ : (السلمي) ، ولعل الصواب ما أثبت ، انظر « تبصير المنتبه » للحافظ ابن حجر رحمه الله تعالىٰ (٢/٧٤٦) ، وقال الإمام الكديري رحمه الله تعالىٰ في « سراج الطالبين » (٢/٤١٨) : (كذا في نسخ الكتاب [أي : السلمي] والصواب : السليمي ـ بفتح المهملة وكسر اللام ـ نسبة إلىٰ سليمة بن مالك ، فهم بطن من الأزد) .

شيئاً ، فقلتُ : واللهِ ؛ لقد قرأتُ هٰذه الكلمةَ ولا أرىٰ لها ثواباً ولا أراها أُثبتتْ ، فقالَ الشَّخصُ : صدقتَ ، قد قرأتَها وكتبناها ، إلاَّ أنَّا سمعنا منادياً ينادي من قِبَلِ العرشِ : أمحوها وأسقطوا ثوابَها ، فمحوناها ، قالَ : فبكيتُ في منامي وقلتُ : لم فعلتم ذلك ؟ قالوا : مرَّ رجلٌ فرفعتَ بها صوتَك لأجلِه فذهبَ ثوابُها ، فهٰذه هٰذه .

وأمَّا شدَّةُ الغبنِ : فلأنَّ الرِّياءَ والعُجبَ آفةٌ عظيمةٌ تقعُ في لحظةٍ ، فربَّما تُفسدُ عليكَ عبادةَ سبعينَ سنةً .

وحُكيَ أنَّ رجلاً أضافَ سفيانَ الثَّوريَّ ـ رحمَه اللهُ ـ وأصحابَه ، فقالَ لأهلِه : هاتوا الطَّبقَ الَّذي أتيتُ به في الحَجَّةِ الأولى ، بل الَّذي أتيتُ به في الحَجَّةِ الثَّانيةِ ، فنظرَ إليه سفيانُ وقالَ : مسكينٌ ، قد أفسدَ عليه بهٰذا حَجَّتَيه .

ووجهٌ آخرُ في الغبنِ : أنَّ أقلَّ طاعةٍ سلمتْ عن هٰذا الرِّياءِ والعجبِ يكونُ لها من اللهِ عزَّ وجلَّ من القيمةِ ما لا نهايةَ له ، وأكبرَ طاعةٍ إذا أصابتْها هٰذه الآفةُ . . بقيتْ لا قيمةَ لها إلاَّ أن يتداركَها اللهُ تعالى ، علىٰ ما رُويَ عن عليٍّ رضيَ اللهُ عنه أنَّه قالَ : (لا يقلُّ عملٌ مقبولٌ ألبتَّةَ ، وكيف يقلُّ عملٌ مقبولٌ ؟!)[1] .

وسُئلَ النَّخعيُّ عن عملٍ كذا وكذا ما ثوابُه ؟ فقالَ : إذا قُبلَ . . لا يُحصىٰ ثوابُه .

وعن وهبٍ قالَ : كانَ فيمن كانَ قبلَكم رجلٌ عبدَ اللهَ سبعينَ عاماً صائماً ، يفطرُ من سبتٍ إلىٰ سبتٍ ، فطلبَ إلى اللهِ تعالىٰ حاجةً فلم تُقضَ له ، فأقبلَ علىٰ نفسِه يلومُها وقالَ : من قِبَلِكِ أُتيتُ ، لو كانَ عندَكِ خيرٌ . . لقُضيتْ حاجتُكِ ، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ ملَكاً فقالَ : يا بنَ آدمَ ؛ ساعتُكَ الَّتي أزريتَ بنفسِك خيرٌ من عبادتِك الَّتي مضتْ .

قلتُ : فلينظرِ العاقلُ إلىٰ هٰذا الكلامِ ، أليسَ من الغبنِ أنَّ واحداً يكدحُ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٧٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/ ٥١١) .

ويتعبُ سبعينَ سنةً ، وآخرَ يتفكَّرُ ساعةً واحدةً ، فيكونُ فكرُه ساعةً أفضلَ من سبعينَ سنةً وخيراً ؟ أليسَ من الغبنِ العظيمِ أنَّك متمكِّنٌ من ساعةٍ خيرٍ من سبعينَ سنةً وتتركُ ذلك من غيرِ حاجةٍ ؟! بلىٰ واللهِ إنَّه لأعظمُ الغبنِ ، وإنَّ إغفالَه لأشدُّ خسراناً ، وإنَّ الخصلةَ الَّتي لها هـٰذه القيمةُ والخطرُ يجبُ أن تُحذَرَ وتُجتنَبَ ، ولمثلِ هـٰذا المعنىٰ إنَّما وقعَ نظرُ أولي الأبصارِ من العبَّادِ في مثلِ هـٰذه الدَّقائقِ ، وٱهتمُّوا لمثلِ هـٰذه الأسرارِ بمعرفتِها أوَّلاً ، ثمَّ رعايتِها والتَّحفُّظِ عنها ثانياً ، ولم تغنِهم كثرةُ الأعمالِ بالظَّاهرِ ، وقالوا : الشَّأنُ في الصَّفوةِ لا في الكثرةِ ، وقالوا : جوهرةٌ واحدةٌ خيرٌ من ألفِ خرزةٍ .

وأمَّا الَّذينَ قَلَّ علمُهم ، وكَلَّ في هـٰذا البابِ نظرُهم ، فجهلوا المعانيَ ، وأغفلوا ما في القلوبِ من العيوبِ ، وٱشتغلوا بإتعابِ النُّفوسِ في الرُّكوعِ والسُّجودِ ، والإمساكِ عن الطَّعامِ والشَّرابِ ونحوِه . . فغرَّهم العددُ والكثرةُ ، ولم ينظروا ما فيها من المخِّ والصَّفوةِ ، وما يغني عددُ الجوزِ ولا لبَّ فيها ؟! وما ينفعُ رفعُ السُّقوفِ ولم تُحكَمْ مبانيها ؟! وما يَعقلُ هـٰذه الحقائقَ إلاَّ العالمونَ باللهِ المكاشَفونَ ، واللهُ تعالىٰ وليُّ الهدايةِ والتَّوفيقِ بفضلِه .

وأمَّا عِظمُ الخطرِ : فمن وجوهٍ :

ـ أحدُها : أنَّ المعبودَ مِلكٌ لا نهايةَ لجلالِه وعظمتِه .

ـ وله عليكَ نعمٌ لا تُعَدُّ ولا تُحصى .

ـ ولك بدنٌ معيوبٌ بعيوبٍ خفيَّةٍ ، مؤوفٌ بآفاتٍ كثيرةٍ .

ـ وأمورٌ مخوفةٌ إن وقعَ زللٌ مع تسارعِ النَّفسِ إليه ، فتحتاجُ أن تستخرجَ عملاً صالحاً صافياً سالماً من بدنٍ معيوبٍ ، ونفسٍ ميَّالةٍ إلى الشَّرِّ ، أمَّارةٍ بالسُّوءِ ، علىٰ وجهٍ يصلحُ لربِّ العالمينَ في جلالِه وعظمتِه ، وكثرةِ أياديه ومنَّتِه ، ويقعُ منه موقعَ ٱلرِّضا والقبولِ ، وإلاَّ . . فيفوتُك الرِّبحُ العظيمُ الَّذي لا تسمحُ النَّفسُ بفوتِه ، بل ربَّما يصيبُك فيه مصيبةٌ لا طاقةَ لك بها ، وهـٰذا وٱللهِ شأنٌ عظيمٌ ، وخطبٌ جسيمٌ .

وأمَّا جلالُ الملِكِ وعظمتُه : بحيثُ إنَّ الملائكةَ المقرَّبينَ الأبرارَ قائمونَ له بالخدمةِ آناءَ اللَّيلِ والنَّهارِ ، حتَّىٰ إنَّ منهم مَن هو منذُ خلقَه ٱللهُ تعالىٰ في قيامٍ ، ومنهم من هو في ركوعٍ ، ومنهم من هو في سجودٍ ، ومنهم من هو في تسبيحٍ وتهليلٍ ، فلا يُتمُّ القائمُ قيامَه ، ولا الرَّاكعُ ركوعَه ، ولا السَّاجدُ سجودَه ، ولا المسبِّحُ تسبيحَه ، ولا المهلِّلُ تهليلَه ، مادّاً به صوتَه إلىٰ نفخةِ الصُّورِ ، ثمَّ لمَّا فرغوا من هٰذه الخدمةِ العظيمةِ . . نادَوا بأجمعِهم : سبحانَك ما عبدناك حقَّ عبادتِك .

وهٰذا سيِّدُ المرسلينَ وخيرُ العالمينَ أعلمُ الخلقِ وأفضلُهم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ : « لا أحصي ثناءً عليكَ ، أنت كما أثنيتَ علىٰ نفسِك »[1] ، يقولُ : أنا لا أقدرُ أن أثنيَ عليكَ ثناءً أنت له أهلٌ ، فضلاً عن أن أعبدَك كما أنت له أهلٌ .

وهو الَّذي يقولُ : « ليسَ أحدٌ يَدخلُ ٱلجنَّةَ بعملِه » ، قالوا : ولا أنت يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « ولا أنا ، إلاَّ أن يتغمَّدني ٱللهُ برحمتِه »[2] .

وأمَّا النِّعمُ والأيادي : فكما قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ .

وعلىٰ ما رُويَ : « أنَّه يُحشَرُ النَّاسُ علىٰ ثلاثةِ دواوينَ : ديوانِ الحسناتِ ، وديوانِ السَّيِّئاتِ ، وديوانِ النِّعمِ ، فتقابَلُ الحسناتُ بالنِّعمِ ، فلا يُؤتىٰ بحسنةٍ إلاَّ ويُؤتىٰ بنعمةٍ ، حتَّىٰ تعمَّ الحسناتُ النِّعمَ ، وتبقى السَّيِّئاتُ وٱلذُّنوبُ ، فللّهِ تعالىٰ فيها المشيئةُ »[3] .

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٠٩) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦/ ٧٢) ، وابن حبان (٣٤٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) عزاه الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/ ٣٦٠) ، والمنذري في « الترغيب والترهيب » (٤/ ٣٠١) إلى البزار رحمهم الله تعالىٰ بنحوه مرفوعاً عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه ، وأخرجه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٨/ ١٦١) موقوفاً من قول ابن مسعود رضي الله عنه .

وأمَّا عيوبُ النَّفسِ وآفاتُها : فقد قدَّمناها في بابِها .

والأمرُ المخوفُ : أنَّ العبدَ يكدحُ ويدأبُ سبعينَ سنةً غافلاً عن عيوبِه وآفاتِه ، فربَّما لا يكونُ واحدٌ منها مقبولاً ، وربَّما يتعبُ أعواماً فتفسدُ بساعةٍ واحدةٍ ، وأعظمُ خطراً من ذلك كلِّه : أنَّه ربَّما ينظرُ ٱللهُ تعالىٰ إلى العبدِ وهو يرائي النَّاسَ بعبادتِه وخدمتِه ؛ حيثُ جعلَ ظاهرَه للهِ ، وقلبَه وباطنَه للخلقِ ، فيطردَه طرداً لا مردَّ له ، والعياذُ باللهِ .

ولقد سمعتُ بعضَ العلماءِ يحكي عن الحسنِ البصريِّ رحمَه ٱللهُ تعالىٰ أنَّه رُئيَ في المنامِ بعدَ موتِه ، فسُئلَ عن حالِه ، فقالَ : أقامني ٱللهُ تعالىٰ بينَ يديه وقالَ : يا حسنُ ؛ أتذكرُ يومَ كنتَ تصلِّي في المسجدِ إذ رمقَك النَّاسُ بأبصارِهم فزدتَ حسناً لصلاتِك ؟ فلولا أنَّ أوَّلَ صلاتِك كانَ لي خالصاً . . لطردتُك اليومَ عن بابي ، ولقطعتُك عنِّي مرَّةً واحدةً .

ولمَّا كانَ الأمرُ في الجملةِ من الدِّقَّةِ والصُّعوبةِ إلىٰ حدٍّ عظيمٍ . . نظرَ أولو الأبصارِ فيه فخافوا علىٰ أنفسِهم ، حتَّىٰ إنَّ منهم من لا يلتفتُ إلىٰ جميعِ ما يظهرُ للنَّاسِ من أعمالِه ، حتَّىٰ حُكيَ عن رابعةَ أنَّها قالتْ : ما ظهرَ من أعمالي لا أعدُّه شيئاً .

وقالَ آخرُ : ٱكتمْ حسناتِك كما تكتمُ سيِّئاتِك .

وآخرُ يقولُ : إن أمكنَك أن تجعلَ لك خبئاً من الخيرِ . . فافعلْ[1] .

ولقد حُكيَ : أنَّه قيلَ لرابعةَ : بمَ تربحينَ أكثرَ ما ترتجينَ ؟ فقالتْ : بيأسي من جلِّ عملي .

وحُكيَ : (أنَّه ٱجتمعَ محمَّدُ بنُ واسعٍ ومالكُ بنُ دينارٍ ، فقالَ مالكٌ : إمَّا الطَّاعةُ وإمَّا النَّارُ ، فقالَ محمَّدُ بنُ واسعٍ : إمَّا رحمةُ اللهِ أو النَّارُ ، فقالَ مالكٌ : ما أحوجَني إلىٰ معلِّمٍ مثلِك !)[2] .

---

(١) الخبء ـ بفتح الخاء ويكسر ـ : ما خُبِىءَ وغاب ، سمي بالمصدر .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٤٩) ، وأحمد في « الزهد » (١٩٠١) .

وعن أبي يزيدَ البسطاميِّ رحمَه اللهُ قالَ : (كابدتُ العبادةَ ثلاثينَ سنةً ، فرأيتُ قائلاً يقولُ لي : يا أبا يزيدَ ؛ خزائنُه مملوءةٌ من العبادةِ ، فإن أردتَ الوصولَ إليه . . فعليكَ بالذِّلَّةِ والافتقارِ)[1] .

وسمعتُ الأستاذَ أبا الحسنِ يحكي عن الأستاذِ أبي الفضلِ رحمَهما ٱللهُ : أنَّه كانَ يقولُ : إنِّي أعلمُ أنَّ ما أعملُه من الطَّاعاتِ غيرُ مقبولةٍ عندَ اللهِ تعالى ، فقيلَ له في ذلك ، فأجابَ : إنِّي أعلمُ ما يحتاجُ إليه الفعلُ حتَّىٰ يكونَ مقبولاً ، وأعلمُ أنِّي لستُ أقومُ بذلكَ ، فعلمتُ أنَّها غيرُ مقبولةٍ ، قيلَ له : فلمَ تفعلُها ؟ قالَ : عسىٰ أن يصلحَني ٱللهُ تعالىٰ يوماً فتكونَ النَّفسُ متعوِّدةً لعملِ ٱلخيرِ ، فلا أحتاجُ إلىٰ أن أعوِّدَها ذلك من ٱلرَّأسِ ؟

فهـٰذه حالُ هؤلاءِ الأعلامِ ، وذوي المجاهداتِ والأقدارِ ، فكنتَ أنت كما قالَ الشَّاعرُ : [من الكامل]

فاطلبْ لنفسِك صحبةً مع غيرِهم ... وقعَ الإياسُ وخابتِ الآمالُ
هيهاتَ تدركُ بالتَّواني سادةً ... كدُّوا النُّفوسَ وساعدَ الإقبالُ

ثمَّ رأيتُ أنِّي أُثبتُ هـٰهنا الخبرَ المأثورَ عن الصَّادقِ المصدوقِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه ، وقد ذكرناه في غيرِ كتابٍ[2] .

رُويَ عن ٱبنِ المباركِ رحمَه اللهُ عن رجلٍ[3] أنَّه قالَ لمعاذٍ : حدِّثْني حديثاً سمعتَه من رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، حفظتَه وذكرتَه في كلِّ يومٍ من شدَّتِه ودقَّتِه ، قالَ : نعمْ ، ثمَّ بكىٰ بكاءً طويلاً ، ثمَّ قالَ : واشوقاه إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وإلىٰ لقائِه ، ثمَّ قالَ : بينا أنا عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذ ركبَ وأردفني ، ثمَّ سرنا فرفعَ بصرَه إلى السَّماءِ وقالَ : « الحمدُ للهِ الَّذي يقضي في خلقِه ما يشاءُ ، يا معاذُ » .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٤٠) .
(٢) ذكره في « الإحياء » (٣/ ٢٩٥) ، وفي « بداية الهداية » (ص ٢١٧) .
(٣) هو خالد بن معدان ، كما سيذكره المصنف رحمه الله تعالىٰ في آخر الحديث .

قلتُ : لبَّيك يا سيِّدَ المرسلينَ .

قالَ : « أحدِّثُك بحديثٍ ؛ إن أنت حفظتَه . . نفعَك ، وإن ضيَّعتَه . . ٱنقطعتْ حجَّتُك عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، يا معاذُ ؛ إنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ سبعةَ أملاكٍ قبلَ أن يخلقَ السَّماواتِ والأرضَ ، لكلِّ سماءٍ ملَكٌ ، وجعلَ علىٰ كلِّ بابٍ من أبوابِ السَّماواتِ ملَكاً بوَّاباً علىٰ قدْرِ البابِ وجلالتِه .

فتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ وله نورٌ وشعاعٌ كالشَّمسِ ، حتَّىٰ إذا بلغَ السَّماءَ الدُّنيا والحفظةُ تستكثرُ عملَه وتزكِّيه ؛ فإذا ٱنتهىٰ إلى البابِ . . قالَ الملَكُ للحفظةِ : ٱضربوا بهـٰذا العملِ وجهَ صاحبِه ، أنا صاحبُ الغيبةِ ، أمرني ربِّي ألاَّ أدعَ عملَ من يغتابُ النَّاسَ يتجاوزُني إلىٰ غيري .

ثمَّ تجيءُ الحفظةُ من الغدِ معهم عملٌ صالحٌ له نورٌ ، تستكثرُه الحفظةُ وتزكِّيه ، حتَّىٰ إذا ٱنتهَوا به إلى السَّماءِ الثَّانيةِ . . قالَ الملَكُ : قفوا وٱضربوا بهـٰذا العملِ وجهَ صاحبِه ؛ فإنَّه أرادَ به عرَضَ الدُّنيا ، وأمرني ربِّي ألاَّ أدعَ عملَه يتجاوزُني إلىٰ غيري ، فتلعنُه الملائكةُ حتَّىٰ يمسيَ .

وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ مبتهجاً به ، فيه صدقةٌ وصيامٌ وكثيرٌ من البرِّ ، فتستكثرُه الحفظةُ وتزكِّيه ، فإذا ٱنتهَوا به إلى السَّماءِ الثَّالثةِ . . قالَ الملَكُ البوَّابُ : قفوا وٱضربوا بهـٰذا العملِ وجهَ صاحبِه ، أنا الملَكُ صاحبُ الكبرِ ، أمرني ربِّي ألاَّ أدعَ عملَه يتجاوزُني إلىٰ غيري ؛ إنَّه كانَ يتكبَّرُ على النَّاسِ في مجالسِهم .

وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ وهو يَزهَرُ كما تزهَرُ النُّجومُ والكوكبُ الدُّرِّيُّ ، له دويٌّ وتسبيحٌ بصومٍ وصلاةٍ وحجٍّ وعمرةٍ ، فإذا ٱنتهَوا به إلى السَّماءِ الرَّابعةِ . . قالَ الملَكُ الموكَّلُ بها : قفوا وٱضربوا بهـٰذا العملِ وجهَ صاحبِه ، أنا الملَكُ صاحبُ الإعجابِ ، أمرني ربِّي ألاَّ أدعَ عملَه يتجاوزُني إلىٰ غيري ؛ إنَّه كانَ إذا عملَ عملاً أدخلَ العُجبَ فيه .

وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ يُزَفُّ كما تُزَفُّ العروسُ إلىٰ أهلِها ، حتَّىٰ إذا ٱنتهَوا إلى السَّماءِ الخامسةِ بذلكَ العملِ الحسنِ من جهادٍ وحجٍّ ، له ضوءٌ كضوءِ

الشَّمسِ . . فيقولُ الملَكُ الموكَّلُ : أنا الملَكُ صاحبُ الحسدِ ، إنَّه كانَ يحسدُ النَّاسَ علىٰ ما آتاهم ٱللهُ من فضلِه ، فقد سخطَ ما رضيَ اللهُ ، أمرني ربِّي ألاَّ أدعَ عملَه يجاوزُني إلىٰ غيري .

وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ بوضوءٍ تامٍّ ، وصلاةٍ كثيرةٍ ، وصيامٍ وحجٍّ وعمرةٍ ، فيتجاوزونَ به إلى السَّماءِ السَّادسةِ ، فيقولُ الملَكُ الموكَّلُ بالبابِ : أنا صاحبُ الرَّحمةِ ، ٱضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبه ؛ إنَّه كانَ لا يرحمُ إنساناً قطُّ ، وإن أصيبَ عبدٌ . . شمتَ به ، أمرني ربِّي ألاَّ أدعَ عملَه يتجاوزُني إلىٰ غيري .

وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ ؛ بنفقةٍ كثيرةٍ ، وصومٍ وصلاةٍ وحجٍّ ، واجتهادٍ وورعٍ ، له صوتٌ كصوتِ الرَّعدِ ، وضوءٌ كضوءِ البرقِ ، فإذا ٱنتهَوا به إلى السَّماءِ السَّابعةِ . . يقولُ الملَكُ الموكَّلُ بالسَّماءِ : أنا صاحبُ ٱلذِّكرِ ، إنَّ صاحبَ هٰذا العملِ أرادَ به الذِّكرَ في المجالسِ ، والرِّفعةَ عندَ القرَّاءِ ، والجاهَ عندَ الكبراءِ ، أمرني ربِّي ألاَّ أدعَ عملَه يجاوزُني إلىٰ غيري ، وكلُّ عملٍ لم يكنْ للهِ تعالىٰ خالصاً فهو رياءٌ ، ولا يقبلُ ٱللهُ تعالىٰ عملَ المرائي .

وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ ؛ من صلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ ، وحجٍّ وعمرةٍ ، وخلُقٍ حسنٍ ، وصمتٍ وذكرٍ للهِ تعالى ، وتشيِّعُه ملائكةُ السَّماواتِ السَّبعِ ، حتَّىٰ تقطعَ الحجبَ كلَّها إلى اللهِ تعالى ، فيقفونَ بينَ يدَيِ الرَّبِّ جلَّ جلالُه ، ويشهدونَ له بالعملِ الصَّالحِ المخلَصِ ، فيقولُ اللهُ تعالى : أنتم الحفظةُ علىٰ عملِ عبدي ، وأنا الرَّقيبُ علىٰ ما في نفسِه ، إنَّه لم يردْني بهٰذا العملِ ولا أَخلَصَه لي ، وأنا أعلمُ بما أرادَه بعملِه ، عليه لعنتي ، غرَّ الآدميِّينَ وغرَّكم ولم يغرَّني وأنا علاَّمُ الغيوبِ ، المطَّلعُ علىٰ ما في القلوبِ ، لا تخفىٰ عليَّ خافيةٌ ، ولا تعزبُ عنِّي عازبةٌ ، علمي بما كانَ كعلمي بما لم يكنْ ، وعلمي بما مضىٰ كعلمي بما بقيَ ، وعلمي بالأوَّلينَ كعلمي بالآخرينَ ، أعلمُ السِّرَّ وأخفى ، فكيف يغرُّني عبدي بعملِه ؟! إنَّما يغرُّ المخلوقينَ الَّذينَ لا يعلمونَ ، وأنا علاَّمُ الغيوبِ ، عليه لعنتي ، وتقولُ الملائكةُ السَّبعةُ والثَّلاثةُ الآلافِ المشيِّعونَ :

يا ربَّنا ؛ عليه لعنتُك ولعنتُنا ، فيقولُ أهلُ السَّماواتِ : عليه لعنةُ ٱللهِ ولعنةُ اللاَّعنينَ » .

ثمَّ بكىٰ معاذٌ رحمَه اللهُ وٱنتحبَ ٱنتحاباً شديداً ، وقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ كيف النَّجاةُ ممَّا ذكرتَ ؟

قالَ : « يا معاذُ ؛ ٱقتدِ بنبيِّك في اليقينِ » .

قلتُ : أنت رسولُ اللهِ ، وأنا معاذُ بنُ جبلٍ ، كيف لي بالنَّجاةِ والخلاصِ ؟

قالَ : « نعمْ يا معاذُ ، إن كانَ في عملِك تقصيرٌ . . فاقطعْ لسانَك عن الوقيعةِ في النَّاسِ ، وعن إخوانِك من حملةِ القرآنِ خاصَّةً ، وليردَّك عن الوقيعةِ في النَّاسِ ما تعلمُه من عيبِ نفسِك ، ولا تزكِّ نفسَك بذمِّ إخوانِك ، ولا ترفعْ نفسَك بوضعِ إخوانِك ، ولا تراءِ بعملِك كي تُعرَفَ في النَّاسِ ، ولا تدخلْ في الدُّنيا دخولاً ينسيك أمرَ الآخرةِ ، ولا تناجِ رجلاً وعندَك آخرُ ، ولا تتعظَّمْ على النَّاسِ فتنقطعَ عنك خيراتُ الدُّنيا والآخرةِ ، ولا تفحشْ في مجلسِك حتَّىٰ يحذروك من سوءِ خلقِك ، ولا تمزِّقِ النَّاسَ بلسانِك فتمزِّقَك كلابُ جهنَّمَ ، وهو قولُه تعالى : ﴿ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴾ ـ يقولُ ـ تنزعُ ٱللَّحمَ عن العظامِ » .

قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ومن يطيقُ هٰذه الخصالَ ؟

قالَ : « يا معاذُ ؛ إنَّ الَّذي وصفتُ لك ليسيرٌ علىٰ من يسَّرَه ٱللهُ تعالىٰ عليه ، إنَّما يكفيك من ذلك أن تحبَّ للنَّاسِ ما تحبُّ لنفسِك ، وتكرهَ لهم ما تكرهُ لنفسِك ، فإذنْ أنت قد سلمتَ » .

قالَ خالدُ بنُ معدانَ : وكانَ معاذٌ لا يكثرُ من تلاوةِ القرآنِ كما يكثرُ من تلاوةِ هٰذا الحديثِ وذكرِه في مجلسِه[1] .

---

(١) أخرجه بطوله ابن الجوزي في « الموضوعات » (٢/٣٣٩) ، وابن حبان في « المجروحين » (٢/٢١٧) من غير طريق ابن المبارك عن معاذ رضي الله تعالى عنه ، وأخرج ابن المبارك في « الزهد » (٤٥٢) بعضه عن ضمرة بن حبيب بن صهيب ـ رحمه الله تعالى ـ مرسلاً ، وانظر « عجالة الإملاء » لبرهان الدين الناجي (ص ٣٥) .

ولمَّا سمعتَ أيُّها الرَّجلُ بهـٰذا الحديثِ العظيمِ نبؤُه ، الكبيرِ خطرُه ، الأليمِ أثرُه ، الَّذي تطيرُ له القلوبُ ، وتَحَيَّرُ له العقولُ ، وتضيقُ عن حملِه الصُّدورُ ، وتجزعُ من هولِه النُّفوسُ . . فاعتصمْ بمولاكَ إلهِ العالمينَ ، والزمِ البابَ بالتَّضرُّعِ والابتهالِ والبكاءِ آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ مع المتضرِّعينَ المبتهلينَ ؛ فإنَّه لا نجاةَ من هـٰذا الأمرِ إلاَّ برحمتِه ، ولا سلامةَ من هـٰذا البحرِ إلاَّ بنظرِه وتوفيقِه وعنايتِه ، فتنبَّهْ من رَقدةِ الغافلينَ ، واعقلِ الأمرَ حقَّه ، وجاهدْ نفسَك في هـٰذه العقبةِ المخوفةِ لعلَّك لا تهلكُ مع الهالكينَ ، والمستعانُ باللهِ تعالىٰ علىٰ كلِّ حالٍ ، فإنَّه خيرُ معينٍ ، وهو تعالىٰ أرحمُ الرَّاحمينَ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيمِ .

فصل

[في بيان ما يصرف الإنسان عن الالتفات إلى الخَلق والنفس]

وجملةُ الأمرِ : أنَّك إذا أحسنتَ النَّظرَ ، فرأيتَ قدْرَ طاعةِ ٱللهِ تعالى ، ورأيتَ عجزَ الخلقِ وضعفَهم وجهلَهم . . فلا تلتفتْ إليهم بقلبِك ، وكنْ زاهداً في ثنائِهم ومدحِهم وتعظيمِهم الَّذي لا فائدةَ تحتَه ، فلا تُردْ بطاعتِك شيئاً من ذلك .

وإذا رأيتَ خسَّةَ الدُّنيا وحقارتَها وسرعةَ زوالِها . . فلا تُردْها أيضاً بطاعتِك من اللهِ تعالى ، وقلْ : يا نفسُ ؛ أثَناءُ ربِّ العالمينَ وشكرُه وإعزازُه خيرٌ أم ثناءُ المخلوقينَ العاجزينَ الجاهلينَ ، الَّذينَ لا يعرفونَ قدْرَ عملِكِ بالحقيقةِ ، وما تحمَّلتِ فيه ، وما يبلغونَ حقَّكِ فيما عملتِ وتحمَّلتِ ؟ بل ربَّما يفضِّلونَ عليكِ من هو أدونُ حالاً منكِ بألفِ درجةٍ ، ويضيِّعونَكِ في أحوجِ الأوقاتِ وينسونَكِ ، وإن لم يفعلوا ذلك . . فماذا عسىٰ أن يكونَ بأيديهم ؟ وإلىٰ ماذا تبلغُ قدرتُهم ؟ ثمَّ هُم في قبضةِ ٱللهِ تعالىٰ يصرِّفُهم كيف يشاءُ ، وإلىٰ ما يشاءُ ، فاعقلي أيَّتُها النَّفسُ ولا تضيِّعي طاعتَكِ العزيزةَ بهم ، ولا يفوتُكِ ثناءُ من ثناؤُه كلُّ فخرٍ ، وعطاءُ من عطاؤُه كلُّ ذخرٍ ، ولقد صدقَ القائلُ : [من الكامل]

سهرُ العيونِ لغيرِ وجهِك باطلٌ وبكاؤُهنَّ لغيرِ قطعِك ضائعُ

وقلْ : يا نفسُ ؛ أجَنَّةُ الخلدِ خيرٌ أم لطخةٌ من حرامِ الدُّنيا وحطامِها النَّكدِ الفاني وأنتِ متمكِّنةٌ من أن يحصلَ لك بطاعتِك هـٰذا النَّعيمُ المقيمُ ؟ فلا تكوني خسيسةَ الهمَّةِ ، رديئةَ الإرادةِ ، دنيئةَ الأفعالِ ، أمَا ترينَ الحَمَامَ إذا كانَ سماويّاً كيف تغلو قيمتُه[1] ، ويزدادُ قدْرُه ؟ فارفعي همَّتَكِ كلَّها إلى السَّماءِ ، وجرِّدي قلبَكِ للهِ تعالى الواحدِ ، الَّذي بيدِه الأمرُ كلُّه ، ولا تضيِّعي ما ظفرتِ به من طاعتِكِ بلا شيءٍ .

وكذلكَ إذا أحسنتِ التَّأمُّلَ ، فرأيتِ أياديَ اللهِ تعالىٰ ومننَه العظامَ عليكِ في هـٰذه الطَّاعةِ ؛ بأن أمكنَكِ منها ، وأعطاكِ الآلةَ أوّلاً ، ثمَّ أزاحَ عنكِ العوائقَ حتَّىٰ تفرَّغتِ لهـٰذه الطَّاعةِ ثانياً ، ثمَّ خصَّكِ بالتَّوفيقِ والتَّأييدِ ، ويسَّرَها عليكِ ، وزيَّنَها في قلبِكِ حتَّىٰ عملتِها ثالثاً ، ثمَّ مع جلالِه وعظمتِه ، واستغنائِه عنكِ وعن طاعتِكِ ، وكثرةِ نعمِه عليكِ أعدَّ لك علىٰ هـٰذا العملِ اليسيرِ الثَّناءَ الجزيلَ ، والثَّوابَ العظيمَ الَّذي لا تستحقِّينَه رابعاً ، ثمَّ شكرَكِ علىٰ ذلك ، وأثنىٰ عليكِ ، وأحبَّكِ بذلكَ خامساً . . فهـٰذه كلُّها بفضلِه العظيمِ لا غيرُ ، وإلاَّ . . فأيُّ ٱستحقاقٍ لكِ ؟! وأيُّ قدْرٍ لعملِكِ الحقيرِ المعيوبِ ؟!

فٱذكري أيَّتُها النَّفسُ منَّةَ ربِّكِ الكريمِ الرَّحيمِ سبحانَه فيما أحسنَ إليكِ في هـٰذه الطَّاعةِ ، وٱستحيي من أن تلتفتي إلىٰ عملٍ ، بل الفضلُ والمنَّةُ للهِ تعالىٰ عليكِ وعلينا بكلِّ حالٍ ، ولا يكونُ لكِ شغلٌ بعدَ حصولِ هـٰذه الطَّاعةِ إلاَّ التَّضرُّعَ والابتهالَ إلى اللهِ سبحانَه وتعالىٰ بأن يتقبَّلَها ، أمَا تسمعينَ قولَ خليلِه إبراهيمَ عليه السَّلامُ لمَّا فرغَ من خدمتِه في بناءِ بيتِه كيف ٱبتهلَ إلى اللهِ تعالىٰ في أن يتفضَّلَ عليه بالقبولِ فقالَ : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ، ولمَّا فرغَ من دعائِه قالَ : ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ ؟

فلئن منَّ عليكِ بقبولِ هـٰذه البضاعةِ المزجاةِ . . فلقد أكملَ المنَّةَ ، وأعظمَ النِّعمةَ ، فيا لها من سعادةٍ ودولةٍ ، وعزٍّ ورفعةٍ ، وكم ترينَ في ذلك من خِلعةٍ

---

(١) الحمام السماوي : المرتفع في الطيران ، السريع فيه .

ونعمةٍ ، وذخرٍ وكرامةٍ ، وإن تكنِ الأخرى . . فيا له من خسرانٍ وغبنٍ وحرمانٍ ، فاهتمِّي وٱشتغلي بهـٰذا الشَّأنِ .

فإذا واظبتَ علىٰ مثلِ هـٰذا وكرَّرتَه علىٰ قلبِك عندَ الفراغِ من طاعتِك ، وٱستعنتَ باللهِ عزَّ وجلَّ . . صرفَكَ عن الالتفاتِ إلى الخلقِ والنَّفسِ ، وشغلَكَ عن مراءاةٍ وإعجابٍ ، وبعثَك علىٰ محضِ الإخلاصِ للهِ تعالىٰ في الطَّاعاتِ ، والتَّمسُّكِ بذكرِ منَّةِ اللهِ تعالىٰ عليكَ في جميعِ الحالاتِ ، ويحصلُ لك أرجىٰ طاعاتٍ طاهرةٍ لا عيبَ فيها ، وخيراتٍ خالصةٍ لا شوبَ فيها ، وعباداتٍ مقبولةٍ لا نقصَ فيها ، بل مثلُ هـٰذه الطَّاعةِ وإن حصلتْ في العمرِ مثلاً مرَّةً واحدةً لا غيرُ . . فإنَّها بالحقيقةِ لكثيرةٌ ، ولعمري ؛ إنَّها وإن قلَّ عددُها . . لقد كثُرَ معناها ، وعظُمَ قدرُها ، وكثُرَ نفعُها ، وطابتْ عقباها ، وإنَّ التَّوفيقَ لمثلِها لعزيزٌ ، والفضلَ به للهِ تعالىٰ على العبدِ لكثيرٌ ، فأيُّ هديَّةٍ أجلُّ من هديَّةٍ يقبلُها ربُّ العالمينَ ؟! وأيُّ سعيٍ أكرمُ من سعيٍ يشكرُه ويثني عليه ربُّ العالمينَ ؟! وأيُّ بضاعةٍ أعزُّ من بضاعةٍ ٱختارَها ورضيَها ربُّ العالمينَ ؟!

فتأمَّلْ أيُّها المسكينُ ، وإيَّاكَ أن تكونَ من المغبونينَ ، وإذا جرى الأمرُ علىٰ هـٰذه الجملةِ . . كنتَ من المخلصينَ للهِ تعالى الخالصينَ ، الذَّاكرينَ لمنِّه المرضيِّينَ ، وكنتَ قد خلَّفتَ هـٰذه العقبةَ المخوفةَ وراءَك ، وسلمتَ من آفاتِها ، وسبقتَ بخيراتِها وثمراتِها فائزاً على الأبدِ بكراماتِها وسعاداتِها ، واللهُ سبحانَه وليُّ التَّوفيقِ والعصمةِ بمنِّهِ وكرمِه ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيمِ .

* * *

العقبةُ السَّابعةُ
وهي عقبةُ الحمدِ والشُّكرِ

ثمَّ عليكَ ـ وفَّقَك اللهُ وإيَّانا بحسنِ توفيقِه ـ بعدَ قطعِ هـٰذه العقباتِ ، والظَّفرِ بالمقصودِ من هـٰذه العباداتِ السَّالمةِ من الآفاتِ بالحمدِ والشُّكرِ للهِ سبحانَه وتعالىٰ علىٰ هـٰذه النِّعمةِ العظيمةِ ، والمنَّةِ الكريمةِ ، وإنَّما يلزمُكَ ذلك لأمرينِ :

أحدُهما : لدوامِ النِّعمةِ .

والثَّاني : لحصولِ الزِّيادةِ .

فأمَّا دوامُ النِّعمةِ : فلأنَّ الشُّكرَ قيدُ النِّعمةِ ، به تدومُ وتبقى ، وبتركِه تزولُ وتحولُ ، قالَ اللهُ سبحانَه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ .

وقالَ جلَّ من قائلٍ : ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ .

وقالَ سبحانَه : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ .

وقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : « إنَّ للنِّعمِ أوابدَ كأوابدِ الوحشِ ، فقيِّدوها بالشُّكرِ »[1] .

وأمَّا حصولُ الزِّيادةِ : فلمَّا كانَ الشُّكرُ هو قيدَ النِّعمةِ . . فهو ثمنُ الزِّيادةِ ،

(١) أخرج البيهقي في « الشعب » (٤٢٢٦) ، وابن أبي الدنيا في « الشكر » (٢٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٤٠) عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال : « قيدوا النعم بالشكر » ، وانظر « كشف الخفاء » (٢/ ١٠٤) .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ ، ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ الآية ، ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .

فالسَّيِّدُ الحكيمُ إذا رأى العبدَ قد قامَ بحقِّ نعمةٍ . . يمنُّ عليه بأخرى ، ويراه أهلاً لها ، وإلاَّ . . فيقطعُ ذلك عنه .

ثمَّ النِّعمُ قسمانِ : دنيويَّةٌ ، ودينيَّةٌ .

فالدُّنيويَّةُ ضربانِ : نعمةُ نفعٍ ، ونعمةُ دفعٍ .

فنعمةُ النَّفعِ : أنْ أعطاك المصالحَ والمنافعَ ، وهي ضربانِ :

ـ الخِلقةُ السَّويَّةُ في سلامتِها وعافيتِها .

ـ والملاذُّ الشَّهيَّةُ من المطعمِ والمشربِ والملبسِ والمنكحِ وغيرِها من فوائدِها .

ونعمةُ الدَّفعِ : أنْ صرفَ عنك المفاسدَ والمضارَّ ، وهي ضربانِ :

أحدُهما : في النَّفسِ ؛ بأنْ سلَّمك من زمانتِها وسائرِ آفاتِها وعللِها .

والثَّاني : دفعُ ما يلحقُك به من ضررٍ من أنواعِ العوائقِ ، أو يقصدُك بسوءٍ من إنسٍ أو جنٍّ ، أو سباعٍ أو هوامَّ أو نحوِها .

وأمَّا النِّعمُ الدِّينيَّةُ فضربانِ : نعمةُ التَّوفيقِ ، ونعمةُ العصمةِ .

فنعمةُ التَّوفيقِ : أنْ وفَّقَك اللهُ أوَّلاً للإسلامِ ، ثمَّ للسُّنَّةِ ، ثمَّ للطَّاعةِ .

ونعمةُ العصمةِ : أنْ عصمَك أوَّلاً عن الكفرِ والشِّركِ ، ثمَّ عن البدعةِ والضَّلالةِ ، ثمَّ سائرِ المعاصي .

وتفصيلُ ذلك لا يحصيه إلاَّ السَّيِّدُ العالمُ الَّذي أنعمَ عليكَ ، كما قالَ جلَّ وعلا : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ .

وإنَّ دوامَ هـٰذه النِّعمِ كلِّها بعدَ أنْ منَّ عليكَ بها ، والزِّيادةَ عليها من كلِّ بابٍ منها ممَّا لا يحصيه ولا يبلغُه وهمُك . . كلُّها متعلِّقٌ بشيءٍ واحدٍ ، وهو الشُّكرُ

والحمدُ للهِ ، وإنَّ خصلةً تكونُ لها كلُّ هـٰذه القيمةِ ، وتكونُ فيها كلُّ هـٰذه الفائدةِ لحقيقٌ أن يُتمسَّكَ بها من غيرِ إغفالٍ بحالٍ ؛ فإنَّه جوهرٌ ثمينٌ ، وكيمياءٌ عزيزةٌ ، وٱللهُ وليُّ التَّوفيقِ بفضلِه ورحمتِه .

فإن قيلَ : فما حقيقةُ الحمدِ والشُّكرِ ؟ وما معناهما وحكمُهما ؟

فاعلمْ : أنَّ العلماءَ فرَّقوا بينَ الحمدِ والشُّكرِ عندَ التَّحصيلِ ؛ بأنَّ الحمدَ من أشكالِ التَّسبيحِ والتَّهليلِ ، فيكونُ من المساعي الظَّاهرةِ ، والشُّكرَ من أشكالِ الصَّبرِ والتَّفويضِ ، فيكونُ من المساعي الباطنةِ .

ولأنَّ الشُّكرَ يقابلُ الكفرانَ ، والحمدَ يقابلُ اللَّومَ ، ولأنَّ الحمدَ أعمُّ وأكثرُ ، والشُّكرَ أقلُّ وأخصُّ . قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ .

فثبتَ أنَّهما معنيانِ متميِّزانِ .

ثمَّ الحمدُ هو : الثَّناءُ علىٰ أحدٍ بالفعلِ الحسنِ ، هـٰذا مقتضىٰ كلامِ شيخِنا رحمَه اللهُ تعالى .

وأمَّا الشُّكرُ : فتكلَّموا في معناه وأكثروا .

فعنِ ٱبنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما أنَّه قالَ : (الشُّكرُ : هو الطَّاعةُ بجميعِ الجوارحِ لربِّ الخلائقِ في السِّرِّ والعلانيةِ) .

وإلىٰ نحوِه ذهبَ بعضُ مشايخِنا فقالَ : الشُّكرُ : هو أداءُ الطَّاعاتِ في الظَّاهرِ والباطنِ ، ثمَّ رجعَ إلىٰ أنَّه ٱجتنابُ المعاصي ظاهراً وباطناً .

وقالَ غيرُه : الشُّكرُ : الاحتراسُ عن ٱختيارِ معاصي اللهِ تعالى ، تحترسُ علىٰ قلبِك ولسانِك وأركانِك حتَّىٰ لا تعصيَ اللهَ تعالىٰ بشيءٍ من هـٰذه الثَّلاثةِ بوجهٍ من الوجوهِ .

والفرقُ بينَ قولِه وبينَ قولِ الشَّيخِ الأوَّلِ : أنَّه رحمَه اللهُ جعلَ الاحتراسَ معنًى مثبتاً زائداً على الاجتنابِ عن المعاصي ، وأمَّا الاجتنابُ عن المعصيةِ ما هو إلاَّ ألاَّ يفعلَ المعصيةَ عندَ دواعيها ، ولا يكونَ في نفسِه معنًى محصَّلاً يكونُ العبدُ به مشتغلاً ، وعن الكفرانِ معتصماً .

وقالَ شيخُنا رحمَه اللهُ تعالى : إنَّ الشُّكرَ : تعظيمُ المنعمِ علىٰ مقابلةِ نعمتِه علىٰ حدٍّ يمنعُه عن جفاءِ المنعمِ وكفرانِه ، ولو قلتَ : تعظيمُ المحسنِ علىٰ مقابلةِ إحسانِه ؛ ليصحَّ أن يكونَ من اللهِ تعالى الشُّكرُ للعبدِ . . فحسنٌ .

وفيه تفاصيلُ قد شرحناها في كتابِ « إحياءِ علومِ الدِّينِ » وغيرِه ، ولـٰكنَّ التَّحصيلَ : أنَّ الشُّكرَ من العبدِ تعظيمٌ يمنعُ من جفاءِ من أحسنَ إليه ، وذلك بتذكُّرِ إحسانِه وحسنِ حالِ الشَّاكرِ في شكرِه ، وقبحِ حالِ الكافرِ في كفرانِه .

قلتُ : إنَّ أقلَّ ما يستوجبُه المنعمُ بنعمتِه ألاَّ يُتوصَّلَ بها إلىٰ معصيةٍ ، وما أقبحَ حالَ من جعلَ نعمةَ المنعمِ سلاحاً علىٰ عصيانِه !

فعلى العبدِ إذنْ من فرضِ الشُّكرِ في حقيقتِه أن يكونَ له من تعظيمِ اللهِ سبحانَه ما يحولُ بينَه وبينَ معاصيه علىٰ حسبِ تذكُّرِ نعمِه ، فإذا أتىٰ بذلكَ . . فقد أتىٰ بما هو الأصلُ فيه ، ثمَّ يقابلُ ذلك بجدٍّ في الطَّاعةِ ، وجهدٍ في القيامِ بالخدمةِ ؛ إذ هو من حقوقِ النِّعمةِ ، فلا بدَّ من الاحتراسِ عن المعصيةِ ، وباللهِ التَّوفيقُ .

فإن قلتَ : فما موضعُ الشُّكرِ ؟

فاعلمْ : أنَّ موضعَه النِّعمُ الدِّينيَّةُ والدُّنيويَّةُ علىٰ أقدارِهما .

وأمَّا الشَّدائدُ والمصائبُ في الدُّنيا ؛ في نفسٍ أو أهلٍ أو مالٍ : فتكلَّموا في ذلك هل يلزمُ العبدَ الشُّكرُ عليها ؟

قالَ بعضُهم : لا يلزمُ العبدَ الشُّكرُ عليها من حيثُ هيَ ، وإنَّما يجبُ فيها الصَّبرُ ، وأمَّا الشُّكرُ : فهو على النِّعمةِ لا غيرُ ، قالوا : ولا شدَّةَ إلاَّ وفي جنبِها نعمُ اللهِ تعالى ، فيلزمُ الشُّكرُ علىٰ تلكَ النِّعمِ المقترنةِ بها دونَ نفسِ الشِّدَّةِ ، وتلكَ النِّعمُ ما قالَه ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : (ما ٱبتليتُ ببليَّةٍ إلاَّ كانَ للهِ تعالىٰ عليَّ فيها أربعُ نعمٍ : إذ لم تكنْ في ديني ، وإذ لم تكنْ أعظمَ ، وإذ لم أُحرَمِ الرِّضا بها ، وإذ رجوتُ الثَّوابَ عليها) .

وقد قيلَ أيضاً : من تلكَ النِّعمِ : أنَّ تلكَ الشِّدَّةَ زائلةٌ غيرُ دائمةٍ ، وأنَّها

من اللهِ تعالىٰ دونَ غيرِه ، وإن كانتْ بسببِ مخلوقٍ . . فإنَّها لك عليه لا له عليكَ .

فإذنْ يلزمُ العبدَ الشُّكرُ على النِّعمِ المقترنةِ بالشِّدَّةِ .

وقالَ آخرونَ ـ وهو الأولىٰ عندَ شيخِنا رحمَه اللهُ تعالى ـ : إنَّ شدائدَ الدُّنيا ممَّا يلزمُ العبدَ الشُّكرُ عليها ؛ لأنَّ تلكَ الشَّدائدَ نعمٌ بالحقيقةِ ، بدليلِ أنَّها تعرِّضُ العبدَ لمنافعَ عظيمةٍ ، ومثوباتٍ جزيلةٍ ، وأعواضٍ كريمةٍ في العاقبةِ ، تتلاشىٰ في جنبِها مشقَّةُ هـٰذه الشَّدائدِ ، وأيُّ نعمةٍ تكونُ أكبرَ من هـٰذه ؟!

ومثالُ ذلك : من يسقيك دواءً كريهاً مرّاً لداءٍ شديدٍ ، أو يفصدُك أو يحجمُك لعلَّةٍ عظيمةٍ مخوفةِ الخطرِ ، فيؤدِّي ذلك إلىٰ صحَّةِ النَّفْسِ ، وسلامةِ البدنِ ، وصفوةِ العيشِ . . فيكونُ إيلامُه إيَّاك بمرارةِ الدَّواءِ ، أو جراحةِ الفصدِ والحجامةِ نعمةً بالغةً بالحقيقةِ ، ومنَّةً ظاهرةً ، وإن كانَ في صورتِه مكروهاً ، ينفرُ عنه الطَّبعُ ، وتستوحشُ منه النَّفسُ ، وأنت تحمدُ الَّذي تولَّىٰ منك هـٰذا ، بل تحسنُ إليه ما أمكنَك .

فكذلكَ حكمُ هـٰذه الشَّدائدِ ، أمَا ترىٰ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كيف حمدَ اللهَ تعالىٰ وشكرَه على الشَّدائدِ شكرَه على المَسارِّ حيثُ قالَ : « الحمدُ للهِ علىٰ ما ساءَ وسرَّ » ؟

أمَا ترىٰ كيف يقولُ جلَّ جلالُه : ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ ؟ وما سمَّاه اللهُ تعالىٰ خيراً فهو أكثرُ ممَّا يبلغُه وهمُك ، يؤكِّدُ هـٰذا القولَ أنَّ النِّعمةَ ليستْ خبراً عن اللَّذَّةِ وما تشتهيه النَّفسُ بمقتضى الطَّبعِ ، وإنَّما هو ما يزيدُ في رفعةِ الدَّرجةِ ، ولذلكَ تُسمَّىٰ نعمةً في معنى الزِّيادةِ ، وإذا كانتِ الشِّدَّةُ ممَّا تصيرُ سبباً في زيادةِ شرفِ العبدِ ورفعةِ درجتِه . . فتكونُ نعماً بالحقيقةِ وإن كانتْ تُعَدُّ في الشَّدائدِ والمحنِ بظاهرِها ، فاعلمْ ذلك موفَّقاً .

فإن قلتَ : فالشَّاكرُ أفضلُ أمِ الصَّابرُ ؟

فاعلمْ : أنَّه قيلَ : إنَّ الشَّاكرَ أفضلُ ، بدليلِ قولِه تعالى : ﴿ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ ، فجعلَهم أخصَّ الخواصِّ .

وقالَ في نوحٍ عليه السَّلامُ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ .

وقالَ في إبراهيمَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ .

ولأنَّه في منزلةِ الإنعامِ والعافيةِ ، ولذلكَ قيل : لأَنْ أُنعَمَ فأَشكُرَ أحبُّ إليَّ من أن أُبتلىٰ فأَصبرَ .

وقيلَ : بل الصَّابرُ أفضلُ ؛ لأنَّه أعظمُ مشقَّةً ، فيكونُ أعظمَ ثواباً وأرفعَ منزلةً ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾ .

وقالَ : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وقالَ تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

قلتُ أنا : الشَّاكرُ بالحقيقةِ لا يكونُ إلاَّ صابراً ، والصَّابرُ بالحقيقةِ لا يكونُ إلاَّ شاكراً ؛ لأنَّ الشَّاكرَ في دارِ المحنةِ لا يخلو من محنةٍ يصبرُ عليها لا محالةَ ولا يجزعُ ؛ فإنَّ الشُّكرَ تعظيمُ المنعمِ علىٰ حدٍّ يمنعُ من عصيانِه ، والجزعُ عصيانٌ ، والصَّابرُ لا يخلو من نعمةٍ ، كما ذكرنا أنَّ الشَّدائدَ نِعمٌ بالحقيقةِ على المعنى المتقدِّمِ ، فإنَّه شكرَ بالحقيقةِ إذ صبرَ ؛ لأنَّه حبسَ نفسَه عن الجزعِ تعظيماً للهِ تعالى ، وهٰذا هو الشُّكرُ بعينِه ؛ إذ هو تعظيمٌ يمنعُ عن العصيانِ .

ولأنَّ الشَّاكرَ يمنعُ نفسَه عن الكفرانِ فصبرَ عن المعصيةِ ، وحملَ نفسَه على الشُّكرِ ، وصبرَ على الطَّاعةِ ، فصارَ صابراً على الحقيقةِ ، والصَّابرُ عظَّمَ اللهَ تعالى ، حتَّىٰ منعَه تعظيمُه عن الجزعِ فيما أصابَه ، وحملَه على الصَّبرِ ، فقد شكرَ اللهَ تعالى ، فصارَ شاكراً بالحقيقةِ .

ولأنَّ حبسَ النَّفسِ عن الكفرانِ مع قصدِ النَّفسِ له شدَّةٌ يصبرُ عليها الشَّاكرُ ، وتوفيقُ الصَّبرِ والعصمةِ نعمةٌ يشكرُ عليها الصَّابرُ ، فأحدُهما لا ينفكُّ عن الآخرِ ؛ لأنَّ البصيرةَ الباعثةَ عليهما واحدةٌ ، وهي بصيرةُ الاستقامةِ في قولِ بعضِ علمائِنا ، فمن هٰذه الوجوهِ قلنا : إنَّ أحدَهما لا ينفكُّ عن الآخرِ ، فاعرفْ هٰذه الجملةَ ، وباللهِ التَّوفيقُ .

فَصْلٌ

[في بيان أصول الحمد والشكر]

فعليكَ - أيُّها الرَّجلُ - ببذلِ المجهودِ في قطعِ هـٰذه العقبةِ اليسيرةِ المؤنةِ ، الكبيرةِ الجدوى ، العزيزةِ العنصرِ ، العظيمةِ القدْرِ ، وتأمَّلْ أصلينِ :

أحدُهما : أنَّ النِّعمةَ إنَّما تُعطىٰ من يعرفُ قدْرَها ، وإنَّما يعرفُ قدْرَها الشَّاكرُ .

ودليلُ ما قلناه : قولُه سبحانَه في الحكايةِ عن الكفَّارِ والرَّدِّ عليهم : ﴿ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ ، ظنَّ أولئكَ الجهَّالُ : أنَّ النِّعمةَ العظيمةَ والمنَّةَ الكريمةَ إنَّما تُعطىٰ من يكونُ أكثرَهم مالاً ، وأشرفَهم حسباً ونسباً ، فقالوا : ما بالُ هؤلاءِ الفقراءِ - بزعمِهم - من العبيدِ والأحرارِ أُعطوا هـٰذه النِّعمةَ العظيمةَ - بزعمِكم - دونَنا ؟ فقالوا علىٰ طريقِ الاستكبارِ ومجرى الاستهزاءِ : ﴿ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ ، فأجابَهم اللهُ تعالىٰ بهـٰذه النُّكتةِ الزَّاهرةِ فقالَ : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ .

تقديرُ الكلامِ : أنَّ السَّيِّدَ الكريمَ إنَّما يعطي نعمتَه من يعرفُ قدرَها ، وإنَّما يعرفُ قدرَها من أقبلَ عليها بنفسِه وقلبِه فاختارَها علىٰ غيرِها ، ولا يعبأُ بما تحمَّلَ من أعباءِ المؤنةِ في تحصيلِها ، ثمَّ لا يزالُ قائماً بالبابِ يؤدِّي شكرَها ، وكانَ في عِلمِنا السَّابقِ أنَّ هؤلاءِ الضُّعفاءَ يعرفونَ قدرَ هـٰذه النِّعمةِ ويقومونَ بشكرِها ، فكانوا أولىٰ بهـٰذه النِّعمةِ منكم ، فلا اعتبارَ بغناكم وثروتِكم ، ولا جاهِكم في الدُّنيا ولا حشَمِكم ، ولا نسبِكم في الأنسابِ ولا حسبِكم ، إنَّما تحسبونَ النِّعمةَ كلَّها الدُّنيا وحطامَها ، والحسبَ والنَّسبَ وعلوَّه ، لا الدِّينَ والعلمَ والحقَّ ومعرفتَه ، وإنَّما تعظِّمونَ ذلك وتتفاخرونَ به ، أمَا ترونَ أنَّكم لا تكادونَ تَقبَلونَ هـٰذا الدِّينَ والعلمَ والحقَّ إلاَّ بمنَّةٍ علىٰ من أتاكم به ، وذلك لاستحقارِكم ذلك ، وقلَّةِ مبالاتِكم به ؟ وإنَّ هؤلاءِ الضُّعفاءَ يقتلونَ أنفسَهم علىٰ ذلك ، ويبذلونَ مهجَهم فيه ، ولا يبالونَ بما فاتَهم وبمن عاداهم مع ذلك ؛

لتعلموا أنَّهم هم الَّذينَ عرفوا قدرَ هٰذه النِّعمةِ ، ورسخَ في قلوبِهم تعظيمُها ، وهانَ عليهم فوتُ كلِّ شيءٍ دونَها ، فطابَ لهم ٱحتمالُ كلِّ شدَّةٍ دونَها ، يستغرقونَ جميعَ العمرِ في شكرِها ، فلذلكَ ٱستأهلوا هٰذه المنَّةَ الكريمةَ والنِّعمةَ العظيمةَ في سابقِ علمِنا ، وخصصناهم بها دونَكم ، فهٰذه هٰذه .

ثمَّ أقولُ : وكذلكَ كلُّ فريقٍ من النَّاسِ خصَّهم اللهُ تعالىٰ بنعمةٍ من نعمِ ٱلدِّينِ من علمٍ أو عملٍ . . فإنَّك تجدُهم بالحقيقةِ أعرفَ النَّاسِ بقدرِها ، وأشدَّهم تعظيماً لها ، وأجدَّهم في تحصيلِها ، وأعظمَهم في إكرامِها ، وأقومَهم بشكرِها ، والَّذينَ حرمَهم اللهُ ذلك فلقلَّةِ ٱحتفالِهم وتعظيمِهم لحقِّها بعدَ القدْرِ السَّابقِ .

فلو كانَ تعظيمُ العلمِ والعبادةِ في قلوبِ السُّوقةِ والعامَّةِ مثلَ ما هو في قلوبِ العلماءِ والمتعبِّدينَ . . لمَا آثروا سوقَهم عليه ، وهانَ عليهم تركُه ، ألا ترىٰ أنَّ فقيهاً إذا ظفرَ بتعليمِ مسألةٍ كانتْ ملتبسةً عليه . . كيف يرتاحُ قلبُه ، ويعظمُ سرورُه ، ويجلُّ موقعُها من قلبه ؟ حتَّىٰ ربَّما لو وجدَ ألفَ ألفِ دينارٍ . . ما كانَ يعدلُ ذلك ، وربَّما يهمُّه أمرُ مسألةٍ في بابِ الدِّينِ فيتفكَّرُ فيها سنةً ، بل عشراً ، بل عشرينَ وأكثرَ ، لا يستكثرُ ذلك ولا يملُّ ، حتَّىٰ ربَّما يرزقُه اللهُ تعالىٰ فهمَ ذلك فيعدُّه أعظمَ منَّةٍ ، وأكبرَ نعمةٍ ، ويرىٰ نفسَه بذلكَ أغنىٰ كلِّ غنيٍّ ، وأشرفَ كلِّ شريفٍ ، بل ربَّما يتبيَّنُ مثلُ هٰذه المسألةِ لسوقيٍّ أو متعلِّمٍ كسلانَ يرىٰ من نفسِه أنَّه مثلُه في الرَّغبةِ في العلمِ والمحبَّةِ له فلا يستمعُ إليه حقَّه ، وربَّما إن طالَ عليه الكلامُ يملُّ وينامُ ، وإن تبيَّنَ ذلك له . . فلا يعدُّه كبيرَ أمرٍ .

وكذلكَ المنيبُ إلى اللهِ تعالى ، كم يجتهدُ ويدأبُ بالرِّياضةِ وصيانةِ النَّفسِ عن الشَّهواتِ واللَّذَّاتِ ، وإلجامِ الأركانِ في الحركاتِ والسَّكنات ، عسىٰ أن يتمِّمَ اللهُ تعالىٰ له ركعتينِ في آدابٍ وطهارةٍ ، وكم يتضرَّعُ إلى اللهِ تعالىٰ عسىٰ أن يرزقَه ساعةَ مناجاةٍ بصفوةٍ وحلاوةٍ ، فلئن ظفرَ بذلكَ في شهرٍ مرَّةً ، بل في سنةٍ مرَّةً ، بل في العمرِ كلِّه مرَّةً . . عدَّ ذلك أكبرَ منَّةٍ ، وأعظمَ نعمةٍ ، فكم يُسَرُّ ، وكم يشكرُ اللهَ تعالىٰ ولا يكترثُ بما قاساه من المشقَّاتِ ، وكابدَ من اللَّيالي ، وهجرَ من اللَّذَّاتِ فيها .

ثمَّ ترى الَّذي يزعمُ أنَّه راغبٌ في العبادةِ يحبُّ أن يحصِّلَ منها شيئاً : لو ٱحتاجَ أحدُهم في تحصيلِ مثلِ هـٰذه العبادةِ الصَّافيةِ إلىٰ نقصانِ لقمةٍ من عَشائِهم ، أو تركِ كلمةٍ لا تعنيهم ، أو دفع نومِ ساعةٍ عن أعينِهم . . فلا تسمحُ أنفسُهم بذلكَ ، ولا تطيبُ قلوبُهم ، وإن ٱتَّفقَ لهم في النَّادرِ حصولُ عبادةٍ في صفوةٍ . . فلا يعدُّونَه خطيرَ أمرٍ ، ولا يقدِّمونَ فيه كثيرَ شكرٍ ، إنَّما يعظمُ سرورُهم ، ويكثرُ بالظَّاهرِ حمدُهم إذا حصلَ لهم درهمٌ ، أو ٱستقامتْ لهم كسرةٌ ، أو طابتْ لهم مَرَقةٌ ، أو طالتْ لهم في سلامةِ البدنِ رَقدةٌ ، فيقولونَ عندَ ذلك : الحمدُ للهِ ، هـٰذا من فضلِ اللهِ ، فأنَّىٰ يُساوىٰ هؤلاءِ الغافلونَ العاجزونَ مع أولئكَ السُّعداءِ المجدِّينَ المجتهدينَ ؟! ولذلكَ صارَ هؤلاءِ المساكينُ عن هـٰذا الخيرِ محرومينَ ، وأولئكَ المؤيَّدونَ به ظافرينَ فائزينَ ، وكذلكَ قسَّمَ الأمرَ أحكمُ الحاكمينَ سبحانَه ، وهو أعلمُ العالمينَ ، فهـٰذا تفصيلُ قولِه تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ .

فتفهَّمْ وراءه حقَّه ، وٱعلمْ أنَّك لم تُحرَمْ قطُّ خيراً أنت تتمنَّاه إلاَّ من قِبَلِ نفسِك ، فابذلْ مجهودَك لتعرفَ قدرَ نعمةِ اللهِ تعالى ، وتعظِّمَها حقَّ تعظيمِها ، فتكونَ أهلاً لها ولإعطائِها ، ثمَّ يمنُّ عليكَ بإبقائِها ، كما منَّ عليكَ بابتدائِها ، علىٰ ما نذكرُه في الأصلِ الثَّاني ، إنَّه هو الرَّؤوفُ الرَّحيمُ .

الأصلُ الثَّاني : أنَّ النِّعمةَ إنَّما تُسلَبُ ممَّن لا يعرفُ قدرَها ، والَّذي لا يعرفُ قدرَها الكفورُ الَّذي كفرَها ، ولا يؤدِّي شكرَها .

ودليلُ ذلك : قولُه تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا ﴾ الآيةَ .

تقديرُ الكلامِ : أنَّا أنعمنا علىٰ هـٰذا العبدِ بالنِّعمِ العظامِ ، والأيادي الجسامِ في بابِ الدِّينِ ؛ بما مكَّنَّاه بذلكَ من تحصيلِ الرُّتبةِ الكبيرةِ ، والمنزلةِ الرَّفيعةِ علىٰ بابِنا ، فيصيرُ رفيعاً عندَنا ، عظيمَ القدْرِ ، كبيرَ الجاهِ ، ولـٰكنَّه جهلَ قدرَ نعمتِنا ، فمالَ إلى الدُّنيا الخسيسةِ الحقيرةِ ، وآثرَ شهوةَ نفسِه الدَّنيئةِ الرَّديئةِ ، ولم يعلمْ أنَّ الدُّنيا كلَّها لا تزنُ عندَ اللهِ أدنىٰ نعمةٍ من نعمِ الدِّينِ ، ولا تساوي عندَه جناحَ

بعوضةٍ ، فكانَ في ذلكَ بمنزلةِ الكلبِ الَّذي لا يعرفُ الإكرامَ والرَّاحةَ من الإهانةِ والمشقَّةِ ، والرِّفعةَ والشَّرفَ من الحقارةِ والخسَّةِ ، فهو في الحالتينِ يلهثُ ، وإنَّما الكرامةُ كلُّها عندَه في كِسرةٍ يُطعَمُها ، أو عُراقِ مائدةٍ يُرمىٰ إليه[1] ، سواءٌ تُقعِدُه علىٰ سريرٍ معك ، أو تُقيمُه في التُّرابِ والقذَرِ بينَ يديكَ ، فهمَّتُه وكرامتُه ونعمتُه كلُّها في ذلكَ .

فهٰذا العبدُ السُّوءُ جهلَ قدرَ نعمتِنا ، ولم يعرفْ حقَّ ما آتيناه من كرامتِنا ، فكلَّتْ بصيرتُه ، وساءَ في مقامِ القربةِ أدبُه بالالتفاتِ إلىٰ غيرِنا ، والاشتغالِ عن ذكرِ نعمتِنا بدنيا حقيرةٍ ، ولذَّةٍ خسيسةٍ ، فنظرْنا إليه نظرَ السِّياسةِ ، وأحضرْناه ميدانَ العدلِ ، وأمرْنا فيه بحكمِ الجبروتِ ، فسلبْناه جميعَ خِلعِنا وكرامتِنا ، ونزعْنا من قلبِه معرفتَنا ، فانسلخَ عارياً عن جميعِ ما آتيناه من فضلِنا ، فصارَ كلباً طريداً ، وشيطاناً رجيماً مَريداً ، نعوذُ باللهِ ثمَّ نعوذُ باللهِ من سخطِه ، وأليمِ عقابِه ، إنَّه بنا رؤوفٌ رحيمٌ .

ثمَّ اُقنعْ بمثالِ ملِكٍ يُكرمُ عبداً له ، فيَخلَعُ عليه خاصَّةَ ثيابِه ، ويقرِّبُه منه ، ويجعلُه فوقَ سائرِ خدَّامِه وحجَّابِه ، وأمرَه بملازمةِ بابِه ، ثمَّ أمرَ أن تُبنىٰ له في موضعٍ آخرَ القصورُ ، وتُوضَعَ له الأسرَّةُ ، وتُنصَبَ له الموائدُ ، وتُزيَّنَ له الجواري ، وتُقامَ له الغلمانُ ، حتَّىٰ إذا رجعَ من الخدمةِ . . أُجلِسَ هنالكَ ملِكاً مخدوماً مكرَّماً ، وما بينَ حالِ خدمتِه إلىٰ ملكِه وولايتِه إلاَّ ساعةٌ من نهارٍ أو أقلُّ ، فإن أبصرَ هٰذا العبدُ بجانبِ بابِ الملِكِ سائساً للدَّوابِّ يأكلُ رغيفاً ، أو كلباً يمضغُ عَظماً ، فيشتغلُ عن خدمةِ الملِكِ بنظرِه إليه ، وإقبالِه عليه ، ولا يلتفتُ إلىٰ ما لَه من الخِلعِ والكرامةِ ، فيسعىٰ إلىٰ ذلك السَّائسِ ، ويمدُّ يدَه ، ويسألُه كِسرةً من رغيفِه ، أو يزاحمُ الكلبَ علىٰ عَظمِه ، ويغبطُهما ويعظِّمُ ما هما فيه . . أليسَ الملِكُ إذا نظرَ إليه علىٰ مثلِ هٰذه الحالةِ . . يقولُ : هٰذا سفيهٌ ، خسيسُ الهمَّةِ ، لم يعرفْ حقَّ كرامتِنا ، ولم يرَ قدرَ إعزازِنا إيَّاه بخِلعِنا ،

---

(١) العراق ـ بضم العين ـ : العَظم الذي أُكل لحمه .

والتَّقريبِ إلىٰ حضرتِنا ، مع ما صرفْنا إليه من عنايتِنا ، وأمرْنا له من ٱلذَّخائرِ وضروبِ الأيادي ، ما هـٰذا إلاَّ ساقطُ الهمَّةِ ، عظيمُ الجهلِ ، قليلُ التَّمييزِ ، ٱسلبوه الخِلعَ وٱطردوه عن بابِنا ؟!

فهـٰذا حالُ العالمِ إذا مالَ إلى الدُّنيا ، والعابدِ إذا اتَّبعَ الهوى ، فبعدَما أكرمَه اللهُ تعالىٰ بعبادتِه ومعرفةِ آياتِه وشريعتِه وأحكامِه ، ثمَّ إنَّه لم يعرفْ قدرَ ذلك ، فيصيرُ إلىٰ أحقرِ شيءٍ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ وأهونِه عندَه ، فيرغبُ فيه ويحرصُ عليه ، ويكونُ أعظمَ في قلبِه وأحبَّ إليه من جميعِ ما أُعطيَ من تلكَ النِّعمِ العزيزةِ ؛ من العلمِ والعبادةِ ، والحِكمِ والحقائقِ .

وكذلكَ من خصَّه اللهُ تعالىٰ بأنواعِ توفيقِه وعصمتِه ، وزيَّنَه بأنوارِ خدمتِه وعبادتِه ، ويديمُ النَّظرَ إليه بالرَّحمةِ في أكثرِ أوقاتِه ، ويباهي به ملائكتَه ، وأعطاه علىٰ بابِه القيادةَ والوجاهةَ ، وأحلَّه محلَّ الشَّفاعةِ ، وأنزلَه منزلةَ الأعزَّةِ ، حتَّىٰ صارَ بحيثُ لو دعاه . . لأجابَه ولبَّاه ، ولو سألَه . . لأعطاه وأغناه ، ولو شفعَ في عالمٍ . . لشفَّعَه فيهم وأرضاه ، ولو أقسمَ عليه . . لأبرَّه وأوفاه ، ولو خطرَ ببالِه شيءٌ . . لأعطاه قبلَ أن يسألَه بلسانِه ، فمن كانتْ هـٰذه حالَه ، ثمَّ لم يعرفْ قدْرَ هـٰذا المنعمِ ، ولم ينظرْ إلىٰ قدْرِ هـٰذه النِّعمةِ ، فيعدلُ عن ذلكَ إلىٰ شهوةِ نفسٍ رديئةٍ لا حياءَ لها ، أو لَعْقةٍ من الدُّنيا الدَّنيئةِ الَّتي لا بقاءَ لها ، ولم ينظرْ إلىٰ تلكَ الكراماتِ والخِلعِ والهدايا ، والمننِ والعطايا ، ثمَّ ما وعدَ وأعدَّ له في الآخرةِ من الثَّوابِ العظيمِ ، والنَّعيمِ المقيمِ . . فما أحقرَها إذنْ من نفسٍ ، وما أسوأَه من عبدٍ ، وما أعظمَ خطرَه لو علمَ ، وما أفحشَ صنيعَه لو فهمَ !!

نسألُ ٱللهَ البَرَّ الرَّحيمَ أن يُصلحَنا بعظيمِ فضلِه ، وسعةِ رحمتِه ، إنَّه أرحمُ الرَّاحمينَ .

فعليكَ ـ أيُّها الرَّجلُ ـ ببذلِ المجهودِ حتَّىٰ تعرفَ قدرَ نعمِ ٱللهِ تعالىٰ عليكَ ، فإذا أنعمَ عليكَ بنعمةِ ٱلدِّينِ . . فإيَّاك أن تلتفتَ إلى ٱلدُّنيا وحطامِها ؛ فإنَّ ذلك لا يكونُ منك إلاَّ بضربٍ من التَّهاونِ بما أولاك ربُّك من نعمِ ٱلدِّينِ ، أمَا تسمعُ قولَه تعالىٰ لسيِّدِ المرسلينَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي

﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ الآيةَ ؟

تقديرُه : أنَّ كلَّ من أوتيَ القرآنَ العظيمَ حقَّ له ألاَّ ينظرَ إلى الدُّنيا الحقيرةِ نظرةً باستحلاءٍ واستحسانٍ قطُّ ، فضلاً عن أن يكونَ له فيها رغبةٌ ، وليلزمِ الشُّكرَ للهِ علىٰ ذلك ؛ فإنَّها الكرامةُ الَّتي حرصَ خليلُه إبراهيمُ صلواتُ اللهِ على نبيِّنا وعليه أن يمنَّ بها علىٰ أبيه فلم يفعلْ ، وحرصَ حبيبُه المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يمنَّ بها علىٰ عمِّه أبي طالبٍ فلم يفعلْ .

وأمَّا حطامُ ٱلدُّنيا : فإنَّه يصبُّه علىٰ كلِّ كافرٍ وفرعونٍ ، وملحدٍ وزنديقٍ ، وجاهلٍ وفاسقٍ ، الَّذينَ هم أهونُ خلقِه عليه ، حتَّىٰ يغرَقوا فيه ، ويصرفُه عن كلِّ نبيٍّ وصفيٍّ ، وصدِّيقٍ وعالمٍ وعابدٍ ، الَّذينَ هم أعزُّ خلقِه عليه ، حتَّىٰ إنَّهم لا يكادونَ يصيبونَ كِسرةً وخِرقةً ، ويمنُّ عليهم بألاَّ يلطِّخَهم بقذَرِها ، حتَّىٰ قالَ عزَّ من قائلٍ لموسىٰ وهارونَ عليهما السَّلامُ : (ولو أشاءُ أن أزيِّنَكما بزينةٍ يعلمُ فرعونُ حينَ يراها أنَّ مقدرتَه تعجزُ عنها . . لفعلتُ ، ولٰكنِّي أزوي عنكما الدُّنيا وأرغبُ بكما عنها ، وكذلكَ أفعلُ بأوليائي ، وإنِّي لأذودُهم عن نعيمِها كما يذودُ الرَّاعي الشَّفيقُ إبلَه عن مباركِ العُرَّةِ ، وإنِّي لأجنِّبُهم سَلوتَها وعيشَها[1] ، وليسَ ذلك لهوانِهم عليَّ ، ولٰكنْ ليستكملوا حظَّهم من كرامتي)[2] .

وقالَ تعالى : ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ الآيتينِ .

فانظرِ الفرقَ بينَ الأمرينِ إن كنتَ مبصراً ، وقلِ : الحمدُ للهِ الَّذي منَّ علينا بمننِ أوليائِه وأصفيائِه ، وصرفَ عنَّا فتنةَ أعدائِه ، لنحظىٰ ونُخَصَّ بالشُّكرِ الأوفرِ ، والحمدِ الأكبرِ ، والمنَّةِ الكبرى ، والنِّعمةِ العظمى الَّتي هي الإسلامُ ، فإنَّها الأَوْلىٰ والأحرىٰ بألاَّ تفترَ ليلَك ونهارَك عن شكرِها ، فإن كنتَ عاجزاً عن عرفانِ قدْرِها . . فاعلمْ بالحقيقةِ أنَّك لو خُلقتَ من أوَّلِ الدُّنيا ، وأخذتَ في شكرِ

---

(١) السلوة ـ بفتح السين ـ : رغد العيش .

(٢) تقدم بعضه وتخريجه (ص ١٩٤) .

الإسلامِ من أوَّلِ الوقتِ إلى الأبدِ . . لمَا كنتَ تقومُ بذلكَ ، ولمَا قضيتَ بعضَ الحقِّ ؛ لِما هنالكَ من الفوزِ العظيمِ .

قلتُ : وٱعلمْ : أنَّ الموضعَ لا يحتملُ ذكرَ ما يبلغُه علمي من قدْرِ هـٰذه النِّعمةِ ، ولو أمليتُ فيه ألفَ ورقةٍ . . لكانَ مبلغُ علمي فوقَ ذلك ، مع ٱعترافي بأنَّ ما أعلمُه في جنبِ ما لا أعلمُه كنفْثةٍ في بحارِ الدُّنيا بأسرِها ، أمَا تسمعُ ـ ويحَك ـ قولَه تعالىٰ لسيِّدِ المرسلينَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ إلىٰ أن قالَ[١] : ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ ؟

وقالَ تعالىٰ لقومٍ : ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ الآيةَ .

أمَا تسمعُ قولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وقد سمعَ رجلاً يقولُ : الحمدُ للهِ على الإسلامِ ، فقالَ : « إنَّك لتحمدُ ٱللهَ علىٰ نعمةٍ عظيمةٍ » ؟[٢] .

ولمَّا قدمَ البشيرُ علىٰ يعقوبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ . . قالَ : (علىٰ أيِّ دينٍ تركتَه ؟ قالَ : على الإسلامِ ، قالَ : الآنَ تمَّتِ النِّعمةُ)[٣] .

وقيلَ : ما من كلمةٍ أحبَّ إلى اللهِ تعالى ، ولا أبلغَ عندَه في الشُّكرِ من أن يقولَ العبدُ : الحمدُ للهِ الَّذي أنعمَ علينا وهدانا إلى الإسلامِ .

وإيَّاكَ أن تغفُلَ الشُّكرَ وتغترَّ بما أنت عليه في الحالِ من الإسلامِ والمعرفةِ ، والتَّوفيقِ والعصمةِ ؛ فإنَّ مع ذلك لا موضعَ للأمنِ والغفلةِ ؛ فإنَّ الأمورَ بالعواقبِ .

---

(١) قوله : (إلىٰ أن قال) هو في معنىٰ قول : (ثم قال) ، وعليه : فليس المقصود من الغاية الترتيبَ بين الآيات ؛ إذ كل آية من سورةٍ غير سورة الآية الأخرى ، وإنما المقصود : الترتيب التَّنزُّلي ؛ إذ الآية الأولىٰ من (سورة الشورىٰ) وهي مكية ، والآية الأخرىٰ من (سورة النساء) وهي مدنية ، وبه يتبين المقصود ، والله أعلم .

(٢) أخرجه الضياء في « المختارة » (١٨٧٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، والبيهقي في « الشعب » (٤١٧٩) عن الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ مرسلاً .

(٣) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٥٢٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٦٧) .

وكانَ سفيانُ الثَّوريُّ رحمَه اللهُ تعالىٰ يقولُ : ما أمنَ أحدٌ علىٰ دينِه إلاَّ سُلبَ .

وكانَ شيخُنا رحمَه ٱللهُ تعالىٰ يقولُ : إذا سمعتَ بحالِ الكفَّارِ وخلودِهم في النَّارِ . . فلا تأمنْ علىٰ نفسِك ؛ فإنَّ الأمرَ على الخطرِ ، ولا تدري ماذا يكونُ من العاقبةِ وماذا سبقَ لك في حكمِ الغيبِ ؛ فلا تغترَّ بصفاوةِ الأوقاتِ ؛ فإنَّ تحتَها غوامضَ الآفاتِ .

وقالَ بعضُهم : يا معشرَ المغترِّينَ بالعِصمِ ؛ إنَّ تحتَها أنواعَ النِّقمِ ، زيَّنَ ٱللهُ إبليسَ بأنواعِ عصمتِه وهو عندَه في حقائقِ لعنتِه ، وزيَّنَ بلعمَ بأنوارِ ولايتِه وهو عندَه في حقائقِ عداوتِه .

وعن عليٍّ رضيَ اللهُ عنه أنَّه قالَ : (كم من مستدرَجٍ بالإحسانِ إليه ، وكم من مفتونٍ بحسنِ القولِ فيه ، وكم من مغرورٍ بالسَّترِ عليه)[1] .

وقيلَ لذي النُّونِ : ما أقصىٰ ما يُخدعُ به العبدُ ؟ قالَ : (بالألطافِ والكراماتِ)[2] .

ولذلكَ قالَ اللهُ سبحانَه : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

قالَ أهلُ المعرفةِ : (نسبغُ عليهم النِّعمَ ، ونُنسيهم الشُّكرَ)[3] ، كما قالَ الشَّاعرُ : [من البسيط]

أحسنْتَ ظنَّك بالأيَّامِ إذ حسُنتْ ... ولم تَخَفْ سوءَ ما يأتي به القدَرُ
وسالمتْك اللَّيالي فاغتررتَ بها ... وعندَ صفوِ اللَّيالي يحدثُ الكدرُ[4]

واعلمْ : أنَّك كلَّما صرتَ أقربَ . . فأمرُك أخوفُ وأصعبُ ، والمعاملةُ أشدُّ وأدقُّ ، والخطرُ عليكَ أعظمُ ؛ فإنَّ الشَّيءَ كلَّما كانَ أبلغَ علوّاً إذا ٱنقلبَ . . كانَ

---

(1) أخرجه أحمد في « الزهد » (١٥١٤) من قول الحسن رحمه الله تعالى .

(2) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٦١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧/ ٤٢٧) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٣٠٩) .

(3) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٧) من تفسير سفيان الثوري رحمه الله تعالى .

(4) البيتان للإمام الشافعي رحمه الله تعالى ، أخرجهما ابن عبد البر في « الإنتقاء من فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء » (ص ١٠١) .

أصعبَ وقوعاً ، كما قيلَ : [من مجزوء الرجز]

مــا طــارَ طيــرٌ فــارتفــعْ إلاَّ كمـــا طـــارَ وقـــعْ[1]

فإذنْ لا سبيلَ إلى الأمنِ ، وإغفالِ الشُّكرِ ، وتركِ الابتهالِ في الحفظِ بحالٍ .

وكانَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ يقولُ : كيف تأمنُ وإبراهيمُ الخليلُ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه يقولُ : ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ ، ويوسفُ الصِّدِّيقُ عليه السَّلامُ يقولُ : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾ ؟!

وكانَ سفيانُ الثَّوريُّ لا يزالُ يقولُ : (اللَّهمَّ ؛ سلِّمْ سلِّمْ)[2] ، كأنَّه في سفينةٍ يخشى الغرقَ .

وبلغَنا عن محمَّدِ بنِ يوسفَ رحمَه اللهُ أنَّه قالَ : تأمَّلتُ سفيانَ الثَّوريَّ ليلةً فبكى اللَّيلَ أجمعَ ، فقلتُ : بكاؤُك هـٰذا على الذُّنوبِ ؟ قالَ : فحملَ تبنةً وقالَ : الذَّنبُ أهونُ على اللهِ من هـٰذا ، إنَّما أخشىٰ أن يسلبَني الإسلامَ ، والعياذُ باللهِ .

وسمعتُ أنا بعضَ العارفينَ يقولُ : إنَّ بعضَ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهم سألَ اللهَ تعالىٰ عن أمرِ بلعمَ وطردِه بعدَ تلكَ الآياتِ والكراماتِ ، فقالَ اللهُ تعالى : لم يشكرْني يوماً من الأيَّامِ علىٰ ما أعطيتُه ، ولو شكرَني علىٰ ذلك مرَّةً واحدةً . . لما سلبتُه .

فتيقَّظْ أيُّها الرَّجلُ ، واحتفظْ بركنِ الشُّكرِ جدّاً جدّاً ، وٱحمدِ اللهَ تعالىٰ علىٰ نعمِه في ٱلدِّينِ ، وأعلاها الإسلامُ والمعرفةُ ، وأدناها مثلاً توفيقُ تسبيحٍ أو عصمةٌ عن كلمةٍ لا تَعنيك ، عسىٰ أن يُتمَّ نعمَه عليكَ ، ولا يبتليَك بمرارةِ الزَّوالِ ؛ فإنَّ أمرَّ الأمورِ وأصعبَها الإهانةُ بعدَ الإكرامِ ، والطَّردُ بعدَ التَّقريبِ ، والفراقُ بعدَ الوصالِ ، واللهُ تعالى الماجدُ الكريمُ ، الرَّؤوفُ الرَّحيمُ .

---

(١) البيت للإمام الشافعي رحمه الله تعالى ، أخرجه البيهقي في « مناقب الشافعي » (٢/ ٦٥) .

(٢) أخرجه ابن الجعد في « مسنده » (١٨٦٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣٩٢) .

فَصْلٌ

[في أن حسن التعامل مع نِعم الله تعالىٰ سبب للاستقامة والاستزادة]

وجملةُ الأمرِ : أنَّك إذا أحسنتَ النَّظرَ في مننِ اللهِ تعالى العظامِ عليكَ ، وأياديه الجسامِ الكرامِ لديكَ ، الَّتي لا يحصرُها قلبُك ، ولا يحيطُ بها وهمُك ، حتَّىٰ خلَّفتَ هـٰذه العقباتِ الصِّعابَ ، فوجدتَ العلومَ والبصائرَ ، وتطهَّرتَ من الأوزارِ والكبائرِ ، وسبقتَ العوائقَ ، ودفعتَ العوارضَ ، وظفرتَ بالبواعثِ ، وسلمتَ من القوادحِ ، فكم حصلَ لك فيها من خصلةٍ شريفةٍ ، ورتبةٍ منيفةٍ ، أوَّلُها التَّبصيرُ والتَّعريفُ ، وآخرُها التَّقريبُ والتَّشريفُ ، فتأمَّلتَ فيها بمقدارِ عقلِك وتوفيقِك ، وشكرتَ اللهَ جلَّ جلالُه علىٰ قدْرِ طَوقِك ؛ بأن يَشغَلَ لسانَك بحمدِه وثنائِه ، ويَملأَ قلبَك بعظمتِه ، ويُبلِّغَك مبلغاً يحولُ بينَك وبينَ عصيانِه ، ويبعثَك على الخدمةِ له بما أمكنَك ، أو بسعةِ طاقتِك ، معترفاً بالقصورِ عن حقِّ إنعامِه وإحسانِه ، وكلَّما أغفلتَ شكرَه أو فترتَ أو زللتَ . . عاودتَ وٱجتهدتَ ، وتضرَّعتَ إليه وابتهلتَ وتوسَّلتَ ، وقلتَ : يا أَللهُ ، يا مولايَ ؛ كما بدأتَ بالإحسانِ بفضلِك من غيرِ ٱستحقاقٍ . . فأتممْه بفضلِك أيضاً من غيرِ ٱستحقاقٍ ، وتناديه بنداءِ الأولياءِ الَّذينَ وجدوا تاجَ هدايتِه ، وذاقوا حلاوةَ معرفتِه ، فخافوا علىٰ أنفسِهم حرقةَ الطَّردِ والإهانةِ ، ووحشةَ البعدِ والضَّلالةِ ، ومرارةَ العزلِ والإزالةِ ، فتضرَّعوا بالبابِ مستغيثينَ ، ومدُّوا إليه الأكفَّ مبتهلينَ ، ونادَوا في الخلواتِ مستصرخينَ : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ .

قلتُ أنا : تقديرُه وٱللهُ أعلمُ : أنَّا وجدْنا منك نعمةً فطمعْنا في أخرى ؛ لأنَّك أنت الجوادُ الوهَّابُ الكريمُ ، فكما وهبتَ لنا مزيَّةَ الإنعامِ في الابتداءِ . . فهبْ لنا رحمةَ الإتمامِ في الانتهاءِ ، أمَا تسمعُ ـ ويحَك ـ أنَّ أوَّلَ دعاءٍ علَّمَه ربُّ العالمينَ عبادَه المسلمينَ الَّذينَ ٱصطفاهم من بينِ خلقِه هـٰذا الدُّعاءُ ؛ قولُه تعالى :

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي : ثبّتنا عليه وأدمْه لنا ، هٰكذا تتضرَّعُ إليه ؛ فإنَّ الخطرَ عظيمٌ .

وقيلَ : إنَّ الحكماءَ نظروا فردُّوا مصائبَ العالَمِ ومحنَهم إلىٰ خمسٍ : المرضِ في الغربةِ ، والفقرِ في الشَّيبِ ، والموتِ في الشَّبابِ ، والعمىٰ بعدَ البصرِ ، والنَّكَرَةِ بعدَ المعرفةِ .

وأحسنُ من ذلكَ قولُ من قالَ : [من البسيط]

لكلِّ شيءٍ إذا فارقتَه عوضٌ ... وليسَ للهِ إن فارقتَ من عوضِ

ولغيرِه : [من الطويل]

إذا أبقتِ الدُّنيا على المرءِ دينَه ... فما فاتَه منها فليسَ بضائرِ [(١)]

وكذلكَ في كلِّ نعمةٍ أنعمَ بها عليكَ ، وتأييدٍ أيَّدَك به في قطعِ عقبةٍ من العقباتِ ؛ ليثبِّتَ عليكَ ما أعطى ، ويَزيدَك فوقَ ما تريدُ وتتمنَّى ، فإذا فعلت ذلك[(٢)] . . كنتَ قد خلَّفتَ هٰذه العقبةَ الخطيرةَ ، وكنتَ قد ظفرتَ بالكنزينِ الكريمينِ العزيزينِ ، اللَّذينِ هما : الاستقامةُ والاستزادةُ ، فتدومُ لك النِّعمُ الموجودةُ الَّتي أعطاكها فلا تخشىٰ زوالَها ، ويَزيدُك من النِّعم المفقودةِ الَّتي لم تُعطَ بعدُ ما لا تحسنُ أن تسألَها وتتمنَّاها فلا تخشىٰ فواتَها ، وكنتَ حينئذٍ من العارفينَ العلماءِ العاملينَ بالدِّينِ ، التَّائبينَ الطَّاهرينَ ، الزَّاهدينَ في الدُّنيا ، المتجرِّدينَ للخدمةِ ، القاهرينَ للشَّيطانِ ، المتَّقينَ اللهَ حقَّ التَّقوىٰ بالقلبِ والأركانِ ، القاصرينَ للأملِ ، النَّاصحينَ الخاشعينَ المتواضعينَ ، المتوكِّلينَ المفوِّضينَ ، الرَّاضينَ الصَّابرينَ ، الخائفينَ الرَّاجينَ ، المخلصينَ الذَّاكرينَ المنَّةَ ، الشَّاكرينَ لأنعمِ سيِّدِهم ربِّ العالمينَ ، ثمَّ تصيرُ بعد ذلكَ من المستقيمينَ المكرَّمينَ الصِّدِّيقينَ ، فتأمَّلْ هٰذا الكلامَ ، واللهُ تعالىٰ وليُّ التَّوفيقِ .

فإن قلتَ : إذا كانَ الأمرُ كذلكَ . . لقد قلَّ من النَّاسِ العابدُ لهٰذا المعبودِ ،

---

(١) البيت لأبي العتاهية . انظر « ديوانه » (ص ١٠٤) .

(٢) قوله : (فإذا فعلت ذلك . . .) جواب الشرط لقوله : (إذا أحسنت النظر . . .) في أول الفصل ، والله أعلم .

والواصلُ إلىٰ هٰذا المقصودِ ، ومَنِ الَّذي يقوىٰ علىٰ هٰذه المؤنِ وتحصيلِ هٰذه الشَّرائطِ والسُّننِ ؟!

فاعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ كذلكَ يقولُ : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ، ﴿ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ، ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثمَّ إنَّ ذلك يسيرٌ علىٰ من يسَّرَه اللهُ تعالىٰ عليه ، وعلى العبدِ الاجتهادُ ، وعلى اللهِ سبحانَه الهدايةُ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .

وإذا كانَ العبدُ الضَّعيفُ يقومُ بما عليه . . فما ظنُّك بالرَّبِّ القديرِ الغنيِّ الكريمِ الرَّحيمِ ؟!

فإن قلتَ : فالعمرُ قصيرٌ ، وهٰذه عقباتٌ طويلةٌ شديدةٌ ، فكيف يبقى العمرُ حتَّىٰ تَكمُلَ هٰذه الشَّرائطُ ، وتُقطَعَ هٰذه العقباتُ ؟!

فلعمري ؛ إنَّ هٰذه العقباتِ طويلةٌ ، والشَّرائطَ فيها شديدةٌ ، ولٰكنْ إذا أرادَ اللهُ تعالىٰ أن يجتبيَ عبدَه . . قصَّرَ عليه طويلَها ، وهوَّنَ عليه شديدَها ، حتَّىٰ يقولَ بعدَ قطعِها : ما أقربَ هٰذه الطَّريقَ وأقصرَها ! وما أهونَ هٰذا الأمرَ وأيسرَه !

وفي مثلِ ذلك قلتُ أنا عندَ وقوفي علىٰ هٰذه الغايةِ : [من الكامل]

عَلَمُ المحجَّةِ واضحٌ لمريدِه ... وأرى القلوبَ عن المحجَّةِ في عمَى
ولقد عجبتُ لهالكٍ ونجاتُه ... موجودةٌ ولقد عجبتُ لمن نجا[1]

حتَّىٰ إنَّ منهم من يقطعُ هٰذه العقباتِ في سبعينَ سنةً ، ومنهم من يقطعُها في عشرينَ سنةً ، ومنهم من يقطعُها في عشرِ سنينَ ، ومنهم من يحصلُ له في سنةٍ ، ومنهم من يقطعُها في شهرٍ ، بل في جمعةٍ ، بل في ساعةٍ ، حتَّىٰ إنَّ منهم من يحصلُ له في لحظةٍ بتوفيقٍ خاصٍّ وعنايةٍ سابقةٍ من اللهِ سبحانَه .

---

(١) ويُنسب البيتان أيضاً لأبي العتاهية . انظر « ديوانه » (١٨) .

أمَا تذكرُ أصحابَ الكهفِ ؟ كانتْ مدَّتُهم خَطْرةً ؛ حيثُ رأوا التَّغيُّرَ في وجهِ ملكِهم دَقْيانُوسَ فقالوا : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآيةَ .

حصلتْ لهم المعرفةُ في تلكَ اللَّحظةِ ، وأبصروا ما في هٰذا الطَّريقِ من الحقائقِ ، وقطعوا هٰذه الطَّريقَ فصاروا مفوِّضينَ متوكِّلينَ مستقيمينَ ؛ إذ قالوا : ﴿ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ الآيةَ .

وكلُّ ذلك إنَّما حصلَ لهم في مقدارِ ساعةٍ أو لحظةٍ .

أمَا تذكرُ سحرةَ فرعونَ ؟ ما كانتْ مدَّتُهم إلاَّ لحظةً ، حيثُ رأوا معجزةَ موسىٰ عليه السَّلامُ فقالوا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، فأبصروا الطَّريقَ وقطعوه ، فصاروا من ساعةٍ إلىٰ ساعةٍ بل أقلَّ من العارفينَ باللهِ ، الرَّاضينَ بقضاءِ اللهِ تعالى ، الصَّابرينَ علىٰ بلائِه ، الشَّاكرينَ لآلائِه ، المشتاقينَ إلىٰ لقائِه ، فنادَوا : ﴿ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ .

ولقد حكينا أنَّ إبراهيمَ بنَ أدهمَ رحمَه اللهُ كانَ علىٰ ما كانَ عليه من أمرِ الدُّنيا ، فعدلَ عن ذلك وقصدَ هٰذه الطَّريقَ[1] ، فلم يكنْ إلاَّ مقدارُ مسيرِه من بلخٍ إلىٰ مروَ الرُّوذِ حتَّىٰ صارَ بحيثُ أشارَ إلىٰ رجلٍ سقطَ من القنطرةِ في الماءِ الكثيرِ هنالكَ : أنْ قفْ ، فوقفَ الرَّجلُ مكانَه في الهواءِ فتخلَّصَ .

وأنَّ رابعةَ البصريَّةَ كانتْ أمَةً كبيرةَ السِّنِّ ، يُطافُ بها في سوقِ البصرةِ ، ولا يرغبُ فيها أحدٌ لكبرِ سنِّها ، فرحمَها بعضُ التُّجَّارِ فاشتراها بنحوِ مئةِ درهمٍ وأعتقَها ، فاختارَتْ هٰذه الطَّريقَ وأقبلَتْ علىٰ العبادةِ ، فما تمَّتْ لها سنةٌ حتَّىٰ زارَها زهَّادُ البصرةِ وقرَّاؤُها وعلماؤُها لعظمِ منزلتِها .

وأمَّا الَّذي لم تسبقْ له العنايةُ ، ولم يُعامَلْ بالفضلِ والهدايةِ . . فيوكلُ إلىٰ نفسِه ، فربَّما يبقىٰ في شِعبٍ من عقبةٍ واحدةٍ سبعينَ سنةً ولا يقطعُها ، وكم يصيحُ ويصرخُ : ما أظلمَ هٰذا الطَّريقَ وأشكلَه ، وأعسرَ هٰذا الأمرَ وأعضلَه ! فإنَّ الشَّأنَ كلَّه إلىٰ أصلٍ واحدٍ ، وذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ ، العدلِ الحكيمِ .

---

(١) انظر (ص ١٨١) .

فإن قلتَ : لمَ ٱختصَّ هـٰذا بالتَّوفيقِ الخاصِّ وحُرِمَ هـٰذا وكلاهما مشتركانِ في رِبقةِ العبوديَّةِ ؟

فعندَ هـٰذا السُّؤالِ تُنادىٰ من سرادقِ الجلالِ : أنِ الزمِ الأدبَ ، وٱعرفْ سرَّ الرُّبوبيَّةِ وحقيقةَ العبوديَّةِ ؛ فإنَّه ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ .

قلتُ أنا : ومثالُ هـٰذا الطَّريقِ في ٱلدُّنيا الصِّراطُ في الآخرةِ ؛ في عقباتِها ومسافاتِها ومقاطعِها ، واختلافِ أحوالِ الخلائقِ فيها ، فمنهم من يمرُّ عليه كالبرقِ الخاطفِ ، ومنهم من يمرُّ عليه كالرِّيحِ العاصفِ ، وآخرُ كالفرسِ الجوادِ ، وآخرُ كالطَّائرِ ، وآخرُ يمشي ، وآخرُ يزحفُ حتَّىٰ يصيرَ فحمةً ، وآخرُ يسمعُ حسيسَها ، وآخرُ يُؤخَذُ بكلاليبَ فيُطرَحُ في جهنَّمَ .

وكذلكَ حالُ هـٰذا الطَّريقِ مع سالكيه في ٱلدُّنيا ، فهما صراطانِ : صراطُ ٱلدُّنيا ، وصراطُ الآخرةِ ، فصراطُ الآخرةِ للأنفسِ ، يرىٰ أهوالَها أهلُ الأبصارِ ، وصراطُ ٱلدُّنيا للقلوبِ ، يرىٰ أهوالَها ذوو البصائرِ والألبابِ ، وإنَّما ٱختلفتْ أحوالُ السَّالكينَ في الآخرةِ لاختلافِ أحوالِهم في ٱلدُّنيا ، فتأمَّلْ ذلك حقَّه ، فهـٰذه هـٰذه ، وباللهِ التَّوفيقُ .

فصل

[في بيان طريق الآخرة وذكر المنح الدنيوية والأخروية المستحقة لملازم الطاعة]

ثمَّ ٱعلمْ ما هو التَّحقيقُ في هـٰذا البابِ ، وهو أنَّه ليسَ هـٰذا الطَّريقُ في طولِه وقصرِه مثلَ المسافاتِ المكانيَّةِ الَّتي تسلكُها الأنفسُ ، فتقطعُها بالأقدامِ ، فيقعُ قطعُها علىٰ حسبِ قوَّةِ الأنفسِ وضعفِها ، إنَّما هو طريقٌ روحانيٌّ ، تسلكُه القلوبُ ، فتقطعُه بالأفكارِ علىٰ حسبِ العقائدِ والبصائرِ ، أصلُه نورٌ سماويٌّ ، ونظرٌ إلهيٌّ ، يقعُ في قلبِ العبدِ ، ينظرُ به نظرةً فيرىٰ بها أمرَ الدَّارينِ بالحقيقةِ ، ثمَّ هـٰذا النُّورُ ربَّما يطلبُه العبدُ مئةَ سنةٍ فلا يجدُه ، ولا يرىٰ أثراً منه ، وذلك لخطئِه في الطَّلبِ ، وتقصيرِه في ٱلاجتهادِ ، وجهلِه بطريقِ ذلك ، وآخرُ يجدُه في

خمسينَ ، وآخرُ يجدُه في عشرينَ ، وآخرُ في عشرٍ ، وآخرُ في يومٍ ، وآخرُ في ساعةٍ ، وآخرُ بلحظةٍ ، بعنايةِ ربِّ العالمينَ ، وهو تعالىٰ وليُّ الهدايةِ ، لٰكنَّ العبدَ مأمورٌ بالاجتهادِ ، فعليه بما أمرَ ، والأمرُ مقسومٌ مقدورٌ ، والرَّبُّ حكمٌ عدلٌ ، يفعلُ ما يشاءُ ، ويحكمُ ما يريدُ .

فإن قلتَ : فما أعظمَ هٰذا الخطرَ وأشدَّ هٰذا الأمرَ ! وما أكثرَ ما يحتاجُ إليه هٰذا العبدُ الضَّعيفُ ! فكلُّ هٰذا العملِ والجهدِ وتحصيلِ هٰذه الشَّرائطِ لماذا ؟

فأقولُ : لعمري ؛ إنَّك لصادقٌ في قولِك : إنَّ الأمرَ شديدٌ ، والخطرَ عظيمٌ ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ .

وقالَ تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ .

ولذلكَ قالَ سيِّدُ المرسلينَ صلواتُ ٱللهِ وسلامُه عليه وعليهم : « لو علمتم ما أعلمُ . . لبكيتم كثيراً ، ولضحكتم قليلاً »[1] .

وما رُويَ : أنَّ المنادي ينادي من قِبلِ السَّماءِ : (ليتَ الخلقَ لم يُخلقوا ، وليتهم إذ خُلقوا علموا لماذا خُلقوا)[2] .

وكذلكَ يقولُ السَّلفُ رضيَ اللهُ عنهم :

فعن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضيَ ٱللهُ عنه أنَّه قالَ : (وددتُ أنِّي كنتُ خضراءَ تأكلُني الدَّوابُّ)[3] مخافةَ العذابِ .

وعن عمرَ رضيَ اللهُ عنه أنَّه سمعَ إنساناً يقرأُ : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ فقالَ : (ليتَها تمَّتْ)[4] .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢١) ، ومسلم (٢٣٥٩) عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه ، والحاكم (٤/ ٣٢٠) عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٣٣) من قول وهب مما قرأه في بعض الكتب .

(٣) أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (٥١) ، وابن أبي الدنيا في « المتمنين » (٩١) .

(٤) أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (٢٣٥) .

وقالَ أبو عبيدةَ ابنُ الجرَّاحِ رضيَ اللهُ عنه : (وددتُ أنِّي كبشٌ لأهلي ، فيتفرَّقُ لحمي ، ويُتَحسَّىٰ مرقي ، ولم أُخلَقْ)[1] .

وعن وهبِ بنِ منبِّهٍ قالَ : (خُلِقَ ٱبنُ آدمَ أحمقَ ، ولولا حمقُه .. ما هنأَه عيشٌ)[2] .

وعن الفضيلِ بنِ عياضٍ رحمَه اللهُ قالَ : (إنِّي لا أغبطُ ملَكاً مقرَّباً ، ولا نبيّاً مرسَلاً ، ولا عبداً صالحاً ، أليسَ هؤلاءِ يعاتَبونَ يومَ القيامةِ ؟ إنَّما أغبطُ من لم يُخلَقْ)[3] .

وعن عطاءٍ السَّليميِّ رحمَه اللهُ أنَّه قالَ : (لو أنَّ ناراً أُوقدتْ فقيلَ : من ألقىٰ نفسَه فيها صارَ لا شيءَ .. لَخشيتُ أن أموتَ من الفرحِ قبلَ أن أصلَ إلى النَّارِ)[4] .

فالأمرُ إذنْ ـ أيُّها الرَّجلُ ـ شديدٌ كما تقولُ ، بل هو أشدُّ وأعظمُ ممَّا تظنُّ وتتوهَّمُ ، ولـٰكنَّه أمرٌ سبقَ في العِلْمِ القديمِ ، وتدبيرٌ أجراه العزيزُ العليمُ ؛ فلا حيلةَ للعبدِ إلاَّ ببذلِ المجهودِ في العبوديَّةِ ، والاعتصامِ بحبلِ اللهِ ، والابتهالِ دائماً إلى اللهِ تعالى ، عسىٰ أن يرحمَه فيَسلمَ بفضلِه .

وأمَّا قولُك : كلُّ هـٰذا لماذا ؟

فهـٰذا كلامٌ يدلُّ منك علىٰ غفلةٍ عظيمةٍ ، بل الصَّوابُ أن تقولَ : كلُّ هـٰذا في جنبِ ما يطلبُه العبدُ الضَّعيفُ ماذا[5] ؟ أتدري ما يطلبُ العبدُ الضَّعيفُ ؟ أقلُّ ما يطلبُه على الجملةِ شيئانِ :

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في « المصنف » (١١/٣٠٧) ، وابن المبارك في « الزهد » (٢٤١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٥/ ٤٨٢) .

(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (١٠٣١) ، وابن أبي الدنيا في « العقل وفضله » (٩٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧/٢٠٨) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٩٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٨/٤٠٨) .

(٤) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢١٥) .

(٥) تقدير السؤال : كل هـٰذا الذي يطلبه العبد الضعيف من أجل أي شيء ؟

أحدُهما : السَّلامةُ في الدَّارينِ .

والثَّاني : المُلْكُ في الدَّارينِ .

أمَّا السَّلامةُ : فإنَّ الدُّنيا وفتنتَها وآفاتِها وغوائلَها بحيثُ لم يسلمْ منها الملائكةُ المقرَّبونَ ، فقد سمعتَ حديثَ هاروتَ وماروتَ[1] ، حتَّىٰ رُوِيَ : أنَّه إذا عُرجَ بروحِ العبدِ إلى السَّماءِ . . تقولُ ملائكةُ السَّماواتِ متعجِّبينَ : كيف نجا هٰذا من دارٍ فسدَ فيها خيارُنا ؟!

وإنَّ الآخرةَ في أهوالِها وشدائدِها بحيثُ تصرخُ فيها الأنبياءُ والرُّسلُ عليهم السَّلامُ : نفْسي نفْسي ، لا أسألُك اليومَ إلاَّ نفْسي ، حتَّىٰ رُوِيَ : (أنَّه لو كانَ للرَّجلِ عملُ سبعينَ نبيّاً . . لَظنَّ أنَّه لا ينجو)[2] .

فمن أرادَ أن يسلَمَ من فتنِ هٰذه الدُّنيا ، فيخرجَ منها بالإسلامِ سالماً لا تصيبُه فتنةٌ من أهوالِ هٰذه ، فيدخلَ الجنَّةَ سالماً لا تصيبُه نكبةٌ . . أيكونُ ذلك أمراً هيِّناً ؟!

وأمَّا المُلكُ والكرامةُ : فإنَّ المُلكَ نفاذُ التَّصرُّفِ والمشيئةِ ، وإنَّ ذلك بالحقيقةِ في الدُّنيا لأولياءِ اللهِ عزَّ وجلَّ وأصفيائِه ، الرَّاضينَ بقضائِه ، فالبَرُّ والبحرُ والأرضُ لهم قَدَمٌ ، والحَجَرُ والمدرُ لهم ذهبٌ وفضَّةٌ ، والجنُّ والإنسُ والبهائمُ والطُّيورُ لهم مسخَّرونَ ، لا يشاؤونَ شيئاً إلاَّ وهو كائنٌ لهم ؛ لأنَّهم لا يشاؤونَ[3] إلاَّ ما شاءَ اللهُ ، وما شاءَ اللهُ كائنٌ ، ولا يهابونَ أحداً من الخلقِ ويهابُهم كلُّ الخلقِ ، ولا يخدمونَ أحداً إلاَّ اللهَ ويخدمُهم كلُّ مَن دونَ اللهِ ، وأنَّىٰ لملوكِ الدُّنيا بعشرِ معشارِ هٰذه الرُّتبةِ ، بل هم أقلُّ وأذلُّ ؟!

وأمَّا مُلكُ الآخرةِ : فيقولُ اللهُ تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ ، وأعظمْ بما يقولُ فيه ربُّ العزَّةِ : إنَّه مُلكٌ كبيرٌ ! وأنت تعلمُ أنَّ الدُّنيا بأسرِها

---

(١) تقدم التعليق عليه (ص ٩٥) .

(٢) أخرجه الحاكم (٤/٥٨٩) ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٨/٩٣) من قول كعب الأحبار رحمه الله تعالىٰ مخاطباً به عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٣) في (أ) و(ب) : (يسألون) في الموضعين .

قليلةٌ ، وأنَّ بقاءَها من أوَّلِها إلىٰ آخرِها لقليلٌ ، ونصيبَ أحدِنا من هـٰذا القليلِ قليلٌ ، ثمَّ الواحدُ منَّا قد يبذُلُ مالَه وروحَه حتَّىٰ ربَّما يظفرُ بقدْرٍ قليلٍ من هـٰذا القليلِ في بقاءٍ قليلٍ ، وإن حصلَ له ذلك . . فيُعذَرُ ، بل يُغبَطُ[1] .

ولا يستكثرُ ما بذلَ فيه من المالِ والنَّفْسِ ، نحوُ ما ذُكِرَ عن ٱمرىءِ القيسِ حيثُ يقولُ : [من الطويل]

بكىٰ صاحبي لمَّا رأى الدَّربَ دونَه ... وأيقـنَ أنَّـا لاحقـانِ بقيصـرا
فقلـتُ لـه لا تبـكِ عينُـك إنَّمـا ... نحاولُ مُلكاً أو نموتَ فنُعذَرا[2]

فكيف حالُ من يطلبُ المُلكَ الكبيرَ في دارِ النَّعيمِ الخالدِ المقيمِ ؟! أيستكثرُ مع ذلك أن يصلِّيَ ركعتينِ للهِ تعالى ، أو ينفقَ درهمينِ ، أو يسهرَ ليلتينِ ؟ كلاَّ ، بل لو كانَ له ألفُ ألفِ نفْسٍ ، وألفُ ألفِ روحٍ ، وألفُ ألفِ عمرٍ ، كلُّ عمرٍ مثلُ عمرِ الدُّنيا وأكثرُ ، فبذلَ ذلك كلَّه في هـٰذا المطلوبِ العزيزِ . . لكانَ ذلك قليلاً ، ولئن ظفرَ بعدَه بما طلبَ . . كانَ ذلك غُنماً عظيماً ، وفضلاً من اللهِ الَّذي أعطاه كبيراً ، فتنبَّهْ أيُّها المسكينُ من رَقدةِ الغافلينَ .

ثمَّ إنِّي تأمَّلتُ ما يعطيه ٱللهُ تعالى العبدَ إذا أطاعَه ، ولزمَ خدمتَه ، وسلكَ هـٰذه الطَّريقَ عمرَه ، فوجدتُها على الجملةِ أربعينَ كرامةً وخِلعةً ، عشرونَ منها في الدُّنيا ، وعشرونَ في العقبى .

أمَّا الَّتي في الدُّنيا :

فالأولى : أن يذكرَه ٱللهُ سبحانَه ويثنيَ عليه ، وأكرمْ بعبدٍ يكونُ ربُّ العالمينَ يمنُّ عليه في ذكرِه وثنائِه !

والثَّانيةُ : أن يشكرَه جلَّ جلالُه ويعظِّمَه ، ولو شكرَك مخلوقٌ ضعيفٌ مثلُك وعظَّمَك . . لشَرُفتَ به ، فكيفَ بإلهِ الأوَّلينَ والآخرينَ ؟!

---

(١) قال الإمام الكديري رحمه الله تعالىٰ في « سراج الطالبين » (٢/٥٢٦) : (قال العلامة عبد الحق [صاحب كتاب « سراج السالكين علىٰ منهاج العابدين »] : وفي النسخ الصحيحة : « وإن حصل له . . فبعذاب ، بل بغبط ») .

(٢) انظر « ديوانه » (ص ٩٥) .

والثَّالثةُ : أن يحبَّه ، ولو أحبَّك رئيسُ محلَّةٍ ، أو أميرُ بلدةٍ . . لافتخرتَ بذلكَ ، وٱنتفعتَ به في مواطنَ عزيزةٍ ، فكيفَ بمحبَّةِ ربِّ العالمينَ ؟!

والرَّابعةُ : أن يكونَ له وكيلاً يدبِّرُ أمورَه .

والخامسةُ : أن يكونَ له برزقِه كفيلاً يوجِّهُه إليه من حالٍ إلىٰ حالٍ ، من غيرِ تعبٍ أو وبالٍ .

والسَّادسةُ : أن يكونَ له نصيراً يكفيه كلَّ عدوٍّ ، ويدفعُ عنه كلَّ قاصدٍ بسوءٍ .

والسَّابعةُ : أن يكونَ له أنيساً ، لا يستوحشُ بحالٍ ، ولا يخافُ التَّغييرَ والاِستبدالَ .

والثَّامنةُ : عزُّ النَّفسِ ، فلا يلحقُه ذلُّ خدمةِ الدُّنيا وأهلِها ، بل لا يرضىٰ أن تخدمَه ملوكُ الدُّنيا وجبابرتُها .

والتَّاسعةُ : رفعُ الهمَّةِ ، فيترفَّعُ عن التَّلطُّخِ بأقذارِ الدُّنيا وأهلِها ، ولا يلتفتُ إلىٰ زخارفِها وملاهيها ، ترفُّعَ الرِّجالِ الألبَّاءِ عن ملاعبِ الصِّبيانِ والنِّسوانِ .

والعاشرةُ : غنى القلبِ ، فيكونُ أغنىٰ من كلِّ غنيٍّ في الدُّنيا ، لا يزالُ طيِّبَ النَّفْسِ ، فسيحَ الصَّدرِ ، لا يُفزِعُه حدثٌ ، ولا يهمُّه عُدْمٌ .

والحاديةَ عشْرةَ : نورُ القلبِ ، فيهتدي بنورِ قلبِه إلىٰ علومٍ وأسرارٍ وحِكَمٍ لا يهتدي إلىٰ بعضِها غيرُه إلاَّ بجهدٍ جهيدٍ ، وعمرٍ مديدٍ .

والثَّانيةَ عشْرةَ : شرحُ الصَّدرِ ، فلا يضيقُ ذرعاً بشيءٍ من محنِ الدُّنيا ومصائبِها ، ومؤنِ النَّاسِ ومكايدِهم .

والثَّالثةَ عشْرةَ : المهابةُ والموقعُ في النُّفوسِ ، يحترمُه الأخيارُ والأشرارُ ، ويهابُه كلُّ فرعونٍ وجبَّارٍ .

والرَّابعةَ عشْرةَ : المحبَّةُ في القلوبِ ، يجعلُ له الرَّحمـٰنُ وُدّاً ، فترى القلوبَ كلَّها مجبولةً علىٰ حبِّه ، والنُّفوسَ كلَّها بأجمعِها مطبوعةً علىٰ تعظيمِه وإكرامِه .

والخامسةَ عشْرةَ : البركةُ العامَّةُ في كلِّ شيءٍ ؛ من كلامٍ أو نفَسٍ ، أو فعلٍ أو

ثوبٍ أو مكانٍ ، حتَّىٰ يُتبرَّكَ بترابِ وطئَه ، وبمكانٍ جلسَ فيه يوماً ، وبإنسانٍ صحبَه أو رآه حيناً .

والسَّادسةَ عشْرةَ : تسخيرُ الأرضِ من البرِّ والبحرِ ، حتَّىٰ إن شاءَ سارَ في الهواءِ ، أو مشىٰ على الماءِ ، أو قطعَ وجهَ الأرضِ بأقلَّ من ساعةٍ .

والسَّابعةَ عشْرةَ : تسخيرُ الحيوانِ من السِّباعِ والوحوشِ والهوامِّ وغيرِها ، فتجيبُه الوحوشُ ، وتبصبصُ له الأسودُ[1] .

والثَّامنةَ عشْرةَ : مِلْكُ مفاتيحِ الأرضِ ، فحيثُما يضربُ بيدِه .. فله كنزٌ إن أرادَ ، وحيثُما يضربُ برجلِه .. فله عينُ ماءٍ إنِ ٱحتاجَ ، وأينَما نزلَ .. فله مائدةٌ تحضرُه إن قصدَ .

والتَّاسعةَ عشْرةَ : القيادةُ والوجاهةُ علىٰ بابِ ربِّ العزَّةِ جلَّ جلالُه ، فيبتغي الخلقُ الوسيلةَ إلى ٱللهِ تعالىٰ بخدمتِه ، وتُستنجحُ الحاجاتُ من ٱللهِ تعالىٰ بوجاهتِه وبركتِه .

والعشرونَ : إجابةُ الدَّعوةِ من ٱللهِ ؛ فلا يسألُ اللهَ تعالىٰ شيئاً إلاَّ أعطاه ، ولا يشفعُ لأحدٍ إلاَّ شُفِّعَ ، ولو أقسمَ على ٱللهِ تعالى .. لأبرَّه بما شاءَ ، حتَّىٰ إنَّ منهم من لو أشارَ إلىٰ جبلٍ .. لزالَ من مكانِه ، فلا يحتاجُ إلى السُّؤالِ باللِّسانِ ، ولو خطرَ ببالِه شيءٌ .. لحضرَ ، فلا يحتاجُ إلى الإشارةِ باليدِ ، فهـٰذه كراماتٌ في الدُّنيا .

وأمَّا الَّتي في العقبى :

فالحاديةُ والعشرونَ : أن يهوِّنَ اللهُ عليه أوَّلاً سكراتِ الموتِ ، وهي الَّتي وجلتْ قلوبُ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم منها ، حتَّىٰ سألوا ٱللهَ تعالىٰ أن يهوِّنَها عليهم ، حتَّىٰ إنَّ منهم من يكونُ الموتُ عندَه مثلَ شربةِ الماءِ الزُّلالِ للظَّمآنِ ، قالَ ٱللهُ تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ .

---

(١) تبصبص له الأسود : تحرك أذنابها .

والثَّانيةُ والعشرونَ : التَّثبيتُ على المعرفةِ والإيمانِ ، وهو الَّذي منه كلُّ الخوفِ والفزعِ ، وعليه كلُّ البكاءِ والجزعِ ، قالَ عزَّ من قائلٍ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾ .

والثَّالثةُ والعشرونَ : إرسالُ الرَّوحِ والرَّيحانِ بالبشرىٰ والأمانِ[1] ؛ قولُه تعالى : ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ، فلا يخافُ ممَّا يقدَمُ عليه في العقبى ، ولا يحزنُ علىٰ ما خلَّفَه في الدُّنيا .

والرَّابعةُ والعشرونَ : الخلودُ في ٱلجنانِ ، ومجاورةُ الرَّحمـٰنِ .

والخامسةُ والعشرونَ : الحياةُ في السِّر لروحِه ، فيعرجُ علىٰ ملائكةِ السَّماواتِ بالإكرامِ والإلطافِ والإنعامِ ، ولبدنِه في العلانيةِ ؛ بتعظيمِ جنازتِه ، والمزاحمةِ على الصَّلاةِ عليه ، والمبادرةِ إلىٰ تجهيزِهِ ، يرجونَ بذلكَ أكثرَ ثوابٍ ، ويعدُّونَه أعظمَ غُنمٍ .

والسَّادسةُ والعشرونَ : الأمانُ من فتنةِ سؤالِ القبرِ ، وتلقينِ الصَّوابِ فيه ، فيأمنُ من ذلك الهولِ .

والسَّابعةُ والعشرونَ : توسيعُ القبرِ وتنويرُه ، فيكونُ في روضةٍ من رياضِ الجنَّةِ إلىٰ يومِ القيامةِ .

والثَّامنةُ والعشرونَ : إيناسُ رُوحِه ونسَمتِه وإكرامُها[2] ، فتُجعَلُ في أجوافِ طيرٍ خُضرٍ مع الإخوانِ الصَّالحينَ ، فرحينَ مستبشرينَ بما آتاهم ٱللهُ من فضلِه .

والتَّاسعةُ والعشرونَ : الحشرُ في العزِّ والكرامةِ ؛ من حُللٍ وتاجٍ وبُراقٍ .

والثَّلاثونَ : بياضُ الوجهِ ونورُه ، قالَ ٱللهُ تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

وقالَ : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۞ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ .

---

(١) الروح ـ بفتح الراء ـ : الرحمة ، أو الراحة ، وكلاهما وارد هنا . والريحان : الرزق الطيب .

(٢) النسم ـ بفتح السين ـ: نفَس الرُّوح .

والحاديةُ والثَّلاثونَ : الأمنُ من أهوالِ يومِ القيامةِ ، قالَ اللهُ تعالى : ﴿أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ .

والثَّانيةُ والثَّلاثونَ : الكتابُ باليمينِ ، ومنهم من كُفيَ الكتابَ رأساً .

والثَّالثةُ والثَّلاثونَ : تيسيرُ الحسابِ ، ومنهم من لا يحاسَبُ أصلاً .

والرَّابعةُ والثَّلاثونَ : ثِقلُ الميزانِ ، ومنهم من لا يوقَفُ للوزنِ أصلاً .

والخامسةُ والثَّلاثونَ : ورودُ الحوضِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ، فيشربُ شَربةً لا يظمأُ بعدَها أبداً .

والسَّادسةُ والثَّلاثونَ : جوازُ الصِّراطِ والنَّجاةُ من النَّارِ ، حتَّىٰ إنَّ منهم من لا يسمعُ حسيسَها وتُخمَدُ له النَّارُ .

والسَّابعةُ والثَّلاثونَ : الشَّفاعةُ في عرَصاتِ القيامةِ نحواً من شفاعةِ الأنبياءِ والرُّسلِ .

والثَّامنةُ والثَّلاثونَ : ملكُ الأبدِ في الجنَّةِ .

والتَّاسعةُ والثَّلاثونَ : الرِّضوانُ الأكبرُ .

والأربعونَ : لقاءُ ربِّ العالمينَ إلـٰهِ الأوَّلينَ والآخرينَ بلا كيفٍ جلَّ جلالُه .

ثمَّ أقولُ : وإنَّما عددتُ ذلك علىٰ حسَبِ فهمي ومبلغِ علمي في قصورِه ونقصِه ، ومع ذلك فقد أجملتُ وأوجزتُ ، وذكرتُ الأصولَ والجُملَ ، ولو فصَّلتُ بعضَ ذلك . . لمَا ٱحتملَه الكتابُ ، ألا ترىٰ أنِّي جعلتُ مُلكَ الأبدِ خِلعةً واحدةً، ولو فصَّلتُها . . لارتفعتْ علىٰ أربعينَ خِلعةً من نوعِ الحورِ والقصورِ واللِّباسِ وغيرِ ذلك ، ثمَّ كلُّ نوعٍ يشتملُ علىٰ تفاصيلَ لا يحيطُ بها إلاَّ عالمُ الغيبِ والشَّهادةِ الَّذي هو خالقُها ومالكُها ؟

وأيُّ مطمعٍ لنا في معرفةِ ذلك وربُّنا سبحانَه يقولُ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية ؟!

ثمَّ إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ : « خَلقَ فيها ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ »[1] .

وإنَّ المفسِّرينَ يقولونَ في قولِه تعالى : ﴿ لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى ﴾ : إنَّ هـٰذه هي الكلماتُ الَّتي يقولُها اللهُ تعالىٰ لأهلِ الجنَّةِ في الجنَّةِ باللُّطفِ والإكرامِ ، ومن تكونُ حالُه هـٰذه . . فأنَّىٰ يبلغُ جزءاً من ألفِ ألفِ جزءٍ منه وَهْمُ بشرٍ ؟! أو كيف يحيطُ به علمُ مخلوقٍ ؟! كلاَّ ، بل تقاعدَتِ الهممُ ، وتقاصرتْ دونَه العقولُ ، وحَقَّ أن يكونَ ذلك كذلكَ ، وهو عطاءُ العزيزِ العليمِ علىٰ مقتضى الفضلِ العظيمِ ، وحسَبِ الجودِ القديمِ ، ألا لمثلِ هـٰذا فليعملِ العاملونَ ، وليبذلِ المجتهدونَ جهدَهم لهـٰذا المطلوبِ العظيمِ ، وليعلموا أنَّ ذلك كلَّه لأقلُّ قليلٍ في جنبِ ما هم إليه محتاجونَ ، وإيَّاه يطلبونَ ، وله يتعرَّضونَ .

وليعلموا أنَّ العبدَ لا بدَّ له في الجملةِ من أربعةٍ : العلمُ ، والعملُ ، والإخلاصُ ، والخوفُ ، فيعلمُ أوَّلاً الطَّريقَ ، وإلاَّ . . فهو أعمى ، ثمَّ يعملُ بالعلمِ ، وإلاَّ . . فهو محجوبٌ ، ثمَّ يُخلصُ العملَ ، وإلاَّ . . فهو مغبونٌ ، ثمَّ لا يزالُ يخافُ ويحذرُ من الآفاتِ إلىٰ أن يجدَ الأمانَ ، وإلاَّ . . فهو مغرورٌ .

ولقد صدقَ ذو النُّونِ رحمَه اللهُ حيثُ قالَ : (الخلقُ كلُّهم موتىٰ إلاَّ العلماءَ ، والعلماءُ كلُّهم نيامٌ إلاَّ العاملينَ ، والعاملونَ كلُّهم مغترُّونَ إلاَّ المخلصينَ ، والمخلصونَ علىٰ خطرٍ عظيمٍ)[2] .

قلتُ أنا : والعَجبُ كلَّ العَجبِ من أربعةٍ :

أحدُها : من عاملٍ غيرِ عالمٍ ، أمَا يهتمُّ بمعرفةِ ما بينَ يديه ؟ أمَا يتعرَّفُ ما هو مطَّلعٌ بعدَ الموتِ عليه بالنَّظرِ في هـٰذه ٱلدَّلائلِ والعبرِ ، والاستماعِ إلىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت . . . » ، وبلفظه الطبراني في « الكبير » (١١/١٤٨) وفي « الأوسط » (٧٤٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٦٤٥٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧/٤٢٩) .

هٰذه الآياتِ والنُّذُرِ ، والانزعاج لهٰذه الخواطرِ والهواجسِ في النَّفسِ ؟ قالَ ٱللهُ تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ .

وقالَ تعالى : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

والثَّاني : من عالمٍ غيرِ عاملٍ ، أمَا يتذكَّرُ ما يعلمُ يقيناً ممَّا بينَ يديه من الأهوالِ العظامِ والعقباتِ الصِّعابِ ، وهٰذا هو النَّبأُ العظيمُ الَّذي أنتم عنه معرضونَ ؟

والثَّالثُ : من عاملٍ غيرِ مخلصٍ ، أمَا يتأمَّلُ قولَهُ تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ ؟

والرَّابعُ : من مخلصٍ غيرِ خائفٍ ، أمَا ينظرُ إلىٰ معاملاتِه جلَّ جلالُه مع أصفيائِه وأوليائِه وخدمِه الدَّالَّةِ بينَه وبينَ خلقِه ؟ حتَّىٰ يقولُ لأكرمِ الخلقِ عليه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ الآياتِ ونحوَها .

حتَّىٰ كانَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يقولُ : « شيَّبتني هودٌ وأخواتُها »[1] .

ثمَّ جملةُ الأمرِ وتفصيلُه ما قالَه ربُّ العالمينَ في أربعِ آياتٍ من الكتابِ العزيزِ :

قولُه عزَّ وجلَّ : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ .

ثمَّ قالَ جلَّ اسمُه : ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

وقالَ جلَّ من قائلٍ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .

ثمَّ أجملَ الكلَّ فقالَ وهو أصدقُ القائلينَ : ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٠٨) .

[خَاتِـمَة]

ونحنُ نستغفرُ ٱللهَ من كلِّ ما زلَّ به القدمُ ، أو طغىٰ به القلمُ ، ونستغفرُه من أقاويلِنا الَّتي لا توافقُ أعمالَنا ، ونستغفرُه من كلِّ ما ٱدَّعيناه وأظهرناه من العلمِ بدينِ اللهِ تعالى ، مع التَّقصيرِ فيه ، ونستغفرُه من كلِّ خَطْرةٍ دعتْنا إلىٰ تصنُّعٍ وتزيُّنٍ ؛ في كتابٍ سطَّرناه ، أو كلامٍ نظمناه ، أو علمٍ أفدناه ، ونسألُه أن يجعلَنا وإيَّاكم معشرَ الإخوانِ بما علمناه عاملينَ ، ولوجهِه به مريدينَ ، وألاَّ يجعلَه وبالاً علينا ، وأن يضعَه في ميزانِ الصَّالحاتِ إذا رُدَّتْ أعمالُنا إلينا ، إنَّه جوادٌ كريمٌ .

فهـٰذا ما أردنا أن نذكرَه في شرحِ كيفيَّةِ سلوكِ طريقِ الآخرةِ ، وقد وفَّينا بالمقصودِ ، والحمدُ للهِ الَّذي بنعمتِه تتمُّ الصَّالحاتُ ، وبفضلِه تُنزَّلُ البركاتُ ، وصلَّى اللهُ علىٰ خيرِ مولودٍ دعا إلىٰ أفضلِ معبودٍ ، محمَّدٍ النَّبيِّ المحمودِ ، وعلىٰ آلهِ وسلَّمَ تسليماً كثيراً إلىٰ يومِ الدِّينِ ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، والعاقبةُ للمتَّقينَ ، آمينَ آمينَ آمينَ[1] .

---

(١) جاء في خاتمة نسخة (أ) : (تم الكتاب بعون الله الكريم الوهاب ، وإليه المرجع والمآب ، وفرغ من زبره عشية الخميس ، لست عشرة خلت من شهر محرم الحرام ، الذي من شهور سنة ثلاث بعد تسع مئة من الهجرة النبوية ، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، علىٰ يد الفقير إلىٰ كرم الله تعالى ، عبد الله بن أبي بكر المكي الدوعني ، لطف الله به آمين آمين ، وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم) .

وفي خاتمة نسخة (ب) : (تم كتاب « منهاج العابدين » من تصنيف الإمام قطب الزمان ، حجة الإسلام ، أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، برَّد الله مضجعه ، وجعل صالح الأعمال معه ، وكان الفراغ من نساخته عشية يوم الثلوث ، شهر صفر الخير ، سنة « ١٢٤٧ » ، بأنامل العبد الفقير ، راجي عفو ربه ، أحمد بن عبد الرحمٰن بن أحمد بن الحسين بن عبد الله بن علوي الحداد ، وبتمامه يتم المقصود ، آمين آمين) .

هـٰذا . . وقد كان الفراغ من الاعتناء بهـٰذا الكتاب المبارك بتوفيق من الله سبحانه وتعالىٰ صباح يوم الخميس (١٧) صفر (١٤٢٧هـ) الموافق لـ (١٦) آذار مارس (٢٠٠٦م) بدمشق الشام المحروسة حماها الله وجميع بلاد المسلمين ، علىٰ يد الفقير بوجمعة عبد القادر مكري ، وصلَّى الله علىٰ سيدنا وحبيبنا محمد ، وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم ، والحمد لله رب العالمين .

أهمّ مصادر ومراجع التّحقيق[1]

- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ، للإمام السيد محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- الآحاد والمثاني ، للإمام الحافظ أحمد بن عمرو بن الضحاك الشيباني (ت ٢٨٧ هـ) ، تحقيق الدكتور باسم الجوابرة ، ط١ ، (١٩٩١ م) ، دار الراية ، السعودية .
- الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، للإمام الحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي (ت ٦٤٣ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الملك عبد الله دهيش ، ط٤ ، (٢٠٠١ هـ) ، دار خضر ، لبنان .
- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان المسمى « المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها » ، للإمام الحافظ علي بن بَلبان الفارسي المصري (ت ٧٣٩ هـ) ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، ط٣ ، (١٩٩٧ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- إحياء علوم الدين ، لحجة الإسلام محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) ، بدون تحقيق ، (١٩٨٢ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .

(١) اعتمدنا في فهرسة المصادر على التالي : اسم الكتاب ، اسم المؤلف وتاريخ وفاته ، اسم المحقق ، سنة طبع الكتاب ، اسم الدار الناشرة ومقرها .

ـ الأدب المفرد ، لإمام الدنيا الحافظ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت ٢٥٦ هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط٤ ، (١٩٩٧ م) ، نسخة مصورة لدى دار البشائر الإسلامية عن طبعة المكتبة السلفية ، لبنان .

ـ الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ، تأليف الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة ، ط٤ ، (١٤٠٨ هـ) ، مكتبة السنة ، مصر .

ـ الإصابة في تمييز الصحابة ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتاب العربي ، لبنان .

ـ الأغاني ، للعلامة علي بن الحسين الأصبهاني (ت ٣٥٦ هـ) ، تحقيق علي مهنا وسمير جابر ، بدون تاريخ ، دار الفكر ، لبنان .

ـ الإنتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ، للإمام الحافظ يوسف بن عبد الله النمري المعروف بابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) ، بدون تحقيق ، بدون تاريخ ، لبنان .

ـ البحر الزخار المعروف بمسند البزار ، للإمام الحافظ أحمد بن عمرو البزار (ت ٢٩٢ هـ) ، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمـٰن زين الله ، ط١ ، (١٩٨٨ م) ، مكتبة العلوم والحكم ، السعودية .

ـ بداية الهداية ، لحجة الإسلام محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) ، عني به محمد غسان نصوح عزقول وفريقه ، ط١ ، (٢٠٠٤ م) ، دار المنهاج ، السعودية .

ـ بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس ، للإمام الحافظ يوسف بن عبد الله النمري المعروف بابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، بدون تاريخ ، لبنان .

ـ البيان والتبيين ، للإمام عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط٧ ، (١٩٩٨ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

ـ تاريخ أصبهان ، للإمام الحافظ أحمد بن عبد الله المعروف بأبي نُعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠ هـ) ، تحقيق سيد كسروي حسن ، ط١ ، (١٩٩٠ م) ، لبنان .

- تاريخ الطبري = تاريخ الأمم والملوك ، للإمام العلامة محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة بدون ناشر ، لبنان .

- تاريخ بغداد ، للإمام الحافظ أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، ط١ ، (١٩٩٧ م) ، لبنان .

- تاريخ جرجان ، للإمام حمزة بن يوسف الجرجاني (ت ٣٤٥ هـ) ، تحقيق محمد عبد المعين خان ، ط٣ ، (١٩٨١ م) ، عالم الكتب ، لبنان .

- تاريخ مدينة دمشق ، للإمام الحافظ علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) ، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة العمروي ، ط١ ، (١٩٩٥ م) ، دار الفكر ، لبنان .

- تبصير المنتبه بتحرير المشتبه ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد علي النجار ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدى المكتبة العلمية ، لبنان .

- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ، للإمام الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت ٦٥٦ هـ) ، تحقيق محيي الدين مستو وسمير العطار ويوسف بديوي ، ط ٣ ، (١٩٩٩ م) ، دار ابن كثير ، سورية .

- تفسير ابن أبي حاتم ، للإمام الحافظ عبد الرحمـٰن بن محمد الرازي المعروف بابن أبي حاتم (ت ٣٢٧ هـ) ، تحقيق أسعد محمد الطيب ، بدون تاريخ ، المكتبة العصرية ، لبنان .

- تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، للإمام العلامة محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) ، عني به مكتب التحقيق والإعداد العلمي في دار الأعلام ، ط١ ، (٢٠٠٢ م) ، دار ابن حزم ودار الأعلام ، لبنان والأردن .

- تفسير القرآن العظيم ، للإمام الحافظ إسماعيل بن عمر الدمشقي المعروف بابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) ، تصحيح مجموعة من العلماء ، (١٩٦٩ م) ، طبعة مصورة لدى دار المعرفة ، لبنان .

- تفسير عبد الرزاق ، للإمام الحافظ عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١ هـ) ، تحقيق الدكتور مصطفى مسلم محمد ، ط١ ، (١٤١٠ هـ) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

- التهجد وقيام الليل ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مصلح بن جزاء بن فدغوش الحارثي ، ط٢ ، (٢٠٠٠ م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

- التواضع والخمول ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٢٨١ هـ) ، عني به محمد عبد القادر عطا ، ط ١ ، (١٩٨٩م) ، لبنان.

- جامع بيان العلم وفضله ، للإمام الحافظ يوسف بن عبد الله النمري المعروف بابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق أبو الأشبال الزهيري ، ط١ ، (١٩٩٤ م) ، دار ابن الجوزي ، السعودية .

- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، للإمام الحافظ أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد عجاج الخطيب ، ط١ ، (١٩٩١ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- الجامع لشعب الإيمان ، للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ، ط٢ ، (٢٠٠٤ م) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، للإمام الحافظ أحمد بن عبد الله المعروف بأبي نُعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠ هـ) ، ط٥ ، (١٩٨٧م) ، دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي ، مصر ولبنان .

- الحيوان ، للعلامة الأديب عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط١ ، (١٩٩٦ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الجيل ، لبنان .

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، للإمام الحافظ عبد الرحمـٰن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ) ، بدون تحقيق، (٢٠٠٢ م) ، دار الفكر ، لبنان .

- ديوان ابن الجهم ، للشاعر الأديب علي بن الجَهْم بن بدر السامي (ت ٢٤٩ هـ) ، تحقيق خليل مردم بك ، ط٣ ، (١٩٩٦ م) ، دار صادر ، لبنان .
- ديوان ابن المعتز ، للشاعر الخليفة عبد الله بن محمد المعتز بالله العباسي (ت ٢٩٦ هـ) ، قدم له الدكتور عمر فاروق الطباع ، بدون تاريخ ، دار الأرقم بن أبي الأرقم ، لبنان .
- ديوان أبي العتاهية ، إسماعيل بن القاسم بن سويد (ت ٢١٠ هـ) ، ط١ ، (١٩٩٨م) ، دار صادر ، لبنان .
- ديوان أبي نواس ، الحسن بن هانيء (ت ١٩٥ هـ) ، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ، بدون تاريخ ، دار الكتاب العربي ، لبنان .
- ديوان العباس بن الأحنف ، العباس بن الأحنف (ت ١٩٢ هـ) ، (١٩٧٨ م) ، دار صادر ، لبنان .
- ديوان محمود الوراق ، محمود بن الحسن الوراق (ت ٢٢١ هـ) ، تحقيق الدكتور وليد القصاب ، ط١ ، (١٩٩١ م) ، مؤسسة الفنون ، الإمارات العربية .
- الرسالة القشيرية في علم التصوف ، للإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري (ت ٤٦٥ هـ) ، (١٩٨٧ م) ، دار أسامة ، لبنان .
- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، للإمام محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤ هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ومحمد عبد الرزاق حمزة ومحمد حامد الفقي ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة ، لبنان .
- الزهد الكبير ، للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الشيخ عامر أحمد حيدر ، ط٣ ، (١٩٩٦ م) ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان .
- الزهد والرقائق برواية المروزي ويليه زيادات رواية نُعيم بن حمّاد عليه ، للإمام الحافظ عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي (ت ١٨١ هـ) ، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي ، ط ١ ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة ، لبنان .
- الزهد، للإمام الحافظ أحمد بن عمرو المعروف بابن أبي عاصم (ت ٢٨٧ هـ) ، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، ط٢، (١٤٠٨ هـ)، دار الريان للتراث ، مصر .

- الزهد ، للإمام الحافظ أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١ هـ) ، عني به محمد عبد السلام شاهين ، ط١ ، (١٩٩٩ م) ، لبنان .
- سراج الطالبين شرح منهاج العابدين ، الشيخ محمد دحلان الكديري ، (١٣٥١ هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الفكر ، لبنان .
- السنة ، للإمام أحمد بن محمد الخلال البغدادي الحنبلي (ت ٣١١ هـ) ، تحقيق عطيّة الزهراني ، ط١ ، (١٤١٠ هـ) ، دار الراية ، السعودية .
- السنة ، للإمام الحافظ أحمد بن عمرو المعروف بابن أبي عاصم (ت ٢٨٧ هـ) ، بدون تحقيق ، ط١ ، (٢٠٠٤ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .
- سنن ابن ماجه ، للإمام الحافظ محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ ، (١٩٥٤ م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .
- سنن أبي داوود وبهامشه معالم السنن للخطابي ، للإمام الحافظ أبي داوود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ) ، تحقيق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد ، ط١ ، (١٩٩٧ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .
- سنن الترمذي = الجامع الصحيح ، للإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) ، تحقيق أحمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة ، ط١ ، (١٩٣٨ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .
- سنن الدارقطني وبذيله التعليق المغني على الدارقطني ، للإمام الحافظ علي بن عمر الدارقطني (ت ٣٨٥ هـ) ، عني به عبد الله هاشم يماني ، ط١ ، (١٩٦٦ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .
- السنن الكبرى وبذيله الجوهر النقي لابن التركماني ، للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) ، بعناية اللجنة العلمية للدار ، ط١ ، (١٣٥٦ هـ) ، طبعة مصورة عن دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدّكّن لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .
- السنن الكبرى ، للإمام الحافظ أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣ هـ) ، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي ، ط١ ، (٢٠٠١ هـ) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- سير أعلام النبلاء ، للإمام الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) ، إشراف شعيب الأرنؤوط ، ط١١ ، (١٩٩٦ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، للإمام العلامة هبة الله بن الحسن اللالكائي (ت ٤١٨ هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد سعد الغامدي ، ط٩ ، (٢٠٠٥ م) ، دار طيبة ، السعودية .
- شرح صحيح مسلم المسمى «المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج» ، للإمام الحافظ يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ) ، بدون تحقيق ، (١٣٤٩ هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ مكتبة الغزالي ، سورية .
- الشكر « محذوف الأسانيد » ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٢٨١ هـ) ، عني به أحمد محمد طاحون ، بدون تاريخ ، السعودية .
- صحيح ابن خزيمة المسمى « مختصر المختصر من المسند الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم » ، للإمام الحافظ محمد بن إسحاق بن خزيمة (ت ٣١١هـ) ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي ، ط٣ ، (٢٠٠٣ م) ، المكتب الإسلامي ، لبنان .
- صحيح البخاري المسمىٰ «الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسننه وأيامه» (الطبعة السلطانية العثمانية) ، لإمام الدنيا الحافظ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت ٢٥٦ هـ) ، عني به الدكتور محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط١ ، (١٤٢٢هـ) ، دار طوق النجاة ، لبنان .
- صحيح مسلم = الجامع الصحيح ، للإمام الحافظ مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط١ ، (١٩٥٤ م) ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي ، مصر .

- الصمت وآداب اللسان ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق أبو إسحاق الحويني ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ) ، دار الكتاب العربي ، لبنان .
- طبقات الشافعية الكبرىٰ ، للإمام تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (ت ٧٧١ هـ) ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود محمد الطناحي ، بدون تاريخ ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء الكتب العربية ، مصر .
- طبقات الصوفية ، للإمام أبي عبد الرحمـٰن محمد بن الحسين السلمي (ت ٤١٢ هـ) ، تحقيق نور الدين شريبه ، ط ٢ ، (١٩٨٦ م) ، دار الكتاب النفيس ، سورية .
- الطبقات الكبرىٰ = طبقات ابن سعد ، للإمام محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ٢٣٠ هـ) ، تقديم الدكتور إحسان عباس ، بدون تاريخ ، دار صادر ، لبنان.
- عجالة الإملاء المتيسرة من التذنيب على ما وقع للحافظ المنذري من الوهم وغيره في كتابه الترغيب والترهيب ، للإمام الحافظ إبراهيم بن محمد الناجي (ت ٩٠٠ هـ) ، تحقيق حسين بن عكاشة ، ط١ ، (١٩٩٨ م) ، مكتبة الصحابة ، الإمارات العربية المتحدة .
- العظمة ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد الأصبهاني (ت ٣٦٩ هـ) ، عني به رضاء الله المباركفوري ، ط١ ، (١٤٠٨ هـ) ، دار العاصمة ، السعودية .
- العقد الفريد ، للعلامة الأديب أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ) ، تحقيق أحمد الأمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري ، ط٢ ، (١٩٤٠ م) ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر .
- العقل وفضله ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق لطفي محمد الصغير ، ط١ ، (١٤٠٩ هـ) ، دار الراية ، السعودية .
- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية ، للإمام الحافظ عبد الرحمـٰن بن علي المعروف بابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، تحقيق خليل الميس، ط١، (١٤٠٣ هـ)، لبنان .

ـ عمل اليوم والليلة، الحافظ أحمد بن محمد الدينوري الشهير بابن السني (ت٣٦٤ هـ)، تحقيق بشير محمد عيون ، ط٣ ، (١٩٩٤ م) ، مكتبة دار البيان ، سورية .

ـ عيون الأخبار ، للإمام القاضي عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة الدِّينَوَري (ت ٢٧٦ هـ) ، تحقيق ثلة من أهل العلم ، ط١ ، (١٩٣٠ م) ، دار الكتب المصرية ، مصر .

ـ الفرج بعد الشدة ، للإمام القاضي المحسّن بن علي التنوخي (ت ٣٨٤ هـ) ، تحقيق عبود الشالجي ، بدون تاريخ ، دار صادر ، لبنان .

ـ الفردوس بمأثور الخطاب ، للإمام الحافظ شيرويه بن شهردار الديلمي (ت ٥٠٩ هـ) ، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول ، ط١ ، (١٩٨٦ م) ، لبنان .

ـ الفوائد ، للإمام الحافظ تمام بن محمد الرازي (ت ٤١٤ هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط١ ، (١٤١٢ هـ) ، مكتبة الرشد ، السعودية .

ـ الكامل في ضعفاء الرجال ، للإمام الحافظ عبد الله بن عدي الجرجاني (ت ٣٦٥ هـ) ، تحقيق الدكتور سهيل زكار ويحيىٰ مختار غزاوي ، ط٣ ، (١٩٨٨ م) ، دار الفكر ، لبنان .

ـ الكامل ، للإمام محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد أحمد الدالي ، ط١ ، (١٩٩٧ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، للعلامة المحدث إسماعيل بن محمد العجلوني (ت ١١٦٢ هـ) ، بدون تحقيق ، ط ٣ ، (١٣٥١ هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

ـ لسان الميزان ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) ، عني به الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، ط١ ، (٢٠٠٢ م) ، دار البشائر الإسلامية ، لبنان .

ـ المتمنين ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط١ ، (١٩٩٧ م) ، دار ابن حزم ، لبنان .

- المجروحين من المحدثين ، للإمام محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤ هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط١ ، (٢٠٠٠ م) ، دار الصميعي ، السعودية .
- مجمع الأمثال ، للعلامة أحمد بن محمد بن أحمد الميداني (ت ٥١٨ هـ) ، تحقيق الدكتور جان عبد الله توما ، ط١ ، (٢٠٠٢ م) ، دار صادر ، لبنان .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للإمام الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧ هـ) ، بدون تحقيق ، (١٩٨٦ م) ، طبعة مصورة لدىٰ مكتبة المعارف ، لبنان .
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، للإمام العلامة عبد الله بن أسعد اليافعي (ت ٧٦٨ هـ) ، ط٢ ، (١٩٩٣ م) ، دار الكتاب الإسلامي ، مصر .
- المستدرك على الصحيحين وبذيله تلخيص المستدرك للحافظ الذهبي ، للإمام الحافظ محمد بن عبد الله بن حمدويه النيسابوري المعروف بالحاكم (ت ٤٠٥ هـ) ، بدون تحقيق ، ط١ ، (١٣٣٥ هـ) ، نسخة مصورة لدىٰ دار المعرفة عن طبعة دائرة المعارف النظامية في الهند بحيدر آباد الدّكّن ، لبنان .
- مسند إبراهيم بن أدهم ، للإمام الحافظ محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده (ت ٣٩٥ هـ) ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ، بدون تاريخ ، مكتبة القرآن ، مصر .
- مسند ابن الجعد ، للإمام الحافظ علي بن الجعد (ت ٢٣٠ هـ) ، عني به عامر حيدر ، ط ١ ، (١٩٩٠ م) ، مؤسسة نادر ، لبنان .
- مسند أبي داوود الطيالسي ، للإمام الحافظ سليمان بن داوود بن الجارود المعروف بأبي داوود الطيالسي (ت ٢٠٤ هـ) ، ط١ ، (١٣٢١ هـ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .
- مسند أبي يعلى الموصلي ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن المثنى المعروف بأبي يعلى الموصلي (ت ٣٠٧ هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ، ط٢ ، (١٩٨٩ م) ، دار المأمون للتراث ودار الثقافة العربية ، سورية .

- مسند الإمام أحمد ابن حنبل ، للإمام الحافظ أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١ هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرنؤوط ، ط١ ، (١٩٩٥ هـ) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي ، للإمام الحافظ عبد الله بن عبد الرحمٰن الدارمي (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق حسين سليم أسد الداراني ،ط١، (٢٠٠٠م) ، دار المغني ، السعودية .

- مسند الروياني ، للإمام الحافظ محمد بن هارون الروياني (ت ٣٠٧ هـ) ، عني به أيمن علي أبو يماني ، ط١ ، (١٤١٦ هـ) ، مؤسسة قرطبة ، مصر .

- مسند الشاميين ، للإمام الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط١ ، (١٩٨٩ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- مسند الشهاب المسمى « شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب » ، للإمام القاضي محمد بن سلامة القُضاعي (ت ٤٥٤ هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط١ ، (١٩٨٥ م) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

- مسند عبد بن حميد ، للإمام الحافظ عبد بن حميد بن نصر الكَشي (ت ٢٤٩ هـ) ، عني به صبحي البدري السامرائي ومحمود خليل الصعيدي ، ط١ ، (١٩٨٨ م) ، مكتبة السنة ، مصر .

- مصنف ابن أبي شيبة في الأحاديث والآثار ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (ت ٢٣٥ هـ) ، بإشراف سعيد محمد اللحام ، ط١ ، (١٩٩٤ م) ، دار الفكر ، لبنان .

- المصنف ومعه الجامع للإمام معمر الأزدي ، للإمام الحافظ عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١ هـ) ، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي ، ط٢ ، (١٩٨٣ م) ، المجلس العلمي بالتعاون مع المكتب الإسلامي ، لبنان .

- مطمح الأنفس ، للعلامة الفتح بن محمد بن خاقان (ت ٥٢٩ هـ) ، تحقيق محمد علي شوابكة ، ط١ ، (١٤٠٣ هـ) ، مؤسسة الرسالة ، لبنان .

ـ معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، للعلامة الأديب ياقوت بن عبد الله الحَمَوي (ت ٦٢٦ هـ) ، قدم له الدكتور عمر فاروق الطباع ، ط١ ، (١٩٩٩ م) ، مؤسسة المعارف ، لبنان .

ـ المعجم الأوسط ، للإمام الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود الطحان، ط١ ، (١٩٨٥ م)، مكتبة المعارف ، السعودية .

ـ المعجم الكبير ومعه الأحاديث الطوال ، للإمام الحافظ سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط٢ ، بدون تاريخ ، دار إحياء التراث العربي ، لبنان .

ـ المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، للإمام الحافظ محمد بن عبد الرحمـٰن السخاوي (ت ٩٠٢ هـ) ، عني به عبد الله محمد الصديق الغُماري وعبد الوهاب عبد اللطيف ، ط٢ ، (١٩٩١ م) ، مكتبة الخانجي ، مصر .

ـ مناقب الشافعي ، للإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق أحمد صقر ، بدون تاريخ ، دار التراث ، مصر .

ـ الموضوعات ، للإمام الحافظ عبد الرحمـٰن بن علي المعروف بابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) ، عني به توفيق حمدان ، ط١ ، (١٩٩٥ م) ، لبنان .

ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، للإمام الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط١ ، (١٩٦٣ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، لبنان .

ـ نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الملقب بسلوة العارفين وبستان الموحدين ، للإمام الحافظ محمد بن علي المعروف بالحكيم الترمذي (ت ٣١٨ هـ) ، تحقيق عبد الحميد الدرويش ، ط١ ، (٢٠٠٤ م) ، نشره محققه ، سورية .

ـ الوافي بالوفيات ، للعلامة خليل بن أيبك الصفدي ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط٢ ، (١٩٩١ م) ، دار فرانز شتاينر ، ألمانيا .

ـ الوجل والتوثق بالعمل ، للإمام الحافظ عبد الله بن محمد القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق مشهور آل سلمان ، ط١ ، (١٩٩٧م) ، دار الوطن ، السعودية .

ـ الورع ، للإمام الحافظ أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١ هـ) ، عني به الدكتورة زينب إبراهيم القاروط ، ط١ ، (١٩٨٣ م) ، لبنان .

ـ الوسيط في تفسير القرآن المجيد ، للعلامة علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨ هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد صيرة والدكتور أحمد الجمل ، ط١ ، (١٩٩٤ م) ، لبنان .

* * *



مُحتوى الكتاب

❊ ❊ ❊

منهاج العابدين
إلى جنة رب العالمين

يقول مؤلفه رحمه الله : (فابتهلت إلى من بيده الخلق أن يوفقني لتصنيف كتابٍ يقع عليه الإجماع ، ويحصل بقراءته الانتفاع ؛ فأجابني إلى ذلك الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، وأَطلعني بفضله على أسرار ذلك ، وألهمني فيه ترتيباً عجيباً لم أذكره في المصنفات التي تقدمت في أسرار معاملات الدين) .

وقال رحمه الله أيضاً : (ومقصود هذا الكتاب أني سألت الله تعالىٰ أن يطلعني على سر معالجة النفس ، وأن يصلحني ويصلح بي) .

وبالله التوفيق

